

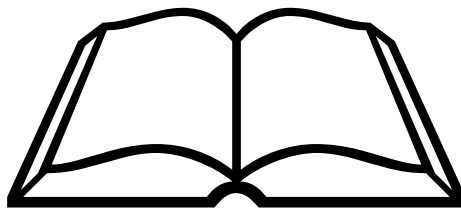
الوجيز في شرح كتاب

التوحيد

(الجزء الأول)

آخر نسخة ١٤٤٧ هـ

عبدالله بن محمد الجهني



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بالكمال ، المتصف بالجمال والجلال .

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ند له ، ولا كفؤ له ، ولا سمي له .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله .

صلّ اللهم عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وسلّم تسليمًا مزيداً .

أما بعد :

فهذا شرح لكتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، نذكر فيه أهم المسائل المتعلقة بالأبواب ، مع التعرّيج لتفسير الآيات ، وشرح الأحاديث الواردة فيه ، والوقوف على محل الشاهد ، دون إسهاب وتطويل .

ويعتبر هذا الكتاب من كتب الإسلام الجليّة ، وذاك أن موضوعه في أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق ، وهو توحيد الله عز وجل ، كما أنه من أكثر كتب الإسلام انتشاراً وعناية من قبل العلماء ، فقد كثرت الشروح والخواشي عليه ، وحرص العلماء على حفظه وتدريسه من زمن الشيخ إلى عصرنا هذا^(١).

وقد سُمّت هذا الشرح بـ (الوجيز في شرح كتاب التوحيد) .

والله أسأل أن يجعل أعمالنا له خالصة ، وأن يسدّدنا في القول والعمل ، وصل اللهم ، وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين .

(١) ومن أشهر هذه الشروح : (تيسير العزيز الحميد) للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب حفيد الشيخ ، وهو أول شرح لكتاب التوحيد ، كما صرح بذلك مصنفه ، ولكنه قُتل على يد جنود الباشا قبل أن يكمله ، بقي عليه ستة أبواب ، حيث وصل إلى باب التصوير ، ثم أكمله الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب ، حفيد الشيخ أيضاً في كتابه (فتح المجيد) الذي يعتبر اختصاراً لكتاب (تيسير العزيز الحميد) مع بعض الإضافات ، ومن الشروح أيضاً كتاب (قرة عيون الموحدين) للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب ، وكذلك حاشية الشيخ ابن قاسم على كتاب التوحيد ، والتي تعتبر اختصاراً لكتاب (تيسير العزيز الحميد ، وفتح المجيد) ، وكتاب (القول السديد) للشيخ السعدي ، وهو شرح مختصر ونافع جداً ، وكتاب (القول المفيد) لشيخنا ابن عثيمين ، وهناك شروح كثيرة جداً ، هذه أشهرها .

قبل الشروع في شرح هذا الكتاب المفيد يحسن أن نتكلم عن عدة أمور متعلقة به , وهي :
وقت تصنيف الكتاب :

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن صاحب كتاب (فتح المجيد) : وقد صنف في البصرة كتاب التوحيد , الذي شهد له بفضله بتصنيفه^(١) القريب والبعيد , أخذه من الكتب التي في مدارس البصرة من كتب الحديث .
وذكر ابن غنام أنه ألفه في حرملاء لما رجع من العراق .
ويمكن أن يكون الشيخ جمع مادة الكتاب من الكتب المتوفرة في البصرة , ثم أتم تصنيفه في حرملاء , والله أعلم .
ميزات هذا الكتاب :

تميز هذا الكتاب بعدة مزايا , منها :

- أ. براعة التصنيف , ويظهر ذلك في حُسن التبويب , والربط بين الأبواب .
- ب. التركيز على أدلة الكتاب والسنة , فلا يكاد يخرج عن آية , أو حديث , إلا في النادر من ذكر كلام لأهل العلم .
وفي هذا بيان لبركة علم الكتاب والسنة , وأنه ما من علم يحتاجه العباد إلا هو موجود في الكتاب والسنة .
وفيه أيضاً الرد على المخالفين لدعوة الشيخ رحمه الله , إذ أن الشيخ يعتمد فيما يقوله على الكتاب والسنة الصحيحة , خلافاً لكتب أهل البدع التي يكثر فيها تمجيد العقل , وتقديمه على الشرع .

(١) هكذا نص العبارة في الدرر السنية .

محتويات الكتاب :

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة ، وستة وستون باباً ، يتكلم فيها المصنف عن مسائل التوحيد ، ويركز على توحيد الألوهية ، لأهمية هذا النوع من التوحيد ، ولأن الخلل أكثر ما كان في عصره في هذا النوع من التوحيد .

والمدقق لترتيب أبواب الكتاب يعلم أن المصنف له فقه خاص في هذا الترتيب ، فنجد أنه يجمع الأبواب المشتركة في المعنى والحكم في ترادف واضح .

ويمكن أن نجمل مواضيع الكتاب بالتالي :

المقدمة ، وفيها بيان حقيقة التوحيد ، وهو ما اشتمل على الإثبات والنفي ، وبيان أهميته ، وحكمه .

ثم خمسة أبواب مقدمة يتحدث فيها عن فضل التوحيد ، ووجوب الخوف من الشرك ، ووجوب الدعاء إليه ، وبيان شيء من لوازمه .

ثم ثلاثة أبواب في أفراد الشرك الأصغر العملية (التعلق بالأسباب الباطلة) .

ثم خمسة أبواب في أفراد الشرك الأكبر ، باستثناء (باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله) فقد ذكره استطراداً بعد باب الذبح .

ثم ثلاثة أبواب في إبطال عبادة غير الله .

ثم ذكر باب (إنك لا تهدي من أحببت) وكأنه يقول : مع وضوح المحجة إلا أن كثيراً من الناس يخفى عليه الحق ، والمهتدي من هداه الله .

ثم ثلاثة أبواب في بيان أسباب ووسائل الوقوع في الشرك .

ثم ذكر باباً يبين فيه أن النبي ﷺ لم يقصر في بيان التوحيد ، والتحذير من الشرك ووسائله .

ثم ذكر باباً يبين فيه أن الشرك سيقع في هذه الأمة ، مع كل هذا التحذير والحرص من النبي ﷺ ، فالتقصير من المكلفين لا من المبلغ ﷺ .

ثم سبعة أبواب في السحر والكهانة والتنجيم والتطير .

ثم سبعة أبواب في أعمال القلوب ، وكيف يقع الشرك فيها .

ثم بابين في شيء من لوازم التوحيد .

ثم ستة وعشرون باباً في تعظيم جناب الربوبية ، والقوادح التي تقدح أو تخدش فيه .

ثم ذكر باباً في حماية النبي ﷺ جناب التوحيد .

ثم ذكر الباب الأخير في تعظيم الله تعالى ، وأن العباد لم يقدره حق قدره سبحانه وتعالى .

وينبه أنه ينبغي الرجوع للمسائل التي وضعها المصنف في خاتمة كل باب لمعرفة مقصود المصنف من النصوص المذكورة .

وينبه أيضاً أن بعض الشراح قد يتكلف في ربط الأبواب بعضها ببعض ، وترتيب ذلك ، وينص أن هذا مقصود المصنف ، وهذا الصنيع يحصل في كثير من شروحات الكتب ، فمثلاً نجد شراح البخاري منهم من ينص على أنه يقصد كذا ، والآخر ينص أنه يقصد كذا ، وربما لم يعن للبخاري هذا القول ولا ذاك .

تعريف التوحيد , وبيان أنواعه :

التوحيد لغة : مصدر وحد يوحد توحيداً .

وشرعاً : يعرف باعتبارين :

١ . باعتبار المعنى العام : وهو أفراد الله بما يستحقه من الربوبية , والألوهية , والأسماء والصفات .

٢ . باعتبار أنواعه :

أ. توحيد الربوبية : وهو أفراد الله بأفعاله , كالخلق , والتدبير , والإحياء , والإماتة , وغيرها من أفعال الرب سبحانه .

وهذا النوع من التوحيد مستقر في فطر بني آدم , ولهذا كان الإنكار فيه قليل , حتى الكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا يقولون بهذا النوع من التوحيد في الجملة , ولهذا كانت طريقة القرآن في تقريره لتوحيد الألوهية تنطلق في كثير من الأحيان بتقريرهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية , بمعنى : إذا كنتم تقولون أنه لا يخلق , ولا يرزق , ولا يدبر إلا الله , فلماذا تصرفون العبادة لغيره ؟! فإذا كان الله واحد في أفعاله فوحده بأفعالكم .

ب. توحيد الألوهية أو توحيد العبادة : وهو أفراد الله بالعبادة , كالصلاة , والدعاء , والخوف , والرجاء , وغيرها من العبادات . وهذا التوحيد هو معنى (لا إله إلا الله)^(١) وهو الذي من أجله أرسلت الرسل , وأنزلت الكتب , قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

ج. توحيد الأسماء والصفات : وهو أفراد الله بما يستحقه من الأسماء والصفات على ما يليق بجلاله وعظمته , من غير تحريف , ولا تعطيل , ومن غير تكييف , ولا تمثيل .

فكل ما ثبت لله من اسم أو صفة في الكتاب أو السنة فإنها تثبت لله على الحقيقة دون تعطيل لها , ولا تمثيل بالمخلوقين .

وبعض أهل العلم يقسم التوحيد إلى قسمين , وهما :

أ. توحيد المعرفة والإثبات . ب. توحيد الطلب والقصد .

والحق أنه لا خلاف بين التقسيمين , ولكن الأقرب والأضبط أن يقال : يقسم التوحيد باعتبارين , وهما :

١ . باعتبار ما يجب على الموحد , ويطلب منه , هو قسمان :

أ. توحيد المعرفة والإثبات , وهذا يشمل توحيد الربوبية , والأسماء والصفات .

ب. توحيد الطلب والقصد (توجيه الإرادة والقصد , وإخلاص العبادة لله) وهذا هو توحيد الألوهية .

أو يقال : توحيد عملي , وتوحيد علمي اعتقادي .

فالتوحيد العلمي الاعتقادي هو : الاقرار بأن الله هو الخالق , المدبر , المالك الموصوف بصفات الكمال , ونعوت الجلال . والتوحيد العملي هو ثمرة هذا الاعتقاد بحيث تصرف له جميع العبادات وحده .

٢ . باعتبار متعلق التوحيد , وينقسم إلى ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية , وتوحيد الألوهية , وتوحيد الأسماء والصفات .

(١) ذكر الشيخ محمد بن إبراهيم أن هذا التوحيد هو مدلول كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) مطابقة , وإن كانت قد دلت على توحيد الربوبية والأسماء والصفات بطريق التضمن .

كِتَابُ التَّوْحِيدِ^(١)

وقول الله تعالى^(٢): {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} الآية.

وقوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} الآية.

وقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الآية^(٣).

وقوله: {قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الآيات.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: {قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} ، إِلَى قَوْلِهِ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} الآية.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ ، فَقَالَ لِي : ((يَا مُعَاذُ ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟)) . قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ((حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : ((لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا)) . أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

(١) الطباعات المنتشرة اليوم لكتاب التوحيد لم تُذكر فيها البسملة ولا غيرها ، لكن قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله في فتح المجيد : ووقع لي نسخه بخطه - يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب - بدأ فيها بالبسملة ، وثني بالحمدلة ، والصلاة على النبي ﷺ أ.هـ.

ولا شك أن الشيخ لم يضع لهذا الكتاب مقدمة من قوله كعادة المؤلفين ، واختلف الشراح في سبب ذلك على عدة أقوال ، والذي يظهر أن الأمر ليس فيه غرابة ، فهذه عادة الشيخ في غالب مصنفاته ، بل إن أشهر المصنفات في التراث الإسلامي لم يجعل لها أصحابها مقدمات ، ومن ذلك موطأ مالك ، ومسند أحمد ، وصحيح البخاري ، وغيرها .

قال ابن حجر فيمن انتقد الإمام البخاري في عدم وضعه خطبة بين يدي كتابه : وقد اعترض على المصنف لكونه لم يفتح الكتاب بخطبة تنبيء عن مقصوده ، مفتتحة بالحمد ، والشهادة وكان قائل هذا ما رأى تصانيف الأئمة من شيوخ البخاري وشيوخه وأهل عصره ، كمالك في الموطأ ، وعبد الرزاق في المصنف ، وأحمد في المسند ، وأبي داود في السنن ، إلى ما لا يحصى ممن لم يقدم في ابتداء تصنيفه خطبة ولم يزد على التسمية وهم الأكثر ، والقليل منهم من افتتح كتابه بخطبة .

(٢) يجوز في (وقول الله تعالى) وجهان : الرفع : على الابتداء ، والجرح : عطفاً على (التوحيد) ، والمعنى (هذا كتاب التوحيد ، وكتاب قول الله تعالى) .

لكن إن ابتدأنا بالرفع فعلينا أن نرفع البقية ، وإن ابتدأنا بالجرح فعلينا أن نجر البقية ، لأنها معطوفة عليها .

(٣) قال في تيسير العزيز الحميد : هكذا ثبت في نسخة بخط شيخنا ، ولم يذكر (الآية) أ.هـ. وفي بعض النسخ : (الآية) .

وفي تيسير العزيز الحميد ذكر آية الأنعام أولاً ، ثم ذكر هذه الآية ، ثم كلام ابن مسعود .

قال في فتح المجيد : وهذه الآية التي تسمى آية الحقوق العشرة ، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام ، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام ، ليكون ذكره بعدها أنسب .

هذه النصوص مقدمة للكتاب : وخلاصتها : بيان معنى توحيد العبادة , وحكمه , وأهميته .

وهذه المقدمة لا تعد من أبواب الكتاب - كما سبق بيانه - بل وضعها الشيخ مقدمة لكتابه , وبين فيها حقيقة ما يريد أن يتكلم عنه , وحكمه , وأهميته .

فأما حقيقة توحيد العبادة ومعناه فهو ما اشتمل على الإثبات والنفي , إثبات العبادة لله وحده , ونفيها عن كل ما سواه .
وأما حكمه فهو أوجب الواجبات .

وأما أهميته فهو الغاية من خلق الثقلين , وهو الذي أرسلت لأجله الرسل , وأنزلت من أجله الكتاب , وهو الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به .

قال الشيخ ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد : وكأن المصنف قال : كتاب التوحيد الذي هو الحكمة في إيجاد الثقلين , كما في الآية الأولى , والذي هو الحكمة في إرسال الرسل , كما في الآية الثانية , والذي هو أوجب الواجبات , كما في الآية الثالثة , والرابعة , والخامسة , والذي ضده هو الشرك أعظم المحرمات , كما في الآية الخامسة , والذي هو حق الرب على العباد , الذي افترضه عليهم , ولا يقبل منهم سواه , كما في حديث معاذ بن جبل , والذي حقيقته وتفسيره (عبادة الله وحده لا شريك له) كما في الآية الرابعة , وحديث معاذ أ.هـ

وقفات مع أدلة المقدمة

وقول الله تعالى : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

في هذه الآية بيان أن الغاية من خلق الجن والإنس هي عبادة الله وحده ، وهذا هو التوحيد .
وسبق في شرح الأصول الثلاثة أن الشيخ فسر العبادة في هذه الآية بالتوحيد ، فقال : ومعنى يعبدون : يوحّدون .
ووجه هذا التفسير بينه الشيخ في مسائل هذه المقدمة بقوله : العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه .
ويقصد الشيخ أن الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم إنما كانت في إفراد الله بالعبادة ، وهذا هو التوحيد ، فالمخالفون للرسول كانوا يعبدون الله لكنهم لما توجهوا لغيره لم تنفعهم تلك العبادة ولم تُقبل منهم ، وهذا ما أكدّه الشيخ بقوله في مسائل المقدمة : أن من لم يأت به لم يعبد الله ، ففيه معنى قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أ.هـ فجعل عبادة الكفار لله لا معنى لها ، لأنهم لم يفرّدوه بها .
وعليه يقال : العبادة لا تقبل إلا بالتوحيد ، فمن عبد الله وعبد غيره فعمله حابط وعبادته مردودة ، كما قال تعالى لخاصة عباده (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقال تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكنن من الخاسرين * بل الله فاعبد) أي : وحده .
وخلاصة الأمر أن الآية دالة على أهمية التوحيد وأنه الغاية الشرعية من خلق الجن والإنس ^(١) .

وقوله : {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} الآية.

في هذه الآية بيان أن الله تعالى لم يترك أمة بلا بلاغ ولا رسول يدعوها إلى التوحيد ، بل أخبر سبحانه أن جميع الرسل دعوا أممهم إلى إفراد الله بالعبادة ، ونبتذ عبادة الطاغوت ، وهذه هي حقيقة التوحيد .
وفي ترتيب الآيتين والبدء بهما دليل على فقه المصنف رحمه الله ، حيث ذكر الآية الأولى ليقف القارئ على أهمية الأمر الذي سيتكلم عنه ، وأنه هو الغاية من إيجادهم وخلقهم ، وإذا كان كذلك وجب أن يصرف جهده ووقته في فهمه ، ثم أردف بهذه الآية ليبين أن هذه الغاية العظيمة لم تترك بدون بيان ، بل جميع الرسل دعوا أقوامهم إليها ، وبينوها لهم غاية البيان .

(١) وهذه الغاية قد تحصل من البعض ولا تحصل من البعض الآخر ، وليست غاية كونية لا بد من وقوعها ، ولذا نرى من يكفر بالله ويشرك به .
قال ابن تيمية : قوله (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) فهو لم يرسله إلا ليطاع ، ثم قد يطاع وقد يعصى ، وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة ، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون ، ومثل هذا كثير في القرآن يبين أنه فعل ما فعل ليكرهه ، وليعدلوا ولا يظلموا ، وليعلموا ما هو متصف به وغيره مما أمر الله به العباد ، وأحبه لهم ، ورضيه منهم ، وفيه سعادتهم ، وكما لهم ، وصلاحتهم ، وفلاحهم إذا فعلوه ، ثم منهم من يفعل ذلك ومنهم من لا يفعله ، وهو سبحانه لم يقل إنه فعل الأول ليفعل هو الثاني ولا ليفعل بهم الثاني ، فلم يذكر أنه خلقهم ليجعلهم هم عابدين..... ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني ، فيكونون هم الفاعلين له ، فيحصل بفعلهم سعادتهم ، وما يحبه ، ويرضاه لهم ، فيحصل ما يحبه هو ، وما يحبونه هم أ.هـ .
وقد ذكر العلماء أن لام التعليل على قسمين :
١ . لام تعليل غاية : وتسمى أيضاً لام الحكمة ، وهي أن يكون ما بعدها مطلوباً ، لكن قد يكون وقد لا يكون ، كما تقول : برئت القلم لأكتب . ثم قد تكتب وقد لا تكتب .
ومنه هذه الآية ، وكذا قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) .
٢ . لام تعليل علة : وتسمى العلة الموجبة ، وهذه تكون سابقة للمعلول ، وملازمة له ، والمعلول مبني عليها ، كما تقول : انكسر الزجاج لشدة الحر .

وقوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} الآية.

في هذه الآية الأمر بتوحيد الله تعالى - حيث أن معنى قضى هنا : أمر^(١) - فدل على وجوب التوحيد ، كما فيها بيان لحقيقة التوحيد (ألا تعبدوا إلا إياه) فاشتمل على ركني التوحيد : الإثبات والنفي ، فلا بد أن تُخلص العبادة لله وحده .

قال ابن القيم : طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات ، فينفي عبادة ما سوى الله ، ويثبت عبادته ، وهذا هو حقيقة التوحيد ، والنفي المحض ليس بتوحيد ، وكذلك الإثبات بدون النفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات ، وهذا حقيقة (لا إله إلا الله) .

وقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الآية.

هذه الآية تسمى (آية الحقوق العشرة) حيث ذكر الله فيها عشرة حقوق ، وهي : وجوب عبادة الله وحده وعدم الإشراك به ، والإحسان إلى الوالدين ، وذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وملك اليمين .

والشاهد : أن الله أمر بعبادته وحده ، وهذا هو التوحيد ، وجعل حقه أول الحقوق ، فدل على أنه أهمها ، وأوجبها ، وهو كذلك . وهنا في الآية عمومان :

أ. عموم في الشرك (ولا تشركوا به) سواء كان شركاً أكبر أم أصغر ، جلياً أم خفياً .

ب. عموم في المشرك به (شيئاً) سواء كان نبياً ، أو ولياً ، أو حجراً ، أو شجراً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو غير ذلك .

وقوله: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الآيات.

هذه الآيات تسمى (الوصايا العشر) حيث ذكر الله فيها عشرة أمور ، وهي : النهي عن الشرك ، والإحسان إلى الوالدين ، وعدم قتل الأولاد ، والنهي عن الفواحش بأنواعها ، والنهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والنهي عن أكل مال اليتيم ، والوفاء بالكيل ، والوزن بالقسط ، والوفاء بعهد الله ، والعدل .

والشاهد : أن الله نهى عن الإشراك به ، وهذا يتضمن إفراده بالعبادة ، وجعل أول هذه الوصايا : النهي عن الشرك ، وهذا دليل على أنه أهم المذكورات ، وهو كذلك .

ومن لطائف ما ذكر أن أول أمر في القرآن من حيث ترتيب المصحف - لا من حيث النزول - هو الأمر بالتوحيد في قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وأول نهى في القرآن هو النهي عن الشرك في الآية نفسها (فلا تجعلوا لله أنداداً) .

(١) والمراد بالقضاء هنا القضاء الشرعي لا الكوني ، ومن القضاء الكوني قوله تعالى (فقضاهن سبع سموات) وقوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً) .

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ - صلى الله عليه وسلم - الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } ، إِلَى قَوْلِهِ : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ } الآية .

تخرجه : أثر ابن مسعود لم يعزه المصنف ، وقد رواه الترمذي وحسنه ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان . ولفظه عند الترمذي : من سره أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هؤلاء الآيات ... ومناسبة تقديم أثر ابن مسعود على حديث معاذ ، لأن له تعلقاً بالآية السابقة . وهذا الأثر مختلف في ثبوته ، ولكن على فرض صحته اختلف العلماء في توجيه هذا الكلام ، لأنه من المعلوم أن النبي ﷺ لم يوص بشيء كتابة .

وأقرب ما قيل فيه - والله أعلم - ما جاء في الصحيحين عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس قال : لما حضر النبي ﷺ قال : وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، قال : هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ، قال عمر : إن النبي ﷺ غلبه الوجع ، وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله ، واختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغط - وفي رواية : اللغو - والاختلاف عند النبي ﷺ قال : قوموا عني ، قال عبيد الله : فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ، ولغظهم .

فعندها ذكرهم ابن مسعود أن عندهم من القرآن ما يكفيهم ، فإنه ﷺ لو وصى لم يوص إلا بما في كتاب الله . وهذا من فقه ابن مسعود حيث إن هذه الآيات الثلاث كلها ختمت بقوله تعالى (ذلكم وصاكم به) والله أعلم .

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ ، فَقَالَ لِي : ((يَا مُعَاذُ ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟)) . قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ((حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟ قَالَ : ((لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا)) . أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : قوله (حق الله على العباد : أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً) وهذا هو التوحيد ، وجعله النبي ﷺ حقاً وواجباً على العباد جميعاً ، وهو كذلك .

وقوله ﷺ (وحق العباد على الله) هذا الحق لم يوجبه أحد على الله ، بل هو حق كتبه الله على نفسه تفضلاً ، وتكرماً ، وإحساناً ، وهو مستحق لا محالة ، قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) .

قال ابن تيمية : كون المطيع يستحق الجزاء ، فهو استحقاق إنعام وفضل من الله ، ليس استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق أ.هـ

وما أحسن ما قيل : ما للعباد عليه حق واجب
كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذِبُوا فبعده ، أو نُعِمُوا
بفضله ، وهو الكريم الواسع

مسألة : كيف يخبر معاذ بهذا الحديث ، وقد قال له النبي ﷺ (لا تبشروهم) ؟!

قال ابن حجر : دل هذا على أن النهي للتبشير ليس على التحريم ، وإلا لما أخبر به أصلاً ، أو أنه ظهر له أن المنع إنما هو من الإخبار عموماً ، فبادر قبل موته فأخبر بها خاصاً من الناس .

وللعلماء عدة أقوال ، والله أعلم بالصواب .

وأذكر أني سألت شيخنا ابن عثيمين : لماذا يستأذن معاذ النبي ﷺ في تبليغ هذا الحديث ، مع أن الأصل في العلم أن يبلغ ؟ فلا أذكر ما قال لي ، ولكن يظهر أن معاذاً خشي أن يتكل الناس عليها ، وهذا من فقهه رضي الله عنه ، وهو شبيه بفعل عمر في قصته مع أبي هريرة حينما أعطاه النبي ﷺ نعليه ، وقال له : اذهب بنعلي هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله ، مستيقناً بما قلبه ، فبشره بالجنة ، فكان أول من لقي عمر بن الخطاب فقال له : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقال : هاتان نعلان رسول الله ﷺ بعثني بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بما قلبه ، بشرته بالجنة ، قال أبو هريرة : فضرب عمر بيده بين ثديي ، فخررت لاسي (يعني : مقعدتي) فقال : ارجع يا أبا هريرة ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاء ، وركبني عمر فإذا هو على أثرى ، فقال لي رسول الله ﷺ : ما لك يا أبا هريرة؟ قلت : لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثني به ، فضرب بين ثديي ضربة خرت لاسي ، قال : ارجع ، فقال له رسول الله ﷺ : يا عمر ما حملك على ما فعلت؟ قال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بما قلبه بشره بالجنة؟ قال : نعم ، قال : فلا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها ، فخلهم يعملون ، قال رسول الله ﷺ : فخلهم . رواه مسلم .

مسألة : اختلف أهل العلم في جواز قول (الله ورسوله أعلم) بعد وفاة النبي ﷺ ، فذهب بعضهم إلى جواز ذلك ، ويظهر أنه اختيار المصنف ، لقوله في مسائل هذه المقدمة : قول المسؤول عما لا يعلم (الله ورسوله أعلم) ، وذهب بعضهم إلى أنه لا يقال ذلك بعد وفاته ﷺ بل يقال (الله أعلم) ، وفرق بعضهم بين ما إذا كان المسؤول عنه أمراً شرعياً أو كونياً ، فأجازوا الأول ، ومنعوا من الثاني ، وهذا اختيار شيخنا ابن عثيمين .

والأقرب أن يقال في ذلك (الله أعلم) لأنه لم ينقل عن الصحابة أنهم قالوا بعد وفاته ﷺ (الله ورسوله أعلم) بل جاء عنهم (الله أعلم) كما في قول ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله اعلم . متفق عليه . وكذا ورد عن غيره ، وهذا اختيار ابن باز .

وفي هذا الحديث فوائد ومسائل ، منها :

- ١ . تواضع النبي ﷺ حيث كان يركب الحمار ، ويردف خلفه ، وهذا الحمار جاء عند البخاري أن اسمه (عُفِير) .
وقيل : إن المقوقس أهدها للنبي ﷺ ، ومات هذا الحمار في حجة الوداع .
- ٢ . استحباب البشارة ، لما فيها من إدخال السرور على نفس المسلم ، وهو من المطالب الشرعية العالية .
- ٣ . جواز كتمان العلم إن خيف من إظهاره فتنة ، أو سوء فهم .
جاء عن الإمام مالك : لا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع . رواه مسلم
وبوب البخاري في صحيحه : باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا .
وذكر أثر علي رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله .
وعند مسلم عن ابن مسعود قال : ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .
وقال الذهبي : يجوز كتمان بعض الأحاديث التي تحرك الفتن .
- وقيل : إن الحسن البصري لأم أنس بن مالك حين حدث الحجاج بحديث العرنين .
- ٤ . فقه معاذ رضي الله عنه ، حيث قال (أفلا أبشر الناس) .
- ٥ . أدب معاذ رضي الله عنه ، وحسن تعلمه ، ويظهر ذلك في عدة أمور :
أ . لما قال له ﷺ (يا معاذ بن جبل) وكرر عليه هذا النداء ثلاث مرات ، ومعاذ يقول (لبيك يا رسول الله ، وسعديك) ويسكت ، كما في روايات الصحيحين الأخرى ، ولم يبادر النبي ﷺ بالكلام ، أو يستعجله .
ب . قوله عندما ناداه النبي ﷺ (لبيك وسعديك) وهذا أرفع أدباً من قول : نعم .
ج . قوله (الله ورسوله أعلم) وهذا أرفع أدباً من قول : لا .
د . إبداء رأيه على صفة المشاور والمسترشد (أفلا أبشرهم) ولم يقل : سأبشر الناس .

١ - بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ ^(١)

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} الآية.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحُ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» أخرجاه.

وَهُمَا فِي حَدِيثِ عَثْبَانَ - رضي الله عنه - : «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا، قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». رواه ابنُ حبانَ، والحاكمُ وصححه.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَنُهُ عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرُكَ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

(١) قوله (وما يكفر من الذنوب) يجوز في (ما) وجهان :

١ . أن تكون موصولة : فيكون المعنى : والذي يكفر من الذنوب .

٢ . أن تكون مصدرية : فيكون المعنى : وتكفيره الذنوب . وهذا أولى وأشمل .

قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : وهذا - يعني أن تكون مصدرية - أرجح ، لأن الأول يوهم أن تم ذنوب لا يكفرها التوحيد ، وليس بمراد .

١ - بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

الباب الأول

وخلاصته : ذكر شيء من فضائل التوحيد .

وقد ذكر المصنف بعض النصوص الدالة على فضل التوحيد , ومن ذلك :

١ . أنه يحصل لصاحبه الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة , كما في الآية .

٢ . أنه يوجب لصاحبه دخول الجنة , كما في حديث عبادة .

٣ . أنه يحرم على صاحبه الخلود في النار , كما في حديث عتبان .

٤ . أنه يثقل ميزان العبد يوم القيامة , لأنه أفضل الأعمال وأزكاها , كما في حديث أبي سعيد .

٥ . أنه من أعظم الأسباب في تكفير الذنوب , كما في حديث أنس .

وفضائل التوحيد كثيرة جداً في الدنيا والآخرة , قال السعدي رحمه الله : وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة , والفضائل

المتنوعة مثل التوحيد , فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفوائده . ثم ذكر بعض فضائله .

ولعلنا نذكر بعض هذه الفضائل التي ذكرها الشيخ السعدي رحمه الله ونضيف عليها :

١ . أنه يمنع صاحبه من **الخلود** في النار وإن كان في قلبه منه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل , كما في الحديث الصحيح .

٢ . أنه يمنع صاحبه **دخول** النار إذاكمل في قلبه , بل ربما منع صاحبه حتى الحساب إذا حصل تحقيقه كما في الباب اللاحق .

٣ . أنه يوجب لصاحبه دخول الجنة , إما ابتداءً , وإما مآلاً .

٤ . أنه يوجب شفاعة النبي ﷺ للعبد , كما في حديث أبي هريرة حينما سأل النبي ﷺ : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من

قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه . رواه البخاري .

٥ . أنه إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققاً كاملاً بالإخلاص التام فإنه يصير القليل من عمله كثيراً , وتضاعف أعماله وأقواله بغير

حصر ولا حساب .

٦ . أن جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها , وفي كمالها , وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد , فكلما قوي

التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت .

٧ . أنه يحصل لصاحبه الهدى والأمن في الدنيا والآخرة , كما يأتي .

٨ . أنه يسلي العبد عند المصائب والنوازل , لما يحتسب عند الله من الأجر , والرضا بالقدر , ويخفف عن العبد المكروه ويهون عليه

الآلام , فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكروه والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة .

٩ . أنه سبب لتفريج الكربات في الدنيا والآخرة , قال ابن القيم : ما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد , ولذلك كان دعاء الكرب

بالتوحيد , ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته بالتوحيد , فلا يُلقى في الكرب العظيم إلا الشرك , ولا

ينجي منها إلا التوحيد , فهو مفرج الخليقة , وملجؤها , وحصنها , وغياثها .

١٠. أنه من أعظم الأسباب لصلاح القلب وطمأنينته .

يقول ابن تيمية : ولا أنفع للقلب من التوحيد , وإخلاص الدين لله , ولا أضر عليه من الإشراك .

١١. ومن أعظم فضائله : أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم , وخوفهم , ورجائهم , والعمل لأجلهم , وهذا هو العز الحقيقي , والشرف العالي .

ويكون مع ذلك متأهلاً متعبداً لله , لا يرجو سواه , ولا يخشى إلا إياه , ولا ينيب إلا إليه , وبذلك يتم فلاحه , ويتحقق نجاحه .

١٢. أن الله يدفع عن الموحدين شرور الدنيا والآخرة , ويمن عليهم بالحياة الطيبة , والطمأنينة إليه , والطمأنينة بذكره .

وهذه بعض فضائل التوحيد , وفضائل التوحيد لا تحصى , ينال الإنسان منها بقدر توحيده , كلما كان توحيده أكثر حصل له من فضائله أكثر , والله المستعان .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} الآية.

في هذه الآية بيان شيء من فضائل التوحيد ، وهو حصول الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة .
 الأمن النفسي والحياة الطيبة في الدنيا ، والأمن من الفزع يوم القيامة ، كما قال تعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) والأمن في جنات النعيم ، كما قال تعالى (وهم في الغرفات آمنون) .
 وكذا الاهتداء والاستقامة على الحق في الدنيا ، والاهتداء إلى منازلهم في الجنان .
 قال ابن كثير في تفسير الآية : هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون في الدنيا والآخرة .
 والمراد بالظلم في قوله تعالى (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الشرك ، لأن الصحابة رضي الله عنهم لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟ - يعني بالمعاصي - فقال رسول الله ﷺ : ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه (يا بُني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) رواه البخاري .
 وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين) .
 قال النووي : ومن جعل العبادة لغير الله تعالى فهو أظلم الظالمين .
 فمن جاء بالتوحيد التام حصل له الأمن والاهتداء التام ، ومن تلبس مع توحيده بالمعاصي نقص في حقه من الأمن والاهتداء بقدر ما ارتكب من معاصي ، لأنه من المعلوم أن طائفة من الموحدين سينالهم نوع خوف وعذاب ، كأهل الكبائر^(١) .

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى : فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام والاهتداء التام ، ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقاً ، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى ، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه ، وليس مراد النبي ﷺ بقوله (إنما هو الشرك) أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام ، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم ، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة ، وقول النبي ﷺ (إنما هو الشرك) إن أراد به الشرك الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة ، وهو مهتد إلى ذلك ، وإن كان مراده جنس الشرك فيقال : ظلم العبد نفسه كيخله - لحب المال - ببعض الواجب هو شرك أصغر ، ووجه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك ، فهذا صاحبه قد فاتته من الأمن والاهتداء بحسبه ، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار أ.هـ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» أخرجاه.

تخرجه : متفق عليه , واللفظ للبخاري .

والشاهد : أن من فضائل التوحيد أنه يوجب لصاحبه دخول الجنة , وفي البخاري (من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء) وفي مسلم (من أي أبواب الجنة الثمانية شاء) وهذا الدخول نوعان :

أ. إن كان توحيد تاماً دخل الجنة ابتداءً .

ب. إن كان توحيد ناقصاً دخل الجنة بعد أن يتطهر من الذنوب بالنار ، أو بالمكفرات الأخرى .

ومعنى قوله ﷺ (على ما كان من العمل) أي : العمل السيئ وإن كان كثيراً أو شنيعاً .

وقيل : المراد بالعمل : العمل الصالح وإن كان قليلاً . ولا منافاة .

والمراد أن من جاء بالتوحيد فهو مستحق لدخول الجنة , وهذا من فضائل التوحيد .

مسألة : قال تعالى في سورة النساء عن عيسى عليه السلام (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) وقال ﷺ في هذا الحديث : وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ .

والمعنى أن عيسى خلق وكان بكلمة الله (كن) لا أنه هو كلمة الله , لأن كلام الله من صفاته عز وجل .

فكلمة (كن) ألقاها جبريل إلى مريم فكان عيسى عليه السلام , فعيسى كان بـ (كن) وليس هو (كن) فهو عليه السلام بالكلمة تكوّن , بخلاف سائر البشر , وهذه هي آيته , قال تعالى (ولنجعلك آية للناس) .

والله أضاف الكلمة إليه لأنها من صفاته , قال ابن تيمية : فإن المسيح سمي كلمة الله , لأن الله خلقه بكلمته .

قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية : بالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له (كن) فكان عيسى بـ (كن) وليس عيسى هو (كن) , ولكن بـ (كن) كان , فـ (كن) من الله تعالى قوله , وليس (كن) مخلوقاً , وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى .

وأما قوله (وروح منه) فالمراد أن عيسى عليه السلام من الأرواح التي خلقها الله , فبعد أن تكون عيسى بكلمة (كن) نفخت فيه الروح المخلوقة التي خلقها الله , وليس المعنى أن عيسى من روح الله , وأنه جزء منه , كما تدعي النصارى , كما قال تعالى في حق آدم (ونفخت فيه من روحي) .

وهذا كقوله تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) فالسموات والأرض من الله خلقاً , لا جزء منه بإجماع الملل , فكذلك روح آدم وعيسى عليهما السلام من الله خلقاً وإيجاداً , لا جزء من الله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) .

وعليه فعيسى عليه السلام كغيره من البشر , إلا أن الله جعل في خلقه آية , إذ أنه ولد من أم بلا أب , كما قال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فإذا كنتم تعجبون من خلق عيسى من أم بلا أب , فآدم أولى بالعجب , لأن الله خلقه من تراب .

وَهُمَا فِي حَدِيثِ عَتَبَانَ - رضي الله عنه - : «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» .

تخریجه : حديث عتبان في الصحيحين في قصة طويلة .

والشاهد : أن من فضائل التوحيد أنه يحرم على صاحبه النار ، وهذا التحريم نوعان :

- ١ . تحريم دخول : فمن حقق التوحيد حرم الله عليه دخول النار ابتداء .
 - ٢ . تحريم تأييد : فمن جاء بأصل التوحيد مع كثرة الذنوب ربما أدخله الله النار ، لكن لا يخلد فيها لحسنة التوحيد .
- فلا يبقى في النار من قال لا إله إلا الله بشروطها .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ : «قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ : قُلْ يَا مُوسَى : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ : يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا، قَالَ : يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِحِينٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» . رواه ابن حبان ، والحاكم وصححه .

تخریجه : رواه النسائي في السنن الكبرى ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وصححه سننه ابن حجر ، وضعفه الألباني^(١) .

والشاهد : أن من فضائل كلمة التوحيد أنها ترجح بالسموات السبع وعامرهن غير الله ، والأرضين السبع وعامرهن ، وأنها أفضل الذكر والدعاء ، كما في سنن الترمذي : أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي (لا إله إلا الله) حسنه الألباني .

وقول موسى عليه السلام (كل عبادك يقولون هذا) ليس مراده التقليل من شأن هذه الكلمة ، بل يريد أن يخصه الله بشيء دون غيره ، وقد جاء ذلك مصرحاً ، كما في سنن النسائي الكبرى (قال موسى : يا رب ، كل عبادك يقول هذا ، قال : قل (لا إله إلا الله) قال : لا إله إلا أنت ، إنما أريد شيئاً تخصني به) .

وفي هذا الحديث دليل على أن أعظم كلمة هي (لا إله إلا الله) لأن موسى أراد أخص منها ، فأخبر أنه لا أخص منها .

قال في تيسير العزيز الحميد : فيه أن الذاكر بها يقولها كلها ، ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة ، ولا يقول أيضاً (هو) كما يقوله غلاة جهالم ، فإذا أرادوا الدعاء ، قالوا : يا (هو) ، فإن ذلك بدعة وضلالة ، وقد صنف جهالم في المسألتين ، وصنف ابن عربي كتاباً سماه كتاب (الهو) .

لطيفة : قال الشيخ ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد : وهي أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولاً ، فإن أحرفها كلها جوفية ، ليس فيها حرف شفوي ، فيمكن قائلها أن يقولها من غير فتح فمه ، وهو أسلم وأبعد عن الرياء ، وكونها جوفية أيضاً إشارة إلى أنها تخرج من القلب ، وأحرفها مهملة فتنبئ عن التجرد من كل معبود سوى الله .

(١) وللحديث شاهد عند أحمد ، والبخاري في الأدب المفرد ، والحاكم : عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : أَمَرَكَ بِلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، رجحت بمن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن كحلقة مبهمة ، قصمتهن لا إله إلا الله .

وللترمذي وحسنه عن أنس - رضي الله عنه - : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةً » .

تخرجه : رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وقال ابن رجب : إسناده لا بأس به ، وحسنه الألباني .
وهذا الحديث ذكر المصنف آخره ، وأول الحديث قوله ﷺ : قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة .
والجملة التي اقتصر عليها المصنف هنا لها شاهد من حديث أبي ذر عند مسلم ، قال ﷺ : يقول الله عز وجل : ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة .

والشاهد : بيان فضل التوحيد ، وعظيم منزلته ، حيث تغفر به الذنوب الكثيرة .
وهذا الحديث كحديث البطاقة فيه شيء من الإشكال^(١) ، فلو أخذ بعمومه لما عُذِبَ أحد من المسلمين ، لأن كل ذنب سيغفر ، وهذا مخالف للنصوص المثبتة للعذاب لأهل التوحيد ، ودخول طائفة منهم النار بلا تخليد ، فدل على أن المغفرة بهذا الإطلاق ليست لكل الموحدين^(٢) .

والذي يظهر أن هذا في حق التائب المقبل على الله ، فكل ذنوبه ساقطة بكلمة التوحيد ، كما قال تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وكما في قوله ﷺ لعمر بن العاص : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله . رواه مسلم

قال الشيخ ابن باز رحمه الله : ووجه العلماء هذا الحديث بوجهين :

- أ. أن هذا في حق من قالها صادقاً مخلصاً لم يصّر على سيئة ، فأحكم هذه الكلمة حتى صار مؤدياً لجميع الواجبات ، تاركاً لجميع المنهيات ، مستقيماً على شرع الله في كل شيء .
- ب. أن هذا في حق من قالها وأتى إلى الله تائباً من خطايا ، مقلعاً عن ذنوبه وسيئاته ، فكل الخطايا ساقطة بهذه الكلمة أ.هـ

(١) قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل ، فإن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنوبه ، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار .

وقال ابن القيم : ويعني لأهل التوحيد الخض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك ، فلو لقي الموحّد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربه بقراب الأرض خطايا ، أتاه بقرابها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحّده ، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، لأنه يتضمن من محبة الله ، وإجلاله ، وتعظيمه ، وخوفه ، ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض ، فالنجاسة عارضة ، والدافع لها أقوى أ.هـ

يشكل على هذا أن من أتى بقراب الأرض خطايا لا يكون توحّده كاملاً - مشتملاً على ما ذكر - خاصة مع إتباع الهوى الذي سماه الله إلهاً .

وقال محمد بن عبد الوهاب : ظهر لي في الحديث في قوله (لو أتيتني بقراب الأرض خطايا) أن هذا فيه تنبيه على جلاله التوحيد ، وأن هذا من نوع التمثيل ، كما ذكر في الشرك وكبره عند الله في قوله تعالى في الأنبياء (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) لكون التوحيد يكفر الخطايا ، كما أن الشرك يحبط الحسنات . الدرر السنية ج ٢ ص ٧٩ وكل هذه الأجوبة فيها نظر ، والله أعلم .

وسئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن حديث البطاقة ، قال : وحديث البطاقة أنه رُزق عند الخاتمة قولها ، على ذلك الوجه ، والأعمال بالخواتيم ، مع أن علي بقية إشكال ، والله أعلم .
(٢) قال ابن تيمية : والحسنة الواحدة قد يقترن بها من الصدق واليقين ما يجعلها تكفر الكبائر ، كالحديث الذي في صاحب البطاقة الذي ينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر ، ويؤتى ببساطة فيها كلمة لا إله إلا الله فتوضع البطاقة في كفة والسجلات في كفة ، فنقلت البطاقة وطاشت السجلات ، وذلك لعظم ما في قلبه من الإيمان واليقين ، وإلا فلو كان كل من نطق بهذه الكلمة تكفر خطايا لم يدخل النار من أهل الكبائر المؤمنين ، بل والمنافقين أحد ، وهذا خلاف ما تواترت به الآيات والسنن ، وكذلك حديث البغي ، وإلا فليس كل من سقى كلباً عطشاً يغفر له ، كما أنه قد يقترن بالسيئة من الاستخفاف والإصرار ما يعظمها ، فلهاذا وجب التوقف في المعين ، فلا يقطع بجنة ولا نار إلا ببيان من الله ، لكن يرجى للمحسن ويخاف على المسيء .

والوجه الأول فيه نظر .

مسألة : ذكر العلماء رحمهم الله أن هذه الكلمة لا يكفي فيها النطق ، بلا لا بد لها من توفر شروط ، وانتفاء موانع ، ولذا نقل ابن تيمية ، والشيخ سليمان بن عبد الله ، وعبد الرحمن بن حسن الإجماع على أنه لا يكفي التلفظ بها . قال ابن تيمية : من اعتقد أنه بمجرد تلفظ الإنسان بهذه الكلمة يدخل الجنة ولا يدخل النار بحال فهو ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين .

ولذا قيل للحسن البصري : إن ناساً قالوا : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة . فقال : من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة .

وقال وهب بن منبه لمن سأل : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح .

وعليه نحمل الأحاديث المطلقة على المقيدة لها بهذه الشروط ، كما يقال : إذا تطهر المصلي صحت صلاته ، والمعنى مع بقية شروطها ، من استقبال القبلة ، وستر العورة ، وغيرها من الشروط ، وقوله ﷺ (الحج عرفة) يعني مع بقية شروط الحج وهكذا ، وهذه الشروط هي :

١. **العلم :** وضده الجهل ، والمراد أن يعلم معناها نفيًا وإثباتًا ، فلا يكفي قولها مع جهل معناها . ومعناها (لا معبود بحق إلا الله) .

قال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقال تعالى (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) وقال ﷺ : من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة . رواه مسلم .

٢. **اليقين :** وضده الشك ، والمراد أن يكون مستيقناً بمقتضيات هذه الكلمة يقيناً جازماً ، فالإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين ، لا علم الظن ، فكيف إذا دخل الشك .

قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) وقال ﷺ : لا يلقي الله بهما عبداً غير شاك فيحجب عن الجنة . وفي رواية : إلا دخل الجنة . رواه مسلم ، وعند مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة في قصة طويلة ، قال ﷺ : من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد ألا إله إلا الله مستيقناً بما قلبه فبشره بالجنة .

٣. **القبول :** وضده الرد ، والمراد أن يقبل ما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ، ولسانه ، وجوارحه .

قال تعالى عن الكفار (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) وفي حديث أبي موسى مرفوعاً : مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء... ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

٤. **الانقياد :** وضده الترك ، والمراد الانقياد لما دلت عليه ، المنافي لترك ذلك .

قال تعالى (وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له) وقال تعالى (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) . والفرق بين القبول والانقياد ، أن القبول سابق للانقياد ، فكل منقاد قابل ، وليس كل قابل منقاداً .

٥. الصدق : وضده التكذيب , والمراد أن يقولها صدقاً من قلبه لا كذباً ونفاقاً .

قال تعالى (ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

وجاء في الصحيحين من حديث معاذ : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله , وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار .

٦. الإخلاص : وضده الرياء , والكذب , والمراد أن تكون الأعمال كلها خالصة لله .

قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وفي البخاري قال ﷺ : أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه .

٧. المحبة : وضدها البغض , والمراد حب هذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه , ولأهلها العاملين بها , الملتزمين بشروطها , وبغض ما ناقض ذلك .

قال تعالى (والذين آمنوا أشد حُباً لله) وفي الحديث : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . متفق عليه وقد جُمعت هذه الشروط في قول القائل :

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

قال الشيخ حافظ حكيم : ومعنى استكمالها : اجتماعها في العبد والتزامه إياها بدون مناقضة منه لشيء منها , وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها , فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها , ولو قيل له : اعددتها . لم يحسن ذلك , وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم , وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها , والتوفيق بيد الله , والله المستعان .

٣- بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

وقال: {وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ}.

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثُ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: ((لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ))^(١). قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((غُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ)) . ثُمَّ تَخَضَّ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَائِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: ((هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)) . فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مُحِصَنٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. فَقَالَ: ((أَنْتَ مِنْهُمْ)) . ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. فَقَالَ: ((سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ)) .

(١) قال في تيسير العزيز الحميد: هكذا روي هنا موقوفاً، وقد رواه أحمد، وابن ماجه عنه مرفوعاً، ورواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعاً.

٢ - بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

الباب الثاني

وخلاصته : بيان جزاء من حقق التوحيد ، وأنه يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب .

بعد أن ذكر المصنف في الباب الأول بعض فضائل التوحيد ترغيباً فيه ، أردف بهذا الباب الذي هو كالمكمل للباب السابق ، وفيه بيان فضيلة عظيمة من فضائل التوحيد ، وهو أن من حققه على الكمال دخل الجنة ابتداءً ، بلا حساب ولا عذاب .

وهذا الفضل ليس لكل الموحدين ، بل هو خاصة الموحدين الذين حققوا التوحيد .

وهذا من فقه المصنف رحمه الله ، حيث سلك مسلك التدرج في الترغيب ، وليبين أن الأخذ بالتوحيد مراتب ودرجات ، كلما كان تحقيقه أكمل ، كانت فضائله أعظم .

مسألة : ما هو ضابط تحقيق التوحيد ؟ أو كيف يكون الإنسان محققاً للتوحيد ؟

الذي يظهر أن تحقيق التوحيد مراتب ودرجات ، وأن دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب لا ينال بالتحقيق الواجب ، وهو الإتيان بأصل التوحيد ، بل هذا الفضل مرتب على مقام عالٍ لا يناله إلا الخُلَصُّ من عباد الله ، وهم الذين تعلقت قلوبهم بالله في جميع أحوالهم ، فلا يلتفتون لغيره ، ولا يتوكلون على سواه ، وهم وإن باشروا الأسباب إلا أن القلوب معلقة بمسببها عز وجل .

فالنبي ﷺ أكمل الناس تحقيقاً للتوحيد ومع ذلك يأخذ بالأسباب مع تعلق قلبه بالله وحده .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله : وتحقيق التوحيد هو معرفته ، والاطلاع على حقيقته ، والقيام بما علماً وعملاً ، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله محبة ، وخوفاً ، وإنابة ، وتوكلاً ، ودعاء ، وإخلاصاً ، وإجلالاً ، وهيبة ، وتعظيماً ، وعبادة ، وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله ، ولا إرادة لما حرم الله ، ولا كراهة لما أمر الله ، وذلك هو حقيقة (لا إله إلا الله) فإن الإله هو

المألوه المعبود ، وما أحسن ما قال ابن القيم : فلواحد كن واحداً في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

وذلك هو حقيقة الشهادتين ، فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب

أ.هـ

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

- ذكر الله في هذه الآية أربع صفات لإبراهيم عليه السلام ، كلها تدل على كمال توحيده .
- قال الشيخ صديق حسن في كتابه (الدين الخالص) : قال أهل العلم : وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد أ.هـ
- وإبراهيم عليه الصلاة والسلام من أظهر الأنبياء تحقيقاً للتوحيد ، ولذا يسمى إمام الحنفاء ، وقد أمر الله نبينا محمداً ﷺ بإتباع ملته ، قال تعالى (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وهذه الصفات الأربع هي :
١. أنه كان أمة : وجاء في تفسيرها عدة معانٍ كلها صحيحة لا تتعارض :
 - أ. كان على الحق وحده في زمن من الأزمان ، كما جاء عند البخاري في قصة طويلة أنه قال لزوجته سارة : ليس معنا اليوم في الإيمان غيري وغيرك . فقام مقام أمة في الأخذ بالحق والثبات عليه .
 - ب. كان يدعو إلى الحق وحده ، فقام مقام أمة في الدعوة إلى الله ، قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) .
 - ج. كان إماماً يقتدى به في الخير ، قال تعالى (إني جاعلك للناس إماماً) .
٢. أنه كان قانتاً لله : والقنوت هو دوام الطاعة^(١) ، فهو دائم الطاعة لله ، لكمال تحقيق مقامات التوحيد في قلبه ، من محبة الله ، والتوكل عليه ، والإيمان بوعده .
٣. أنه كان حنيفاً : مقبلاً على الله ، مائلاً عن كل ما سواه ، والعرب تطلق (الحنيف) على دين إبراهيم .
- قال ابن القيم : أصل الحنف الإقبال ، ثم وصف بلازمه وهو الميل ، لأن المقبل على شيء مائل عن غيره .
- وسبق في شرح (ثلاثة الأصول) الكلام عن هذه اللفظة .
٤. أنه لم يك من المشركين : لا في عبادته ، ولا في أقواله ، ولا في أفعاله ، بل فارق المشركين في عقيدتهم ، وأعمالهم ، وأقوالهم ، ومنزله ، قال تعالى عنه (إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين) .
- وجمع مع هذا كله التبرؤ منهم ، ومن معبوداتهم (إنا بُرّاءُ منكم ومما تعبدون من دون الله) وعابهم ، وكسر أصنامهم (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم) تحكماً بهم ، وعاب العابد قبل المعبود (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) وتبرأ من العابد قبل المعبود (إنا بُرّاءُ منكم ومما تعبدون من دون الله) وكل هذه الصفات دالة على معرفة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لحقيقة التوحيد ، وتمثله لذلك .
- والغرض من إيراد المصنف لهذه الآية في هذا الباب - والله أعلم - هو ذكر مثال لمن حقق التوحيد ، وبيان صفاته ، ليقتدى به .

(١) قال ابن القيم : والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

وقال: {وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ}.

هذه الآية في سياق عدد من الآيات التي يصف الله بها خاصة عباده , قال تعالى عنهم (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم برهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) وهذه الصفات العظيمة دالة على معرفتهم التامة بالله تعالى .

والشاهد : أنه ذكر من ضمن هذه الصفات : أنهم برهم لا يشركون , فنفي عنهم جميع أنواع الشرك , لأن النفي إذا تسلط على الفعل المضارع أفاد العموم .

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ , فَقَالَ : أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ ؟ فَقُلْتُ : أَنَا . ثُمَّ قُلْتُ : أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ , وَلَكِنِّي لِدُعْتٍ . قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ ؟ الحديث .

تخرجه : ذكر المصنف هذا الحديث ولم يخرج , وقد رواه البخاري مختصراً ومطولاً , وكذا رواه مسلم واللفظ له .

والشاهد : أن هؤلاء استحقوا دخول الجنة بلا حساب لكمال تحقيقهم للتوحيد , حيث ذكر في الحديث أربع صفات هي

السبب في نيل هذا الفضل العظيم , والجامع لهذه الصفات هو كمال التوكل الذي هو من أعظم مقامات التوحيد .

وهذا الفضل العظيم مرتب على الصفات الواردة في الحديث , وهي أنهم لا يسترقون , ولا يكتوون , ولا يتطيرون , وعلى ربهم يتوكلون , وقد اختلف أهل العلم في توجيه الحديث على أقوال منها :

١ . أنهم يهجرون الأسباب من الرقى , والاكتواء , والدواء مع حاجتهم إلى ذلك , وذلك لتمام توكلهم , وهذا قول الخطابي , واختاره النووي , ولعله اختيار المصنف لقوله في مسائل الباب : كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

قال النووي : وأما تطيب النبي ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز , والله أعلم أ.هـ.

٢ . أنهم يهجرون الأسباب المكروهة , دون الواجبة , والمستحبة , والمباحة .

قال سليمان بن عبد الله : المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة , مع حاجتهم إليها توكلًا على الله أما نفس مباشرة الأسباب , والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قاذح في التوكل , فلا يكون تركه مشروعاً .

٣ . أنهم إن وقع بهم شيء من فعل الرقى ومباشرة الأسباب لا يكون ذلك بسعي وطلب من الغير , لأن الطالب عادة فيه ميل إلى المطلوب منه , فالممنوع هو الطلب , وهذا اختيار ابن تيمية , وابن القيم .

وهناك أقوال أخرى , انظرها في فتح الباري لابن حجر , وشرح النووي على صحيح مسلم , وكتاب (أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين) لسليمان الديلمي .

وقوله ﷺ (بلا حساب) المراد الحساب بنوعيه : حساب المناقشة , وحساب العرض .

تنبيه : جاء في الصحيحين (ولا يسترقون) وجاء عند مسلم (ولا يرقون) لكن هذه اللفظة شاذة كما ذكر ذلك ابن تيمية , وابن القيم , وابن باز , والألباني^(١) .

(١) راجع كلام من صحح هذه اللفظة والرد عليه في كتاب تيسير العزيز الحميد .

وفي هذا الحديث فوائد ومسائل ، منها :

١. قوله ﷺ (لا رقية إلا من عين أو حمة) حُمة بالتخفيف : لدغة ذوات السموم ، كالعقرب ، ونحوها . ولا يفيد هذا الحديث حصر الرقية في ذلك ، لأنه ثبت عنه ﷺ أنه رُقِيَ من السحر ، ومن المرض ، وقد رخص ﷺ في الرقية ما لم تكن مشتملة على شرك ، كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك ؟ فقال : اعرضوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك . رواه مسلم . ومعنى الحصر في الحديث أنه لا أنفع ولا أولى من الرقية لذلك ، قال البغوي في (شرح السنة) : ولم يرد به نفي جواز الرقية في غيرها ، بل تجوز الرقية بذكر الله سبحانه وتعالى في جميع الأوجاع ، ومعنى الحديث : لا رقية أولى وأنفع منهما .
٢. التداوي مشروع ، ولذا حثت الشريعة عليه ، قال ﷺ : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء . رواه البخاري وعند مسلم قال ﷺ : لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواءُ الداء برأ بإذن الله عز وجل . وعند أحمد عن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا : يا رسول الله : أنتداوى ؟ فقال : نعم ، يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد ، قالوا : ما هو ؟ قال : الهرم . وفي المسند ، والسنن عن أبي خزيمة قال : قلت يا رسول الله : أرايت رقى نسترقئها ودواءً نتداوى به ، وثقاةً نتقيها ، هل ترد من القدر شيئاً ؟ فقال : هي من قدر الله .
- يقول ابن القيم : فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، والأمر بالتداوي وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينافية دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدر بمباشرة في نفس التوكل ، كما يقدر في الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل ، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للأمر ، والحكمة ، والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا ، ولا توكله عجزاً .
٣. اختلف العلماء في حكم التداوي على عدة أقوال : فذهب الأحناف إلى أنه مؤكد ، وعند المالكية يستوي فعله وتركه ، وعند الشافعية مستحب ، وعند الحنابلة مباح وتركه أفضل .
- قال الشيخ صديق حسن خان في كتابه (الدين الخالص) : والذي ترجح عندي بالنظر في الأحاديث الواردة في هذا الباب أنه سنة يثاب فاعله إن نوى اتباع السنة ، ولا يلام تاركه أبداً إن قوي على تركه .
- وفصل شيخنا ابن عثيمين في حكمه ، وذكر أن ما عُلم أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعده فهو واجب ، وما غلب على الظن نفعه ، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه فهو أفضل ، وما تساوى فيه الأمران فتركه أفضل .
٤. اختلف العلماء في متى كان عرض الأمم على النبي ﷺ ، فقال بعضهم : ليلة الإسراء ، وفيه حديث في ثبوته نظر ، واختاره ابن باز . وقيل في المنام ، وفيه حديث فيه نظر أيضاً ، واختاره شيخنا .
- والأقرب عدم الجزم ، كما اختار ذلك الشيخ عبدالرحمن بن حسن في قرّة عيون الموحدين ، والشيخ ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد . ولا يترتب على ذلك عمل .

٥. في هذا الحديث دليل على فضل السلف من عدة أوجه :

أ. شدة حرصهم على إخفاء أعمالهم .

ب. طلبهم الدليل على الأفعال الشرعية (ما حملك على ذلك) .

ج. مذاكرتهم للعلم .

د. إرشادهم إلى الأفضل في الأمور (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع , ولكن...) .

٦. وفي الحديث دليل على قلة أتباع الأنبياء , وأن على الدعاة الاجتهاد في الدعوة على النهج , ولا يضرهم قلة المستجيب , ولا ينبغي لهم التنازل عن ذلك بدعوى تأليف الناس .

٧. استشكل بعض العلماء قول الصحابة (فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ) مع أن القائل من الصحابة .

وأقرب ما يقال أنهم قصدوا الصحبة الخاصة , يعني خاصة أصحاب النبي ﷺ .

٨. قوله ﷺ (سبقك بها عكاشة) عكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها .

قال بعضهم إن السائل الثاني منافق . وهذا غير صحيح , لأن الأصل فيمن يصحب النبي ﷺ الصدق , ولأن مثل هذا السؤال دليل على رغبة في الخير , وإنما سد النبي ﷺ حتى لا يسأل من هو غير أهل لذلك .

٩. جاء في بعض الأحاديث (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً) قال ابن حجر : سنده جيد , وجاء (مع كل

واحد سبعين ألفاً) قال ابن حجر : وفي سنده راويان أحدهما ضعيف الحفظ , والآخر لم يسم .

١٠. لفظ الحديث هنا (هذه أمتك , ومعهم سبعون ألفاً) المراد (ومنهم) .

قال ابن حجر : المراد بالمعية المعنوية , فإن السبعين ألفاً المذكورين من جملة أمته , لكن لم يكونوا في الذين عُرضوا إذ ذاك , فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفاً إليهم .

قال في تيسير العزيز الحميد : وما قاله ليس بظاهر , فإن في رواية ابن فضل (ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً) .

١١. في الحديث جواز الخوض والنقاش في مسائل العلم بغرض الفائدة .

١٢. للرقية عدة صور :

أ. رقية النفس : وهذه مستحبة , ودليل على التوكل .

وقد كان ﷺ يرقى نفسه , كما في أحاديث كثيرة , منها ما روته عائشة في الصحيحين : كان ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث .

وفي حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده منذ أسلم , فقال له رسول الله ﷺ : ضع يدك على الذي تألم من جسدك , وقل (باسم الله) ثلاثاً , وقل سبع مرات (أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) رواه مسلم .

ب. رقية الغير : وهذه جائزة , بل مستحبة , إذ هي نوع إحسان , والله يحب المحسنين .

وقد كان ﷺ يرقى غيره , كما في أحاديث , منها ما روته عائشة في الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء

منه , أو كانت به قرحة , أو جرح , قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا - ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم يرفعها - : باسم الله , تربة

أرضنا , بريقة بعضنا , ليشفى سقيمنا , بإذن ربنا .

وأذن ﷺ برقية الغير ، كما في حديث جابر قال : لدغت رجلاً منا عقرب ، ونحن مع النبي ﷺ فقال رجل : يا رسول الله أرقني ؟ فقال : من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل . رواه مسلم .

يقول ابن القيم : والنبي ﷺ لا يجعل ترك الإحسان المأذون فيه سبباً للسبق إلى الجنان .

ج. الاسترقاء للغير : وهذه جائزة ، ولا تنافي كمال التوكل ، وقد استرقى النبي ﷺ لأولاد جعفر ، لأن هذه شفاعه ، وقد قال تعالى (من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها) وعند البخاري قال ﷺ (اشفعوا تؤجروا) .

وقال ﷺ لأسماء بنت عميس : مالي أرى أجسام بني أخي ضارعة ، تصيهم الحاجة ؟ قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم . قال : أرقهم . قالت : فعرضت عليه ، فقال : أرقهم . رواه مسلم ، وفي الصحيحين من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة - علامة ، قيل من ضربة الشيطان - فقال ﷺ : استرقوها فإن بها النظرة . وجاء في الصحيحين من حديث عائشة : أمرني رسول الله ﷺ أو أمر أن يُسترقى من العين . وهذه الصور الثلاث كلها ثبتت من فعله ﷺ فلا تنافي كمال التوكل .

د. الاسترقاء للنفس : وهذه جائزة وتركها أولى .

هـ. دفع الرقية : كأن يأتي شخص ليرقيه فيدفعه ظناً منه أن هذا من كمال التوكل ، وهذا مخالف للسنة ، بل هذا لا ينافي كمال التوكل ، لعدم وجود الطلب ، وقد رقى جبريل عليه السلام نبينا ﷺ كما عند مسلم ، وركت عائشة النبي ﷺ كما في الصحيحين . ١٣ . الكي مأذون فيه شرعاً ، كما جاء في الصحيحين : الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهى أمي عن الكي . وهذا لفظ البخاري ، ولفظ مسلم (وما أحب أن أكتوي) وهو عند البخاري أيضاً . والأقرب والله أعلم أن الكي مكروه ، كما هو ظاهر الأحاديث ، ومن اضطر إلى مباشرته لعدم الاستغناء عنه فهو جائز بلا كراهة ، ويُرجى أن لا يُحرم من الفضل الوارد .

قال ابن باز : ترك الاكتواء أفضل عند عدم الحاجة ، لأنه نوع تعذيب ، فإذا تيسر دواء غيره فهو أولى ، فإن دعت الحاجة إليه فلا كراهة ، لحديث (الشفاء في ثلاثة ...) فالنهي للتنزيه لا للتحريم .

وقال ابن القيم : فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع : أحدها : فعله ^(١) ، والثاني : عدم محبته له ^(٢) ، والثالث : الثناء على من تركه ^(٣) ، والرابع : النهي عنه ^(٤) ، ولا تعارض بينها بحمد الله ، فإن فعله له يدل على جوازه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه ، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة ، أو النوع الذي لا احتياج إليه ، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء أ.هـ . وهناك فوائد كثيرة تراجع في الشروح .

(١) كما في حديث جابر قال : رُمي سعد بن معاذ في أكحله فحسمه النبي ﷺ بيده ، ثم ورمت فحسمه الثانية . رواه مسلم

(٢) كما في حديث جابر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لدعة بنار توافق الداء ، وما أحب أن أكتوي . متفق عليه

(٣) كما في حديث السبعين ألفاً .

(٤) كما في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال : الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية نار ، وأنا أنهى أمي عن الكي . متفق عليه ، واللفظ للبخاري .

٣ - بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشُّرْكِ

وَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

وَقَالَ الْحَلِيلُ - عليه السلام - : {وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}.

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ» فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ». رواه البخاري.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

٣ - بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشُّرْكِ

الباب الثالث

وخلاصته : بيان خطورة الشرك ووجوب الحذر منه .

بعد أن ذكر المصنف رحمه الله بعض فضائل التوحيد ترغيباً فيه ، ذكر هنا الشرك ترهيباً منه ، وهذا من حرصه رحمه الله على بيان الأمر للسالك ، حيث جمع له بين الترغيب والترهيب .

وذكر أن الخوف من الشرك بنوعيه من سنة المرسلين ، فهذا إبراهيم عليه السلام الذي جاهد المشركين بلسانه ، وكسر الأصنام بيده ، يخاف على نفسه الوقوع فيه ، وهذا محمد ﷺ يحذر أفضل الخلق بعد الأنبياء - وهم صحابته - من الوقوع فيه . وكل هذا يدل على خطورة الشرك ، ومن أبلغ ما جاء في خطورته قوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) وهذا خطاب من الله لأنبيائه أصالة .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله : نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ، ويحذره ، ويعرف أسبابه ، ومبادئه ، وأنواعه ، لئلا يقع فيه ، ولذا قال حذيفة : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه . رواه البخاري ، وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر ، فإما أن يقع فيه ، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذي عرفه أهـ .

والشرك : هو جعل شريك مع الله في شيء من خصائصه ، ويأتي الكلام عن الشرك وأنواعه عند شرح (نواقض الإسلام) إن شاء الله تعالى .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

في هذه الآية بيان خطورة الشرك ، وأن العبد إذا لقي الله به فإنه لا يغفر له ، وهو من الخالدين في النار ، والعياذ بالله ، وهذا مما اختص به الشرك الأكبر من بين سائر الذنوب .

وأكثر العلماء على أن الآية خاصة بالشرك الأكبر ، لأنه هو المقصود إذا أطلق الشرك .

وفي مسألة الشرك الأصغر هل يغفر أو لا خلاف :

١ . الشرك الأصغر لا يغفر لعموم هذه الآية ، والمعنى أنه لا بد أن يؤخذ به .

وهو رواية في مذهب أحمد ، واختاره الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، والشيخ صديق حسن خان ، وهو أحد أقوال ابن تيمية ، كما نسبه إليه ابن مفلح في الفروع .

تنبيه : لكنه لا يكفر به وحده ، ولا يخلد في النار ، بل ربما لا يدخلها ، إذ يمكن أن يعذب في القبر ، أو عند الموت ، أو في عرصات القيامة ، أو يحبط ما يقابل الشرك الأصغر من الحسنات .

٢ . أنه كالكبائر ، فيكون تحت المشيئة ، إن شاء الله حاسبه عليه ، وإن شاء غفر له ، وحملوا الآية على الأكبر ، لأن الشرك غالباً إذا أُطلق يراد به الأكبر .

وهذا هو قول جماهير أهل العلم ، وهو الأقرب للصواب ، وهو أحد أقوال ابن تيمية^(١) ، واختاره ابن باز .

والدليل قوله تعالى (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) وقد أجمع العلماء أن الشرك الأصغر لا يدخل في

هذه الآية ، وكذلك قوله تعالى (لمن أشركت ليحبطن عملك) (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) لا يدخل الأصغر .

تنبيه : هذه الآية فيمن مات على الشرك بلا توبة ، أما التائب فيغفر له ، لعموم قوله تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) يعني بالتوبة ، وآية الباب بلا توبة .

(١) قال ابن تيمية : وقد يقال الشرك لا يغفر منه شيء ، لا أكبر ولا أصغر ، على مقتضى القرآن ، وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلماً ، لكن شركه لا يغفر له ، بل يعاقب عليه ، وإن دخل بعد ذلك الجنة .

قال شيخنا : وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة ، فمرة قال : الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر ، ومرة قال : الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر .

ولابن تيمية قول آخر في التفريق بين الكثير واليسير ، قال رحمه الله : فالشرك يؤخذ به العبد إذا كان أكبراً ، أو كان كثيراً أصغر ، فالأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤخذ به .

وَقَالَ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : {وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}.

في هذه الآية بيان أنه يجب على العبد مهما بلغ من الإيمان ، أن يخاف من الشرك ، فهذا إبراهيم عليه السلام الذي حقق مقامات التوحيد يخاف من الشرك على نفسه وبنيه .

وكان إبراهيم التيمي يقص ، ويقول في قصصه : من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم . رواه ابن جرير .

وَفِي الْحَدِيثِ : «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ» فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ : «الرِّيَاءُ».

تخریجه : هذا الحديث أورده المصنف مختصراً ولم يعزه ، وهو أطول من ذلك كما عند الإمام أحمد ، لكن اقتصر على الشاهد ، ولفظه : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم ترأؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء . رواه أحمد ، والطبراني ، وحسنه ابن حجر ، وقال الشيخ سليمان بن عبد الله : بإسناد جيد ، وصححه الألباني .

والشاهد : بيان خطورة الرياء ، لأن النبي ﷺ سماه شركاً أصغر ، ولأنه ﷺ خافه على أفضل الخلق بعد الأنبياء ، وهم الصحابة . والرياء هو داء الصالحين ، والله المستعان . ويأتي الكلام عن أحكام الرياء في باب مستقل بإذن الله .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً دَخَلَ النَّارَ» . رواه البخاري .

تخریجه : رواه البخاري .
والشاهد : بيان خطورة الشرك ، حيث أن من مات عليه دخل النار خالداً فيها ، لأن العلماء حملوا الحديث على الأكبر ، لقوله (يدعو) وهذا شرك أكبر .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» .

تخریجه : هذا الحديث عند مسلم ، وأوله : أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : ما الموجبتان فقال
والشاهد : بيان خطورة الشرك ، إذ من لقي الله به دخل النار .

٤ - بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١)

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ}.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ ؛ قَالَ : ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - وَفِي رِوَايَةٍ : إِلَى أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ - فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ ، فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ ، فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ)) . أَخْرَجَاهُ .

وَهَمَّا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ؓ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ - يَوْمَ خَيْبَرَ - : ((لِأَعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ)) . فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَثِيَّهُمْ يُعْطَاهَا . فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا ، فَقَالَ : ((أَتَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ)) . فَقِيلَ : هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ . قَالَ : ((فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ)) ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ ، وَدَعَا لَهُ ، فَبَرَأَ كَأَنَّمَا لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ ، وَقَالَ : ((أَنْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ خَمْرِ النَّعَمِ)) .

(يَدُوكُونَ) أَيُّ يَخُوضُونَ .

(١) جاء في بعض نسخ الكتاب : باب الدعوة إلى التوحيد .

٤ - بَابُ الدَّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

الباب الرابع

وخلاصته : وجوب الدعوة إلى توحيد الله ، وبيان فضلها .

بعد أن عرف العبد التوحيد وما يتعلق به ، يجب عليه أن يدعو إليه ، بل يكون أول ما يدعو إليه ، لأنه حق الله الأعظم ، فبعد أن كَمَّلَ الإنسان نفسه يسعى لتكميل غيره ، وقد جاء في الحديث : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . متفق عليه .

والدعوة إلى التوحيد لا تكون إلا بعد العلم به ، ولذا أخر المصنف هذا الباب .

ولا يكاد ينقضي عجب المرء مما يرى من التقصير في جانب الدعوة إلى توحيد الله والتحذير من الشرك ، فالعالم الإسلامي من بعد القرون الفاضلة تفسى فيه الشرك على يد الرافضة ، والصوفية ، ومع ذلك قلَّ أن ترى من ينكر هذا الشرك على مر القرون ، بل إنك تجد المصنفات الكثيرة في الفقه ، واللغة ، وسائر الفنون ، ولا تكاد تجد من يشير إلى إفراد الله بالعبادة . بل مع انتشار القنوات الإسلامية اليوم لا تكاد تجد من يذكر الناس بالتوحيد ، ويحذرهم من الشرك . وكل هذا راجع إلى الجهل بأصل دعوة الرسل ، والجهل بحقيقة التوحيد ، والله المستعان .

ومن جميل ما ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب قوله : إذا عرفتم هذا ، فلا يخفى عليكم ما ملأ الأرض من الشرك الأكبر - عبادة الأصنام - هذا يأتي إلى قبر نبي ، وهذا إلى قبر صحابي ، كالزبير ، وطلحة ، وهذا إلى قبر رجل صالح ، وهذا يدعو في الضراء ، وفي غيبته ، وهذا ينذر له ، وهذا يذبح للجن ، وهذا يدخل عليه من مضرة الدنيا والآخرة ، وهذا يسأله خير الدنيا والآخرة .

فإن كنتم تعرفون أن هذا الشرك من جنس عبادة الأصنام الذي يخرج الرجل من الإسلام ، وقد ملأ البر والبحر ، وشاع وذاع ، حتى إن كثيراً ممن يفعله يقوم الليل ، ويصوم النهار ، وينتسب إلى الصلاح والعبادة ، فما بالكم لم تفسوه في الناس؟ وتبينوا لهم أن هذا كفر بالله مخرج عن الإسلام؟!

أرايتم لو أن بعض الناس ، أو أهل بلدة تزوجوا أخواتهم أو عماتهم جهلاً منهم ، أفيحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتركهم؟ لا يعلمهم أن الله حرم الأخوات والعمات؟ فإن كنتم تعتقدون أن نكاحهن أعظم مما يفعله الناس اليوم عند قبور الأولياء والصحابه ، وفي غيبته عنها ، فاعلموا أنكم لم تعرفوا دين الإسلام ، ولا شهادة أن لا إله إلا الله - ودليل هذا مما تقدم من الآيات التي بينها الله في كتابه - وإن عرفتم ذلك فكيف يحل لكم كتمان ذلك ، والإعراض عنه ، وقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه أ.هـ

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ}.

في هذه الآية بيان منهج النبي ﷺ وطريقته ، وهو توحيد الله تعالى ، والدعوة إلى هذا التوحيد بعلم وبصيرة ، وفي الآية أيضاً بيان أن أتباعه ﷺ سائرون على هذا النهج ، وفيها حث وإرشاد إلى سلوك هذا النهج لتحقيق المتابعة للنبي ﷺ . يقول ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد : هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان ، والانتهاز إلى طاعته ، وترك معصيته (سبيلي) وطريقتي ودعوتي (أدعو إلى الله) وحده لا شريك له (على بصيرة) بذلك ، ويقينٍ عليمٍ مَّيَّ به (أنا) ويدعو إليه على بصيرة أيضاً (من اتبعني) وصدقني وآمن بي (وسبحان الله) يقول له تعالى ذكره : وقل تنزيهاً لله ، وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه (وما أنا من المشركين) يقول : وأنا بريءٌ من أهل الشرك به ، لست منهم ولا هم مَّيَّ أ.هـ والآية محتملة لوجهين في الوقف والابتداء لا تعارض بينهما :

الأول : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله) ثم يستأنف (على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

والثاني : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) .

قال ابن القيم في جلاء الأفهام : وقال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وسواء كان المعنى (أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة) أو كان الوقف عند قوله (أدعو إلى الله) ثم يبتدئ (على بصيرة أنا ومن اتبعني) فالقولان متلازمان ، فإنه أمره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله ، فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله ﷺ وهو على بصيرة ، وهو من أتباعه ، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله ، ولا هو على بصيرة ، ولا هو من أتباعه . وقال في مدارج السالكين : وعلى القولين فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر ، الداعين إلى الله على بصيرة ، فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة ، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى .

وقال ابن باز : ومن لم يدع إلى سبيل الله من العلماء فليس من أتباعه على الحقيقة ، فأتباعه لا يسكتون ، ولا يدعون على جهل .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ ؛ قَالَ : ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةً أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... الحديث .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : أن النبي ﷺ أمر بالدعوة إلى التوحيد ، وبين مرتبتها ، حيث جعلها أول ما يُدعى إليه .

وفي هذا الحديث فوائد ومسائل ، منها :

- ١ . يجوز في قوله (أول) الرفع ، على أن تكون (شهادة) منصوبة ، ويجوز العكس .
- ٢ . اختلف أهل العلم في الوقت الذي بُعث فيه معاذ إلى اليمن .
- والأقرب أنه في السنة العاشرة قبل حجة الوداع ، كما جزم بذلك ابن حجر وغيره .
- وقد بوب البخاري : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع .
- وظل في اليمن إلى أن قدم في خلافة أبي بكر ، ثم توجه إلى الشام ومات فيها .
- ٣ . ينبغي على الإنسان أن يتعرف على أحوال المدعوين قبل دعوتهم ، ويستعد لهم بالطريقة التي تناسبهم .
- ٤ . جاء هذا الحديث بعدة روايات بعضها بإفراد شهادة أن لا إله إلا الله ، وبعضها بضم شهادة أن محمداً رسول الله إليها .
- قال في تيسير العزيز الحميد : وأكثر الروايات فيها ذكر الدعوة إلى الشهادتين .
- ٥ . في الحديث أن الإنسان ربما يكون عنده علم ، وهو لا يعرف لا إله إلا الله ، أو يعرف ذلك ولا يعمل به . قال تعالى (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) .
- ٦ . لم يذكر في هذا الحديث الصوم ولا الحج ، وقد اختلفت أقوال العلماء في ذلك ، ولعل أقرب ما قيل - والله أعلم - ما قاله ابن باز : إنما اقتصر على هذه الأمور الثلاثة ، لأنها أهم الأمور ، ومن أجاب إليها أجاب إلى ما سواها ، ولذلك اقتصر عليها في القرآن كثيراً .
- ٧ . في الحديث التحذير من الظلم .
- ٨ . في الحديث دلالة على قبول خبر الواحد الثقة ، خلافاً لأهل البدع الذين ردوا أحاديث الآحاد في باب الاعتقاد إذا خالف عقولهم .

وَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ - يَوْمَ خَيْبَرَ - : ((لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ))... الحديث .

تخرجه : متفق عليه .

والشاهد : أن النبي ﷺ أمر بالدعوة إلى التوحيد ، وجعلها أول ما يُدعى إليه ، وبين فضلها بقوله (لأن يهدي الله بك) .

وفي هذا الحديث فوائد ومسائل ، منها :

- ١ . قال ابن تيمية : هذا الحديث أصح ما روي لعلي رضي الله عنه من الفضائل (يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) .
وقال الإمام أحمد : لم ينقل لأحد من الصحابة ما نُقل لعلي .
وقال ابن حجر في الإصابة : وقد ولد الرافضة مناقب موضوعة هو غني عنها .
- ٢ . حرص الصحابة ومحبتهم للخير ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : ما أحببت الإمارة إلا يومئذ . رواه مسلم ، وحتى أنهم باتوا يخوضون ليلتهم ، وأسرعوا عند الصباح من يأخذ الراية غداً .
- ٣ . في الحديث بيان آية من آيات النبي ﷺ وقد جاء في صحيح البخاري أن علياً رضي الله عنه كان به رمد ، وجاء في مسند أحمد قال : ما رَمِدْتُ منذ تفل النبي ﷺ في عيني . وعند أبي داود الطيالسي قال : ما رمدت ولا صُدِعت منذ دفع رسول الله ﷺ إلي بالراية يوم خيبر .
- ٤ . في الحديث بيان أدب الإسلام ، حيث يدعو إلى التمهّل وعدم العجلة حتى في القتال (انفذ على رسلك) أي على مهلك .
- ٥ . في الحديث دليل على فضل الدعوة إلى الله ، وأن الإنسان إذا دعا أحداً للخير فكل ما يعمل ذلك الشخص في ميزان حسناته ، وأنه ينبغي على الإنسان الحرص على دعوة زوجه ، وأولاده ، وأقاربه ، وجيرانه ، جاء في الحديث : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . رواه مسلم ، وهنا قال ﷺ : خير لك من حمر النعم .
وهي الإبل الحمراء ، وهي من أنفس الأموال عند العرب .
(حُمُر) بضم الحاء وسكون الميم جمع أحمر ، كقوله تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحُمْر) .
وأما (حُمُر) بضم الحاء والميم فهي جمع حمار ، كقوله تعالى (كأنهم حُمُرٌ مستنفرة) .
- ٦ . جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون (يعني : غافلون) وأنعامهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم . والجمع بينه وبين حديث الباب أن بني المصطلق بلغتهم الدعوة ، فلا يجب تكرارها عليهم .
قال النووي في شرح مسلم : وفي هذا الحديث جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة من غير إنذار بالإغارة ، وفي هذه المسألة ثلاثة مذاهب حكاهما المازري ، والقاضي : أحدها : يجب الإنذار مطلقاً . قاله مالك وغيره ، وهذا ضعيف .
والثاني : لا يجب مطلقاً ، وهذا أضعف منه أو باطل .
والثالث : يجب إن لم تبلغهم الدعوة ، ولا يجب إن بلغتهم ، لكن يستحب ، وهذا هو الصحيح ، وبه قال نافع مولى بن عمر ، والحسن البصري ، والثوري ، والليث ، والشافعي ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، والجمهور ، قال ابن المنذر : وهو قول أكثر أهل العلم ، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه ، فمنها هذا الحديث ، وحديث قتل كعب بن الأشرف ، وحديث قتل أبي الحقيق .

٥ - بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} .

وَقَوْلِهِ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} الآية.

وَقَوْلِهِ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} الآية.

وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؛ حَزَمَ مَالَهُ وَدَمَهُ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ﷻ)) .. وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب .

٥ - بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ^(١)

الباب الخامس

وخلاصته : بيان بعض لوازم التوحيد التي تبين حقيقته .

يرى بعض الشراح أن هذا الباب تأكيد لما سبق بيانه من معنى التوحيد في مقدمة الشيخ ، والأقرب أن ما ذكر في مقدمة الشيخ من معنى التوحيد هو ذكر مجمل لمعنى التوحيد ، وهو ما اشتمل على الإثبات والنفي ، وفي هذا الباب تجلية أكبر لمعنى التوحيد ، وذكر لبعض لوازمه التي قد تخفى على كثير من الناس ، فالتوحيد ليس كلمة تقال فحسب ، بل هذه الكلمة العظيمة لها لوازم لا بد أن يلتزم بها ، ذكر الشيخ هنا بعض هذه اللوازم ، وهي : وجوب البراءة من كل ما يعبد من دون الله ، ووجوب إفراد الله بالتشريع والحكم ، ووجوب إفراده بالطاعة المطلقة ، وإفراده أيضاً بمحبة العبادة ، وكل هذه المعاني من لوازم كلمة التوحيد ، لا يتم إلا بها ، وسيفرد لها أبواباً تخصها ، وذكر الشيخ أن كل ما يأتي من الأبواب بعد هذا الباب فهو تفسير لحقيقة التوحيد ، وبيان لكلمة لا إله إلا الله ، وتجلية لما يناقضها ، كما قال هنا : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله : يعني أن ما يأتي بعد هذه الترجمة من الأبواب شرح للتوحيد ، وشهادة ألا إله إلا الله ، لأن معنى التوحيد ، وشهادة ألا إله إلا الله ، أن لا يعبد إلا الله ، ولا يعتقد النفع والضرر إلا في الله ، وأن يكفر بما يعبد من دون الله ، ويتبرأ منه ، ومن عابديها ، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات والاعتقادات التي يجب إخلاصها لله تعالى ، وذلك هو معنى التوحيد ، وشهادة ألا إله إلا الله ، والله أعلم أ.هـ

(١) وهذا العطف له توجيهان :

١ . من باب عطف المترادفين . والمعنى : تفسير هاتين الكلمتين ، وجاء بالعطف لتغاير اللفظ .

٢ . من باب عطف الدال على المدلول . لأن لا إله إلا الله مفسرة للتوحيد ودالة عليه .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} الآية .

جاء في الآية قبلها (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً * أولئك الذين يدعون ...) . والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ادعوا آلهتكم وما تعبدون من دون الله لكشف الضر عنكم ، أو جلب الخير لكم ، فإنهم لا يستطيعون ذلك كله ولا بعضه ، بل كل ذلك بيد الله ، فلا يستطيعون كشف الضر عنكم ، ولا تحويله عنكم إلى غيركم ، أو تحويله من مكان إلى آخر ، كأن يكون في الرأس ويحوّله في القدم ، أو تحويله من قوة إلى خفة ، فدل على بطلان عبادة أولئك . ثم ذكر الله في هذه الآية معبودات خاصة من أهل الصلاح عُبدت من دونه بدون رضا منهم ، كالملائكة ، والأنبياء ، وصالحى الجن ، فيوبخ الله المشركين في عبادتهم لأولئك ، مبيناً أن من توجهتهم إليهم ، وطلبتهم منهم القربى إلى الله ، هم بأنفسهم يطلبون القربى إلى الله ، ويرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، فهم محتاجون إلى الله فكيف تعبدونهم ! . وجاء في معنى قوله (أولئك الذين يدعون) عدة تفاسير للسلف لا تعارض بينها . من ذلك ما ذكره البخاري عن ابن مسعود أن هذه الآية في قوم من بني آدم أشركوا بأناس من الجن ^(١) وأسلم أولئك الجن ، ولم يشعر هؤلاء الآدميين بإسلام أولئك ، فبقي الآدميون على شركهم وقد أسلم الجن . قال ابن تيمية : وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعواً ، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ، ويرجو رحمته ، ويخاف عذابه .

والشاهد من الآية أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة ، وأن الشرك هو صرف العبادة لغير الله ، سواء كان المصروف له من الصالحين أم من غير الصالحين ، وسواء كان عاقلاً أم غير عاقل ، لأن بعض الناس قد يختلط عليه الأمر فيظن أن الشرك هو عبادة الأصنام فقط .

ومن فوائد هاتين الآيتين : بيان طريقة القرآن في تقرير توحيد الألوهية للمشركين ، وقد سلك القرآن عدة طرق في ذلك من أشهرها :

- ١ . تقريرهم بتوحيد الربوبية ، وإلزامهم بذلك وهو إفراده بالألوهية ، وهذه هي أكثر طرق القرآن في تقرير الألوهية ، فإذا كان الله هو المتفرد بالملك ، والخلق ، والرزق ، والتدبير ، وجب أن يفرد بالتوجه ، والقصد ، والدعاء .
 - ٢ . ذكر ضعف الآلهة ، وعدم قدرتها على نصر عابديها ، أو كشف الضر عنهم ، أو جلب الخير لهم ، أو دفع الشر عنهم ، أو إمساك الرحمة عنهم .
 - ٣ . ذكر مآل معبوداتهم في الآخرة ، وأنها تنبرأ منهم .
- وانظر في ذلك كتاب (دعوة التوحيد) للشيخ محمد خليل الهراس .

(١) يصح أن يطلق (أناس) على الجن قال تعالى (الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) .

وَقَوْلِهِ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} الآية.

في هذه الآية بيان أن من لوازم كلمة التوحيد : البراءة من كل ما عبد من دون الله ، وهذه البراءة لا بد أن تكون بالقلب ، وإظهار ذلك باللسان والعمل على قدر الطاقة والإمكان .
قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليفه ، إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ، ومذهبها ، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان .
ومعنى (وجعلها كلمة باقية في عقبه) الكلمة هي لا إله إلا الله ، جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذريته .

وَقَوْلِهِ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} الآية.

في هذه الآية بيان أن من لوازم كلمة التوحيد أن تكون الطاعة المطلقة لله ، فمن أطاع أحداً غير الله طاعة مطلقة في كل شيء ، أو اعتقد ذلك له ، فقد اتخذ رباً من دون الله .
وأن من لوازم كلمة التوحيد إفراد الله بالتشريع ، فمن شرع للناس شرعاً يضاد شرع الله فقد جعل نفسه رباً من دون الله .
وبيان ذلك في تفسير هذه الآية ، حيث جاء عند أحمد ، والترمذي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : إنا لسنا نعبدهم ، فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ قال : قلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم .
فسمى الطاعة في التشريع عبادة .
ومنه قوله تعالى (وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون) .
وهذا الحديث وإن كان في سنده ضعف ، لكن جميع المفسرين فسروا الآية به ، كما قال في تيسير العزيز الحميد .
ويأتي الكلام عن هذه المسألة في باب مستقل إن شاء الله .

وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} .

في هذه الآية بيان أن من لوازم كلمة التوحيد إفراد الله بالعبادات القلبية ، كالحبة ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل... فمن صرف أنواع هذه العبادات لغير الله فقد ناقض كلمة التوحيد .
لكن هذه الأعمال لها أحوال ، والمحذور هو صرفها لغير الله على وجه التعبد ، ويأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في أبواب مستقلة قريباً .

ولأهل التفسير في معنى قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) وجهان :

١ . يحبون آلهتهم كحبهم لله . وعليه يكون المشركون يحبون الله . ورجحه ابن تيمية ، وأنكر التفسير الآخر .

٢ . يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله . فلم يثبت لهم محبة الله^(١) .

ومعنى قوله تعالى (والذين آمنوا أشد حبا لله) ترجع إلى التفسيرين السابقين :

١ . أن المؤمنين أشد حبا لله من هؤلاء الله .

٢ . أن المؤمنين أشد حبا لله من هؤلاء لآلهتهم .

قال ابن تيمية : فبين سبحانه أن المشركين الذين يتخذون من دون الله أندادا وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله ، فالذين آمنوا أشد حبا لله منهم الله ، ولأوثانهم ، لأن المؤمنين أعلم بالله ، والحب يتبع العلم ، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده وأولئك جعلوا بعض حبهم له ، وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ، ومعلوم أن ذلك أفضل .
فكيف بمن يحب وليه أكثر من محبته لله ، كمن يحلف بالله كاذباً ، ولا يمكن أن يحلف بالولي كاذباً !.

(١) وذكر بعضهم معنى ثالثاً ، وهو أن المراد يحبون آلهتهم محبة كمحبة الله ، وهي محبة العبادة . كما ذكر ذلك الشيخ محمد حامد الفقي ، في تحقيقه لفتح المجيد ، وذكر ذلك الشيخ عبد الرحمن بن محمد القاسم في حاشيته على كتاب التوحيد .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؛ حُرِّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ ﷻ)) . وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : أن من لوازم كلمة التوحيد : الكفر بكل ما عبد من دون الله، فلا تكفي لا إله إلا الله إلا بأن يكفر بما عبد من دونه. وقد ركز الشيخ على هذا الحديث كثيراً في رسائله ، وذكر هنا في مسائل هذا الباب قوله : وهذا من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا المعرفة لمعناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك ، بل ولا يكون يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما عبد من دون الله ، فإن شك ، أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فialها من مسألة ما أجلها ، ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع أ.هـ

قال في فتح المجيد : وهذا هو الشرط المصحح لقوله (لا إله إلا الله) فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التي ذكر المصنف .

٦- بَابُ مِنَ الشُّرُكِ لُبْسُ الْحَلَقَةِ وَالْخَبِطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ} الآية.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلَقَةً مِنْ صُفْرِ ، فَقَالَ : ((مَا هَذِهِ ؟)) قَالَ : مِنَ الْوَاهِنَةِ .
فَقَالَ : ((انْزِعْهَا ؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا ، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ .

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ - مَرْفُوعًا - : ((مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ)) .

وَفِي رِوَايَةٍ ^(١) : ((مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ)) .

وَلَا بَنِي أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُدَيْفَةَ : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَى ، فَقَطَعَهُ ، وَتَلَا قَوْلَهُ : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

(١) حديث آخر عند أحمد .

٦ - بَابُ مِنَ الشَّرْكِ لُبْسُ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ^(١)

الباب السادس

وخلاصته : إبطال التعلق بالأسباب الوهمية .

وقفه هذا الباب - وبابان بعده - يدور حول وجوب إفراد الله بالتعلق , لأن الله وحده الذي بيده جلب الخير ودوامه , ودفع الشر ورفع , والمتعلق ما تعلق بشيء إلا لهذين الأمرين .

وعليه فلا ينبغي التعلق بالأسباب الوهمية , لأنها لا تنتهي إلى نتيجة صالحة , وكذا لا ينبغي التعلق بالأسباب الصحيحة , لأن الأسباب لا تؤثر إلا بقدر الله , فإذا باشر العبد السبب الجائر وجب أن يعلق قلبه بالله لا بالأسباب .

قال ابن القيم : فأساس الشرك وقاعدته التي بُني عليها التعلق بغير الله .

وقد ذكر أهل العلم بعض القواعد في الأسباب , ومن ذلك :

١. أن الأسباب لا تثبت كونها أسباباً صحيحة إلا بطريقتين , وهما :

أ. النص عليها بدليل من الكتاب أو السنة : مثل : القرآن , والعسل , والحبة السوداء . وتسمى : الأسباب الشرعية .

ب. التجربة : وتسمى : الأسباب القدريّة أو الكونية .

ويشترط أن تكون العلاقة في التجربة بين السبب والمسبب ظاهرة واضحة عند أهل الاختصاص , كالأدوية للأمراض .

وإنما قلنا : لا بد من أن تكون العلاقة ظاهرة , حتى لا يفتح باب لا يغلُق , فكلما أنكر سبب قيل : ثبت بالتجربة نفعه .

ومنه قول بعضهم : ثبت أن الجن تخاف من الذئب , فيعلقون جلده دفْعاً للعين , وثبت بالتجربة أن الحلقة على اليد تدفع العين , وهكذا...

٢. أنه لا يجوز الاعتماد على هذه الأسباب , بل يعتمد على مسببها ومقدرها , وهو الله سبحانه , مع قيامه بالمشروع منها , وحرصه على النافع منها .

٣. أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره , ولا خروج لها عنه , فإن شاء الله أبقي أثرها , وإن شاء تعالى عطل ذلك بقدرته , وحكمته , كما حصل في نار إبراهيم عليه السلام .

٤. أن هذه الأسباب لا يكفي وجودها لحصول أثرها , بل لا بد من انتفاء موانعها .

٥. ترتب النتيجة على السبب لا يدل على صحة السبب , فالنظر يكون إلى ثبوت السبب - بالأمرين السابقين مع عدم تحريمه - لا إلى أثره , فالسحر له أثر , فربما جمع بين الزوجين , وأرجع الضائع... والسرقة تجلب المال , وهكذا...

وعند أحمد , وأبي داود عن زينب امرأة ابن مسعود أن عبد الله بن مسعود رأى في عنقي خيطاً فقال : ما هذا ؟ قلت : خيط رُقي لي فيه , قالت : فأخذه فقطعه , ثم قال : أنتم آل عبد الله الأغنياء عن الشرك , سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الرقي ,

والتمايم , والتولة شرك) فقلت : لم تقول هكذا ؟ لقد كانت عيني تقذف , وكنت اختلف إلى فلان اليهودي , فإذا رقاها

(١) هذا الباب وبابان بعده تدور حول الكلام عن الأسباب .

وقول المصنف (لرفع البلاء أو دفعه) ليبين أنها لو لبست لغير ذلك فليست شركاً , بل جائزة في حق النساء إن كان ما يُنْزِل به , وممنوعة في حق الرجال لغير حاجة .

ومن هذا الباب إلى نهاية الكتاب يفسر المصنف حقيقة كلمة التوحيد , وذلك ببيان ما يضاد هذه الكلمة من الأقوال والأعمال والإرادات , وبدأ رحمه الله بالشرك الأصغر من جهة الأسباب .

سكنت ، فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، ينخسها بيده ، فإذا رقى كف عنها ، إنما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول : أذهب البأس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً . صححه الألباني .

٦ . لا أحد يوجد المسببات إلا بمباشرة الأسباب لها ، إلا الله وحده .

فالولد لا يأتي إلا بالاتصال ، وقد جاء عيسى عليه السلام بدونه ، والطيران لا يكون إلا بآلة ، والانتقال من بلد إلى بلد كذلك ، فإن حصل دون هذا السبب الظاهر علمنا أنه من إعانة الشياطين ، كما هو عند غلاة المتصوفة .

٧ . الأصل أن الأسباب لا تتخلف عنها نتائجها إلا بخارقة ، أو مانع ، والخارقة تكون إما آية لنبي ، أو كرامة لولي .

فالنار تحرق دائماً ، وقد جعلها الله جل شأنه برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام ، آية من الله ، والسم يقتل وقد شربه خالد بن الوليد ولم يصبه سوء ، كرامة من الله .

وعليه لو قيل : فلان يأكل النار ولا تحرقه ، أو يمشي على الجمر ولا يحرقه ، أو يجرح الإنسان ويجرى له عملية بدون نزول الدم ، فكل هذا من الدجل على الناس .

تنبيه : يمكن أن يتدرب الإنسان على قوة التحمل فيمشي على الجمر مثلاً ، لكن لا يمكن أن يذهب الإحراق عن الجمر أبداً ، لأنه تعطيل لنتيجة السبب ، وهذا الله وحده .

ومن أمثلة ما يستعمله بعض الناس من الأسباب وهو محرم : الإسورة المغناطيسية التي توضع على الركبة ، أو غيرها ، ويعتقد أنها تعالج الروماتيزم^(١).

وضع جلد التمساح ، أو الذئب على البيت ، أو الدكان ، أو السيارة لدفع العين .

وضع سكين ، أو حديدة عند رأس الطفل ، لدفع الجن عنه .

وضع حبة البركة في جوانب البيت ، أو السيارة طلباً للبركة .

لبس خاتم معين لجلب المحبة ، أو لدفع العين .

اعتقاد أن الدبلة تجلب المحبة بين الزوجين .

تعليق حذوة الفرس ، أو الخرق السوداء ، لدفع العين ، ونحو ذلك .

وضع مصحف في السيارة ، أو البيت ، أو عند رأس الصبي ، لدفع العين .

(١) وسئل شيخنا ابن عثيمين عن حكم لبس السوار لعلاج الروماتيزم ؟

فأجاب : اعلم أن الدواء سبب للشفاء ، والمسبب هو الله تعالى ، فلا سبب إلا ما جعله الله تعالى سبباً ، والأسباب التي جعلها الله تعالى أسباباً نوعان :

النوع الأول : أسباب شرعية ، كالقرآن الكريم ، والدعاء ، كما قال النبي ﷺ في سورة الفاتحة : وما يدريك أنها رقية؟

وكما كان النبي ﷺ يرقى المرضى بالدعاء هم فيشفى الله تعالى بدعائه من أراد شفاؤه به .

النوع الثاني : أسباب حسية ، كالأدوية المادية المعلومه عن طريق الشرع ، كالعسل ، أو عن طريق التجارب مثل كثير من الأدوية ، وهذا النوع لا بد أن يكون تأثيره عن طريق المباشرة لا عن طريق الوهم والخيال ، فإذا ثبت تأثيره بطريق مباشر محسوس صح أن يتخذ دواء يحصل به الشفاء بإذن الله تعالى ، أما إذا كان مجرد أوهام وخیالات يتوهمها المريض فتحصل له الراحة النفسية بناء على ذلك الوهم والخيال ، ويوهن عليه المرض ، وربما ينسبط السرور النفسي على المرض فيزول ، فهذا لا يجوز الاعتماد عليه ، ولا إثبات كونه دواء ، لئلا ينساب الإنسان وراء أوهام والخيالات ، ولهذا نُهي عن لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع المرض أو دفعه ، لأن ذلك ليس سبباً شرعياً ولا حسياً ، وما لم يثبت كونه سبباً شرعياً ولا حسياً لم يجوز أن يجعل سبباً ، فإن جعله سبباً نوع من منازعة الله تعالى في ملكه ، وإشراك به ، حيث شارك الله تعالى في وضع الأسباب لمسبباتها ، وقد ترجم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لهذه المسألة في كتاب التوحيد بقوله (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لدفع البلاء أو رفعه) .

وما أظن السوار الذي أعطاه الصيدلي لصاحب الروماتيزم الذي ذكر في السؤال إلا من هذا النوع ، إذ ليس ذلك السوار سبباً شرعياً ولا حسياً تعلم مباشرته لمرض الروماتيزم حتى يبرئه ، فلا ينبغي للمصاب أن يستعمل ذلك السوار حتى يعلم وجه كونه سبباً ، والله الموفق .

قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله تعالى : وهذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء ، بل لمجرد التبرك ، والزينة ، كالقلائد الذهبية ، أو الحللي التي يكتب عليها لفظ الجلالة ، أو آية الكرسي ، أو القرآن كاملاً ، فهذا كله من البدع أ.هـ . وهناك ما يسمى بـ (طاسة السم) يسقى منها المسموم ، ويزعمون أنه يشفى ، وهذه محرمة ، كما أفق ابن باز . وهناك أيضاً ما يسمى بـ (طاسة الجن) أو (طاسة الفجعة) يسقى منها المفجوع ، وهذه أيضاً محرمة .

ومن أمثلة الأمور المحرمة أيضاً : اعتقاد بعض الناس أنه إذا رقت عينه سيحضر ضيف ، أو تنملت يده أنه سيسلم على حبيب ، أو تأتبه نقود ، أو أنه إذا غص أو شَرِقَ اعتقد أن أحداً اغتابه ، ومنها إذا سقط إنسان بصق على مكان سقوطه ، أو وضع عليه ملح ، أو وضع تحت شفته ملح .

ومن ذلك قول بعضهم : لا تمشي من فوق المضطجع ، حتى لا يقصر ، أو ينقص عمره .

ومن ذلك اعتقاد بعضهم أن المقص إذا كان مفتوحاً جلب المصائب .

وكذلك اعتقاد البعض أن تشبيك الأصابع أثناء عقد القران (الزواج) سبب للشؤم .

وكل هذه الصور من باب الخرافات المحرمة .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ} الآية.

يقول سبحانه : رأيتم هذه المعبودات التي تتوجهون إليها من دون الله ، هل تدفع عنكم الضر ، أو تكشفه عنكم إذا وقع ؟ وهل تجلب لكم الخير ، أو تمنعه عنكم ؟

والجواب : لا . إذن هي أسباب باطلة ، فيقاس عليها كل سبب باطل .

فالآية تبطل التعلق بكل سبب باطل ، وتوجه التعلق بالله وحده النافع الضار سبحانه ، ولذا قال تعالى في ختام هذه الآية (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) .

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلَقَةً مِنْ صُفْرِ ، فَقَالَ : ((مَا هَذِهِ ؟)) قَالَ : مِنَ الْوَاهِنَةِ . فَقَالَ : ((انْزِعْهَا ؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا ، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ .

تخرجه : رواه أحمد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وضعف هذا الحديث الألباني رحمه الله .

والشاهد : أنه ﷺ أبطل هذا السبب ، وأمر بإزالته ، ونبه على خطره في الدنيا والآخرة .

وجاء في رواية الحاكم أن هذا الرجل هو عمران راوي الحديث ، حيث قال : دخلتُ على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة من صفر....

وقوله (حلقة من صفر) أي : من نحاس .

والواهنة : مرض يوهن الجسم ويضعفه ، وقيل : هو خاص باليد ، أو بالكتف .

قال ابن الأثير : الواهنة عرق يأخذ في المنكب ، وفي اليد كلها ، فيرقى منها ، وقيل : مرض يأخذ في العضد ، وربما علق عليها جنس من الخرز يقال له (خرز الواهنة) وهي تأخذ الرجال دون النساء ، وقال : وإنما نجاه عنها ، لأنه اتخذها على معنى أنها تعصمه من الألم ، فكان عنده في معنى التمايم المنهي عنها .

وقوله ﷺ (فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا) فيه دليل على أن الشرك بأنواعه من أكبر الأسباب الجالبة للوهم ، والوهن ، والضعف ،

كما قال تعالى (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) وقال تعالى (وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) وعلى عكس ذلك فإن التوحيد من أقوى الأسباب الجالبة لطمأنينة القلب ، وقوته ، وثباته ، كما قص الله عن خليله إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار قال (حسبنا الله ونعم الوكيل) ولما حاصرت قريش رسول الله ﷺ في الغار قال لأبي بكر (لا تحزن إن الله معنا) وقال تعالى عن المؤمنين في غزوة أحد (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ومن نظر في كتاب الله ، وما قصه من قصص السابقين أفراداً وأماً يجد أن هذه الحقيقة كالشمس في رابعة النهار .

وفي هذا الحديث على فرض صحته إشكال ، وهو قوله ﷺ (فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً) وهذه العبارة تفيد أن هذا الفعل من الشرك الأكبر الموجب للخلود في النار .
وقد أجاب بعض أهل العلم بأجوبة فيها نظر ، وأقربها للصواب والله أعلم أن هذه الجملة شاذة تفرد بها خلف بن الوليد عن بقية الرواة الذين رووه عن مبارك بن فضالة بلفظ (فإنك إن مت وهي عليك وُكِلَتْ إليها) .

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ - مَرْفُوعًا - : ((مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ)) .

تخرجه : رواه أحمد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال المنذري : إسناده جيد ، وضعفه الألباني .
والشاهد : أنه ﷺ أبطل هذه الأسباب ، ودعا على أصحابها بحصول نقيض قصدهم ، وهذا يدل على تحريمها .
والتميمة : يأتي تعريفها في الباب اللاحق إن شاء الله تعالى .
والودعة : أصداف تخرج من البحر يعتقدون فيها دفع العين .
وهي إما مأخوذة من الإيداع والترك ، وذلك أن البحر ينضب عنها فيتركها على الشاطئ ، أو مأخوذة من الدعة والسكون لما يحصل لصاحبها إذا وضعها كما يزعمون .
ومعنى (فلا ودع الله له) لا جعله الله في دعة وسكون ، أو لا ترك الله له ما يجب .

وَفِي رِوَايَةٍ : ((مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ)) .

تخرجه : قال في تيسير العزيز الحميد : وقوله (وفي رواية) يوهم أن هذا في بعض الأحاديث المذكورة ، وليس كذلك ، بل المراد أنه في حديث آخر رواه أحمد... عن عقبة بن عامر : أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة ، وأمسك عن واحد ، فقالوا : يا رسول الله بايعت تسعة وأمسكت عن هذا ؟ قال عليه السلام : إن عليه تيممة ، فأدخل يده فقطعها ، فبايعه ، وقال : من علق تيممة فقد أشرك .

وقد رواه أحمد ، والحاكم ، وصححه الألباني .

والشاهد : أنه ﷺ بين بطلان هذا السبب ، وذكر حكمه ، وأنه شرك .

وَلَا بَنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَى ، فَقَطَعَهُ ، وَتَلَا قَوْلَهُ : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

تخرجه : نص هذا الأثر كما عند ابن أبي حاتم : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه ، أو انتزعه ، ثم قال : وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . وإسناده فيه ضعف .

والشاهد : أن حذيفة رضي الله عنه بين بطلان هذا السبب ، وذكر حكمه ، وأنه شرك .

٧ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه : أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا : أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ - أَوْ قِلَادَةً - إِلَّا قُطِعَتْ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ الرُّقَى ، وَالتَّمَائِمَ ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ - مَرْفُوعًا - : ((مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ .

" التَّمَائِمُ " : شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ ، لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَرَحَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَرْحُصْ فِيهِ ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه .

و" الرُّقَى " : هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ ؛ فَقَدْ رَحَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ .

و" التَّوَلَةُ " : هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا ، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ .

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ زُوَيْفِعٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا زُوَيْفِعُ ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ تَطُولُ بِكَ ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ حَيَاتَهُ ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا ، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ)) .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ . رَوَاهُ وَكَيْعٌ .

وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ .

٧ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

الباب السابع

وخلاصته : النهي عن الرقى الشركية , وعن تعليق التمايم بأنواعها .

وكل النصوص التي ذكرها المصنف هنا تمنع من الرقى والتمايم .

وهذا الباب قريب من الباب السابق , بل إن عدداً من النصوص المذكورة هنا ألصق بالباب السابق منها بهذا الباب , فإن تعليق الأوتار على الدواب يشبه تعليق الحلقة والخيط على الإنسان .

ولعل مقصود المصنف من أفراد هذا الباب : بيان نوع من أنواع الأسباب الغير شرعية في رفع البلاء أو دفعه , وهي الرقى المحرمة , والتمايم , والله تعالى أعلم .

والفرق بين الرقى والتمايم أن الرقى أقوال وألفاظ ينفث بها على المصاب , والتمايم أحرار مكتوبة .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

تعريف الرقية : الرقية هي : ألفاظ تُقرأ على المصاب بقصد رفع البلاء عنه غالباً^(١) .

وعرفها ابن الأثير بقوله : الرقية : العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة , كالحمى , والصرع , وغير ذلك من الآفات .
وعرفها المصنف هنا بقوله (وهي التي تُسمى العزائم) ولعله هو المصطلح العربي في زمن المصنف , ووجه تسميتها بذلك أن الراقي كأنه يعزم على الجني بالخروج من المصاب .

وتنقسم إلى قسمين :

١. رقية شرعية : وهي التي تكون بالقرآن , أو السنة , أو الأدعية المباحة^(٢) .

٢. رقية شركية : وهي التي يكون فيها استغاثة بغير الله , أو دعاء غير الله^(٣) .

والرقية الشرعية جائزة بالإجماع فقد رقى النبي ﷺ ورقى , وقال ﷺ : لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك . رواه مسلم
وسبق التفصيل فيها .

قال السعدي : فإنها مندوبة في حق الراقي , لأنها من باب الإحسان , ولما فيها من النفع , وهي جائزة في حق المرقى , إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدئ بطلبها .

وقال ابن حجر : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١. أن يعتقد أنها سبب , والمؤثر هو الله سبحانه .

٢. أن تكون بالقرآن , أو الأذكار , أو الأدعية المباحة .

٣. أن تكون باللغة العربية لمن يعرفها , أو تكون معلومة المعنى إذا كان الراقي لا يعرف العربية أهـ .

واشترط العلماء اللغة العربية خشية أن يكون في الرقية استغاثة بالجن والشياطين , وعليه فإن كانت بلغة أخرى وكان السامع

يعرف هذه اللغة فلا بأس بذلك , وهذا مراد ابن حجر بقوله : أو تكون معلومة المعنى إذا كان الراقي لا يعرف العربية .

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى : فإن المشركين يقرءون من العزائم والطلاسم والرقى ما فيه عبادة للجن وتعظيم لهم , وعامة ما بأيدي الناس من العزائم والطلاسم والرقى التي لا تفقه بالعربية فيها ما هو شرك بالجن , ولهذا نهي علماء المسلمين عن الرقى التي لا يفقه معناها , لأنها مظنة الشرك , وإن لم يعرف الراقي أنها شرك .

وأما اشتراط السماع , فالصحيح أنه إذا كان الراقي ثقة , كأهل العلم فلا يشترط السماع , وأما إذا كان مجهول الحال فيشترط السماع , خشية الوقوع في الرقية الممنوعة .

(١) والرقية الشرعية تكون من أجل الحاجة من مرض ونحوه , وتكون من أجل التحصين والوقاية , ومنها ما يدخل في باب الأذكار .

(٢) المراد بالأدعية المباحة هنا : التي لم ترد في النصوص مثل : اللهم : اشفه , وارفع عنه , ونحو ذلك .

ويلاحظ أن الألفاظ الواردة خير من غيرها , لشمولها ودقة ألفاظها . والقاعدة أن الوارد أفضل من غير الوارد .

(٣) وقد تكون بدعية , كما لو حصل تحديد أذكار معينة , أو طرق بدعية في الرقية , وقد تكون محرمة , كما لو كان هناك مس لجسد المرأة من قبل الرجل , أو الخلوة بها .

وقد ذكر أهل العلم عدة طرق للرقية الشرعية من خلال ما ثبت من النصوص الشرعية ، وما ورد عن بعض السلف ، ومن ذلك :

- ١ . القراءة المباشرة ثم النفث على مكان الوجع .
- كما جاء ذلك في عدة أحاديث ، منها ما روته عائشة في الصحيحين : كان ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث .
- ٢ . أن يقرأ في يديه ثم يمسح على جسده ، أو جسد غيره كما عند النوم .
- روى عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه يديه ، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفق أن نفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث ، وأمسح بيد النبي ﷺ .
- وفي طريق آخر : قالت عائشة : وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت الزهري : كيف ينفث ؟ قال : كان ينفث على يديه ، ثم يمسح بهما وجهه .
- ٣ . الإمساك على موضع الألم مع القراءة دون نفث .
- جاء في حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده منذ أسلم ، فقال له رسول الله ﷺ : ضع يدك على الذي تألم من جسدك ، وقل (بسم الله) ثلاثاً ، وقل سبع مرات (أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) رواه مسلم
- ٤ . أن يقرأ في الماء ثم يشربه ، أو يغتسل به هو أو غيره ، وهذه فيها خلاف ، والصحيح جوازها لورود ذلك عن النبي ﷺ .
- جاء في حديث ثابت بن قيس أن النبي ﷺ قرأ عليه في ماء ثم صبه عليه . رواه أبو داود .
- وعن عبدالله بن الإمام أحمد قال : ورأيت - أي : الإمام أحمد - يعوذ في الماء ويشربه المريض ، ويصب على رأسه منه .
- ٥ . أن يقرأ وينفث على إصبعه حتى يلتصق الريق بالإصبع ، ثم يضع الإصبع في التراب ، ثم يمسح على المصاب بهذا التراب المختلط بالريق .
- عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقول للمريض : بسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يُشفى سقيمنا ، بإذن ربنا . متفق عليه .
- ٦ . كتابة الآيات والأذكار في الإناء ثم يشربه ، أو يغتسل به هو أو غيره ، وهذه فيها خلاف ، والأولى تركها ، والاعتماد على الرقية الشرعية المنقولة عن النبي ﷺ .
- ودليل الجواز ، ورود ذلك عن ابن عباس ، ومجاهد ، وأبي قلابة ، وأحمد ، وغيرهم .
- ففي شرح السنة للبغوي : قال مجاهد : لا بأس أن يكتب القرآن ويغسله ، ويسقيه المريض ، ومثله عن أبي قلابة ، وكرهه النخعي ، وابن سيرين ، وروي عن ابن عباس ، أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسر عليها ولادتها آيتين من القرآن ، وكلمات ، ثم يغسل ، وتسقى ، وقال أيوب : رأيت أبا قلابة كتب كتاباً من القرآن ، ثم غسله بماء ، وسقاه رجلاً كان به وجع . يعني : الجنون أ.هـ
- وفي مسائل أبي داود قال : سمعت أحمد سئل عن الرجل يكتب القرآن في شيء ثم يغسله ويشربه؟ قال : أرجو ألا يكون به بأس .
- ومن اختار الجواز : ابن تيمية ، وابن القيم ، والشيخ محمد بن إبراهيم ، وابن باز .
- وقال ابن باز : والكتابة في الورق والصحن فعله بعض السلف ، وروي عن ابن عباس ، ولكن لم يثبت ، ولا بأس به ، ذكره ابن القيم في الزاد ، ولكن الرقية أفضل أ.هـ
- وأما كتابة الآيات على عصاً يضرب بها المصروع ، أو كتابته على ورق يحرق ويتبخر به المريض ، فلا يجوز .
- وأفتى شيخنا أنه لا يجوز الشرب في الأواني المكتوب فيها آية الكرسي ، لما فيها من الامتهان ، ولعدم ورود ذلك عن السلف .

تعريف التميمة :

الأصل في التميمة أنها أوراق يكتب فيها بعض الأحراز ثم تُحْرَز وتُخَاط ، ثم تعلق على المصاب أو من يُراد حفظه من الجن أو العين .

وعرفها الشيخ هنا بقوله : شيء يعلق على الأولاد من العين .

ولها معنى أعم من ذلك فهي : كل ما يعلق أو يوضع لغرض دفع الشر أو جلب الخير .

فيدخل في ذلك : الحلقة ، والخيط ، والخرق السوداء التي تعلق لدفع العين ، وكل ما علق لدفع العين ، أو جلب نفع ، مأخوذة من التمام ، أي : يتم بها المقصود على زعمهم .

وتنقسم التمام من حيث الحكم إلى ثلاثة أقسام :

١. شرك أكبر : وهي ما كانت مشتملة على التعاويذ الشركية ، أو الاستغاثة بغير الله .

٢. شرك أصغر : وهي كل ما تُعلق به من أسباب غير شرعية ، أو قدرية ، لدفع الشر أو جلب الخير ، ولم يشتمل على تعاويذ شركية : من الخيط ، والحلقة ، وعين الذئب ، أو جلده ... وهذه الصور هي المنتشرة .

٣. أن تكون التميمة من القرآن ، أو الأدعية المباحة : وهذه الصورة حصل فيها خلاف بين السلف على قولين :

أ . جائزة : وأخص من ورد عنه هذا القول عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويروى أيضاً عن عائشة رضي الله عنها ، وهو رواية عن أحمد ، ونسبه بعضهم إلى الجمهور من الحنفية ، والمالكية ، والشافعية ، واختاره ابن عبد البر ، وابن حجر .
ودليلهم : أن الله سبحانه وتعالى وصف القرآن بأنه شفاء ، ولم يذكر سبحانه الوسيلة للاستشفاء به ، فدل أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة .

وحملوا المنع الوارد في النصوص على التمام الشركية .

ب . محرمة : وأخص من ورد عنه هذا القول عبد الله بن مسعود وتلاميذه ، وهو قول ابن عباس ، وهو ظاهر قول حذيفة ، وعقبة بن عامر ، وهو رواية عن أحمد ، وعليه الفتوى في اللجنة الدائمة ، وهو قول ابن باز ، واختاره الألباني ، وأفتى به شيخنا كما في ص ٣٨١ من فتاوى الشيخ التي جمعها الشيخ أشرف عبد المقصود . واستدلوا لذلك بعدة أدلة ، منها :

١. عموم الأدلة التي تنهى عن التمام ، ولا دليل مخصص لها .

٢. كان النبي ﷺ يحث على الرقى ويفعلها ، ولو كانت التمام من القرآن جائزة لفعلها أو حث عليها . وقالوا أيضاً : يلزم على القول بجوازها عدة محاذير منها :

١. أنه يشتبه علينا الحق بالباطل ، فإن الغالب في التمام المكتوبة أن تكون مخفية ، فيخفى علينا هل هي شركية ، أو من القرآن ، فيقل الإنكار على التمام الشركية ، ويفتح الباب للبسها .

٢. حصول الاتمهات لها ، كحال النوم ، وقد يدخل بها الخلاء ، خاصة إذا كانت على الأطفال .

جاء عند ابن أبي شيبة عن إبراهيم النخعي أنه كان يكره المعادة للصبيان ، ويقول : إنهم يدخلون بها الخلاء .

٣. الغالب أن واضعها يستغني بها عن الطريقة الشرعية ، وهي الرقية بالقرآن والسنة .

٤. بعض الجهلة يتعلقون بها ، ولا تكون عندهم مجرد أسباب .

٥. التعلق بما يضعف التوكل على الله أو يرفعه ، فترى الأم مثلاً إذا أرادت أن تغسل أبنائها ، ونزعت ذلك عنهم ، تسرع في غسلهم قبل أن يصيبهم مكروه ، وإذا نزعتها الطفل عوقب على ذلك ، خوفاً عليه من الإصابة .
وفي هذا إضعاف التوكل عند الطفل وأهله .

وأجابوا عن أدلة من قال بالجواز :

أما قولكم : إن القرآن نزل للاستشفاء به ولم يذكر الطريقة .

فيقال : إن القرآن نزل للشفاء بالطريقة التي بينها النبي ﷺ .

وأما ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنه يعلق على أولاده الذين لم يبلغوا دعاء الفزع ، وهو : بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه ، وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم .

فيجاء عنه بثلاث مقدمات :

١. إثبات الأثر ، فإن في إسناده محمد بن إسحاق ، وقد عنعن ، فالأثر في ثبوته نظر .

قال الألباني : لم يصح إسناده إلى ابن عمرو .

٢. لو فرضنا ثبوت الأثر ، فيجاء عنه بأن عبد الله بن عمرو لم يقصد التميمة ، وإنما قصد التعليم ، وحفظ الذكر ، بدليل أنه كان يعلقه على الصغار الذين لم يبلغوا ، ويحفظه الكبار ، ولو قصد التميمة لعلقه على الجميع ، وأيضاً جاء أنه يعلقه على ألواح ، فدل أنه يريد أن يحفظوه ، ولو قصد التميمة لكتبه على أوراق وعلقه .

جاء في فتوى اللجنة الدائمة : والظاهر أنه فعل ذلك معهم ليكرروا قراءة ما كتب ، حتى يحفظوه ، لا أنه فعل ذلك حفظاً لهم من الحسد أو غيره .

٣. لو فرضنا أنه أراد التميمة فإنه عمل صحابي خالفه من هو أعلم منه من الصحابة ، والعبرة بالنص أو بما أجمع عليه الصحابة ، والله أعلم .

وقفات مع أدلة الباب

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه : أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا : أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ - أَوْ قِلَادَةً - إِلَّا قُطِعَتْ .

تخرجه : متفق عليه .

قال في تيسير العزيز الحميد : وفي رواية أبي داود (ولا قِلَادَة) بغير شك ، والأولى أصح ، لاتفاق الشيخين عليها ، وللرخصة في القلائد إلا الأوتار أ.هـ

والشاهد : النهي عن تعليق الأوتار والقلائد بقصد دفع العين أو الآفات عن البهائم .

وذلك أن النبي ﷺ أبطل هذا السبب الذي كان يستعمله العرب لدفع العين عن بهائمهم ، حيث أنهم كانوا إذا بلي وتر القوس وضعوه في رقاب البهائم لدفع العين عنها ، فأبطل النبي ﷺ تأثير ذلك في دفع العين وحفظ البهائم ، ويلحق به كل ما كان في معناه ، كما يصنع بعض الناس اليوم من تعليق حذوة بالية ، أو نحو ذلك .

وأما تعليق القلائد لغرض صحيح فلا بأس به ، كما جاء في الصحيحين عن عائشة قالت : فتلت قلائد بُدِن رسول الله ﷺ بيدي ، ثم أشعرها ، وقلدها ، ثم بعث بها إلى البيت ، وأقام بالمدينة ، فما حرم عليه شيء كان له حلاً .
وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد) والمراد بالقلائد : الهدي المقلد .
وتقليد الهدي من المسائل الثابتة بالأحاديث الصحيحة .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ الرُّقَى ، وَالتَّمَائِمَ ، وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ .

تخرجه : الحديث رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وأقره الذهبي ، وصححه الألباني ، وقال ابن باز : لا بأس بإسناده .

وهذا الحديث ذكره المؤلف مختصراً ، ولفظه كما عند أبي داود : عن زينب امرأة ابن مسعود أن عبد الله بن مسعود رأى في عنقي خيطاً فقال : ما هذا ؟ قلت : خيط رقي لي فيه ، قالت : فأخذه فقطعه ، ثم قال : أنتم آل عبد الله الأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الرقى ، والتمايم ، والتولة شرك) فقلت : لم تقول هكذا ؟ لقد كانت عيني تقذف ، وكنت اختلف إلى فلان اليهودي ، فإذا رقاها سكنت ، فقال عبد الله : إنما ذلك عمل الشيطان ، ينخسها بيده ، فإذا رقى كف عنها ، إنما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول : أذهب البأس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

والشاهد : أن النبي ﷺ بين حكم هذه الأسباب ، وأنها شرك ، والمراد الرقى والتمايم الشركية .

ويستفاد من الحديث ما سبق تقريره من أن النتائج لا تدل على صحة السبب ، وأيضاً فقد تعين الشياطين الإنسان إضلالاً له ، والعياذ بالله .

وسبق تعريف الرقى ، والتمايم ، وأما التولة : فعرفها ابن مسعود كما في صحيح ابن حبان ، والحاكم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن : هذه الرقى ، والتمايم قد عرفناها ، فما التولة ؟ قال : شيء يضعه النساء يتحبن إلى أزواجهن .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ - مَرْفُوعًا - : ((مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ .

تخریجه : رواه أحمد ، والترمذي ، والحاكم ، وسكت عنه هو والذهبي ، وفي إسناده ضعف ، إلا أن له شواهد يتقوى بها ، وقد حسنه الألباني ، وقال ابن البنا في الفتح الرباني : قلت : هذا الحديث لا تقل درجته عن الحسن ، لا سيما وله شواهد تؤيده .
والشاهد : بيان ضلال من تعلق بغير الله ، وأنه يُوكَل إلى ما تعلق به ، ومن وكل إلى غير الله فقد وكل إلى ضعف وضيعة ، قال الله جل شأنه (وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) .

قال ابن القيم : ومتى علق قلبه بغيره - أي : الله - ورجاه وخافه وكل إليه وحُذِل من جهته .

والتعلق الممنوع نوعان :

بالفعل : وهو بمباشرة السبب غير الشرعي .

بالقلب : وهو الاعتماد على غير الله ، سواء كان السبب شرعياً أو غير شرعي .

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا رُوَيْفِعُ ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ تَطُولُ بِكَ ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا ، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ)) .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وحسنه النووي ، وصححه الألباني ، وقال ابن باز : والحديث فيه لين ، وله شواهد .
والشاهد : تحريم التعلق بالأسباب ، وذلك أن النبي ﷺ تبرأ ممن تعلق بالأسباب الغير شرعية .
وسبق أن معنى (تقلد وترًا) تعليق وتر القوس البالي على البهائم دفعاً للعين ، وحتى لا يصيبها مرض ، أو تعليق الوتر على نفسه أو غيره .

وقوله (عقد لحيته) له عدة معان من أشهرها :

١ . أن العرب كانت تفعل ذلك عند الحروب من باب التفاؤل لكسب الحرب ، وأنه سبب للتنشيط .

٢ . أنهم يفعلون ذلك تكبراً وافتخاراً .

٣ . المراد عقدها في الصلاة . قال أبو زرعة : والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة ، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع المتقدم ذكرها ، فهو موافق للحديث الصحيح في النهي عن كف الشعر والثوب ، فإن عقد اللحية فيه كفها وزيادة .
وقد سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن معنى عقد اللحية ، فقال : لا أعلمه ، لكن ذكر في الآداب ما يقتضي أنه شيء يفعل به بعض الناس في الحرب على وجه التكبر .

وفي هذا الحديث علامة من علامات النبوة ، حيث طالت الحياة برويعة رضي الله عنه .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ . رَوَاهُ وَكِيعٌ .

تخریجه : رواه وكيع في جامعه ، وابن أبي شيبة في مصنفه ، وإسناده ضعيف .
قال في تيسير العزيز الحميد : هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي ، فيكون على هذا مرسلاً ، لأن سعيداً تابعي أ.هـ

وخالف بعضهم في ذلك ، وقال : ربما يكون من باب الاجتهاد .

والشاهد : بيان ثواب من قطع التمام ، فدل أنها ليست سبباً شرعياً لدفع الشر أو جلب الخير .
ووجه الشبه بين قطع التمية وعق الرقبة ، أنه بقطع التمية خلصه من الشرك الموجب للنار ، فكأنه اعتق رقبتة منها ، أو لأنه أعتقه من وهم الشيطان .

وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ .

تخریجه : رواه وكيع في جامعه ، وابن أبي شيبة في مصنفه .

والشاهد : بيان أن تلاميذ ابن مسعود من التابعين كانوا يرون تحريم جميع أنواع التمام^(١) حتى لو كانت من القرآن ، وهذا إنما أخذوه ممن قبلهم .
وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم النخعي في حكاية أقوالهم .

(١) والكراهة في لغة الفقهاء : ضد الاستحباب ، فتكون كراهة تنزيه ، وأما في لغة الشرع ، وعند السلف المتقدمين فيراد بها التحريم ، وقد يراد بها التنزيه .
قال ابن تيمية : الكراهة في كلام السلف كثيراً أو غالباً يراد بها التحريم .

٨ - بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } الْآيَات (١).

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حَدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عَنْهَا ، وَيَنْوُطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا " ذَاتُ أَنْوَاطٍ " . فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((اللَّهُ أَكْبَرُ ! إِنَّمَا السَّنَنُ ، فُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : ((اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، لَتَرْكَبَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ .

(١) قال في تيسير العزيز الحميد : هكذا ثبت في خط المصنف (الآيات) يعني إلى قوله تعالى (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) .

٨ - بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

الباب الثامن

وخلاصته : النهي عن التبرك بالأشجار والأحجار ونحوهما^(١) .

والتبرك لغة : مأخوذ من البركة ، وأصل البركة : الثبوت واللزوم ، والزيادة والنماء^(٢) .

وشرعاً : طلب حصول البركة والخير من الشيء المتبرك به .

والتبرك الذي يقصده المصنف هنا هو التبرك الحسي^(٣) ، وهو طلب البركة من الأشياء بمباشرتها ، إما بالتمسح بها وهو الغالب ، أو بأكلها أو بشرها .

وهذا النوع من التبرك ينقسم إلى قسمين :

١ . مشروع : لنص الشريعة عليه ، ومنه : التبرك بالنبي ﷺ أو بآثاره ، فيحصل بها الشفاء والقوة بإذن الله تعالى ، جاء في صحيح البخاري عن ابن سيرين أنه قال : قلت لعبيدة : عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قَبْلِ أنس ، أو من قَبْلِ أهل أنس . فقال : لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها .

وعن أبي جحيفة قال : خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء فتوضأ ، ثم صلى الظهر ركعتين ، والعصر ركعتين ، وبين يديه عنزة كان يمر من ورائها المرأة ، وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بهما وجوههم ، قال : فأخذت بيده فوضعتها على وجهي ، فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك . رواه البخاري .

وعن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء ، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها ، فربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها . رواه مسلم .

وفي صحيح مسلم أن أسماء بنت أبي بكر أخرجت جبة طيالة ، وقالت : هذه كانت عند عائشة حتى قُبِضَتْ ، فلما قُبِضَتْ قبضتها ، وكان رسول الله ﷺ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى يُستشفى بها .

وقال عبدالله بن الإمام أحمد : ورأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ فيضعها على فيه يقبلها ، وأحسب أني قد رأيته يضعها على رأسه ، أو عينيه فغمسها في الماء ثم شربه ، يستشفى به ، ورأيت أنه قد أخذ قصعة النبي ﷺ بعث بها إليه أبو يعقوب بن سليمان بن جعفر فغسلها في حب - جرة كبيرة - الماء ثم شرب فيها .

ومن هذا النوع أيضاً : التبرك بشرب ماء زمزم ، والعسل ، وزيت الزيتون والإدهان به ، وأخذ الحبة السوداء ، فيحصل بذلك شفاء لبعض الأمراض بأمر الله تعالى .

ومنه أيضاً : طلب البركة بالأكل من جوانب الصحيفة لا من وسطها ، فيحصل بذلك زيادة الطعام ، لأن البركة تنزل في وسط الصحيفة كما أخبر النبي ﷺ بقوله : البركة تنزل في وسط الطعام ، فكلوا من حافتيه ، ولا تأكلوا من وسطه . رواه أحمد ، وأبو

(١) النصوص التي ذكرها المصنف هنا كلها تدل على المنع من التبرك ، ومما ذكره من الأشجار : العزى ، وما طلبه بعض الصحابة من جعل شجرة يتبركون بها ، ومما ذكره من الأحجار : مناة ، واللات على قول .

(٢) قال في معجم مقاييس اللغة (تَبَرَّكَ : الباء ، والراء ، والكاف ، أصل واحد ، وهو ثبات الشيء ، ثم يتفرع فروعاً يقارب بعضها بعضاً . يقال : برك البعير يُبرك بُرُوكاً) . وقال أيضاً في معجم مقاييس اللغة (قال الخليل : البركة من الزيادة والنماء) .

(٣) وهناك التبرك المعنوي ، وهو طلب حصول الأجر والثواب من الله بفعل بعض الأشياء ، ووجه البركة في ذلك ما يحصل من زيادة الأجر والثواب .

داود ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .

ومن ذلك كيل الطعام ، قال ﷺ : كيلوا الطعام يبارك لكم فيه . رواه البخاري .

وقال ﷺ عن المدينة : اللهم بارك لنا في مدنا وصاعنا . رواه البخاري .

٢. ممنوع : لعدم ثبوت البركة فيه ، أو طلب البركة منه بطريقة غير شرعية ، كالتمسح بالصالحين ، والحرص على شرب ما فضل من شرايهم ، أو طعامهم ، وغسل أقدامهم ، وشرب ذلك الماء ، كما يحصل عند الرافضة ، وغلاة المتصوفة . وأعظم من ذلك أن تفعل هذه الأفعال مع من لم يصلوا إلى درجة العلماء ، كالفساق من أهل الطرق الباطلة ، بل والسحرة ، والمشعوذين .

ولم يكن الصحابة يتبركون بفضل أبي بكر رضي الله عنه في الوضوء ولا غيره .

ومن هذا النوع : التمسح بأبواب المساجد وجدرانها ، وسواربها ، والتمسح بباب الكعبة وجدرانها ، والتمسح بمقام إبراهيم عليه السلام ، وبالحجرة النبوية ، أو المحراب النبوي ، أو الاستشفاء بتراب المدينة ، وأحجارها ، والتمرغ عليه ، كما يفعل الجهال اليوم . وأعظم من ذلك إثماً : التبرك بأماكن لم تثبت بركتها : كغار حراء ، وغار ثور ، وموقعة بدر ، ومكان المولد النبوي ، ومسجد العريش ، ومسجد الفتح ، ونحو ذلك .

وأعظم منه : التبرك بتراب قبر ولي ، والتمسح بجدار ضريح ، ونحو ذلك ، والله المستعان .

قال ابن تيمية : ولا شرع لأئمة زيارة موضع المولد ، ولا زيارة موضع بيعة العقبة ومعلوم أنه لو كان مستحباً يثيب الله عليه ، لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك ، وأسرعهم إليه ، ولكان علم الصحابة بذلك ، وكان أصحابه أعلم بذلك ، وأرغب فيه ممن بعدهم ، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثه .أهـ

قلت : بل كانوا ينهاون عن ذلك ، كما روى ابن سعد عن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فأوعدهم فيها ، وأمر بقطعها .

مع أنه ورد في الأحاديث الصحيحة أن الصحابة مع قرب عهدهم بها لم يجزوا بمكانها ، وهذا يفيدنا أمرين :

أحدهما : أن الصحابة لم يكونوا يحرصون على مثل تلك الأمور ، ولم يكونوا يتبركون بها ، بخلاف المتأخرين .

وثانيهما : بيان كذب كثير من الناس في نسبة الأمور إلى مواضعها ، وهذا أمر مشهور قديماً وحديثاً ، فكمن من موضع يزعمون أنه قبر فلان وليس كذلك ، أو أن هذا المسجد بناه فلان وليس كذلك .

وقد روى البخاري عن نافع قال : قال ابن عمر رضي الله عنهما : رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، كانت رحمة من الله . فسألت نافعاً : على أي شيء بايعهم ، على الموت ؟ قال : لا ، بل بايعهم على الصبر .

وقول ابن عمر (رجعنا من العام المقبل) أي : الذي بعد عام الحديبية .

وقوله (فما اجتمع منا اثنان) أي : لم نجتمع على تحديد مكانها بل اختلفنا .

وفي البخاري أيضاً عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه قال : لقد رأيت الشجرة ثم أتيتها بعد فلم أعرفها .

وقال البخاري : حدثنا محمود ، حدثنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن طارق بن عبد الرحمن قال : انطلقت حاجاً فمررت بقوم

يصلون ، قلت : ما هذا المسجد؟ قالوا : هذه الشجرة ، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب

- فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها ، فلم نقدر عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم! .
- وفي صحيح مسلم عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه أنهم كانوا عند رسول الله ﷺ عام الشجرة ، قال : فنسوها من العام المقبل . والأصل أن حكم التبرك الممنوع شرك أصغر ، وقد يصل إلى الشرك الأكبر بحسب الاعتقاد ، وقد يكون بدعة .
- ومما سبق يُعلم أنه لا بد من مراعاة ثلاثة ضوابط في باب التبرك ، عليها يدور حكمه ، وهي :
- ١ . لا تثبت بركة شيء من الأشياء إلا بدليل .
 - ٢ . لا بد أن تكون طريقة التبرك شرعية لا مبتدعة .
 - ٣ . لا بد من اعتماد القلب على الله ، وجعل هذا المتبرك به من باب الأسباب ، واعتقاد أن البركة من الله وحده .
- فإذا تخلف أحد هذه الشروط كان التبرك ممنوعاً ، فمثلاً : الحجر الأسود فيه بركة ، والبركة الحاصلة منه : حصول الأجر باتباع النبي ﷺ بمسحه تعبداً ، فلو مسح شخص لطلب البركة الحسية ، واعتقد أن في ذاته بركة ، كان التمسح على هذا الوجه والاعتقاد بدعة .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى} الآيات.

قال القرطبي : وفي الآية حذف دل عليه الكلام ، أي : أفأريتم هذه الآلهة : هل نفعت ، أو ضرت ، حتى تكون شركاء لله ؟
وقال شيخنا ابن عثيمين : وهذا الاستفهام للتحقير والخطا رتبة هذه الأصنام التي ذكرها الله عز وجل ، يعني : أخبروني بعد أن سمعتم من آيات الله الكبرى ما سمعتم ، أخبروني عن شأن هذه الأصنام ، وما قيمتها ، وما مرتبتها ، وما عزتها أ.هـ
والشاهد من إيراد المصنف لهذه الآيات هنا والله أعلم : بيان أن الله وحده هو النافع الضار ، فيجب أن تُطلب البركة منه وحده ، وأن طلب البركة من غير الله من شأن الكافرين^(١) .
وهذه الآلهة الثلاثة هي أشهر آلهة الحجاز .

١. **اللات** : وهي صخرة عظيمة بيضاء^(٢) منقوش عليها بيت في الطائف له أستار ، وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وكانت لثقيف ، فبعث النبي ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها ، وحرقها بالنار .
٢. **العزى** : وهي شجرة عليها بناء وأستار في مكان يقال له نخلة بين مكة والطائف ، وكانت لقريش تفخر بها ، ولذا قال أبو سفيان يوم أحد (لنا العزى ، ولا عزى لكم) فبعث النبي ﷺ عام الفتح إليها خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فقطع السمرات الثلاث التي كانت عليها ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال ﷺ : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد فلما أبصرته السدنة ، أمعنوا في الجبل يقولون : يا عزى ، يا عزى . فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها ، فعمها خالد بالسيف فقتلها ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره الخبر ، فقال : تلك العزى .
وهذه المرأة هي الكاهنة التي تدعو الناس إليها .
٣. **مناة** : وهي صخرة في مكان يقال له المشلل عند قديد ، وكانت لأهل المدينة ، وكانت خزاعة ، والأوس ، والخزرج يعظمونها ، ويهلون منها للحج ، وظلت كذلك حتى عام الفتح ، فأرسل إليها النبي ﷺ علي بن أبي طالب فهدمها .

(١) وهذه الآية من أبعد النصوص دلالة على الترجمة في كتاب التوحيد .

(٢) وجاء في البخاري عن ابن عباس أنه رجل صالح كان يلت السوق للحاج .

قال في تيسير العزيز الحميد : لا تخالف بين القولين ، فإن من قال : إنها صخرة لم ينف أن تكون صخرة على القبر أو حواليه ، فعظمت وعبدت تبعاً لا قصداً .
وقد جاء عن ابن عباس أيضاً : كان يبيع السوق ، والسمن عند صخرة ويلته عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة ، إعظاماً لصاحب السوق .

عَنْ أَبِي وَقْدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَخُنْ حُدَّاءَ عَهْدٍ بِكُفْرٍ ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عَنْدَهَا ، وَيَنْوُطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا " ذَاتُ أَنْوَاطٍ " . فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ... الحديث.

تخرجه : رواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وصححه الترمذي ، والألباني .

والشاهد: النهي عن التبرك بالأشجار ، وذلك أن النبي ﷺ شبه طلب الصحابة بجعل شجرة يتبركون بها - كما يفعل المشركون ذلك بقصد البركة - شبه ذلك بمقالة بني إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فدل على إبطال مثل هذا النوع من التبرك. ويأتي الكلام عن هذا الحديث ، ووجه الشبه بين المقالتين عند شرح كتاب كشف الشبهات إن شاء الله . ويذكر الشاطبي أن التبرك هو أصل عبادة الأوثان في الأمم الخالية .

وقفات مع الحديث :

١. هذا الطلب لم يكن من جميع الصحابة ، بل من الذين أسلموا حديثاً عام الفتح ، كما صرح بذلك أبو واقد الليثي ، وكان هو ممن أسلم عام الفتح .
٢. هذا الطلب من الصحابة ظناً أن هذا الأمر محبوباً عند الله ، وعند رسوله ﷺ لا رغبة منهم في مخالفة أمر الله سبحانه . قال في تيسير العزيز الحميد : ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله ، فقصدوا التقرب إلى الله بذلك ، وإلا فهم أجلّ قدراً - وإن كانوا حديثي عهد بكفر - عن قصد مخالفة النبي ﷺ .
٣. في الحديث دليل على أدب الصحابة ، إذ أنهم لم يفعلوا ما استحسّنوه ، وإنما طلبوا ذلك من النبي ﷺ .
٤. قوله ﷺ هنا (الله أكبر) قال ابن باز رحمه الله : من السنة أن يقول الإنسان ذلك عند الإنكار ، وكذلك عند الإعجاب بشيء ، كما في حديث (أنطمعون أن تكون ربع أهل الجنة ؟ قال : فحمدنا الله وكبرنا) .
٥. ومن فوائد الحديث أن العبرة بالمعاني لا بالأسماء ، فالنبي ﷺ جعل طلبهم كطلب بني إسرائيل ، فتسميت المتأخرين دعاء الأموات توسلاً لا يخرجهم عن كونه شرك أكبر .

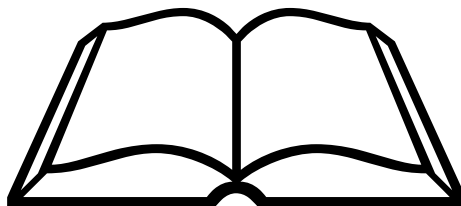
الوجيز في شرح كتاب

التوحيد

(الجزء الثاني)

آخر نسخة ١٤٤٧ هـ

عبدالله محمد الجهنى



٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ} الآية.

وَقَوْلُهُ: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحر}.

عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ)) . قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ((مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ هُمْ صَنَمٌ لَا يُجَاوِزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا ، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا : قَرِّبْ . قَالَ : لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقْرَبُ . قَالُوا لَهُ : قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا . فَقَرَّبَ ذُبَابًا ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ ، فَدَخَلَ النَّارَ . وَقَالُوا لِلْآخَرِ : قَرِّبْ . فَقَالَ : مَا كُنْتُ لِأَقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ ﷻ ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ^(١)

الباب التاسع

وخلاصته : النهي عن الذبح لغير الله ، وذلك أن الذبح عبادة أمر الله أن يُتقرب بها إليه ، فمن تقرب بها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر ، والعياذ بالله .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

إرافة الدم بنية التقرب لا تكون إلا عبادة ، فإن كانت لله فهي عبادة مشروعة يؤجر عليها ، وإن كانت لغيره فهي شرك أكبر مخرج من الملة .

فمن أراق الدم تقرباً للجن ، أو السحرة ، أو أصحاب القبور فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملة .

كذلك من أراق الدماء تعظيماً للسلطين أو غيرهم ، كما يفعله بعضهم عند استقبال السلاطين من نحر وذبح البهائم بين يديه تعظيماً له ، فقد وقع في الشرك الأكبر^(٢) .

فالذبح تقرباً وتعظيماً وإرضاء لا يستحقه إلا الله عز وجل ، فمن ذبح لله على هذه الصورة فقد فهم معنى هذه العبادة العظيمة ، ومن ذبح لغير الله على هذه الصورة فقد وقع في الشرك الأكبر .

وعليه يُعلم أنه ينبغي للعبد في حال تقربه لله تعالى بذبح أو نحر بهيمة الأنعام في نسك أن يستحضر عبادة التقرب لله بإرافة الدم تعظيماً له تعالى ، وهذا مما يغفل عنه كثير من الناس .

هذا هو حكم الذبح أو النحر تقرباً ، ولكن يذهب بعض أهل العلم إلى تقسيم الذبح إلى ثلاثة أقسام :

١. مشروع : وهو نوعان :

أ. ما قصد به التقرب المحض لله : مثل الهدي ، والأضحية ، والعقيقة ، والإيفاء بالنذر ، ونحوها . وهذا قد يكون واجباً ، وقد يكون مستحباً ، فهو عبادة يؤجر عليها .

ب. ما قصد به الأكل ، وإكرام الضيف ، ونحو ذلك ، وهذا يؤجر عليه إذا نوى به الثواب ، وإلا فلا . ويلاحظ هنا أن إرافة الدم في هذا النوع غير مقصودة ، والمراد الأكل ، أو الإكرام بتقديم اللحم .

٢. شرك أكبر : وله صورتان :

أ. شرك عبادة : وهو أن يذبح لغير الله تقرباً ، كالذبح للأصنام ، والقبور ، والسحرة ، والجن .

وفي فتوى اللجنة الدائمة : الذبح لغير الله شرك ، وحكم الذبيحة حكم الميتة ، ولا يجوز أكلها ، ولو ذكر عليها اسم الله ، إذا تحقق أنها ذبحت لغير الله .

(١) بدأ المصنف الكلام عن بعض أنواع الشرك الأكبر (الذبح لغير الله ، والنذر لغير الله ، والاستعاذة بغير الله ، والاستغاثة بغير الله ، والدعاء لغير الله) وأما باب (لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله) فهو تابع للباب الذي قبله ، وهو من وسائل الوقوع في الشرك الأكبر .

(٢) ذبح أو نحر بهيمة الأنعام أو غيرها بين يدي العظماء محرم على كل حال ، فإن نوى بهذا الفعل التعظيم فقد وقع في الشرك الأكبر ، وإن نوى الإكرام ، فذهب بعضهم إلى أنه شرك أصغر ، وقيل : محرم .

وعلاوة التعظيم أن تُذبح وتترك ، أو تُدفع لغير ليأكلها ، أو تكون كثيرة .

ب. شرك استعانة : وهو أن يذكر على المذبح غير اسم الله ، كقوله : باسم المسيح ، أو باسم الجنى الفلاني مثلاً .
وذكر ابن تيمية أن الشرك في العبادة أعظم منه في الاستعانة .

٣. شرك أصغر :

وهو أن يكون الذبح لله وباسم الله ، ولكن القصد غير شرعي ، كالذبح عند عتبة البيت الجديد بقصد حلول البركة ، أو بقصد طرد الجن ، ونحو ذلك ، لأن من أثبت سبباً لم يجعله الشارع سبباً ، فقد وقع في الشرك الأصغر .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ} الآية.

في هذه الآية بيان أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن صرفها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر .
 ووجه ذلك : أن اللام في قوله تعالى (لله) لام الاختصاص ، بالنسبة للصلاة والنسك^(١) ، والمعنى : صلاتي ونسكي لله استحقاقاً ، لا تكون لغيره ، وهي كقوله تعالى (فصل لربك وانحر) أي : اخلص له صلاتك وذبيحتك .
 وبالنسبة للحياة والموت لام الملك ، والمعنى : حياتي وموتي بيد الله وحده ، هو الذي يملك التصرف بها وحده .
 فيكون معنى الآية : (صلاتي ونسكي) لله استحقاقاً (ومحياي ومماتي) لله ملكاً وتصرفاً .

وَقَوْلِهِ: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}.

في هذه الآية بيان أن الذبح عبادة ، لا يجوز صرفها لغير الله ، لأن الله أمر بها ، وكل ما أمر الله به فهو عبادة .

عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : ((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُخْدِثًا ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

تخرجه : رواه مسلم .

والشاهد : قوله ﷺ (لعن الله من ذبح لغير الله) فدل أنه فعل كبيرة من كبائر الذنوب ، بل هو أكبر الذنوب عند الله ، لأنه شرك .

وقوله ﷺ (لعن الله من لعن والديه) .

لعن الوالدين يكون على صورتين :

أ. لعن مباشر : كأن يسب أباه ، أو أمه مباشرة ، والعياذ بالله .

ب. لعن تسبب : بأن يسب أبا غيره أو أمه ، فيسب الآخر أباه أو أمه ، وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : إن من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله : وهل يشتم الرجل والديه ؟! قال : نعم ، يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه .
 والأول أشد .

(١) والنسك في هذه الآية يراد به الذبح والنحر ، كما في قوله تعالى (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) حيث فسرهما النبي ﷺ بذبح شاة .

وقوله ﷺ (لعن الله من آوى محدثاً^(١)) .

المحدث : هو من أحدث أمراً يخالف الشرع ، سواء كان في الأمور الاعتقادية ، أو العملية .

ومعنى آواه : ضمه إليه ، وحماه ، ويدخل في إيواء المحدثين :

١ . إيواء أهل البدع ، وأهل النفاق ، وأهل الفسق الظاهر الناشرين له .

قال في تيسير العزيز الحميد : المحدث بالبدعة في الدين شر من المحدث بالجناية ، فإيواؤه أعظم إثماً .

٢ . إيواء المفسدين في الأرض بالقتل ، والتخريب ، ومنه إيواء مروجي المخدرات ، ونحوهم ، ومنع الاقتصاص منهم ، وهو الذي

اختاره المصنف محمد بن عبد الوهاب في مسائل هذا الباب .

قال شيخنا : وكذا من ناصرهم ، لأن الإيواء أن تؤيه لكف الأذى عنه ، فمن ناصرهم فهو أشد وأعظم .

وقوله ﷺ (لعن الله من غير منار الأرض) .

منار الشيء : علامته الظاهرة ، ومنه سميت المنارة بذلك ، لأنها علامة للبعيد على وجود مسجد .

واختلف العلماء في معنى قوله (غير منار الأرض) على أقوال :

١ . حدودها التي تفصل بين الحقوق .

والمعنى أن يدخل في حق جاره باقتطاع جزء من أرضه ، وهكذا .

وقد جاء في الصحيحين : من ظلم شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين .

٢ . تغيير علامات الأرض التي يهتدي بها لناس في طرقهم ، كالتى يهتدون بها إلى البلدان ، والمياه ونحوها^(٢) .

ولعل المعنى الأول أقرب - والله أعلم - وهو الذي جزم به الشيخ المصنف محمد بن عبد الوهاب في مسائل هذا الباب .

ويدل عليه ما جاء في الأدب المفرد للبخاري : لعن الله من سرق منار الأرض .

واللعن له جهتان :

أ . إن كان من الله : فهو الطرد والإبعاد من الرحمة^(٣) .

ب . إن كان من الخلق : فهو الدعاء والسب . كما أشار إلى ذلك ابن الأثير .

(١) قال ابن الأثير : يروى بكسر الدال ، وفتحها على الفاعل ، والمفعول .

والمعنى إيواء الفاعل أو الفعل .

(٢) وذكر الشيخ صالح الفوزان حفظه الله أن من ذلك تغيير علامات الطرق التي وضعها نظام المرور .

(٣) إما من مطلق الرحمة ، وهذا خاص بالكافر كقوله (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً) وإما من الرحمة المطلقة ، وهذا للمسلمين الذين أتوا الكبائر الملعون فاعلها ، كما في هذا الحديث .

مسألة : حكم اللعن :

١. إن كان موجهاً لمن لا يستحق اللعن ، فهو محرم بإجماع أهل العلم .

قال ﷺ : ولعن المؤمن كقتله . متفق عليه

قال النووي في كتابه (الأذكار) : اعلم أن لعن المسلم المصون حرامٌ بإجماع المسلمين .

٢. إن كان موجهاً لمن يستحق فله حالان :

أ. إن كان على جهة العموم . مثل : لعن الكافرين ، أو الظالمين ، أو الفاسقين ، أو الكاذبين بلا تعيين .

فهذا جائز ، وقد ورد في القرآن كثيراً ، ونُقل الإجماع على جوازه .

٣. إن كان على جهة التعيين : مثل لعنة الله على فلان ، فهذا له حالان :

أ. إن كان موجهاً لفاسق :

الأقرب والله أعلم أنه لا يجوز ، لقوله ﷺ : ولعن المؤمن كقتله . متفق عليه

وفي صحيح البخاري من حديث عمر أن رجلاً كان اسمه عبد الله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يضحك الرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ قد جلده في الشراب ، فأتي به يوماً فأمر به فجلده ، فقال رجل من القوم : اللهم عنه ، ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبي ﷺ

: لا تلعنوه ، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله .

وهذا رأي جمهور أهل العلم ، واختاره شيخنا ابن عثيمين رحمه الله .

وقد روى الخلال عن صالح أنه قال لأبيه الإمام أحمد : الرجل يُذكر عنده الحجاج أو غيره ، فيلعنه ؟ قال : لا يعجبني ، لو عبر

فقال : ألا لعنة الله على الظالمين .

قال ابن تيمية : إن الفاسق المعين لا يلعن بخصوصه ، إما تحريماً وإما تنزيهاً .

وقال أيضاً : أما لعنة المعين فالأولى تركها ، لأنه يمكن أن يتوب .

وقال عن الحديث السابق : فقد نهي النبي ﷺ عن لعنة هذا المعين الذي كان يكثر شرب الخمر ، معللاً ذلك بأنه يحب الله ورسوله

، مع أنه ﷺ لعن شارب الخمر مطلقاً ، فدل ذلك على أنه يجوز أن يلعن المطلق ، ولا تجوز لعنة المعين الذي يحب الله ورسوله ،

ومن المعلوم أن كل مؤمن يحب الله ورسوله .

وقال أيضاً : وقد نهي عن لعنة المعين ، لأن اللعن من باب الوعيد ، فيحكم به عموماً ، وأما المعين فقد يرتفع عنه الوعيد ، لتوبة

صحيحة ، أو حسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعاة مقبولة ، أو غير ذلك من الأسباب التي فيها رفع العقوبة عن

المدنب ، فهذا في حق من له ذنب محقق .

ب. إن كان موجهاً لكافر :

فذهب جمعٌ من أهل العلم إلى جوازه إن كان الكافر مات على الكفر ، وإلا فلا لعله يُسلم ، والله تعالى أعلم .

واستدلوا بقوله تعالى (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) فلعنهم لكونهم ماتوا على

الكفر .

قال ابن تيمية : وأما لعنة المعين فإن عُلِمَ أنه مات كافراً جازت لعنته .

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ)) . قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ((مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ هُمْ صَنَمٌ لَا يُجَاوِزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا ، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا : قَرِّبْ . قَالَ : لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقَرِّبُ . قَالُوا لَهُ : قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا . فَقَرَّبَ ذُبَابًا ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ ، فَدَخَلَ النَّارَ . وَقَالُوا لِلْآخَرِ : قَرِّبْ . فَقَالَ : مَا كُنْتُ لِأَقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ ﷻ ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ ، فَدَخَلَ الْجَنَّةَ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

تخرجه : رواه أحمد في الزهد^(١) ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن أبي شيبة في مصنفه ، وموقوفاً على طارق بن شهاب ، عن سلمان الفارسي ، وقال ابن باز : حديث طارق رواه أحمد في الزهد ، وذكره ابن القيم بسند جيد .
والشاهد : أن من صرف الذبح لغير الله تقريباً فقد وقع في الشرك الأكبر الموجب للخلود في النار .
فإن قيل : ليس في الحديث ذكر الذبح ؟

قيل : عموم الحديث يدل على اختصاص الله بالتقرب إليه بالعبادات ، فيدخل فيها التقرب لله بالذبح ، أو يقال : الأصل في كلمة (التقريب) : الذبح ، كما قال تعالى في قصة ابني آدم (إذ قربا قرباناً) والله تعالى أعلم .
وقوله (ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل) .

هذا الرجل ترك الرخصة ، حيث كان بإمكانه أن يوري ، كما قال تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وهذا يحتمل عدة أمور :

- ١ . أن شريعتهم ليس فيها العذر بالإكراه ، والعذر به من خصائص هذه الشريعة السمحة .
- ٢ . أنه ترك الرخصة وأخذ بالعزيمة .
- ٣ . أنه كان يجهل حكم الرخصة للمكروه .

(١) قال في تيسير العزيز الحميد : هذا الحديث ذكره المصنف معزواً لأحمد ، وأظنه تبع ابن القيم في عزوه لأحمد.....وقد طالعت المسند فما رأيته فيه ، ففعل الإمام رواه في كتاب الزهد أو غيره

١٠ - بَابُ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: { لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ }.

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ : نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِلَّا بِبَوَانَةِ ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : ((هَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ ؟)) . قَالُوا : لَا . قَالَ : ((فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيْدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟)) . قَالُوا : لَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَوْفِ بِنَذْرِكَ ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرَطِهِمَا .

١٠ - بَابُ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ

الباب العاشر

وخلاصته : النهي عن الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله .

المسائل المتعلقة بالباب :

نهي الشارع عن الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله لعدة أسباب :

- ١ . أن هذا الفعل قد يكون وسيلة للشرك بالله ، فيؤدي إلى الذبح لغير الله .
 - ٢ . أن هذا الفعل فيه مشابهة للمشركين في عاداتهم ، وعباداتهم ، وقد نهى الشارع عن مشابهة المشركين ، قال رسول الله ﷺ : من تشبه بقوم فهو منهم .
 - ٣ . أن هذا الفعل فيه تعظيم للأماكن الشركية ، وإحياء لها .
- قال السعدي : ما أحسن إتباع هذا الباب بالباب الذي قبله ، فالذي قبله من المقاصد ، وهذا من الوسائل ... حتى أنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله .
- ويدخل في حكم هذه المسألة : الذبح عند القبور ، فهو محرم على كل حال لهذا الحديث ، ولأنه وسيلة لتعظيم صاحب القبر ، أما إن قَصَدَ التقرب إلى صاحب القبر فهو شرك أكبر .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: { لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ }.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد : ووجه الدلالة من الآية على الترجمة من جهة القياس ، لأنه إذا منع الله رسوله ﷺ عن القيام لله تعالى في هذا المسجد المؤسس على هذه المقاصد الخبيثة ، مع أنه لا يقوم فيه إلا الله ، فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير الله ، لا يذبح فيها الموحد لله ، لأنها قد أسست على معصية الله والشرك به .
والضمير في قوله (فيه) في قوله تعالى (لا تقم فيه أبداً) يعود على مسجد الضرار الذي بناه المنافقون ، وذكر الله تعالى العلة من النهي من القيام في هذا المسجد بقوله (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) فذكر أربع علل للمنع ، وهي :

١ . أنه قام لمضارة مسجد قباء^(١) ، ولذا سمي مسجد الضرار .

٢ . أنه قام لتقرير الكفر وإعانة الكافرين .

٣ . أنه قام لتفريق المؤمنين .

٤ . أنه قام إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق .

قال ابن كثير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهروا الله يوم بدر ، شَرَقَ اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش ، بمالهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتنحهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفيين ، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم ، فخرج وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المباراة إلى قومه من الأنصار فخطبهم ، واستمالهم إلى نصره ، وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وقرء ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالت هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من

(١) اختلف السلف في المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى ، فذهب جماعة إلى أن المراد به مسجد قباء ، منهم : ابن عباس ، وعروة ، وعطية ، والشعبي ، والحسن ، وغيرهم ، وقيل : هو مسجد الرسول ﷺ ، وهو قول عمر ، وابنه ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم ، لما روى مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري ، قال : قلت له : كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال : قال لي أبي : دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله : أي المسجدين أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفاً من حصاء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا - لمسجد المدينة - قال : فقلت : أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره .

قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى .

وكذا قال الألباني في تعليقه على مختصر مسلم للمنذري ، انظره ص ٤٣٤ .

أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدمهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم ، وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله .

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض اليوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس في أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجداً ، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، وأخرج محمداً وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا له : قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلي فيه ، وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل (لا تقم فيه أبداً) إلى قوله (الظالمين) وكذا روي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعروة بن الزبير ، وقتادة ، وغير واحد من العلماء .

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ : نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبَوَانَةَ ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ : ((هَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ ؟)) . قَالُوا : لا . قَالَ : ((فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟)) . قَالُوا : لا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَوْفَ بِنَذْرِكَ ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرَطِهِمَا .

تخرجه : رواه أبو داود ، وصححه ابن حجر ، والألباني .

والشاهد : أنه ﷺ سأل الرجل : هل كان فيها وثن يعبد من دون الله ، وهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ ولو كان الجواب (نعم) لنهاه عن ذلك - لأن هذه هي الفائدة من السؤال - مع أن العمل لله ، لكن لما كان الناس يذبحون غالباً للأوثان نهاه عن ذلك ، حتى لا تقع المشابهة ، وحتى لا يفضي إلى الشرك .

قوله (بوانة) قال البغوي : موضع أسفل مكة دون يلملم .

وقال ابن الأثير : هضبة من وراء ينبع ، وهذا القول هو الأصح .

قوله (ولا فيما لا يملك ابن آدم) .

كما لو قال : إن شُفيت فلله علي أن أعتق عبدَ فلان مثلاً .

أما لو قال : أن أعتق عبداً ، وهو لا يملكه ، فلا يدخل في الحديث .

ومن فوائد الحديث : أهمية الرجوع لأهل العلم ، والاسترشاد برأيهم .

مسألة : اختلف أهل العلم في حكم الصلاة في الكنيسة على أقوال .

قال ابن قدامة رحمه الله في المغني : ولا بأس بالصلاة في الكنيسة النظيفة ، رخص في ذلك الحسن ، وعمر بن عبد العزيز ، والشعبي ، والأوزاعي ، وسعيد بن عبد العزيز ، وروي أيضاً عن عمر ، وأبي موسى ، وكرة ابن عباس ، ومالك الصلاة في الكنائس من أجل الصور .

ولنا أن النبي ﷺ صلى في الكعبة وفيها صور ، ثم هي داخلة في قوله عليه الصلاة والسلام : فأينما أدركتكم الصلاة فصل ، فإنه مسجد أ.هـ

وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه بقوله : باب الصلاة في البيعة ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنا لا ندخل كنائسكم ، من أجل التماثيل التي فيها الصور ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يصلي في البيعة ، إلا بيعة فيها تماثيل . وقال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى حينما سُئل : هل الصلاة في البيع والكنائس جائزة مع وجود الصور أم لا ؟ وهل يقال : إنها بيوت الله أم لا ؟

الجواب : ليست بيوت الله ، وإنما بيوت الله المساجد ، بل هي بيوت يكفر فيها بالله ، وإن كان قد يذكر فيها ، فالبيوت بمنزلة أهلها ، وأهلها كفار ، فهي بيوت عبادة الكفار .

وأما الصلاة فيها ففيها ثلاثة أقوال للعلماء في مذهب أحمد وغيره : المنع مطلقاً ، وهو قول مالك ، والإذن مطلقاً ، وهو قول بعض أصحاب أحمد ، والثالث وهو الصحيح المأثور عن عمر بن الخطاب وغيره ، وهو منصوص عن أحمد وغيره ، أنه إن كان فيها صور لم يصل فيها ، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ، ولأن النبي ﷺ لم يدخل الكعبة حتى تُحْمِي ما فيها من الصور ، وكذلك قال عمر : إنا كنا لا ندخل كنائسهم والصور فيها .

وهي بمنزلة المسجد المبني على القبر ، ففي الصحيحين أنه ذكر للنبي ﷺ كنيسة بأرض الحبشة ، وما فيها من الحسن والتصاوير ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة . وأما إذا لم يكن فيها صور فقد صلى الصحابة في الكنيسة ، والله أعلم أ.هـ

وعليه فإذا لم يكن فيها صور ، أو تماثيل ، جاز الصلاة فيها ، وإن كان فيها ذلك كرهت الصلاة ، إلا إذا سُتِرت تلك الصور ، أو لم يجدوا مكاناً غيرها ، والله أعلم .

وقد قال ابن عبد البر : أجمعوا على أن من صلى في كنيسة ، أو بيعة في موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة .

وهذا كما لا يخفى متعلق بالحكم الوضعي ، أما الحكم التكليفي فعلى الخلاف السابق .

وينبه أنه إذا حُولت الكنيسة إلى مسجد أو مكان آخر جازت الصلاة فيها بلا كراهة إن خلا المكان من التصاوير .

١١ - بَابُ مِنَ الشُّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} الْآيَةُ.

وَقَوْلُهُ: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ}.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ , وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ)) .

١١ - بَابُ مِنَ الشَّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ

الباب الحادي عشر

وخلاصته : تحريم النذر لغير الله ، وذلك أن النذر عبادة ، لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن صرفها لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر ، كمن ينذر للأولياء ، أو للقبور ، ونحوها ، ولو نذر حرم الوفاء به^(١) .

قال ابن القيم : النذر عبادة وقربة ، يتقرب بها الناذر إلى المنذور له .أ.هـ

وقد كان من صنيع أهل الجاهلية النذر لألهتهم ، ليتقربوا إليهم بذلك ، ثم صنع المتأخرون مثل صنيع أسلافهم ، ولكنهم لم يسموا ذلك عبادة ، كعادتهم في تحريف الكلم عن مواضعه .

يقول الصنعاني رحمه الله : والنذر بالمال على الميت ونحوه ، والنحر على القبر ، والتوسل به ، وطلب الحاجات منه ، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية ، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً ، وفعله القبوريون لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً .

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح (درر البحار) : النذر الذي ينذره أكثر العوام ، على ما هو مشاهد ، كأن يكون للإنسان غائب ، أو مريض ، أو له حاجة ، فيأتي إلى بعض الصلحاء ، ويجعل على رأسه سترة ، ويقول : يا سيدي فلان إن رد الله غائبي ، أو عوفي مريض ، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع والزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالإجماع ، لوجوه ، منها : أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز ، لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق ، ومنها أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك ، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر ، إلى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم ، والشمع ، والزيت ، وغيرها ، وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها فحرام بإجماع المسلمين .

وقال الرافعي الشافعي في شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي ، أو شيخ ، أو على اسم من حلها من الأولياء والصالحين ، فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيم البقعة ، أو المشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دُفن بها ، أو نسبت إليه ، أو بنيت على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يدفع به البلاء ، ويستجلب به النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم لينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند إليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السرج ، والشموع ، والزيت ، ويقولون : القبر الفلاني يقبل النذر ، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غائب ، أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه ، بل نذر الزيت ، والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً ، ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولقبر غيره من الأنبياء ، والأولياء ، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً ، وتعظيماً ، ظاناً أن ذلك قربة ، فهذا مما لا ريب في بطلانه ، والإيقاد المذكور محرم ، سواء انتفع به منتفع أم لا .أ.هـ

(١) قال ابن تيمية : وأما ما نُذر لغير الله ، كالنذر للأصنام ، والشمس ، والقمر ، والقبور ، ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات ، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ، ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات ، فإن كليهما شرك ، والشرك ليس له حرمة ، بل عليه أن يستغفر الله من هذا العقد .

وقال أيضاً : فمن نذر لغير الله فهو مشرك ، أعظم من شرك الحلف بغير الله .أ.هـ

ونذر المعصية ينعقد ، لكن لا يجوز الوفاء به ، وفيه الكفارة على الصحيح ، أما النذر لغير الله فلا كفارة فيه ، لأنه لم ينعقد ، وكفارته التوبة .

وفي الوقت الحاضر بلغت حصيلة النذور في مصر في الفترة (٢٠٠٥-٢٠٠٦) ٥٢ مليوناً و٦٧ ألف جنيه ، والله المستعان .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

النذر لغة : الإيجاب .

وشرعاً : إلزام المكلف المختار نفسه شيئاً لم يكن واجباً عليه بأصل الشرع^(١) .

وقد نهي النبي ﷺ عن النذر مطلقاً فقال : لا تنذروا ، فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً ، وإنما يستخرج به من البخيل . رواه مسلم

وقال ﷺ : إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل . متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

ولهذا كان النذر من المسائل التي أشكلت على العلماء ، ذلك أن هذه النصوص تدم النذر ، وتنهى عنه ، وهناك آيات تنهى على الموفين نذورهم ، كما في قوله تعالى (وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) وآية سورة البقرة ساقت النذر مساق المدح ، قال تعالى (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) وهذا العلم للمجازاة عليه ، خاصة مع قرنه بالنفقة .

وقد قال ﷺ : من نذر أن يطيع الله فليطعه . رواه البخاري

ولذا حصل الإشكال : هل النذر عبادة لكونه مثنى على الوفاء به ؟ وإذا كان عبادة كيف يُنهى عنه ويذم^(٢) ؟

فاختلفت عبارات العلماء في الجمع بين النصوص ، فمنهم من فرق بين نذر الطاعة ، ونذر المعصية ، ومنهم من فرق بين النذر المطلق ، ونذر المجازاة . وهذه أقوال العلماء في ذلك :

١ . النذر محرم ، لأن الأحاديث نعت عنه صراحة (لا تنذروا) والأصل في النهي التحريم .

وهذا القول يُنسب إلى ابن تيمية ، لكن قال المرداوي في الإنصاف : وتوقف الشيخ تقي الدين في تحريمه ، وحرمة طائفة من أهل الحديث .

٢ . النذر مكروه ، لأن الأحاديث نعت عنه ، وبينت أنه لا يأتي بخير ، وإنما صُرف النهي إلى الكراهة ، لأن الله أمر بالوفاء به ، ومدح الموفين به .

قال ابن قدامة : وهذا نهي كراهة لا نهي تحريم ، لأنه لو كان حراماً لما مدح الموفين به ، لأن ذنبهم في ارتكاب المحرم أشد من طاعتهم في وفائه .

وهذا هو قول جماهير أهل العلم ، واختاره شيخنا ابن عثيمين .

٣ . التفريق بين النذر المطلق ، ونذر المجازاة ، فحملوا النهي الوارد في النصوص على نذر المجازاة ، وهو الذي لا يكون إلا بمقابل ، كأن يقول : إن شفى الله مريضى صُمت لله كذا وكذا ، أو تصدقت بكذا وكذا .

وهذا النوع هو الذي يُستخرج به من البخيل ، وهو الذي لا يُرد به القضاء المكتوب ، وأما النذر المطلق فممدوح ، لأن علة النهي منتفية عنه ، وعليه تحمل نصوص الثناء .

وهذا قول بعض الشافعية ، واختاره القرطبي .

قال ابن حجر : ثم أشار ابن دقيق العيد إلى التفرقة بين نذر المجازاة فحمل النهي عليه ، وبين نذر الابتداء فهو قرينة محضة .

(١) ويكون بلفظ النذر ، كما لو قال : لله علي نذر ، ويكون بغير لفظ النذر إذا نواه ، كما في قوله تعالى (لئن آتانا من فضله لنصدقن) .

(٢) قال السعدي : النذر من غرائب العلم ، حيث كان عقده منهيّاً عنه ، ووافؤه محموداً مأموراً به ، والقاعدة في جميع الأمور : أن الوسائل لها أحكام المقاصد إلا في هذه المسألة .

٤. التفريق بين من غلب على ظنه القدرة على الوفاء ، وبين من غلب على ظنه عدم القدرة ، وحملوا نصوص النهي على من لا يقدر على الوفاء ، فيكون كلف نفسه واجباً وأخل به ، وحملوا نصوص الثناء على من غلب على ظنه الوفاء . ويمكن أن نحرر المسألة فنقول :

أ. النذر لغير الله يحرم ابتداءه ، ويحرم الوفاء به ، لأنه لا ينعقد أصلاً .

ب. نذر المعصية يحرم ابتداءه ، ويحرم الوفاء به . قال ﷺ : ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه : وهذا لا إشكال فيه .

ج. وأما نذر الطاعة^(١) فنفرق بين ابتداءه ، وبين الوفاء به ، فالوفاء به واجب يثاب عليه مطلقاً ، وعلى هذا يكون عبادة ، قال ﷺ : من نذر أن يطيع الله فليطعه .

والوفاء في جميع النصوص جاء في سياق الأمر ، كما قال تعالى (وليوفوا نذورهم) أو المدح ، كما قال تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) فلا يكون إلا عبادة .

وأما ابتداء نذر الطاعة فلا شك أن الإنسان إذا غلب على ظنه عدم الوفاء به فإنه يحرم عليه ابتداء النذر ، وعليه فلا يكون مطلوباً ، وأما إن غلب على ظنه الوفاء ، فالذي يظهر أن الأولى تركه أيضاً ، لأنه ربما يعرض له عارض يمنعه من الوفاء ، وربما ثقل عليه ، وربما تغيرت حاله ، أو غير ذلك من العوارض والصوارف التي تؤدي إلى الإخلال بالوفاء ، والوقوع في الإثم .

ويتأكد ذلك في نذر المجازاة ، حيث أن النصوص ساقته على وجه الذم بأنه لا يرد القضاء ، وأنه يستخرج به من البخيل .

- والنصوص التي جاءت بمدح النذر ، إنما جاءت في الوفاء فقط ، وسبق أن الوفاء بنذر الطاعة ممدوح دائماً ، ومثاب عليه .

وأما ابتداء النذر فلم يذكر في كتاب الله إلا على سبيل الذم ، إلا في موطن واحد فيما أعلم ، وهو قوله تعالى (وما أنفقتم من

نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) وهذا النص يمكن أن نحمله على الوفاء لا على ابتداء النذر فحسب ، وذلك أن الله إنما

يجازي على الوفاء بالنذر ، أما لو نذر وأخل بالوفاء فإنه ولا شك لا يحصل له الجزاء ، وإنما يحصل له عكس ذلك ، وهو الإثم

للإخلال بواجب الوفاء .

ومثله قوله ﷺ : من نذر أن يطيع الله فليطعه . فالأمر هنا ليس لابتداء النذر ، وإنما للوفاء به ، والله أعلم .

والكلام عن النذر ، وأنواعه ، وحكم كل نوع ، وكفارة النذر ، والفرق بينه وبين اليمين ، ومسائل أخرى يرجع فيها إلى كتب الفقه .

(١) وأما نذر المباح فلا يُشرع ابتداءه ، ولا يجب الوفاء به ، واختلفوا في الكفارة في حال عدم الإتيان به .

قال القرطبي : وأما نذر المباح فلم يلزم بإجماع الأمة .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} الْآيَةُ.

أثنى الله في هذه الآية على الموفين نذورهم ، وذكر أن الوفاء بالنذر من صفات الأبرار ، وقد عُلم أن كل ما أثنى الله عليه ، أو على أهله فهو عبادة .

قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله : ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى (وليوفوا نذورهم) لكان أوضح ، لأن قوله (وليوفوا نذورهم) أمر ، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة ، لأن العبادة ما أمر به شرعاً .

وَقَوْلُهُ: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ}.

في هذه الآية تعظيم لأمر النذر ، وقرنه بالنفقة ، وترتيب الجزاء عليه - لأنه أخبر أنه يعلمه ليشيهم عليه ، ومعلوم أن الثواب لا يكون إلا على عبادة ، فالمباح والمنهي عنه لا يثاب عليه - كل هذا يدل على أنه عبادة ، لا يجوز صرفه لغير الله ، وسبق أن المراد بالآية الوفاء .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ)) .

تخرجه : رواه البخاري ، ولفظه : مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ .

والشاهد : أن فيه الأمر بالإيفاء بنذر الطاعة ، فدل أن الإيفاء به عبادة .

١٣ - بَابُ مِنَ الشُّرُكِ الْاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}.

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرِحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٢ - بَابُ مِنَ الشُّرُكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ

الباب الثاني عشر

وخلاصته : تحريم الاستعاذة بغير الله ، وذلك أن الاستعاذة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن استعاذ بمخلوق استعاذة عبادة ، فقد وقع في الشرك الأكبر ، والعياذ بالله .

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : الاستعاذة لا تكون إلا بالله ، في مثل قول النبي ﷺ (أعوذ بوجهك) و (أعوذ بكلمات الله التامات) و (أعوذ برضاك من سخطك) ونحو ذلك ، وهذا أمر متقرر عند العلماء .

وقال رحمه الله تعالى : إنما يستعاذ بالخالق تعالى ، وأسمائه وصفاته ، ولهذا احتج السلف كأحمد وغيره على أن كلام الله غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبي ﷺ (أعوذ بكلمات الله التامات) قالوا : فقد استعاذ بها ، ولا يستعاذ بمخلوق أ.هـ

والدليل على أن الاستعاذة عبادة : أن الله أمر أن تصرف له ، كما في قوله تعالى (فاستعذ بالله) وقوله تعالى (قل أعوذ برب الفلق) وقوله تعالى (قل أعوذ برب الناس) .

قال في تيسير العزيز الحميد : وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله ، ولهذا نهوا عن الرقى التي لا يعرف معناها ، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك .

المسائل المتعلقة بالباب :

تعريف الاستعاذة :

لغة : مأخوذة من العوذ ، والإعاذة ، وهو الإلتجاء ، والاستجارة ، والاعتصام من شيء مخوف .

والاستعاذة الشرعية : الإلتجاء والاعتصام بالله عز وجل .

والاستعاذة لا تكون إلا من أمر مخوف ، بخلاف اللياذ فيكون فيما يؤمل حصوله .

قال ابن كثير : الاستعاذة : هي الإلتجاء إلى الله ، والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر ، والعياذُ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير أ.هـ.

قال المتنبي : يا من ألوذ به فيما أوّمله ومن أعوذ به فيما أحاذره

ولا يهيجون عظماء أنت كاسره ولا يهيضون عظماء أنت جابره^(١)

والاستعاذة بغير الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١. شرك أكبر : وهي استعاذة العبادة ، وهي التي يكون فيها اعتماد القلب على المستعاذ به ، أو الاستعاذة به في شيء من خصائص الله ، أو الاستعاذة بالأموال ، أو الغائبين .

٢. شرك أصغر : وهي التي يكون فيها الاعتماد على الله ، ويكون في أمر مقدور عليه ، من حاضر ، لكن بلفظ غير شرعي ، كقوله : استعيذ بالله وبك^(٢).

٣. جائزة : وهي التي جمعت عدة شروط :

أ. أن تكون بحي حاضر .

ب. أن يكون القلب معتمداً على الله ، وأن يجعل المستعاذ به سبباً لا مؤثراً بذاته .

ج. أن تكون في شيء مقدور عليه عند جنس الخلق ، وليس من خصائص الله .

ومن أدلة جواز هذا النوع : قوله ﷺ حين ذكر الفتن : فمن وجد منها ملجأً أو معاذاً فليعذ به . متفق عليه

وقصة الرجل الذي عاذ بأمر سلمة رضي الله عنها . رواه مسلم ، والأدلة في ذلك كثيرة .

(١) قال ابن كثير : وقد بلغني عن شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة ، ويقول : إنما يصلح هذا لجناب الله عز وجل . وأخبرني العلامة

شمس الدين ابن القيم رحمه الله أنه سمع الشيخ يقول : ربما قلت هذين البيتين في السجود أ.هـ.

(٢) أما لو اعتمد بقلبه على المخلوق فهو شرك أكبر ، ولو كان في أمر يقدر عليه .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}.

كان العرب في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قالوا : نعوذ بعظيم أو بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه . كما حكاه ابن عباس .

والشاهد من الآية من وجهين :

- ١ . أن الله ذكر هذا الفعل على سبيل الذم ، لأنه من عمل أهل الجاهلية الذين أمرنا بمخالفتهم .
 - ٢ . أنه حكاية الجن عن أنفسهم بعد أن أسلموا وسمعوا القرآن من النبي ﷺ^(١) فدل ذلك أن هذا من أعمالهم التي تابوا منها .
- واختلف السلف في معنى قوله تعالى (فزادوهم رهقاً) على قولين :
- ١ . زاد الجن الأنس رهقاً . والمعنى : أن الجن لما رأوا خوف الإنس زادوهم خوفاً سبب لهم رهق الأرواح ، وربما الأبدان ، فعوقب الإنس بنقيض قصدهم .
 - ٢ . زاد الإنس الجن رهقاً ، والمعنى أن الإنس باستعاذتهم بالجن زادوهم طغياناً وتكبراً ، واختاره ابن جرير ، وابن تيمية ، وابن القيم .
- قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله : وكلا المعنيين حق ، فإذا تعوذ الإنسان من الجن فهو تعظيم للجن ، ويزاد الجن طغياناً وتكبراً ، ويقابله خوف الإنس من الجن .

وَعَنْ حَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرَحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : أن الاستعاذة عبادة ، لأن النبي ﷺ أرشد أن يستعاذ بكلمات الله ، فتكون عبادة للإرشاد إليها . وفيه أن الاستعاذة الشرعية نافعة بخلاف الاستعاذة الشركية فإنها تسبب الرهق والخوف .

وفائدة إتيان المصنف بهذا الحديث هنا ليدل الإنسان على الأمر الواجب عليه عند حصول المخوف ، وهو الاستعاذة بالله وحده ، فإن من استعاذ بالله أعاده الله وكفاه .

(١) الرسول ﷺ أرسل إلى الثقلين ، ولما كان يرى الإنس كان يغشاهم في مجالسهم ، وأما الجن فشاء الله أن يصرفهم إليه ، كما قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) الآية .

قوله (أعوذ بكلمات الله) كلمات الله نوعان :

١. كلمات شرعية : وهي الأوامر والنواهي الشرعية , ومنها القرآن .

٢. كلمات كونية : وهي أوامره التي يقضي بها في خلقه , كالخلق , والإحياء , والإماتة (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

قال ابن تيمية : كلمات الله تعالى نوعان : كلمات كونية , وكلمات دينية .

فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر) وقال سبحانه (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) والكون كله داخل تحت هذه الكلمات .

والنوع الثاني : الكلمات الدينية , وهي : القرآن , وشرع الله الذي بعث به رسوله , وهي : أمره , ونهيه , وخبره .

وقال شيخنا : والمراد بالكلمات هنا : الكلمات الكونية , والشرعية .

وقال ابن باز : وكل هذا حق , وكلها وصف له سبحانه , فكلامه الكوني نافذ , وكلامه الشرعي أفضل الكلام أ.هـ
فلاستعاذة هنا بصفة من صفات الله , وهي كلامه سبحانه , كما في قوله ﷺ (أعوذ بوجهك) و (أعوذ برضاك من سخطك) .

قوله (التامات) الكاملات التي لا يلحقها نقص , ولا عيب , بخلاف كلام البشر . قاله القرطبي .

وذلك لأنها تامة بأمرين : صدق الأخبار , وعدل الأحكام , قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) .

قوله (من شر ما خلق) المراد من شر كل مخلوق فيه شر , لا من شر كل ما خلقه الله , فإن الجنة , والملائكة , والأنبياء ليس فيهم شر . أفاده ابن القيم .

وسواء كان هذا المخلوق عاقلاً أم غير عاقل , قاصداً أم غير قاصد , فيدخل : الإنس , والجن , والهوام , والدواب , والصواعق , والرياح , وغير ذلك .

فائدة : قال القرطبي : هذا خبر صحيح , وقول صادق , علمنا صدقه دليلاً وتجربة , فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه ,

فلم يضرني شيء , إلى أن تركته فلدغتنني عقرب بالمهدية ليلاً , فتفكرت في نفسي فإذا بي نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات .

قوله (من نزل منزلاً) يشمل كل منزل ينزله الإنسان .

قال شيخنا رحمه الله : يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة أو الطارئة , بدليل أنه نكرة في سياق الشرط .

قوله (لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك) فيه بيان فائدة الاستعاذة بالله , وأنها هي النافعة , بخلاف الاستعاذة بغيره .

١٣ - بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَعِثَّ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ} * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ {الآية}.

وَقَوْلُهُ: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ} {الآية}.

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} {الآيتين}.

وَقَوْلُهُ: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} {الآية}.

وَرَوَى الطَّبْرَايُ بِإِسْنَادِهِ^(١) : أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ , فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قُومُوا بِنَا نَسْتَعِثُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّهُ لَا يُسْتَعَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَعَاثُ بِاللَّهِ)) .

(١) قال في تيسير العزيز الحميد : وقد بيض المصنف لاسم الراوي , وكأنه - والله أعلم - نقله عن غيره , أو كتبه من حفظه , والحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

١٣ - بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ

الباب الثالث عشر

وخلاصته : تحريم دعاء غير الله أو الاستغاثة بغير الله ، وذلك أن الدعاء والاستغاثة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ، فمن دعا غير الله أو استغاث بمخلوق استغاثة عبادة ، فقد وقع في الشرك الأكبر ، والعياذ بالله .

قال ابن القيم : طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم .
وقال في تيسير العزيز الحميد : اعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئاً من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك ، ولو قال (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) وصلى وصام .

وقال أيضاً : فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات ، بل هو أكرمها على الله ، كما تقدم ، فإن لم يكن الإشراك فيه شركاً ، فليس في الأرض شرك ، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركاً من الإشراك في غيره من أنواع العبادات ، بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ .
والاستغاثة هي في أصلها دعاء ، لكنه دعاء من مكروب^(١) ، فكل دليل أبطل دعاء غير الله ، يصح أن يستدل به لإبطال الاستغاثة بغير الله ، مع ثبوت الأدلة الخاصة في النهي عن الاستغاثة بغير الله .

قال المصنف في مسائل هذا الباب : عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص .

(١) قال ابن القيم في بدائع الفوائد : الاستغاثة لا تكون إلا بعد الذعر .

المسائل المتعلقة بالباب :

تعريف الاستغاثة :

لغة : مأخوذة من الغوث والإغاثة ، وهي : طلب النصرة والإعانة عند الشدة^(١) .

والاستغاثة الشرعية : طلب الإغاثة والنصرة من الله وحده .

والاستغاثة بغير الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١. شرك أكبر : وهي استغاثة العبادة ، وهي التي يكون اعتماد القلب فيها على المستغاث به ، أو الاستغاثة به في شيء من خصائص الله^(٢) ، أو الاستغاثة بالأموات ، أو الغائبين .

٢. شرك أصغر : وهي التي يكون فيها الاعتماد على الله ، ويكون في أمر مقدور عليه ، لكن بلفظ غير شرعي ، كقوله : استغيث بالله وبك^(٣) .

٣. جائزة : وهي التي جمعت عدة شروط :

أ. أن تكون بحي حاضر .

ب. أن يكون القلب معتمداً على الله ، وأن يجعل المستغيث به سبباً لا مؤثراً بذاته .

ج. أن تكون في شيء مقدور عليه عند جنس الخلق ، وليس من خصائص الله .

ومن أدلة الجواز ، قول الله تعالى (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) .

مسألة : هل يقال في الدعاء مثل ما قيل في الاستغاثة من التفصيل في الحكم ؟

قال شيخنا : لا نقول ذلك ، لأن الدعاء كله عبادة ، فالدعاء معنى خاص في الهيئة ، والكيفية ، ويكون معه حب المدعو ، وتعظيمه ، والرغبة إليه ، وإظهار الافتقار ، واعتقاد قدرته ، وإجابته على الإعطاء ، بخلاف المستغيث ، فقد تستغيث بإنسان بدون أن يكون بقلبك محبة له وتعظيم أ.هـ

ولا يدخل في هذا النوع مثل قول النبي ﷺ في بيان حقوق المسلم على أخيه (وإذا دعاك فأجبه) رواه مسلم ، فإن الدعاء هنا بمعنى الدعوة ، وكذلك قوله ﷺ (من دعاكم فأجيبوه) ويأتي أيضاً بمعنى النداء ، كما تقول : ادعوا لي فلاناً . وتقصد : ناده .

(١) قال ابن تيمية : الاستعاذة ، والاستجارة ، والاستغاثة من نوع الدعاء أو الطلب ، وهي ألفاظ متقاربة .

(٢) ذكر بعضهم أن الاستغاثة تجوز في الأمور الحسية الظاهرة ، كحال القتال ، أو مهاجمة عدو ، أو سبع ، أو في حال الغرق ، ونحو ذلك ، ولا تجوز في الأمور المعنوية ، كالمرض ، والضيق ، والفقر ، وطلب الرزق ، ونحو ذلك ، لأنها من خصائص الله .

(٣) أما لو اعتمد بقلبه على المخلوق فهو شرك أكبر ، ولو كان في أمر يقدر عليه .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمَسُّنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} الآية.

وجه الاستدلال بالآية من جهتين :

١. النهي عن صرف الدعاء لغير الله ، فدل أنه عبادة من صرفها لغيره وقع في الشرك الأكبر .
 ٢. بيان أن الله وحده هو الذي بيده كشف الضر والكرب ، فهو وحده المستحق أن يستغاث به .
- قال في تيسير العزيز الحميد : وفي الآية تنبيه على أن المدعو لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر ، حتى يعطي من دعاه ، أو يبطش بمن عصاه ، وليس ذلك إلا لله وحده .
- وقال السعدي في تفسيره : وهذا وصف لكل مخلوق ، أنه لا ينفع ولا يضر ، وإنما النافع الضار هو الله تعالى .
- وقال شيخنا : وهذا القيد ليس شرطاً ، بحيث يكون له مفهوم ، فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضررك ، بل هو لبيان الواقع وكل قيد يراد به بيان الواقع فإنه كالتعليل للحكم ، فمثلاً قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) أي : اعبدوه لأنه خلقكم .
- وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) أي : لأنه لا يدعوكم إلا لما يحييكم . وكذلك قوله تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك) أي : لأنه لا ينفعك ولا يضررك ، فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطاً ، وهذه يسميها بعض الناس صفة كاشفة .
- وقال : وعبر الله بقوله (من الظالمين) ولم يقل : من المشركين ، لأجل أن يبين أن الشرك ظلم ، لأن كون الداعي لغير الله مشركاً أمر بين ، لكن كونه ظالماً قد لا يكون بيناً من الآية أ.هـ
- ومن طرق القرآن في بيان بطلان آلهة المشركين : بيان ضعف تلك الآلهة ، وأنها لا تنفع ، ولا تضر ، ولا ترزق ، ولا تخلق ، ولا تكشف الضر ، ولا تحيب المضطر ، ولا تنصر ، ولا تسمع ، ولا تحيب . والآيات في ذلك كثيرة .
- قال تعالى (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون) .
- وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً) .
- وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً) .
- وقال تعالى (يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) .
- وقال تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) .

وَقَوْلُهُ: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ} الآية.

في هذه الآية حصرٌ لحصول الرزق من الله وحده ، فمن طلب الرزق من غير الله معتقداً استقلاله بجلب الرزق له فقد أشرك الشريك الأكبر ، والعياذ بالله^(١) .
وهذه الآية في كلام إبراهيم عليه السلام لقومه (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) فنفى عليه السلام أن يكون الرزق عند آلهتهم المزعومة ، وحصر حصول الرزق من الله وحده .
وكثيراً ما تُقصد هذه الآلهة طلباً للرزق .

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} الآيتين.

في هذه الآية بيان أن أضل الضلال دعاء غير الله ، ممن لا يملك إجابة الداعي ، فوجب أن يفرد من يسمع ويجيب بالدعاء .
قال في تيسير العزيز الحميد : ومعنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً ممن عبد غير الله ودعاه ، حيث يترك السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام ، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم ، ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دام في الدنيا ، وإلى أن تقوم القيامة .

وَقَوْلُهُ: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} الآية.

في هذه الآية بيان أنه لا أحد يكشف الضر ، ويجيب المضطر إلا الله وحده ، فوجب أن يفرد بالاستغاثة ، وطلب الإعانة .
وهذه الآية تبين أن الكفار يعرفون أن الله هو كاشف الضر ، ومع هذا يتوجهون لغيره في كشف الضر ، وهذا من أعجب العجب .
قال تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) والآيات في ذلك كثيرة .
قال المصنف في مسائل الباب : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين .

(١) ودليل الحصر في الآية : تقديم ما حقه التأخير ، فلم يقل (الرزق عند الله) بل قال (عند الله الرزق) لا عند غيره .

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ^(١) : أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قُومُوا بِنَا نَسْتَعِثْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّهُ لَا يُسْتَعَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَعَاثُ بِاللَّهِ)) .

تخرجه : رواه الطبراني ، ورواه الإمام أحمد ، وابن سعد في الطبقات ، وفي الحديث ابن لهيعة ، وفيه ضعف .
والشاهد : قوله ﷺ (إنه لا يستعاث بي ، وإنما يستعاث بالله) فنهى ﷺ عن الاستغاثة به ، وهذا في حال حياته ، فكيف بمن يستغيث به بعد موته ، ويستغيث به في أمور من خصائص الله ، كتفريج الكربات ، وهداية القلوب ، وغفران الذنوب ، ونحو ذلك !.

وقوله (كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين) جاء في رواية ابن أبي حاتم أنه عبد الله بن أبي بن سلول .
وذكر في تيسير العزيز الحميد أن هذا الأذى بالكلام في أعراضهم ، ونحو ذلك ، وقال : أما أذاهم بنحو ضرب ، أو زجر ، فلا نعلم منافقاً بهذه الصفة .

قوله (فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق) جاء في رواية ابن أبي حاتم أن القائل هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله : والصحابة لم يطلبوا الغوث بالرسول ﷺ إلا لأنه يقدر أن يخلصهم منه ، إما بقتله ، وإما بحبسه ، وهم يعلمون أن الاستغاثة بالحي القادر جائزة ، ولهذا ذهبوا إليه .

قوله (إنه لا يستعاث بي ، وإنما يستعاث بالله) الأقرب أن هذا من باب الأدب منه ﷺ وإن كان قادراً على ذلك .
وهذا رأي الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كما في مسائل الباب ، واختاره الشيخ سليمان بن عبد الله ، والشيخ عبد الرحمن بن حسن ، وشيخنا .

(١) قال في تيسير العزيز الحميد : وقد بيض المصنف لاسم الراوي ، وكأنه - والله أعلم - نقله عن غيره ، أو كتبه من حفظه ، والحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

١٤ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ}.

وقوله: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} الآية.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ ، فَقَالَ : ((كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟)) .
فَنَزَلَتْ : {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.

وَفِيهِ : عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْهُمَا : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ - : ((
اَللّٰهُمَّ اِنْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا)) ، بَعْدَمَا يَقُولُ : " سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ " . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ
شَيْءٌ}.

وَفِي رِوَايَةٍ : يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، فَنَزَلَتْ : {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}.

وَفِيهِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ : {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} فَقَالَ : ((يَا مَعْشَرَ
قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اِشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ
اللَّهِ شَيْئًا ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ ، لَا
أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)) .

١٤ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ}.

الباب الرابع عشر

وخلاصته : هذا الباب والذي يليه في بيان عظمة الله عز وجل ، واستحقاقه العبادة وحده ، وبيان ضعف وعجز كل من دُعي من دونه ، فالله وحده هو الذي يملك ، وينفع ، ويضر ، وينصر ، ويسمع ، ويحيي ، ويهلك ، ويرزق.....وأما غيره فليس لهم من الأمر شيء ، قال تعالى لأشرف خلقه (ليس لك من الأمر شيء) .

ففيه البرهان العقلي على وجوب إفراد الله بالتوجه والقصد ، وعلى بطلان قصد من سواه أيًا كان .

وفيه بيان العلة في بطلان الشرك ، وهي أن من سوى الله لا يملك ، ولا ينفع ، ولا يضر ، ولا ينصر ، ولا يسمع ، ولا يحيي ، ولا يحفظ ، ولا يهدي ، ولا يرزق... فالشرك تعلق بمخلوق ضعيف عاجز لا ينفع نفسه .

وإيراد المصنف لهذا الباب والذي يليه بعد ذكر الأبواب السابقة دليل على فقره ، وحسن تصنيفه رحمه الله ، فبعد أن ذكر في الأبواب السابقة بعض العبادات ، كالنذر ، والذبح ، والاستعاذة ، والاستغاثة ، والدعاء ، وبين أن صرفها لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر ، بين هنا السبب في ذلك ، وأن كل من سوى الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، فلا يستحق أن يُتوجه إليه ، ويعتمد عليه .

ولما كان كثير من المشركين المتأخرين يتوجهون إلى النبي ﷺ ويستغيثون به ، ذكر هنا الأدلة على بطلان عبادة غير الله عموماً ، والأدلة على ضعف النبي ﷺ عن مقام العبودية خصوصاً ، ومن ذلك :

١. أن النبي ﷺ لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الأذى ، كما في قصص كثيرة منها : ما حصل له يوم أحد حيث شُج وجهه ، وكسرت ربايعيته ، ومنها ما حصل له يوم الطائف ، ومنها ما لاقاه وأصحابه في مكة قبل الهجرة .
٢. أن النبي ﷺ دعا على بعض كفار قريش ، ومع ذلك لم تقبل دعوته فيهم ، ولم يضرهم ، بل قال الله له (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) وتاب الله على بعضهم .
٣. أن النبي ﷺ صرح بذلك ، حيث قال لخاصة قرابته : لا أغني عنكم من الله شيئاً . متفق عليه

فإذا كان هذا حال أشرف البشر ، فكيف بمن دونه من الأولياء والصالحين ، فتبين بذلك أنه لا يجوز دعاء غير الله ، أو الاستغاثة به ، أو الاعتماد عليه .

قال في تيسير الحميد : المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعويين من دون الله ، أنهم لا ينفعون ، ولا يضررون ، وسواء في ذلك الملائكة ، والأنبياء ، والصالحون ، والأصنام ، فكل من دُعي من دون الله ، فهذه حاله .

وقفات مع أدلة الباب

قوله تعالى : { أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } .

في هذه الآية بيان نقص كل من عبد من دون الله ، أيأ كان ، سواء كان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلأ ، عاقلاً أم غير عاقل ، ومن الأدلة على ذلك :

- ١ . أنهم لا يخلقون شيئاً .
 - ٢ . أنهم مخلوقون مريبون .
 - ٣ . أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم .
 - ٤ . أنهم لا يستطيعون نصره غيرهم .
- وبهذا يتبين أنهم لا يستحقون العبادة .

وقوله : { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ } الآية .

في هذه الآية ذكر لصفات أخرى تدل على نقصهم ، وعدم استحقاقهم للعبادة ، ومن ذلك :

- ١ . أنهم لا يملكون شيئاً .
 - ٢ . أنهم لا يسمعون دعاء من يدعوه .
 - ٣ . أنه لو فرض أنهم يسمعون ، فإنهم لا يستطيعون إجابة سؤالهم .
 - ٤ . أنهم يوم القيامة يكفرون بشرك هؤلاء .
- وبهذا يتبين أنهم لا يستحقون العبادة .

قوله (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) لو فرض أنهم يسمعون فإنهم لا يستجيبون لكم ، إما لعجزهم .

قال في تيسير العزيز الحميد : فعمل المشرك يقول : هذا في الأصنام ، أما الملائكة ، والأنبياء ، والصالحون فيسمعون ، ويستجيبون ، فنفي سبحانه ذلك بقوله (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) .

قال في فتح المجيد : والمشركون لم يسلموا للعلم الخبير ما أخبره عن معبوداتهم ، فقالوا : تملك ، وتسمع ، وتستجيب ، وتشفع لمن دعاها .

قوله (قطمير) المراد : اللفافة الرقيقة على نواة التمر . وبهذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة^(١) .

(١) وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في كتابه ، وهي :

- ١ . القطمير . قال تعالى (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) .
- ٢ . الفتيل . قال تعالى (فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون شيئاً) وهو السلك الذي يكون في شق النواة .
- ٣ . النقيير . قال تعالى (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً) وهو النقرة التي تكون في أعلى ظهر النواة .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ، فَقَالَ : ((كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟)) .
فَنَزَلَتْ : {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} .

تخریجه : رواه مسلم موصولاً ، ورواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم .
والشاهد : أن أفضل البشر لا يملك دفع الأذى عن نفسه ، ومن كان كذلك لا يستحق أن يُعبد .
قوله (شَجَّ) ذكر ابن الأثير أن الشج هو الجرح إذا كان في الرأس خاصة ، ثم استعمل في باقي الأعضاء .
قوله (كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ) قال ابن حجر : المراد أنها كسرت فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها .
وقال القرطبي : الرباعية - بفتح الراء ، وتخفيف الياء - هي كل سن بعد ثنية .
فالسنان المتوسطان يسميان ثنانيا ، من الأعلى والأسفل ، وما وراءهما يسمى رباعية .
قال النووي : وللإنسان أربع رباعيات .
وعليه فالنبي ﷺ إنما شَجَّ في وجهه . قال في تيسير العزيز الحميد : فظهر بهذا أن قول بعضهم إنه شج في رأسه فيه نظر .
وقال أيضاً : فأين هذا مما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين ، بل في الطواغيت الذين يسموهم المجاذيب ، والفقراء ، أنهم ينفعون من دعاهم ، وينصرون من لاذ بحماهم ، ويدعونهم براً وبحراً ، في غيبتهم وحضرتهم .
وَفِيهِ : عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْهُمَا : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ - : ((
اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا)) ، بَعْدَمَا يَقُولُ : " سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ " . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} .

وَفِي رِوَايَةٍ : يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَسَهْلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، فَنَزَلَتْ : {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} .

تخریجه : رواه البخاري ، والرواية الثانية رواها البخاري مرسله ، ووصلها الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي في سننه ، كما قال الحافظ ابن حجر .
والشاهد : أن النبي ﷺ كان يدعو على بعض كفار قريش ، وكان خلفه أولياء الله من الصحابة ، يؤمنون على دعائه ، ومع ذلك لم يستجب الله دعاءه فيهم ، ولم يضرهم ، بل هدى الله بعضهم ، وأنزل الله (ليس لك من الأمر شيء) فدل ذلك على أن النفع والضرر بيد الله وحده ، وأن عواقب الأمور بيده وحده ، كما قال تعالى لنبيه ﷺ (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقال له (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) .
وإنما خص النبي ﷺ هؤلاء باللعن ، لأنهم رؤوس الكفر ، وبهم حصل الصد عن دين الله ، ومع ذلك أسلم الثلاثة ، وحسن إسلامهم ، والله الأمر من قبل ومن بعد .
وينبه أن هذه الآية نزلت في الأمرين جميعاً ، كما ذكر ذلك أهل العلم .

وَفِيهِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ : {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} فَقَالَ : ((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، سَلْبِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)) .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : أن النبي ﷺ أخبر عن نفسه أنه لا يغني عن أحد شيئاً ، حتى خاصة قرابته ، فغيره من باب أولى ، فكيف بمن يعطي غيره البراءة من دخول النار ، والعياذ بالله .

قال المصنف في مسائل هذا الباب : فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له التوحيد وغربة الدين .

ومن فوائد الآية والحديث أن الإنسان يبدأ في الدعوة بالأقرب فالأقرب ، وليس من المنهج أن يترك أهل بيته ويدعو الآخرين ، أو يترك أهل بلده ويدعو الأبعدين .

١٥ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ { حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانٌ بِكَفِّهِ : فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذِبَةٍ ، فَيَقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ)) .

وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ ، تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ رِعْدَةً شَدِيدَةً - خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَصَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا ، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا : مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ : " قَالَ الْحَقُّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ " . فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ)) (١) .

(١) قال في تيسير العزيز الحميد : قد بيض المصنف رحمه الله بعد هذا ، ولعله أراد أن يكتب تمام الحديث ، ومن رواه .
وتماهه (إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض) ورواه ابن جرير ، وابن خزيمة ، وابن أبي حاتم ، والطبراني أ.هـ .

١٥ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

الباب الخامس عشر

وخلاصته : بيان عظمة الله ، وبطلان عبادة غير الله ، وبيان ضعف الملائكة عن مقام العبودية .

بعد أن ذكر المصنف في الباب السابق الأدلة على ضعف النبي ﷺ عن مقام العبودية ، وعدم استحقاقه العبادة ، أردف بهذا الباب لبيان ضعف الملائكة ، وعدم استحقاقهم العبادة ، وهذا من فقه المصنف رحمه الله ، وإنما نص على ذلك لعدة أمور :

- ١ . أن الفتنة بالنبي ﷺ والملائكة أكثر من غيرهم .

- ٢ . لما في حال النبي ﷺ والملائكة من الصلاح ، والقرب عند الله ، فإذا كان أقرب الخلق بهذه المثابة فغيرهم من باب أولى .

قال في تيسير العزيز الحميد : أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله ، فإذا كان هذا حالهم مع الله تعالى ، وهيبتهم منه ، وخشيتهم له ، فكيف يدعوهم أحد من دون الله !

وإذا كانوا لا يُدعون مع الله تعالى استقلالاً ، ولا واسطة بالشفاعة ، فغيرهم ممن لا يقدر على شيء من الأموات ، والأصنام أولى ألا يُدعى ، ولا يُعبد .هـ

وينبه هنا أنه لا ضير في نسبة الضعف والعجز إلى الملائكة أو إلى النبي ﷺ إذا كان هذا بالنسبة لمقام الرب عز وجل .

قال ابن تيمية في معرض كلام له : إذا كان الكلام في سياق توحيد الرب ، ونفي خصائصه عما سواه لم يجوز أن يقال : هذا سوء عبادة في حق من دون الله من الأنبياء والملائكة ، فإن المقام أجل من ذلك ، وكل من سوى الله يتلاشى عند تجريد توحيده^(١) .

(١) هذا النقل عن ابن تيمية من كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج ١١ ص ١٤٨

وقفات مع أدلة الباب

وقوله {حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

في هذه الآية بيان ما يحصل للملائكة عند سماع صوت الرب سبحانه وتعالى ، من الخوف الشديد والصعق والغشية ، ومن كان كذلك لا يستحق أن يُعبد .

فإذا كان هذا هو حال الملائكة مع صلاحهم ، وقربهم ، وقوتهم ، فكيف بغيرهم ! .

وقد قال تعالى عنهم (يخافون ربهم من فوقهم) .

قوله (فزِع) أي : ذهب الفزع عن قلوب الملائكة^(١) ، ففرغت من الفزع .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ {حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ : فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبَةٍ ، فَيَقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ)) .

تخرجه : رواه البخاري .

والشاهد : هذا الحديث كالتفسير للآية ، ففيه بيان عظمة الله تعالى ، وبيان ضعف الملائكة ، وخوفها من الله ، وصعقها عند

سماع صوته عز وجل ، مع ما ذكر الله لنا من قوة خلقها ، وعظيم عبادتها ، وصدق الله (وما قدروا الله حق قدره) .

فمن أدلة وجوب إفراد الله بالتوجه والقصد ، وبطلان الشرك : بيان عظمة الله سبحانه وتعالى وكبريائه ، وتضائل واضمحلال

عظمة المخلوقات العظيمة ، كالسماوات ، والملائكة ، وجميع العوالم .

قوله (إذا قضى الله الأمر في السماء) إذا تكلم سبحانه بأمره الذي يريده .

جاء عن ابن مسعود قال : إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان . رواه أبو داود ، وابن

جرير ، وغيرهم .

والصفوان : الحجر الأملس .

(١) أكثر المفسرين على أن الضمير في قوله (قلوبهم) راجع إلى الملائكة ، قال ابن كثير : وهو الحق الذي لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار .

ورجحه ابن جرير وغيره ، واختاره ابن باز ، وشيخنا .

وعليه فتنبت القلوب للملائكة ، وذهب بعضهم إلى أن الضمير يعود على قلوب المشركين ، وهو اختيار السعدي .

قوله (خضعاناً) فيها ضبطان : (خُضْعَاناً) و (خَضَعَاناً) .

قوله (ينفذهم ذلك) يصل ذلك الصوت إلى قلوب الملائكة فيصعقوا منه , والمراد صوت الرب عز وجل إذا تكلم بالقضاء إلى جبريل .

قوله (ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض) يحتمل أن يكون هذا من كلام النبي ﷺ ويحتمل أن يكون من كلام أبي هريرة , ويحتمل أن يكون من كلام سفيان بن عيينة .

قوله (بكفه فحرفها وبدد بين أصابعها) أمال كفه , وفرق أصابعه , وجعل بعضها فوق بعض , كهيئة السلم .

قوله (فيكذب معها مائة كذبة) قيل : الذي يكذب هو الكاهن أو الساحر , وقيل : هو الشيطان . والأول أقرب لقوله (أليس قال لنا يوم كذا وكذا , كذا وكذا) .

وقوله (مائة كذبة) قيل : العدد مراد , وقيل : كناية عن كثرة الكذب , واختاره شيخنا , ولعله الأقرب لما في حديث عائشة قالت : سألت أناس رسول الله ﷺ عن الكهان , فقال لهم رسول الله ﷺ : ليسوا بشيء . قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً . فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني , فيقرّها في أذن وليه قرّ الدجاجة , فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة . متفق عليه

قال ابن تيمية : وقد ناقشت مجموعة من المنجمين بدمشق وقال لي رئيس منهم : والله إنا لنكذب مائة مرة .

قوله (فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) قيل : يصدق الكاهن , وقيل : يصدق القائل عن الكاهن .

وفي الصحيحين عن عائشة قالت : سألت أناس رسول الله ﷺ عن الكهان , فقال لهم رسول الله ﷺ : ليسوا بشيء . قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً . فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني , فيقرّها في أذن وليه قرّ الدجاجة , فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة . متفق عليه

قال المصنف في مسائل الباب : قبول النفوس الباطل , كيف يتعلقون بواحدة , ولا يعتبرون بمائة .

وقال في تيسير العزيز الحميد : وفيه أن الشيء إذا كان فيه نوع من الحق لا يدل على أنه حق كله , بل لا يدل على إباحته , كما في الكهانة , والسحر , والتنجيم .

مسألة : مر حفظ السماء بثلاث مراحل :

١ . قبل البعثة : وكان الاستراق كثيراً .

٢ . أثناء البعثة : حفظت السماء تماماً من الاستراق , حفظاً للوحي .

قال تعالى عن الجن (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) .

٣ . بعد وفاة النبي ﷺ وانقطاع الوحي : هناك استراق , لكنه ليس كما كان قبل البعثة .

قال معمر : قلت للزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم . قال : أريت (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) قال : غلطت وشدد أمرها حين بعث رسول الله ﷺ .

وقال ابن باز : وفيه أن الشياطين تسترق السمع , وكان هذا قبل النبوة , فلما بُعث النبي ﷺ شُدد عليهم في الاستماع , فلما مات صارت تستمع , فتارة تصيهم الشهب قبل أن يستمعوا , وتارة بعد أن يستمعوا .

مسألة: قوله ﷺ في هذا الحديث (كأنه سلسلة على صفوان) الصحيح أن الضمير في قوله (كأنه) عائد على قول الرب عز وجل , كما جاء ذلك مصرحاً به في بعض الروايات , ومنها ما رواه ابن جرير : أن الله إذا قضى أمراً في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها جميعاً , **ولقوله** صوت كصوت السلسلة على الصفا والصفوان .

وقد نقل ابن تيمية في كتاب (التسعينية) عن الإمام أحمد قوله : سمع الملائكة صوت الوحي كوقع الحديد على الصفا , وظنوا أنه أمر من أمر الساعة ففزعوا , وخروا لوجههم سجداً^(١) .

وفي هذا الحديث إثبات صفة الكلام لله عز وجل خلافاً للجهمية والمعتزلة , وإثبات صفة الصوت لكلام الرب عز وجل خلافاً للكلائية والأشاعرة , وهذا القدر مجمع عليه عند أهل السنة , ويبقى الكلام في تشبيه صوت الرب عز وجل بصوت السلسلة إذا جُرت على الصخر الأملس .

فذهب بعض أهل السنة إلى أن هذا الوصف عائد على صوت الرب عز وجل , وأنه يشبه صوت جر السلسلة على الصفوان من حيث القوة والشدة , لا أنه يشبهه من كل وجه .

وذهب بعضهم إلى أن هذا الوصف ليس لصوت الرب , وإنما هو لما يحصل للملائكة عند سماع صوت الرب عز وجل , فيكون من باب تشبيه السماع بالسماع لا المسموع بالمسموع , فكأن وقع الصوت على قلوبهم كوقع من يسمع جر السلسلة على الصفوان .

ولعل القول الأول هو الأقرب لظواهر النصوص , ومنها ما جاء في حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان . رواه أبو داود , وابن جرير , وغيرهم . فالذي سمعوه صلصلة كجر السلسلة على الصفا , لا أن ما حصل لهم صلصلة , والله تعالى أعلم . قال في تيسير العزيز الحميد : أي : كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان , وهو الحجر الأملس , قال الحافظ : هو مثل قوله في بدء الوحي : صلصلة كصلصلة الجرس , وهو صوت الملك بالوحي أ.هـ . وهناك أقوال أخرى تُنظر في بحث الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الله الغنيمان بعنوان : بيان قوله ﷺ (كأنه سلسلة على صفوان) .

(١) وأما إرجاع الضمير في قوله (كأنه) على ضرب الملائكة بأجنحتها , أو على الفزع الذي يحصل في قلوب الملائكة عند سماع صوت الرب فهو قول مرجوح .

وَعَنْ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ ، تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ ، أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ رَعْدَةً شَدِيدَةً - خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ﻋَﻠَيْكَ ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ : صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا ، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا : مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ : " قَالَ الْحَقُّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ " . فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ ﻋَﻠَيْكَ)).

تخریجه : رواه ابن أبي عاصم ، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن جرير ، وغيرهم ، وضعفه الألباني .
والشاهد : كالحديث الأول .

قوله (فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا ، وخرروا لله سجداً) إذا وصل صوت الله إلى قلوب الملائكة ، تصعق منه ، ويغشى عليها ، ثم تفيق ، وتخر سجوداً تعظيماً لله .
قال في تيسير العزيز الحميد : يقع منهم الأمران : الصعق ، وهو الغشي ، والسجود ، والله أعلم أيهما قبل الآخر ، فإن الواو لا تقتضي ترتيباً أ.هـ
جاء عند أبي نعيم في (حلية الأولياء) : صعقوا فيخرون سجداً .

١٦ - بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ عز وجل: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

وَقَوْلِهِ: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}.

وَقَوْلِهِ: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}.

وَقَوْلِهِ: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}.

وَقَوْلِهِ: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} الْآيَتِينَ.

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنفَى أَنْ يَكُونَ لغيرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}.

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَطْتَبُهَا الْمُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوْلًا - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ ((.

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: ((مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ))، فَبِتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَنْفَضِلُّ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَائِهِ مَنْ أَدِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثَبَّتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ. اِنْتَهَى كَلَامُهُ.

١٦ - بَابُ الشَّفَاعَةِ

الباب السادس عشر

وخلاصته : بيان حقيقة الشفاعة ، وبيان ما أثبتته القرآن منها ، وما نفاه .

يزعم المشركون أنهم ما توجهوا إلى معبوداتهم ودعوها إلا من أجل رجاء شفاعتها لهم عند الله ، وذلك أنهم زعموا أنهم أصحاب ذنوب ومعاصٍ ، وأن هؤلاء الصالحين لهم جاه عند الله ، ومكانة عالية ، فيتقربون لهم ، ويدعونهم ليشفعوا لهم عند الله . فذكر المصنف الأدلة التي تبطل ما يتعلق به المشركون من أمر الشفاعة .

بعد أن ذكر المصنف الأدلة على تحريم صرف العبادات لغير الله ، كالذبح ، والاستعاذة ، والاستغاثة ، والدعاء ، ذكر بطلان ذلك وبين أسباب البطلان ، فبين أولاً أن من يصرفون لهم تلك العبادات لا ينفعون ، ولا يضررون ، ولا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا ينصرون ، ولا يرزقون.... ثم بين آخر متعلق لهم ، وهو الشفاعة ، حيث يقولون : توجَّهنا للأولياء والصالحين ليس عبادة لهم ، وإنما نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله .

فبين المصنف في هذا الباب أن هذا هو عين شرك الأولين .

قال في تيسير العزيز الحميد : فإن قلت : إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء ، أما من دعاهم للشفاعة فقط فهو لم يعبدهم ، فلا يكون ذلك شركاً .

قيل : مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك ، والشرك لازم له ، كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى ، والتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى ، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله ، لا وجود له في الخارج ، وإنما هو شيء قدره المشركون في أذهانهم ، فإن الدعاء عبادة ، بل هو مخ العبادة ، فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدتهم ، وأشرك في عبادة الله شاء أم أبى . هـ

المسائل المتعلقة بالبَاب :

الشفاعة لغة : مأخوذة من الشفع ، وهو الزوج ضد الوتر ، وذلك أن الطالب وتر ، فإذا كان معه آخر صار شفعاً ، قال تعالى (والشفع والوتر) .

وشرعاً : التوسط للغير بجلب نفع أو دفع ضرر . أو هي : طلب الخير للغير .

والناظر في نصوص الكتاب والسنة المتعلقة بالشفاعة يرى أنها تأتي على عدة معان :

١ . شفاعة بمعنى التوسط والوساطة في أمور الدنيا بين الناس .

قال تعالى (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) وقال ﷺ : اشفعوا تؤجروا . رواه البخاري .

وهذه جائزة ومطلوبة شرعاً بقدر الاستطاعة ، إذا كانت في أمر مباح ، وليس فيها ضرر على الغير ، وتحرم إذا فُقد أحد الشرطين .

٢ . شفاعة بمعنى الدعاء .

ومن ذلك قوله ﷺ : ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه . رواه مسلم ، والمعنى : قبل دعائهم فيه .

ووجه كون الدعاء شفاعة أنه ينفع المدعو له بإذن الله ، ويشفع له مع عمله الصالح .

٣ . أنواع الشفاعات التي تكون في الآخرة .

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين في حديث الشفاعة العظمى ، وكذا قوله ﷺ : أنا أول شفيع في الجنة . رواه مسلم ، وهذه الشفاعة هي المرادة بقوله ﷺ : آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ، لا أفتح لأحد قبلك . رواه مسلم

وأكثر النصوص في السنة يراد بها هذا النوع من الشفاعات ، وهو الذي أنكر بعض أنواعه طوائف من أهل البدع .

٤ . الشفاعة في أهل الشرك ، وهذا النوع جاء النصوص بإبطاله ، وبينت أنه لا ينفع ، كما في قوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وبينت النصوص أن الشفاعة لا تكون إلا لمن رضي الله عمله ، والمشرك خلاف ذلك .

٥ . الشفاعة التي يعتقدها المشركون في معبوداتهم ، وهذا النوع جاء النصوص بإبطاله أيضاً ، وبين سبحانه أن الشفاعة كلها له

، لا يملكها غيره ، ولا تطلب من سواه ، قال تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) وقال تعالى (ولا يملك الذين يدعون من دونه

الشفاعة) وقال تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا

يملكون مثقال ذرة.....ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وحقيقة هذا الأمر يتبين لهم يوم القيامة ، حين لا ينفعهم العلم

، كما قال تعالى عن الكفار في الآخرة أنهم يقولون (فما لنا من شافعين) وقال تعالى عنهم (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء

وكانوا بشركائهم كافرين) وبين سبحانه أن الشفاعة في الآخرة لا تكون إلا بإذنه ، ورضاه ، كما قال تعالى (وكم من ملك في

السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

وأكثر نصوص القرآن في شأن الشفاعة إنما هو في بيان بطلان ما يعتقده الكفار في آلهتهم ، وبيان شروط الشفاعة المقبولة .

وعليه نعلم أن الشفاعة في القرآن والسنة نوعان :

١. شفاعة مثبتة : ومنها :

- أ. الشفاعة في الدنيا بين الناس , إذا كانت في أمر مباح , ولم تضر أحداً .
- ب. أنواع الشفاعات التي تكون في الآخرة - ويأتي بيانها في شرح الواسطية إن شاء الله - ولا بد أن تطلب من الله , وتكون فيمن تقبل فيه الشفاعة , وهو الموحد .

٢. شفاعة منفية^(١) : ومنها :

- أ. الشفاعة في أمور الدنيا إذا كانت في أمر محرم , أو ضرت الغير , قال تعالى (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) .
 - ب. الشفاعة في أهل الشرك , قال تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .
 - ج. الشفاعة التي يعتقدونها المشركون في آلهتهم , قال تعالى (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) .
- وبهذا التقسيم تنحل كثير من الإشكالات في هذا الباب .

(١) وهي إما منفية عن الشافع , كما يعتقد الكفار في آلهتهم , وأهل القبور في المقبورين , وكل من اعتقد أن غير الله يملك الشفاعة , كمن يطلب الشفاعة من الأنبياء , والصالحين . وإما منفية عن المشفوع له , كالكفار , فقد أخبر سبحانه أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وعليه نعلم أيضاً أن الشفاعة التي تُطلب من الأموات ، والمقبورين ، هي من جنس الشفاعة التي نفاها القرآن ، والتي كان يعتقدونها الكفار في آلهتهم ، وهي أصل شرك المشركين الذين بُعث فيهم نبينا ﷺ وهي مراد المصنف هنا .

وتحرير هذه المسألة من أهم ما يكون ، وفهمها من أهم ما ينبغي على المسلم ، والخلل فيها هو أصل شرك المشركين قديماً وحديثاً ، فكفار العرب كانوا يعتقدون أنهم على ملة إبراهيم الخليل ، ولهم كثير من الأعمال التي يتعبدون بها لله تعالى - كما يأتي بيان ذلك عند شرح كتاب (كشف الشبهات) إن شاء الله - وكانوا يعتقدون أن صرفهم لأنواع العبادة لآلهتهم إنما هو لرجاء شفاعتها ، كما قال تعالى عنهم (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقال تعالى عنهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وكذلك لما وجدت القبور في بلاد المسلمين في أواخر المائة الثالثة ، كان أصل شبهة توجههم إلى تلك القبور والأضرحة أن التوجه لأصحابها قرينة يؤجرون عليها ، وأنهم بتوجههم لها ينالون حظوة عند أصحابها ، ومن ثم يشفعون لهم عند الله .

وقد اعتنى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ببيان هذه المسألة في عدد من رسائله ، ووجه أشد المواجهة من علماء السوء ، والضلالة ، والجهل ، وكانت هذه المسألة من أشد المسائل التي وجهت بها هذه الدعوة بحجة أنهم لا يعظمون الأولياء والصالحين . ويجدر بنا أن نلخص عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة بناء على نصوص الوحيين ، وما أجمع عليه أئمة الدين قبل فشو مظاهر الشرك ، بتعظيم القبور والمشاهد في بلاد المسلمين .

أولاً : الشفاعة ملك لله تعالى ، كما قال تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) فكل من يشفع فإنما يشفع بعد إذن الله له ، ورضاه عن المشفوع له .

وحقيقة ذلك أن الله يتفضل على بعض عباده ، ويكرمهم بالشفاعة ، وهنا يكون الفضل شامل للشافع بإكرامه وإظهار فضله ، وللمشفوع له برحمته ونفعه^(١) .

وعلى هذا فلا يجوز أن تطلب الشفاعة من غير مالكتها ، وهو الله عز وجل .

ثانياً : إكرام الله لأحد بالشفاعة لا يعني أنه يتصرف بالشفاعة كيف شاء ، بل لا يشفع إلا بعد إذن الله له ، ولا يكون ذلك إلا فيمن رضي الله عمله ، وهو الموحد^(٢) .

وعليه يتبين ما سبق ، وهو أن الفضل أولاً وآخره لله تعالى الذي أكرم الشافع ، والمشفوع له .

ثالثاً : بمعرفة حقيقة الشفاعة التي أثبتها القرآن - وهي ما سبق بيانه - يتبين أن كل من طلب الشفاعة من غير الله - كما يفعله عباد القبور والأضرحة - فقد حرم نفسه من الشفاعة ، لأن طلب الشفاعة منهم شرك ، والله لا يقبل الشفاعة في شرك . قال ابن القيم : وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها ، وهذه حالة كل مشرك .

(١) قال ابن تيمية : فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال ، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكتها ، بل هذا ممنوع كما يمنع أن يكون خالفاً ورثاً .

وقال أيضاً : (قل لله الشفاعة جميعاً) أي : لا يملكها إلا هو ، فهو الذي يُسألها سبحانه وتعالى ، وهو الذي تطلب منه سبحانه وتعالى .

وقال أيضاً : ولكن الله إذا أذن لهم شفيعوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم .

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان : فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه ، ولا الشافع شفيع من دونه ، بل شفيع بإذنه .

والفرق بين الشفيعين ، كالفرق بين الشريك ، والعبد المأمور .

فالشفاعة التي أبطلها الله : شفاعة الشريك ، فإنه لا شريك له ، والتي أثبتها : شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ، ولا يتقدم بين يدي مالكة حتى يأذن له ، ويقول : اشفع في فلان .

(٢) قال ابن تيمية : فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه ، فلا يأذن لهم إذناً مطلقاً .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : الشفاعة ملك لله وحده ، وكون النبي ﷺ أعطيها لا استقلالاً من دون الله ، بل أكرمه المالك لها لأناس مخصوصين ، في مقدار مخصوص ، فهي شيء محدود لشيء محدود .

رابعاً : تكون الشفاعة في الآخرة لأهل التوحيد الخالص ، فلا تكون إلا منهم ولهم ، فبحسب توحيد العبد لربه ، وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة ، وغيرها ، كما جاء ذلك في النصوص ، ومنها حديث أبي هريرة أنه قال : قلت : يا رسول الله : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة ، من قال (لا إله إلا الله) خالصاً من قلبه ، أو نفسه . رواه البخاري .

وكذلك قال ﷺ : لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً . متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة : أهل التوحيد ، الذين جردوا التوحيد ، وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه ، وهم الذين ارتضى الله سبحانه ، قال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقال (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً) فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضا قول المشفوع له ، وإذنه للشافع فيه ، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ، ولا يرضى قوله ، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه ، فإنه سبحانه علقها بأمرين : رضا عن المشفوع له ، وإذنه للشافع ، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة..... فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون ، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم ، وإنما تحصل بإذنه للشافع ، ورضاه عن المشفوع .

ونحتم بهذا الكلام النفيس لابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين ، حيث قال : وتأمل قول النبي ﷺ لأبي هريرة وقد سأله : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : أسعد الناس بشفاعتي من قال (لا إله إلا الله) خالصاً من قلبه . كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته : تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء ، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله ، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة هو تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع .

ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذ ولياً ، أو شافعاً أنه يشفع له ، وينفعه عند الله ، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم ، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله ، كما قال تعالى في الفصل الأول (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وفي الفصل الثاني (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وبقي فصل ثالث ، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد ، واتباع الرسول ، وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين ، كما قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرين : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ .

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعها وعقلها : لا شفاعة إلا بإذنه ، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله ، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيدة ، واتباع رسوله .

فالله تعالى لا يغفر شرك العادلين به غيره ، كما قال تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة ، والموالات ، والمحبة ، كما في الآية الأخرى (تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) وكما في آية البقرة (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله ، فإنه يقول : لا نحبهم كحب الله ، ولا نسويهم بالله ، ثم يغضب لهم ولحرماتهم إذا انتهكت أعظم مما يغضب لله ، ويستبشر بذكرهم ، ويتبشش به ، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم من إغاثة اللهفات ، وكشف الكربات ، وقضاء الحاجات ، وأنهم الباب بين الله وبين عباده ، فإنك ترى

المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه ، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاته ، وإذا ذكرت له الله وحده ، وجردت توحيده لحقته وحشة ، وضيق ، وحر ج ، ورمك بنقص الإلهية التي له ، وربما عاداك .

رأينا والله منهم هذا عياناً ، ورمونا بعداوتهم ، وبغوا لنا الغوائل ، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة ، ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا كما قال إخوانهم : عاب آلهتنا ، فقال هؤلاء : تنقصتم مشايخنا ، وأبواب حوائجنا إلى الله ، وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ لما قال لهم : إن المسيح عبد الله ، قالوا : تنقصت المسيح وعبته ، وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد ، ومساجد تقصد ، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله ، قالوا : تنقصت أصحابها .

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم ، حتى كأنهم قد تواصلوا به (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) أ.هـ

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ عز وجل: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

يقول الله تعالى في هذه الآية : أخبر يا محمد وأنذر وخوف بالقرآن , الذين يخافون أن يخشروا ويجمعوا إلى ربهم - وهم المسلمون - بأنه ليس لهم ناصر فينصرهم من دون الله , ولا شفيع يتوسط لهم , إذا علموا ذلك (لعلهم يتقون) فيستجيون لأمر الله , ويستقيمون على دينه .

وكأن المعنى : انفعوا أنفسكم بالعمل الصالح في الحياة الدنيا , فإنه ذخركم يوم تلقون الله , ولا ينفعكم حينها ولي ولا شفيع . قال في تيسير العزيز الحميد : وليس في الآية دليل على نفي الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله , كما ادعته المعتزلة , بل فيها دليل على نفي اتخاذ الشفعاء من المؤمنين , وعلى نفيها بغير إذن الله .

وَقَوْلِهِ: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا}.

في الآية بيان أن الشفاعة كلها ملك لله , فلا تطلب من غيره , وكل من يشفع من الأنبياء , والأولياء , فإنما هو بإذن الله , كما في الآية التي ذكرها المصنف بعد هذه الآية (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) .

وَقَوْلِهِ: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}.

وَقَوْلِهِ: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}.

في هاتين الآيتين بيان أن كل شفاعة باطلة إلا ما جمع بين هذين الشرطين وهما :

١ . إذن الله للشافع أن يشفع .

٢ . رضى الله عن المشفوع له .

وفيها أن الملائكة على عظيم قدرها عند الله لا تشفع إلا بعد أن يأذن الله لها .

قال في تيسير العزيز الحميد : وإذا كانت الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلاً للشفاعة ,

فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها ؟!

وَقَوْلُهُ: {قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} الْآيَتِينَ.

في هذه الآية قطع جميع ما يتعلق به المشركون في شركهم ، فذكر لهم أربع متعلقات وأبطلها ، وهي :

١ . أن من تدعوهم من دون الله لا يملكون شيئاً من الخلق . (لا يملكون مثقال ذرة) .

٢ . أن من تدعوهم من دون الله لم يشاركوا الله في الخلق (وما لهم فيهما من شرك) وقوله (فيهما) أي : في خلق السماوات والأرض .

٣ . أن من تدعوهم من دون الله لم يعاونوا الله في شيء من الخلق (وما له منهم من ظهير) أي : معين .

٤ . أن من تدعوهم من دون الله لا يملكون الشفاعة ، فلا تسألوهم إياها (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

قال ابن القيم في مدارج السالكين : وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعاً ، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً ، أو شافعياً ، فهو كمثّل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، فقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريده عبادته منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شافعياً عنده .

فنفي سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً ، منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه ، فنفي الملك ، والشركة ، والمظاهرة ، والشفاعة التي يظنها المشرك ، وأثبت شفاعته لا نصيب فيها لمشرك ، وهي الشفاعة بإذنه .

فكفى بهذه الآية نوراً ، وبرهاناً ، ونجاة ، وتجييداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك وموداه لمن عقلها ، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحتها ، وتضمنه له ، ويظنون في نوع ، وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً ، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن .

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا ، فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية . وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك ، وما عابه القرآن وذمه ، وقع فيه ، وأقره ، ودعا إليه ، وصوبه ، وحسنه ، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية ، أو نظيره ، أو شر منه ، أو دونه ، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه ، ويعود المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة ، والسنة بدعة ، ويكفر الرجل بمحض الإيمان ، وتجرّد التوحيد ، ويبدع بتجرّد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع ، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً ، والله المستعان .

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، فَتَنَى أَنْ يَكُونَ لِعَبِيرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّبُّ....

هذا الكلام لابن تيمية في مجموع الفتاوى ، وقد اختصره المصنف رحمه الله ، ويعتبر هذا الكلام كالتفسير للآية . قال في فتح المجيد : وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات ، وهو كافٍ بتحقيق مع الإيجاز .

وقال في تيسير العزيز الحميد : قوله - أي ابن تيمية - (وحقيقته) أي : حقيقة الأمر ، أي : أمر الشفاعة ، أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه ، وينال المقام المحمود . فهذا هو حقيقة الشفاعة ، لا كما يظن المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء ، فيدخله الجنة ، وينجيهِ من النار . ولهذا يسألونها من الأموات ، وغيرهم إذا زاروهم ، وذلك أنهم قالوا : إن الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله لا تزال تأتيه الألفاظ من الله ، وتفيض على روحه الخيرات ، فإذا علق الزائر روحه به ، وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألفاظ بواسطتها ، كما ينعكس الشعاع من المرأة الصافية ، والماء ، ونحوه على الجسم المقابل له ، قالوا : فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ، ويعكف بهمته عليه ، ويوجه قصده كله ، وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره ، وكلما كان جمع المهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به ، وشفاعته له .

وقال ابن القيم : وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا ، والفارابي ، وغيرهما ، وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها ، وقالوا : إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور .

وبهذا السر عُبِدَت الكواكب ، واتخذت لها الهياكل ، وصنفت لها الدعوات ، واتخذت الأصنام المجسدة لها ، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور أعياد ، وتعليق الستور عليها ، وإيقاد السرج عليها ، وبناء المساجد عليها ، وهو الذي قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية ، وسد الذرائع المفضية إليه ، فوقف المشركون في طريقه ، وناقضوه في قصده ، وكان ﷺ في شق ، وهؤلاء في شق .

وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها ، وتشفع لهم عند الله . قالوا : فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجه المقرب عند الله ، وتوجه بهمته إليه ، وعكف بقلبه عليه ، صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله ، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان ، فهو شديد التعلق به ، فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام ، والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به .

فهذا سر عبادة الأصنام ، وهو الذي بعث الله رسله ، وأنزل كتبه بإبطاله ، وتكفير أصحابه ، ولعنهم ، وأباح دمائهم ، وأمواهم ، وسبي ذراريهم ، وأوجب لهم النار ، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهلهم ، وإبطال مذهبهم أ.هـ

١٧ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ، وَأَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ لَهُ : ((يَا عَمَّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)) . فَقَالَا لَهُ : أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَعَادَا ، فَكَانَ آخَرَ مَا قَالَ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْكَ)) . فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ : {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}.

١٧ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}.

الباب السابع عشر

وخلاصته : بيان أن مفاتيح القلوب بيد الله تعالى ، وأنه لا أحد من الخلق يستطيع هداية غيره هداية التوفيق ، أو يصرف عنه ذلك مهما كان ، فالنبي ﷺ سيد ولد آدم ، ومع ذلك لم يستطيع هداية عمه ، مع حرصه على ذلك ، لحكمة يريد بها الله عز وجل ، قال تعالى للنبي ﷺ (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) .

فمن ادعى ذلك فقد كذب وكفر ، ومن طلبها من غير الله فقد كفر ، كما يُعتقد في بعض أرباب الطرق . وبعض الشراح جعله تابعا للباب الذي قبله ، فالشفاعة لا تنفع المشرك ، والشافع لا ينفع إلا بأمر الله . وأكثر الشراح على أنه باب آخر في بيان ضعف المخلوقين ، وقطع متعلق من يتوجه لغير الله من الصالحين ، وأنهم لا يملكون هداية أحد ، بل هم مريبون ، محتاجون إلى هداية الله ، وإلى مغفرة الله ، وإلى رضوان الله .

قال تعالى في بيان اختصاصه بهداية القلوب (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي لأمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) . وهذه الآية قد يكون المقصود بها هداية الدلالة ، وقد يكون هداية التوفيق ، أو هما معاً .

يقول ابن جرير في تفسير هذه الآية : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين (هل من شركائكم) الذين تدعون من دون الله ، وذلك آلهتهم وأوثانهم (من يهدي إلى الحق) يقول : من يرشد ضالاً من ضلالته إلى قصد السبيل ، ويسدّد جائراً عن الهدى إلى واضح الطريق المستقيم ؟ فإنهم لا يقدرّون أن يدعوا أن آلهتهم وأوثانهم تُرشد ضالاً ، أو تهدي جائراً ، وذلك أنهم إن ادّعوا ذلك لها أكذبتهم المشاهدة ، وأبان عجزها عن ذلك الاختبار بالمعينة .

فإذا قالوا (لا) وأقروا بذلك ، فقل لهم : فالله يهدي الضالّ عن الهدى إلى الحق (أفمن يهدي) أيها القوم ضالاً إلى الحق ، وجائراً عن الرشd إلى الرشd (أحق أن يتبع) إلى ما يدعو إليه (أم من لا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى) ؟!

ثم قال : وقوله (فما لكم كيف تحكمون) ألا تعلمون أن من يهدي إلى الحق أحق أن يتبع من الذي لا يهتدي إلى شيء إلا أن يهديه إليه هادٍ غيره ، فتركوا اتباع من لا يهتدي إلى شيء وعبادته ، وتبعوا من يهديكم في ظلمات البر والبحر ، وتخلصوا له العبادة ، فتفردوه بها وحده دون ما تشركونه فيها من آلهتكم وأوثانكم ؟

قال في تيسير العزيز الحميد : أراد المصنف رحمه الله الرد على عباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون ، فيسألونهم مغفرة الذنوب ، وتفريج الكرب ، وهداية القلوب ، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية ، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة . وقد وقفت على رسالة لرجل منهم في ذلك ، ويحتجون على ذلك بقوله (لهم ما يشاءون عند ربهم) أ.هـ .

ويمكن أن يكون إيراد المصنف لهذا الباب هنا ليبين أنه مع وضوح الحق ، وبيان دلائله فإن بعض الناس لا يوفق لسلوكه ، إما لجهله ، وإما لعناده ، وذلك أنه في الأبواب السابقة قطع كل شبهة يتعلق بها الجاهلون ، فمن بقي على ضلاله بعد هذا البيان فلا نملك له شيئاً ، والله الهادي إلى سواء السبيل ، قال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

جاء في النصوص الشرعية ذكر (الهداية) ومن خلال التتبع نجد أن الهداية نوعان :

١. هداية توفيق وإلهام : وهي خلق الهدى في قلب الضال . وهذه لله وحده , لا يملكها غيره , وهي المرادة بقوله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت) .

قال الشيخ محمد حامد الفقي : فمن ادعاها من مشايخ الطرق الصوفية ونحوهم , وزعم أنه يدخل قلوب مريديه وتلاميذه , ويعلم ما فيها , ويصرفها على ما يريد , فهو كاذب ضال مضل , ومن صدق ذلك فهو ضال مكذب لله ولرسوله .

٢. هداية دلالة وإرشاد : وهي هداية البيان والتوضيح . وهذه يملكها كل من أعطاه الله علماً , وهي المرادة بقوله تعالى (ولكل قوم هاد) وبقوله تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) أي : تدل وترشد .

وقفات مع أدلة الباب

قَوْلُهُ تَعَالَى : {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}.

الشاهد : أن هداية التوفيق لا يملكها أحد إلا الله ، فوجب أن تطلب منه وحده .

واختلف العلماء في معنى قوله تعالى (من أحببت) بناء على أن محبة الكافر لا تجوز :

- ١ . المراد من أحببت هدايته ، ورجحه الشنقيطي في أضواء البيان ، ومال إليه شيخنا ابن عثيمين .
- ٢ . المراد المحبة الطبيعية ، كمحبة الابن أباه مثلاً ، ولو كان كافراً . ورجحه الشيخ سليمان بن عبد الله في شرحه لكتاب التوحيد .
- ٣ . أن ذلك كان قبل النهي عن محبة المشركين .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ^(١) ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ ، جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ، وَأَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ لَهُ : ((يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)) . فَقَالَا لَهُ : أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَأَعَادَا ، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْتَ عَنْكَ)) . فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ : {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}.

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : أن النبي ﷺ مع حرصه على هداية عمه أبي طالب لم يستطع ذلك ، وهذا في حال حياته ، فكيف بعد وفاته ، فغيره من باب أولى .

قال في تيسير العزيز الحميد : يحتمل أن المسيب حضر القصة ، فإن المذكورين من بني مخزوم ، وهو أيضاً مخزومي ، وكانوا يومئذ كفاراً ، فمات أبو جهل على كفره ، وأسلم الآخرون .

وقوله (كلمة أحاج لك بها عند الله) اذكرها حجة عند الله ، لرواية (أشهد لك بها عند الله) وليس المراد : أجادل . أفاده شيخنا .

فائدة : قال ابن حجر في الفتح : ويحتمل أن يكون قال (أنا) فغيرها الراوي أنفة أن يحكي كلام أبي طالب ، استقباحاً للفظ المذكور ، وهي من التصرفات الحسنة أ.هـ

(١) قال في (وفيات الأعيان) : والمسيب : بفتح الياء المشددة المثناة من تحتها ، وروي عنه أنه كان يقول بكسر الياء ، ويقول : سيب الله من يسبب أبي .

قال ابن باز : المسيب بالكسر ، وبالفتح ، وهو أشهر عند المحدثين .

مسألة : كيف نجمع بين قوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) مع قوله (لما حضرت أبا طالب الوفاة ...) ؟

١. المقصود علامات الموت وأعراضه ، ولم ينزل به .

٢. أن هذا خاص بأبي طالب ، ويستدل عليه بوجهين :

أ. أنه قال (كلمة أحاج لك بها عند الله) ولم يجزم بنفعها له .

ب. أنه سبحانه وتعالى أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه فهذه كذلك . واختاره شيخنا .

مسألة : كيف نجمع بين هذه القصة التي كانت قبل الهجرة بالاتفاق ، وبين طلب النبي ﷺ الاستغفار لأمه بعد الهجرة ؟

قال في تيسير العزيز الحميد : وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر ، فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية .

وفيه دلالة على تأخر نزول الآية عن وفاة أبي طالب ، ولكن يحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم ، ويكون لنزولها سببان : متقدم : وهو أمر أبي طالب ، ومتأخر : وهو أمر أمه ، ويؤيد تأخر النزول استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك ، فإن ذلك يقتضي تأخر النزول وإن تقدم السبب ، ويشير إلى ذلك أيضاً قوله في حديث الباب : وأنزل الله في أبي طالب (إنك لا تهدي من أحببت) لأنه يشعر بأن الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره ، والثانية فيه وحده ، ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان . فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأُنزل الله (ما كان للنبي) الآية . قاله الحافظ أ.هـ

ومن فوائد الحديث :

١. أن الكفار كانوا يعلمون معنى (لا إله إلا الله) فمعنى (الإله) في لغة العرب (المقصود) ولذا أبوا أن يفرّدوا الله بالتوجه والقصد ويتركوا التوجه لأهلهم ، بخلاف المتأخرين الذين يرددون (لا إله إلا الله) ثم يتوجهون إلى غير الله ، فلا خير في رجل كفار قريش أعلم منه بكلمة التوحيد ، قال المصنف في مسائل الباب : فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام .

٢. بيان حرص النبي ﷺ على هداية الناس .

قال الشيخ عبد العزيز بن باز : جاء رسول الله ﷺ ليدعوه دعوة خاصة عند قرب الأجل ، وقد دعاه قبل ذلك كثيراً ، ولكنه لم يستجب .

٣. خطورة جليس السوء ، وخطورة تعظيم الأسلاف ، والعادات الباطلة .

٤. جواز عيادة المشرك للمصلحة .

قال في تيسير العزيز الحميد : وفي هذا جواز عيادة المشرك إذا رجي إسلامه ، وجواز حمل العلم إذا كان فيه مصلحة راجحة على عدمه .

٥. أن النسب لا ينقطع بين المسلم والكافر ، وإنما تنقطع الموالاة ، والميراث ، لقوله (يا عم) .

١٨ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوفُ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلِ اللَّهِ ﷻ : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ } .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا { قَالَ : هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ ، وَنَسِيَ الْعِلْمُ عُيُودَهُمْ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : لَمَّا مَاتُوا ، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَثُّلَهُمْ ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ .

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تُظَرُّوْنِي كَمَا أَطَرْتُ النَّصَارَى ابْنُ مَرْيَمَ ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)) . أَخْرَجَاهُ .

وَقَالَ (١) : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفَ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوفُ)) .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)) " فَالَهَا ثَلَاثًا " .

١٨ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

الباب الثامن عشر

وخلاصته : بيان خطر الغلو ، والتحذير منه ، وأنه السبب في حصول أول شرك وقع في الأرض ، بل في كل شرك يقع .
قال ابن تيمية : وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظمين .
والغلو هو : مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً .

قال ابن تيمية : والغلو : مجاوزة الحد ، بأن يزداد الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق ، ونحو ذلك .
وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو ، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه ، كالوادي بين جبلين ، والهدى بين ضاللتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له ، فالغالي فيه مضيع له ، هذا بتقصيره عن الحد ، وهذا بتجاوزه .

وقال في تيسير العزيز الحميد : لما ذكر المصنف رحمه الله ما فعله عباد القبور مع الأموات من الشرك ، أراد أن يبين السبب في ذلك ليحذر ، وهو الغلو مطلقاً ، لا سيما في الصالحين ، فإنه أصل الشرك قديماً وحديثاً ، لقرب الشرك بالصالحين من النفوس ، فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم أ.هـ

وهذا الباب وبابان بعده في الكلام عن أسباب ووسائل الشرك الأكبر .

فبعد أن ذكر المصنف أنواعاً للشرك الأكبر ، كالنذر ، والذبح ، والدعاء ، والاستغاثة ، والاستعاذة ، وحذر من الوقوع في هذه الشراكيات ، بدأ يذكر الأسباب والوسائل التي توقع في هذه الشراكيات ، والجامع لهذه الأسباب فيما ذكره في الأبواب الثلاثة هو الغلو في الصالحين .

فيكون رحمه الله حذر من الشرك ووسائله .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ ﷻ : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ } .

في هذه الآية ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو الذي وقع منهم ، كما غلا النصارى في عيسى فألهوه ، وكما غلا اليهود في عزير وقالوا : ابن الله .

وهذا النهي وإن كان لأهل الكتاب إلا أنه لتحذير المؤمنين من الوقوع في مثله .

وقد نمنا سبحانه نهيًا خاصاً عن الغلو بقوله (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير) .

والنصارى أكثر غلوًا من اليهود ، يقول ابن تيمية : والنصارى أكثر غلوًا في الاعتقاد والأعمال من سائر الطوائف ، وإياهم نهي الله عن الغلو في القرآن في قوله تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) .

ومن صور غلو النصارى ما ذكره النبي ﷺ عنهم أنهم إذا مات فيهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً . متفق عليه

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في قول الله تعالى وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ

وَيَعُوقَ وَنَسْرًا قَالَ : هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصُبُوا إِلَى

مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَاسْمُهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُذِّتْ .

تخریجه : رواه البخاري .

والشاهد : بيان خطورة الغلو ، وأنه السبب في حصول أول شرك في الأرض .

وهذا الأثر أختصره المصنف ، ولفظه عند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صارت الأوثان التي في قوم نوح في

العرب بعد ، أما (ودٌ) فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما (سواع) فكانت لهذيل ، وأما (يغوث) فكانت لمрад ، ثم لبني

غطفان بالجرف عند سبأ ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان ، وأما (نسر) فكانت لحمير ، لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال

صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصَابًا ، وسموها

بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُذِّتْ .

قوله (فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ) الإيحاء : هو الإعلام الخفي ، وهو هنا : الوسوسة .

وفي هذا الأثر الحذر من خطوات الشيطان ومداخله على العبد ، وبيان خطره وتدرجه في إيقاع العبد في شرك المعصية .

وفيه بيان أهمية العلم الشرعي ، وأنه سياج منيع أمام الباطل ، لأنه ما وقع الشرك إلا بعد أن نُسي العلم .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : لَمَّا مَاتُوا ، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ.

ومثل هذا النقل ذكره ابن تيمية في غير موضع .

ويلاحظ في هذا النقل أن المراحل ثلاث :

أولاً : العكوف على قبورهم بعد أن ماتوا .

ثانياً : تصوير تماثيلهم ونصبها على قبورهم .

ثالثاً : عبادتها .

بينما في أثر ابن عباس الذي ذكره المصنف مرحلتان .

قال في تيسير العزيز الحميد : الظاهر أن ابن القيم ذكر ذلك بالمعنى لا باللفظ .

وقال ابن باز : ويحتمل كلامه أن الذين صوروها هم الذين عبدوها لما طال الأمر ، وتغيرت الأحوال ، ويحتمل أنهم بعد موتهم

جاءت ذريتهم فعبدوها أ.هـ

لكن قال ابن جرير في تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال : كانوا قوماً

صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أنباغ يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق

لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقطون

المطر ، فعبدوهم أ.هـ

فالذي يظهر أن الجيل الأول صوروا صورهم ، وحصلت عبادتهم في الجيل الثاني ، والله أعلم .

قوله (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) قال في تيسير العزيز الحميد : أي : طال عليهم الزمان ، ونسوا ما قصده الأولون بتصوير

صورهم ، فعبدوهم ، فتبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم ، كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها ، واعتقاد

النحوس فيها والسعود ، ونحو ذلك ، وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم ، كما أن ذاك هو الغالب على عباد القبور ونحوهم

، وهو أصل عبادة الأصنام ، فإنهم عظموا الأموات تعظيماً مبتدعاً ، فصوروا صورهم ، وتبركوا بها ، فآل الأمر إلى أن عبدت

الصور ومن صورته ، وهذا أول شرك حدث في الأرض ، وهو الذي أوحاه الشيطان إلى عباد القبور في هذه الأزمان ، فإنه ألقى

إليهم أن البناء على القبور ، والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم ، وأن الدعاء عندها أرجى في الإجابة من الدعاء في

المسجد الحرام والمساجد ، فاعتادوها لذلك ، فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى الدعاء به ، والإقسام على الله به .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وهذا أعظم من الذي قبله ، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه ، أو يسأل بأحد من خلقه ،

فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه ، وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً يعكف عليه ، وتعلق

عليه القناديل ، والستور ، ويطاف به ، ويستلم ، ويقبل ، ويحج إليه ، ويذبح عنده ، فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعاء

الناس إلى عبادته ، واتخاذ عيدا ، ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم ، وأخراهم ، وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من

دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد لله ، وألا يعبد إلا الله ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى

أن من نهي عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية ، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنهم لا حرمة لهم ، ولا قدر ، وغضب المشركون

، واشتمأت قلوبهم ، كما قال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال ، والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم ، والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ، ورموهم بالعظائم ، ونفروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك ، وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله ، وأنصار دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك (وما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون) أ.هـ.

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)) . أَخْرَجَاهُ .

تخریجه : رواه البخاري دون مسلم ، ووهم المصنف بقوله : أخرجاه .

والشاهد : النهي عن الإطراء ، وهو نوع خاص من الغلو ، وهو الغلو في المدح قولاً .

ومعنى الحديث : لا تطروني فيؤدي ذلك أن تكونوا مثل النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام ، ويدل عليه قوله ﷺ (إنما أنا عبد الله فقولوا : عبد الله ورسوله) .

وزعم الخرافيون من الصوفية وأضرابهم إلى أن المراد : لا تطروني إطراءً كإطراء النصارى لعيسى ، حيث جعلوه ابناً لله ، وأما غير ذلك فلا بأس .

ولذا يقول البوصيري في برده التي يترجم بها اليوم في الموالد :

دع ما ادعته النصارى في نبهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فهل بعد هذا القول محادة لله ورسوله ! وهو ﷺ يقول : لا تطروني ... وقولوا عبد الله ورسوله .

على أنهم بلغوا في إطراءه أشد مما بلغ النصارى في عيسى ، والعياذ بالله ، حيث أشركوه في بعض معاني الربوبية ، ودونكم قصيدة البوصيري وغيره .

قال في تيسير العزيز الحميد : ويوجد شيء من ذلك في أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ الذين جاوزوا الحد في مدحه ﷺ وعصوه في نفيه من الغلو فيه وإطرائه ، كما أطرت النصارى ابن مريم ، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد ، والغلو الزائد ، مع عصيانهم له في أمره ونهيه ، فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه . وانظر باقي كلامه النفيس رحمه الله في باب (من الشرك أن يستغيث بغير الله ، أو يدعو غيره) في الرد على البوصيري وغيره ، وكذا كلامه في شرح هذا الباب .

وقال في تيسير العزيز الحميد أيضاً : ومن العجب أن اللعين كادهم مكيدة أدرك بها مأموله ، فأظهر لهم هذا الشرك في صورة محبته وتعظيمه ، ومحبة الصالحين وتعظيمهم ، ولعمر الله إن تبرئتهم من هذا التعظيم والمحبة هو التعظيم والمحبة ، وهو الواجب المتعين ، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص في صورة بغض النبي ﷺ وبغض الصالحين ، والتنقص بهم ، وما شعروا أنهم تنقصوا الخالق سبحانه وتعالى ، وبخسوه حقه ، وتنقصوا النبي ﷺ والصالحين بذلك .

وانظر كلام الشيخ حامد الفقي رحمه الله في تعليقه على فتح المجيد .

وقال الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي : ولكن المنحرفين يرون حب الرسول في قراءة الأناشيد ، والأشعار ، والاستغاثات بالرسول ، وقراءة البرنجي وأمثاله ، فمن عمل بهذا فهو محب للرسول ، وإن ارتكب الموبقات ، وتلطح بالقاذورات المبتدعات ، ومن لا فلا .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا في كلام نفيس يمثل الواقع : من تتبع التاريخ يعلم أن أشد المؤمنين حباً واتباعاً للنبي ﷺ أقلهم غلواً فيه ، ولا سيما أصحابه رضي الله عنهم ، ومن يليهم من خير القرون ، وأن أضعفهم إيماناً ، وأقلهم اتباعاً له هم أشدهم غلواً في القول ، وابتداعاً في العمل ، وترى ذلك في شعر الفريقين .

وَقَالَ (١) : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ)) .

تخرجه : رواه أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، وقال النووي : إسناده صحيح على شرط مسلم ، وكذا قال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ، وصححه الألباني ، وقال ابن باز : بإسناد جيد ، فهو حديث صحيح . ومناسبة الحديث ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ غداة جمع : هلم القط لي الحصى . فلقطت له حصيات من حصى الخذف ، فلما وضعهن في يده ، قال : نعم بأمثال هؤلاء ، وإياكم والغلو في الدين ، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين .

قال ابن تيمية : وقوله (إياكم والغلو في الدين) عام في جميع أنواع الغلو ، في الاعتقاد ، والأعمال .
والشاهد : التحذير من الغلو ، وبيان أنه سبب هلاك من قبلنا .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)) " قَالَهَا ثَلَاثًا " .

تخرجه : رواه مسلم .

والشاهد : التحذير من التنطع في الدين ، والتنطع نوع من الغلو .

قال ابن الأثير : المتنتعون هم المتعمقون الغالون في الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوهم ، مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً .

قال ابن حجر رحمه الله : لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب .

وقال النووي : فيه كراهة التعر في الكلام بالتشدد ، وتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشي اللغة ، ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام .

١٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ ، فَكَيْفَ إِذَا عَبْدَهُ ؟!

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيْسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ ، فَقَالَ : ((أَوْلَيْكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ ، أَوْلَيْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)) . فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ : فِتْنَةُ الْقُبُورِ ، وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ .

وَلَهُمَا عَنْهَا ، قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرُحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا ، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ - : ((لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا . أَخْرَجَاهُ .

وَلِمُسْلِمٍ ، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ - قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِحِمْسٍ - وَهُوَ يَقُولُ : ((إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، أَلَا وَإِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، فَإِنِّي أَنُهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ)) .

فَقَدْ هَمَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا : " خُشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا " ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ ، فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا ، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا ، كَمَا قَالَ ﷺ : ((جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا)) .

وَلَأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ - مَرْفُوعًا - : ((إِنْ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)) . وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ .

١٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ , فَكَيْفَ إِذَا عَبْدَهُ ؟!

الباب التاسع عشر

وخلاصته : النهي عن اتخاذ القبور مساجد , وذلك ببناء المساجد على القبور , أو دفن الأموات في المساجد , أو قصد الصلاة عند قبور الأموات .

وذلك أن هذه الأفعال من وسائل الشرك , وإذا كان هذا الوعيد , والتهديد , والتحذير فيمن فعل هذا الفعل , فكيف بمن عبد تلك القبور , وتوجه إليها , وإلى أصحابها .

والبعض يعتقد أن لقبور الصالحين من الأنبياء وغيرهم مزية , حيث تنزل الرحمة على قبورهم , فيتقصد العبادة رجاء أن تفيض تلك الرحمة عليه , وتنزل البركة به , والبعض يعتقد أن عبادة الله عند قبور الصالحين من أسباب قبولها .

قال في تيسير العزيز الحميد : نوع المصنف التحذير من الافتتان بالقبور , وأخرجه في أبواب مختلفة ليكون أوقع في القلب , وأحسن في التعليم , وأعظم في الترهيب .

قال شيخنا محمد بن عثيمين رحمه الله : وكلام المؤلف رحمه الله في قوله (عبد الله) يشمل الصلاة وغيرها , والأحاديث التي ساقها في الصلاة , لكنه رحمه الله كأنه قاس غيرها عليها , فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره فهو شبيه بمن اتخذ مسجداً , لأنه يرى أن هذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به على غيره أهـ

وقال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم في معرض كلامه عن ما يفعل عند القبور : وتام الكلام في ذلك بذكر سائر العبادات , فالقول فيها جميعاً كالقول في الدعاء , فليس في ذكر الله هناك , أو القراءة عند القبر , أو الصيام عنده , أو الذبح عنده فضل على غيره من البقاع , ولا قصد ذلك عند القبر مستحباً , وما علمت أحداً من علماء المسلمين يقول : إن الذكر هناك , أو الصيام , والقراءة أفضل منه في غير تلك البقعة .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

- هذا الباب يدور حول تحريم بناء المساجد على القبور ، وتحريم الصلاة عند القبور .
وقد ذكر المصنف هنا الأدلة على التحريم .
- قال ابن تيمية : اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور ، ولا الصلاة عندها .
وقال أيضاً : فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء ، والصالحين ، أو الملوك وغيرهم ، تتعين إزالتها بهدم أو بغيره ، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين .
- وقال ابن القيم : يجب هدم القباب التي على القبور ، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ .
وقال أيضاً : فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ، بل أيهما طراً على الآخر مُنْع منه ، وكان الحكم للسابق .
وقال في تيسير العزيز الحميد : وقد أجمع العلماء على النهي عن البناء على القبور ، وتحريمه ، ووجوب هدمه .
وقد تكلم الشيخ سليمان بن عبد الله كلاماً نفيساً في أثر بناء المساجد على القبور فقال رحمه الله تعالى :
واعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفاصد التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله ، ما يغضب الله من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان ، كما نبه عليه ابن القيم وغيره ، فمنها :
١ . اعتيادها للصلاة عندها ، وقد نهي النبي ﷺ عن ذلك .
٢ . ومنها : تحري الدعاء عندها ، ويقولون : من دعا الله عند قبر فلان استجاب له ، وقبر فلان الترياق المحرب ، وهذا بدعة منكورة .
٣ . ومنها : ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء ، وجلب النعماء ، ويقولون : إن البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين .
ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنة والإجماع ، فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله ، فلما عصوا الرسول ، وخالفوا ما أمرهم الله به سلط الله عليهم من انتقم منهم ، وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغير جرى عليهم عام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك ، وهذا أكثر من أن يحصر .
٤ . ومنها : الدخول في لعنة رسول الله ﷺ باتخاذ المساجد عليها ، وإيقاد السرج عليها .
٥ . ومنها : أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد ، وخراب المساجد ، كما هو الواقع ، ودين الله بضد ذلك .
٦ . ومنها : اجتماعهم لزيارتها ، واختلاط النساء بالرجال ، وما يقع في ضمن ذلك من الفواحش ، وترك الصلوات ، ويزعمون أن صاحب التربة تحمّلها عنهم ، بل اشتهر أن البغايا يسقطن أجرتهن على البغاء في أيام زيارة المشايخ ، كالبديوي وغيره ، تقريباً إلى الله بذلك ، فهل بعد هذا في الكفر غاية .
٧ . ومنها : كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ، ونحو ذلك .
٨ . ومنها : جعل الخزائن والأموال ، ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ، ونحو ذلك .
٩ . ومنها : إهداء الأموال ، ونذر النذور لها ، ولسدنتها العاكفين عليها ، الذين هم أصل كل بلية وكفر ، فإنهم الذين يكذبون على الجهال والطغام بأن فلاناً دعا صاحب التربة فأجابته ، واستغاثه فأغاثه ، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم .
١٠ . ومنها : جعل السدنة لها ، كسدنة عباد الأصنام .

١١. ومنها : الاقسام على الله في الدعاء بالمدفون فيها .

١٢. ومنها : أن كثيراً من الزوار إذا رأى البناء الذي على قبر صاحب التربة سجد له , ولا ريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة , بل هذا هو عبادة الأوثان , لأن السجود للقبة عبادة لها , وهو من جنس عبادة النصارى للصور التي في كنائسهم على صور من يعبدونه بزعمهم الباطل , فإنهم عبدوها ومن هي صورته , وكذلك عباد القبور لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عبدت القباب ومن بنيت عليه من دون الله عز وجل .

١٣. ومنها : النذر للمدفون فيها , وفرض نصيب من المال والولد , وهذا هو الذي قال الله فيه (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا) الآية , بل هذا أبلغ , فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم .

١٤. ومنها : أن المدفون فيها أعظم في قلوب عباد القبور من الله , وأخوف , ولهذا لو طلبت من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً , وإذا طلبت بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذباً , ولا ريب أن عباد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحد , بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين غلظوها بالله , كما في قصة القسامة وغيرها .

١٥. ومنها : سؤال الميت قضاء الحاجات , وتفريج الكربات , والإخلاص له من دون الله في أكثر الحالات .

١٦. ومنها : التضرع عند مصارع الأموات , والبكاء بالهيبه والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله في المساجد والصلوات .

١٧. ومنها : تفضيلها على خير البقاع , وأحبها إلى الله , وهي المساجد , فيعتقدون أن العبادة , والعكوف فيها أفضل من العبادة , والعكوف في المساجد , وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين , فإنهم يعظمون المسجد الحرام أعظم من بيوت الأصنام , يرون فضله عليها , وهؤلاء يرون العكوف في المشاهد أفضل من العكوف في المساجد .

١٨. ومنها : أن الذي شرعه الرسول ﷺ في زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة , كما قال (زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) والإحسان إلى المزارع بالترحم عليه , والدعاء له , والاستغفار , وسؤال العافية له , فيكون الزائر محسناً إلى نفسه , وإلى الميت , فقلب عباد القبور الأمر , وعكسوا الدين , وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت , ودعائه , والدعاء به , وسؤاله حوائجهم , ونصرهم على الأعداء , ونحو ذلك , فصاروا مسيئين إلى نفوسهم , وإلى الميت , ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من الدعاء , والترحم عليه , والاستغفار له .

١٩. ومنها : إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القبور بها , فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم , ويكرهونه غاية الكراهة , كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى , وكذلك غيره من الأنبياء , والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم , ويوم القيامة يتبرؤون منهم , كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

٢٠. ومنها : محادة الله , ورسوله , ومناقضة ما شرعه فيها .

٢١. ومنها : التعب العظيم , مع الوزر الكبير , والإثم العظيم .

وكل هذه المفاسد العظيمة وغيرها مما لم يذكر إنما حدثت بسبب البناء على القبور , ولهذا تجدد القبور التي ليس عليها قباب لا يأتيها أحد , ولا يعتادها لشيء مما ذكر إلا ما شاء الله , وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر , فلذلك غلظ فيه , وأبدأ وأعاد , ولعن من فعله , فالخير والهدى في طاعته , والشر والضلال في معصيته ومخالفته أهـ

مسألة : ذكر العلماء أنه إذا وجد قبر في مسجد فإن الحكم للأول ، ويزال الثاني ، فإن بني المسجد أولاً ثم دخل فيه القبر فإنه ينش القبر ، وإن وجد القبر أولاً ثم بني عليه المسجد فإنه يهدم المسجد^(١) .

مسألة : لا يجوز ، ولا تصح الصلاة في مسجد فيه قبر ، سواء كان في قبلة المسجد أو في أي مكان منه . قال ابن باز : إذا كان في المسجد قبر فالصلاة غير صحيحة ، سواء كان خلف المصلين ، أو أمامهم ، أو عن أيماهم ، أو عن شمائلهم .

وقد أفتت اللجنة الدائمة أنه لا يجوز الصلاة في مسجد فيه قبر ، سواء كان المسجد أولاً ، أو القبر^(٢) . وذكر الشيخ سليمان بن عبد الله أن الصلاة لا تنعقد أصلاً .

تنبيه : أما كون قبره ﷺ في المسجد ، فهذا لم يكن من فعل الصحابة رضي الله عنهم ، وإنما كان ﷺ مدفوناً في حجرة عائشة رضي الله عنها ، وكانت خارج المسجد ، ثم لما أراد الوليد بن عبد الملك توسعة المسجد عام ٩٤ هـ أدخل حجرة عائشة إلى المسجد ، وقد خالفه في هذا الفعل التابعون ، وأنكروا عليه ، كسعيد بن المسيب وغيره . وعليه يقال :

١ . النبي ﷺ لم يدفن في المسجد ، بل دفن في بيته .

٢ . المسجد لم يبن على قبره ﷺ بل هو الذي بناه ﷺ في حياته .

ويظهر والله أعلم أن الوليد إنما جعل حد المسجد من الجهة الشرقية حجرة عائشة ، فالحجرة من الجهة الشرقية ملاصقة للمسجد لا داخله فيه ، وأما الجهة الشمالية التي هي عكس القبلة فوسع من خلفها ، فصار القبر من تلك الجهة في قبلة المصلي ، ولذا جعلوا في جهته الشمالية جداران مسنمان - على شكل مثلث - وذلك حتى يكون القبر بعيداً عن قبلة المصلي في تلك الجهة . فصورة القبر في تلك الحال أنه داخل الحجرة ، والحجرة مغلقة تماماً ، وكانت الحجرة ملاصقة للمسجد لا داخله فيه ، إلا من الجهة الشمالية . وفي هذا يقول ابن القيم في النونية :

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي

قد ضمه وثناً من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه

وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجائه بدعائه

في عزة وحماية وصيان

وقال القرطبي : بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته ، وسدوا الداخل إليها ، وجعلوها محدقة بقبره ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذ كان مستقبل المصلين ، فتصور إليه الصلاة بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين ، وحرفوها حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره أ.هـ فلما كان عهد الدولة العثمانية ، وسعوا المسجد من الجهة الشرقية بعد الحجرة ، فصار القبر داخل المسجد تماماً ، وهو فعل لا يحمد البتة .

ولذا لما جاءت التوسعة السعودية الأخيرة للمسجد لم يوسعوا من الجهة الشرقية من جهة القبر ، وإنما رجعوا كثيراً كما هو ملاحظ الآن ، وهذا من مناقبها حرسها الله بالتوحيد .

(١) ولما أراد النبي ﷺ بناء المسجد النبوي أول ما قدم المدينة ، نبش ما كان فيه من قبور المشركين .

(٢) وبعضهم يفرق بين الصلاة في مسجد بني على قبر ، فلا يصح الصلاة فيه ، لأن الأرض مقبرة ، وبين الصلاة في مسجد دُفن فيه ميت ، فيصح الصلاة مع الإثم ، إلا إن كان القبر

في جهة القبلة ، وانظر فتاوى شيخنا ابن عثيمين ج ٢ ص ٢٤٨ .

وحبذا لو ألغيت تلك البقعة الشرقية التي هي شرق القبر ، وعادت الحجرة ملاصقة للمسجد لا داخله فيه .

مسألة : القبة الموجودة على قبر النبي ﷺ ليست دليلاً على مشروعية هذا الفعل ، لأن هذه القبة ليست من وضع الأخيار المقتدى بهم ، وليست من وضع القرون الفاضلة ، بل كما قال تعالى في قصة أصحاب الكهف (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) .

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن أول من بنى القبة على قبره ﷺ بعض ملوك مصر المتأخرين ، وهو قلاوون الصالحي ، المعروف بالملك المنصور ، في عام ٦٧٨ هـ .

وأهل العلم عبر القرون إنما سكتوا عليها من باب عدم القدرة ، ومن باب درأ المفاسد .

قال الصنعاني رحمه الله : فإن قلت : هذا قبر رسول الله قد عمرت عليه قبة عظيمة ، أنفقت فيها الأموال . قلت : هذا جهل عظيم بحقيقة الحال ، فإن هذه القبة ليس بناؤها منه ، ولا من الصحابة ، ولا من تابعيه ، ولا تابعي التابعين ، ولا من علماء أئمة ، وأئمة ملته ، بل هذه القبة المعمولة على قبره ﷺ من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين ، وهو قلاوون الصالحي ، المعروف بالملك المنصور في سنة ٦٧٨ هـ .

وفي فتاوى اللجنة الدائمة : ليس في إقامة القبة على قبر النبي ﷺ حجة لمن يتعلل بذلك في بناء قباب على قبور الأولياء والصالحين ، لأن إقامة القبة على قبره لم تكن بوصية منه ، ولا من عمل أصحابه رضي الله عنهم ، ولا من التابعين ، ولا أحد من أئمة الهدى في القرون الأولى التي شهد لها النبي ﷺ بالخير ، إنما كان ذلك من أهل البدع ، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ، وثبت عن علي رضي الله عنه أنه قال لأبي الهياج : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته . رواه مسلم .

فإذا لم يثبت عنه ﷺ بناء قبة على قبره ، ولم يثبت ذلك عن أئمة الخير ، بل ثبت عنه ما يبطل ذلك ، لم يكن لمسلم أن يتعلق بما أحدثه المبتدعة من بناء قبة على قبر النبي ﷺ .

الشيخ عبد العزيز بن باز ، والشيخ عبد الرزاق عفيفي ، والشيخ عبد الله بن غديان ، والشيخ عبد الله بن قعود .

وقفات مع أدلة الباب

في الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها : أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّورِ ، فَقَالَ : ((أَوْلَيْكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ ، أَوْلَيْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)) .

تخریجه : متفق عليه .

وفي رواية في الصحيحين أن أم سلمة وأم حبيبة ذكرتا كنيسة رأيتها.....

والشاهد : التحذير من فعل كفعل النصارى ، وهو بناء المساجد على القبور ، والغلو في الصالحين ، وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم شرار الخلق عند الله تعالى .

قوله (أولئك) يجوز فتح الكاف إذا كان الخطاب باعتبار الجنس ، وبكسر الكاف إذا كان الخطاب لأم سلمة .

قوله (إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح) شك من راوي الحديث .

مسألة : اختلف العلماء في حكم دخول الكنيسة ، وظاهر هذا الحديث أن أم سلمة دخلت الكنيسة ، لأن أم سلمة ذكرت ما فيها من التصوير^(١) ، وقد سبق ذكر الخلاف في حكم الصلاة في الكنيسة في باب (التبرك) .

والأولى عدم دخول الكنائس إلا لمصلحة راجحة .

وفي فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء :

س : ما حكم دخول المسلم إلى الكنيسة ، سواء لحضور صلاتهم ، أو الاستماع إلى محاضرة ؟.

ج : لا يجوز للمسلم الدخول على الكفار في معابدهم ، لما فيه من تكثير سوادهم ، ولما روى البيهقي بإسناد صحيح عن عمر رضي الله عنه قال (ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم ، ومعابدهم ، فإن السخطة تنزل عليهم) لكن إذا كان لمصلحة شرعية ، أو لدعوتهم إلى الله ونحو ذلك فلا بأس .

قوله : فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ : فِتْنَةُ الْقُبُورِ ، وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ .

هذا نص كلام ابن القيم ، وقد ذكره ابن تيمية بمعناه ، والمقصود أن هؤلاء النصارى جمعوا بين فتنة التصوير ، وفتنة الغلو في قبور الصالحين .

(١) هذا هو الظاهر ، والله أعلم ، وإن كان بعضهم يرى أن ذكرها للصورة لا يلزم منه الدخول .

وَلَمَّا عَنْهَا ، قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرُحُ حَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا ، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ - : ((لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، اخْتَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا . أَخْرَجَاهُ .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : أن النبي ﷺ حذر من اتخاذ القبور مساجد ، وغلظ في ذلك ، يظهر ذلك من الحديث بأمرين :

١ . لعنه ﷺ على هذا الفعل .

٢ . بيانه أنه من فعل اليهود والنصارى .

قولها (لما نزل) فيها ضبطان :

١ . (نَزَلَ) والمعنى : نزول الموت ومقدماته .

٢ . (نُزِلَ) والمعنى : نزل ملك الموت والملائكة معه .

قولها (حَمِيصَةً) كساء له أعلام .

قولها (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) الأقرب أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها ، كما هو مصرح في بعض ألفاظ الحديث .

قولها (وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ) في البقيع مع أصحابه .

والعلة الثاني حديث (ما قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يَقْبُضُ) رواه ابن ماجه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

وَلِمُسْلِمٍ ، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ - قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِحَمْسٍ - وَهُوَ يَقُولُ : ((إِنِّي أُبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اخْتَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)) .

تخریجه : رواه مسلم بزيادة : وصالحهم .

قال ابن باز : وفي مسلم (أنبيائهم وصالحهم مساجد) وسقطت لأنه نقلها من اقتضاء الصراط المستقيم ، وقد سقطت من هناك .

والشاهد : نهي ﷺ أمته عن اتخاذ القبور مساجد .

قال في تيسير العزيز الحميد عند قوله ﷺ (فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَذَنِي خَلِيلًا) : وفيه جواز ذكر الإنسان ما فيه من الفضل إذا دعت الحاجة إلى ذلك أ.هـ

ومن ذلك قوله ﷺ : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر .

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدًا ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا : " خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا " ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ ، فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا ، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا ، كَمَا قَالَ ﷺ : ((جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا)) .

هذا كلام ابن تيمية عن هذا الحديث ، وهو كالشرح لهذا الحديث ، حيث ذكر رحمه الله أن النبي ﷺ نهى عن هذا الفعل في آخر حياته ، فهو نهى لم ينسخ ، ولعن من فعله .

ثم بين صور اتخاذ القبور مساجد ، وأنه لا يشترط بناء مسجد ، بل الصلاة عندها يعتبر من اتخاذها مساجد .
والعلة في منع الصلاة في المقبرة خوف الفتنة ، لا النجاسة كما ذكر بعض الفقهاء .

قال ابن القيم رحمه الله : وبالجمله فمن له معرفة بالشرك ، وأسبابه ، وذرائعه ، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده ، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن ، والنهي بصيغتيه : صيغة (لا تفعلوا) وصيغة (إني أحاكم) ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه ، وارتكب ما عنه نهاه ، واتبع هواه ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقل نصيبه أو عدم عن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريد له ، وغضب لربه أن يعدل به سواه ، فأبى المشركون إلا معصية لأمره ، وارتكاباً لنهيهِ ، وغرهم الشيطان ، فقال : بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم أشد لها تعظيمًا ، وأشد فيهم غلوًا ، كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم أبعد .
ولعمر الله ، من هذا الباب بعينه دخل على عبّاد يغوث ، ويعوق ، ونسر ، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة ، فجمع المشركون بين الغلو فيهم ، والطعن في طريقتهم ، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم ، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية عنهم ، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم .
وقال الشيخ سليمان بن عبد الله : ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة ، لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع ، لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم ، فهم في قبورهم طريون .

وَالْأَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا - : ((إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)) . وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ .

تخرجه : رواه الإمام أحمد ، وابن حبان ، وابن خزيمة ، والطبراني ، وجود إسناده ابن تيمية ، وابن القيم ، وصححه الألباني .
والشاهد : وصف النبي ﷺ لمن فعل هذا الفعل أنه من شرار الخلق عند الله ، وهذا يقتضي التحذير من هذا الفعل .
قوله (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء) يرسل الله ريحاً قبل قيام الساعة فتقبض روح كل مؤمن ، ثم تقوم الساعة على شرار الناس ، كما جاء عند مسلم (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس) .

وقد جمعت هذه الأحاديث التي ذكرها المصنف هنا عدة أنواع من التحذير من بناء المساجد على القبور ، وهي :

- ١ . وصفهم بأنهم شرار الخلق عند الله تعالى .
- ٢ . لعنه ﷺ لهم .
- ٣ . بيانه ﷺ أن هذا من فعل اليهود والنصارى ، وقد أمرنا بمخالفتهم .
- ٤ . نهي ﷺ عن هذا الفعل صراحة .

٢٠ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أُوثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((اَللّٰهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِيْ وَثَنًا يُعْبَدُ ، اِسْتَدَّ غَضَبُ اللّٰهِ عَلٰى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ اَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) .

وَلَا بَنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ : { اَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } قَالَ : كَانَ يَلْتُمُ لَهُمُ السَّوِيقَ ، فَمَاتَ ، فَعَكَّفُوا عَلَى قَبْرِهِ .

وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوَازِءِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : كَانَ يَلْتُمُ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ ، وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ . رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ .

٢٠ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يَصِيرُهَا أُوثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

الباب العشرون

وخلاصته : النهي عن الغلو في قبور الصالحين ، وأنه من أسباب ووسائل الوقوع في الشرك الأكبر .

لما حذر المصنف رحمه الله من الغلو عموماً في الباب الثامن عشر ، وحذر في الباب التاسع عشر من بعض أنواع الغلو ، وهو عبادة الله عند قبور الصالحين ، بين في هذا الباب أن الغلو في قبور الصالحين من وسائل الوقوع في الشرك الأكبر .

فالأبواب الثلاثة كلها في التحذير من الغلو في قبور الصالحين .

قال في تيسير العزيز الحميد : أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة أموراً :

الأول : التحذير من الغلو في قبور الصالحين .

الثاني : أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها .

الثالث : أنها إذا عبدت سميت أوثاناً ، ولو كانت قبور الصالحين .

الرابع : التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد .

المسائل المتعلقة بالباب :

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله : ما ذكره المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين , وغيرهم , وذلك أن ما يفعل عندها نوعان : مشروع , وممنوع .

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل , يزورها المسلم متبعاً للسنة , فيدعو لأهلها عموماً , ولأقاربه ومعارفه خصوصاً , فيكون محسناً إليهم بالدعاء لهم , وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم , ومحسناً إلى نفسه باتباع السنة , وتذكر الآخرة , والاعتبار بها والاعتناظ .

وأما الممنوع فإنه نوعان : أحدهما محرم , ووسيلة للشرك , كالتمسح بها , والتوسل إلى الله بأهلها , والصلاة عندها , وكإسراجها , والبناء عليها , والغلو فيها , وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة .
والنوع الثاني شرك أكبر , كدعاء أهل القبور , والاستغاثة بهم , وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم , فهذا شرك أكبر , وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم .

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه , أو متوسطون إلى الله , فإن المشركين يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ويقولون (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع , ودفع الضرر , وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل , وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم فلا يكفر , من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة , وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين , سواء اعتقدهم مستقلين , أو متوسطين , وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام , فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل , ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه أ.هـ

وقفات مع أدلة الباب

رَوَى مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((اَللّٰهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِيْ وَثَنًا يُعْبَدُ ، اِسْتَدَّ غَضَبُ اللّٰهِ عَلٰى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ اَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) .

تخرجه : رواه مالك مرسلاً^(١) ، ووصله الإمام أحمد ، والحميدي من حديث أبي هريرة ، وقد صححه ابن عبد البر ، وصححه الألباني .

والشاهد : تحذيره ﷺ من اتخاذ المساجد على القبور ، وبيان أن ذلك سبب لأن تعبد من دون الله . وقد استجاب الله لدعاء نبيه ﷺ فلا ينسب إلى قبره شيء من مظاهر الوثنية الظاهرة ، فلا يطاف حوله ، ولا يذبح عنده ، ولا يُعكف عليه . يقول ابن القيم :

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي	قد ضمه وثناً من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه	وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجائه بدعائه	في عزة وحماية وصيان

وفي هذا الحديث رد على من قال من الخرافيين القبوريين : إن الأوثان المحذر منها في القرآن إنما هي أوثان الجاهلية التي يعبدونها ، من الأصنام ، والأحجار ، والأشجار .

ففي هذا الحديث بيان عظيم جداً للرد على أولئك ، حيث بين ﷺ أن القبر وصاحبه قد يكون وثناً يعبد . وتعلق النفوس بقبور الصالحين أكثر من تعلقها بالأحجار ، والأشجار ، والأصنام عند أهل الجاهلية .

قال في تيسير العزيز الحميد : ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عُبد لكان وثناً ، فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي وأربابها من دون الله .

وقال في تيسير العزيز الحميد أيضاً : ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين ، كقبورهم ، ومجالسهم ، ومواضع صلاتهم ، للصلاة ، والدعاء عندها ، فإن ذلك من البدع ، أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم ، ولا نعلم أحداً أجازه ، أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عباد القبور ، وهو أراد التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك ، ومع ذلك فلا نعلم أحداً وافقه عليه من الصحابة ، بل خالفه أبوه وغيره ، لئلا يفضي ذلك إلى اتخاذها أوثاناً كما وقع أ.هـ .

(١) المرسل هو ما سقط منه الصحابي ، أو ما رفعه التابعي .

قال في تيسير العزيز الحميد : فالحديث صحيح عند من يحتج بمراسيل الثقات .

وَلَا بَنَ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ ، عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ : { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } قَالَ : كَانَ يَلْتُ هُمُ السَّوِيقَ ، فَمَاتَ ، فَعَكَّفُوا عَلَى قَبْرِهِ . وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : كَانَ يَلْتُ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ .

تخریجه : أثر مجاهد رواه ابن جریر ، وأثر ابن عباس رواه البخاري .

والشاهد : أن غلوهم في اللات - وكان رجلاً صالحاً - جعله إلهاً يعبد من دون الله .

وقوله (يلت السويق) السويق : دقيق القمح ، أو الشعير . ويلت : يعجن هذا الدقيق ، ويخلط بالسمن .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَانِرَاتِ الْقُبُورِ ، وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ . رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ .

تخریجه : رواه أهل السنن الأربعة^(١) ، وحسنه الترمذي ، والبخاري ، وابن تيمية .

والشاهد : تحذيره ﷺ من الوسائل المفضية إلى الشرك ، ومن ذلك إسراج المقابر ، لأن هذا من الغلو المفضي إلى عبادتها .

وقد جاءت الشريعة بالنهي عن كل ما من شأنه أن يكون وسيلة لتعظيم القبر ، ومن ذلك : النهي عن الكتابة على القبر ، أو تحصيصه ، أو رفعه ، أو إسراجه ، أو البناء عليه .

وإذا كان اللعن على زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج ، فما هو حال من توجه إليها أو تبرك بها أو طاف بها .

(١) ذكر بعض الشراح أنه لم يروه النسائي ، والصحيح أنه رواه في السنن الكبرى والصغرى .

فصل في تتبع وإحياء الآثار :

يسعى بعض الناس قديماً وحديثاً إلى إحياء بعض الآثار للتبرك بها ، وكثيراً من هذه الآثار مكذوبة ، كموقع مولد النبي ﷺ وموقع البيعة ، وغيرها .

وهذه فتوى متينة للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله بشأن ما ورد في جريدة الندوة عن دار الأرقم ، ومسجد البيعة .

من محمد بن إبراهيم إلى حضرة الأستاذ صالح محمد جمال رئيس تحرير جريدة الندوة وفقه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتهوبعد :

فقد وجهت جريدة الندوة في عددها الصادر ٢٠ رمضان ١٣٨٣ هـ استفتاء إلى دار الإفتاء بمناسبة تسليم دار الأرقم للرئاسة العامة لهيئات الأمر بالمعروف عن أمرين :

أحدهما : هل هناك مانع من أن تكتب عليها عبارة (دار الأرقم بن أبي الأرقم) تخليداً لهذا الأثر ؟

وهل هناك مانع ديني من اتخاذها مكتبة ، أو متحفاً ، أو مدرسة ، ثم السماح للحجاج ، والزوار للبلاد المقدسة بزيارتها ، كدار

ساهمت في نشر الدعوة الإسلامية في أحلك الظروف التي مرت بها ؟

السؤال الثاني : لم أزيل أثر مسجد البيعة من الحديبية (الشميسي) ؟

وهل هناك مانع ديني من الاحتفاظ به كمأثر شهد بيعة كان لها أكبر الأثر في رفع راية الإسلام ؟

هذا ما وجهته جريدة الندوة ، وتحتة توقيع (طالب علم) .

الجواب : أما اتخاذ (دار الأرقم بن أبي الأرقم) مزاراً للوافدين إلى البيت الحرام ، يتبركون به بأي وسيلة كان ذلك ، سواء كانت

إعلان كتابة دار الأرقم عليها ، وفتحها للزيارة ، أو اتخاذها مكتبة ، أو متحفاً ، أو مدرسة ، فهذا أمر لم يسبق إليه الصحابة

الذين هم أعلم بما حصل في هذه الدار من الدعوة إلى الإسلام ، والاستجابة لها ، بل كانوا يعتبرونها داراً للأرقم ، له التصرف فيها

شأن غيرها من الدور ، وكان الأرقم نفسه يرى هذا الرأي ، حتى إنه تصدق بها على أولاده ، فكانوا يسكنون فيها ، ويؤجرون ،

ويأخذون عليها ، حتى انتقلت إلى أبي جعفر المنصور ، ثم سلمها المهدي للخيزران التي عرفت بها ، ثم صارت لغيرها .

يتبين هذا كله مما رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ، عن شيخه محمد بن عمر ، قال : أخبرنا محمد بن عمران بن هند بن

عبدالله بن عثمان بن الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، قال : أخبرني أبي ، عن يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم ، قال : سمعت

جدي عثمان بن الأرقم يقول : أنا ابن سُبَيْح الإسلام ، أسلم أبي سابع سبعة ، وكانت داره بمكة على باب الصفا ، وهي الدار

التي كان النبي ﷺ يكون فيها في أول الإسلام ، فيها دعا الناس إلى الإسلام ، وأسلم فيها قوم كثير ، وقال ليلة الاثنين فيها (

اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام) فجاء عمر بن الخطاب من الغد بكرة فأسلم

في دار الأرقم ، وخرجوا منها فكبروا وطافوا بالبيت ظاهرين ، ودعيت دار الأرقم (دار الإسلام) وتصدق بها الأرقم على ولده ،

فقرأت نسخة صدقة الأرقم بداره :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما قضى الأرقم في ريعه ما جاز الصفا أنها محرمة بمكانها من الحرم ، لا تباع ، ولا تورث ، شهد

هشام بن العاص ، وفلان مولى هشام بن العاص . قال : فلم تزل هذه الدار صدقة ، فيها ولده يسكنون ، ويؤجرون ، ويأخذون

عليها ، حتى كان زمن أبي جعفر . قال : محمد بن عمران فأخبرني أبي عن يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم ، قال : إني لأعلم

اليوم الذي وقعت في نفس أبي جعفر إنه ليسعى بين الصفا والمروة في حجة حجها ونحن على ظهر الدار في فسطاط ، فيمر تحتنا

، لو أشاء أن آخذ قلنسوة عليه لأخذتها ، وإنه لينظر إلينا من حين يهبط بطن الوادي حتى يصعد إلى الصفا ، فلما خرج محمد بن عبدالله بن حسن بالمدينة كان عبدالله بن عثمان بن الأرقم ممن تابعه ولم يخرج معه ، فتعلق عليه أبو جعفر بذلك ، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يحبسه ويطره في حديد ، ثم بعث رجلاً من أهل الكوفة يقال له شهاب بن عبد رب ، وكتب معه إلى عامله بالمدينة أن يفعل ما يأمره به ، فدخل شهاب على عبدالله بن عثمان الحبس ، وهو شيخ كبير ابن بضع وثمانين سنة ، وقد ضجر بالحديد والحبس ، فقال له : هل لك أن أخلصك مما أنت فيه ، وتبيني دار الأرقم ، فإن أمير المؤمنين يريد بها ، وعسى أن بعته إياها أن أكلمه فيك ، فيعفو عنك ، قال : إنها صدقة ، ولكن حقي منها له ، ومعني فيها شركاء ، إخوتي ، وغيرهم ، فقال : إنما عليك نفسك ، أعطنا حقل ، وبرئت ، فاشهد له بحقه ، وكتب عليه كتاب شري على حساب سبعة عشر ألف دينار ، ثم تتبع إخوته ففتنتهم كثرة المال فباعوه ، فصارت لأبي جعفر ، ولمن أقطعها ، ثم صيرها المهدي للخيزران أم موسى وهارون ، فبنتها ، وعُرفت بها ، ثم صارت لجعفر بن موسى أمير المؤمنين ، ثم سكنها أصحاب الشطوي ، والعديني ، ثم اشترى عامتها ، أو أكثرها غسان بن عباد ، من ولد موسى بن جعفر .

قال : وأما دار الأرقم بالمدينة في بني زريق فقطبعة من النبي ﷺ هكذا رواه ابن سعد في الطبقات ، ورواه الحاكم في المستدرک من طريق شيخ ابن سعد ، محمد بن عمر ، وسكت عنه ، ومن طريق الحاكم ذكر الزيلعي في (نصب الراية) في كتاب الوقف ، والحافظ ابن حجر في (الدراية) قطعة منه ، وكذلك في (الإصابة) . إلا أنه قال في (الدراية) : وهلال مولى هشام . بدل (وفلان مولى هشام) وذكر جملة منه ابن جرير الطبري في كتابه (ذيل المذيل) من تاريخ الصحابة والتابعين من طريق محمد بن عمر بسنده المذكور .

فمن هذه الرواية تبين أن كون دار الأرقم دار إسلام لم يمنع الأرقم التصرف فيها هو ، ولا ملاكها بعد ، كما يتصرف في غيرها من الدور ، ولم يتخذها متبركاً يتبرك به الوافدون إلى بيت الله الحرام ، بل كانوا يسكنون فيها ، ويؤاجرون ، ويأخذون عليها . وأول من اتخذ منها مزاراً (الخيزران) حينما اتخذت القسم الذي يذكر أنه محتبئ رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم مسجداً ، وهذا المسجد هو الذي ذكره الأزرق في تاريخ مكة ، وتبعه من بعده ، وذكر الفاسي في (شفاء الغرام) والنووي في (الإيضاح) وصاحب (الجامع اللطيف) أنه المقصود بالزيارة من دار الأرقم .

وعبارة الفاسي : المقصود بالزيارة منها ، أي من دار الأرقم ، هو المسجد الذي فيها ، وهو المشهور من المساجد التي ذكرها الأزرق ، وذكر أن النبي ﷺ كان محتبئاً فيه — أي في الموضع الذي اتخذ مسجداً — وفيه أسلم عمر رضي الله عنه . ويصف لنا الفاسي في (شفاء الغرام) مشاهدته ذلك المسجد حين يقول : وطول هذا المسجد ثمانية أذرع إلا قيراطين ، وعرضه سبعة أذرع وثلاث ، الجميع بذراع الحديد ، حرر ذلك بحضوري ، وفيه مكتوب (فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ) . هذه محتبئ رسول الله ﷺ دار الخيزران ، وفيه مبتدأ الإسلام ، أمرت بتجديده الفقيرة إلى الله ، مولاة أمير الملك مفلح سنة ست ... وذهب بقية التاريخ .

قال الفاسي : وعمره أيضاً الوزير الجواد ، وعمرته مجاورة يقال لها مرة العصماء ، وعمر أيضاً في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة ، والذي أمر بهذه العمارة لا أعرفه ، والمتولي بصرف النفقة فيها علاء الدين علي بن ناصر محمد بن الصارم ، المعروف بالقائد . انتهى كلام الفاسي .

وعلى كل فعمل الخيزران ليس بحجة ، وإنما الحجة في عمل الصحابة رضي الله عنهم ، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير

(سورة الإخلاص) : إن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبي ، ولا رجل صالح ، ولا جعلوه مشهداً ، أو مزاراً ، ولا على شيء من آثار الأنبياء ، مثل مكان نزل فيه ، أو صلى فيه ، أو فعل فيه شيئاً من ذلك .

وتكلم شيخ الإسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم) على المزارات التي بمكة غير المشاعر ، مساجد وغيرها ، فقال ضمن كلامه على ذلك : ما بنى رسول الله ﷺ بمكة غير المسجد الحرام ، بل المساجد كلها محدثة ، مسجد المولد وغيره ، ولا شرع لأئمة زيارة موضع المولد ، ولا زيارة موضع العقبة الذي خلف مني ، وقد بُني هناك مسجد ، واحتج بأن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر ، وحج معه في حجة الوداع جماهير المسلمين لم يتخلف عن الحج معه إلا من شاء الله ، وهو في ذلك كله لم يأت هو ، ولا أحد من أصحابه غار حراء ، ولا شيئاً من البقاع التي حول مكة ، ولم يكن هناك إلا بالمسجد الحرام ، وبين الصفا والمروة ، ومنى ، ومزدلفة ، وعرفات ، وصلى الظهر ، والعصر بطن عرنة ، وضربت له القبة يوم عرفة بنمرة المجاورة لعرفة ، وحج بعده خلفاؤه الراشدون فمشوا على تلك الطريقة ، ما ساروا إلى حراء ونحوه لصلاة فيه .

وقال في (ص ٤٢٩) : قد ذكر طائفة من المصنفين استحباب زيارة مساجد مكة ، وما حولها ، وكنت كتبتها في منسك كتبه قبل أن أحج في أول عمري لبعض الشيوخ ، جمعته من كلام العلماء ، ثم تبين لي أن هذا كله من البدع المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة ، وأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، وأن أئمة العلم والهدى ينهون عن ذلك ، وأن المسجد الحرام هو المسجد الذي شرع لنا قصده للصلاة ، والدعاء ، والطواف ، وغير ذلك من العبادات ، ولم يشرع لنا قصد مسجد بعينه بمكة سواه ، ولا يصلح أن يجعل هناك مسجد يزاحمه في شيء من الأحكام ، وما يفعله الرجل في مسجد من تلك المساجد من دعاء ، وصلاة ، وغير ذلك إذا فعله في المسجد الحرام كان خيراً له ، بل هذا سنة مشروعة ، وأما قصد مسجد غيره هناك تحريماً لفضله فبدعة غير مشروعة .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (منسكه) : أما زيارة المساجد التي بنيت بمكة غير المسجد الحرام ، كالمسجد الذي تحت الصفا ، وما في سفح أبي قبيس ، ونحو ذلك من المساجد التي بنيت على آثار النبي ﷺ وأصحابه ، كمسجد المولد وغيره ، فليس قصد شيء من ذلك من السنة ، ولا استحبه أحد من الأئمة ، وإنما المشروع إتيان المسجد الحرام خاصة ، والمشاعر عرفة ، ومزدلفة ، والصفا ، والمروة ، وكذلك قصد الجبال ، والبقاع التي حول مكة غير المشاعر ، عرفة ، ومزدلفة ، ومنى ، مثل جبل حراء ، والجبل الذي عند منى الذي يقال إنه كان فيه قبة الفداء ، ونحو ذلك ، فإنه ليس من سنة رسول الله ﷺ زيارة شيء من ذلك ، بل هو بدعة .

وقال في تفسير (سورة الإخلاص) : النبي ﷺ لم يصل بمسجد بمكة إلا المسجد الحرام ، ولم يأت للعبادات إلا المشاعر : منى ، ومزدلفة ، وعرفة ، ولهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجد بمكة لصلاة ، غير المسجد الحرام ، ولا تقصد بقعة لزيارة ، غير المشاعر التي قصدها رسول الله ﷺ . . . إلى أن قال : وكل مسجد بمكة ، وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث أ.هـ

ويضاف إلى هذا ما ذكر الشاطبي في (الاعتصام) في تتبع الآثار قال : خرج الطحاوي ، وابن وضاح ، وغيرهما ، عن معمر بن سويد الأسدي ، قال : وافيت الموسم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما انصرفنا إلى المدينة انصرفت معه ، فلما صلى لنا صلاة الغداة فقرأ فيها (ألم تر كيف فعل ربك) و (لإيلاف قريش) ثم رأى ناساً يذهبون مذهباً ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ قال : يأتون مسجداً ها هنا صلى فيه رسول الله ﷺ . فقال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم يتبعون آثار أنبيائهم

، فاتخذوها كنائس ، وبيعاً ، من أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد التي صلى فيها رسول الله ﷺ فليصل ، وإلا فلا يتعمدها . ثم قال الشاطبي : قال ابن وضاح : كان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد ، وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباء وحده . قال : وسمعتهم يذكرون أن سفيان دخل مسجد بيت المقدس فصلى فيه ، ولم يتبع تلك الآثار ، ولا الصلاة فيها ، وكذلك فعل غيره ممن يقتدي به ، وقدم وكيع مسجد بيت المقدس فلم يَعدُ فعل سفيان . قال ابن وضاح : وقد كان مالك يكره كل بدعة ، وإن كانت في خير ، وجميع هذا ذريعة لأن يتخذ سنة ما ليس سنة ، أو يعد مشروعاً ما ليس مشروعاً .

وهذا كله على تسليم كون الدار المعروفة اليوم بدار الأرقم هي دار الأرقم في الواقع ، وفي النفس من ذلك شيء لأمرين : أحدهما : أن موقع دار الأرقم حسب ما تقدم في رواية ابن سعد على باب الصفا ، وفي تلك الرواية قول يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم : إني لأعلم اليوم الذي وقعت - أي دار الأرقم - في نفس أبي جعفر أنه ليسعى بين الصفا والمروة في حجة حجها ، ونحن على ظهر الدار في فسطاط ، فيمر تحتنا لو أشاء أن أخذ قلنسوة عليه لأخذتها ، وإنه لينظر إلينا من حين يهبط بطن الوادي حتى يصعد إلى الصفا .

وهذا غير موقع الدار المعروفة اليوم بذلك الاسم . وما في رواية ابن سعد المذكورة موافق لما في تاريخ مكة للأزرقي ، ومستدرك الحاكم أنها عند الصفا . ولما في (أسد الغابة) لابن الأثير أنها في أصل الصفا .
الثاني : ما ذكره ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) في حوادث سنة ١٧٣هـ في ترجمة الخيزران ، قال : قد اشترت الدار المشهورة فيها بمكة ، المعروفة بدار الخيزران ، فزادتها في المسجد الحرام .
فإن هذا وإن كان بعيداً ، ومخالفًا لرواية ابن سعد المتقدمة ، ولم يذكره الأزرقي وغيره ، فإنه مما يشكك في اشتهاار الدار الموجودة اليوم باسم (دار الأرقم) في زمن ابن كثير ، إذ لو كان الأمر كذلك لما خفي عليه .
وأما قول السائل : لم أزيل أثر مسجد البيعة من الحديبية (الشميسي) وهل هناك مانع ديني يمنع من الاحتفاظ به كمأثر شهد بيعة كان لها أكبر الأثر في رفع راية الإسلام .
فالجواب : أنه أزيل لأنه ليس مسجد الشجرة الذي يعنيه السائل بمسجد البيعة ، فإن مسجد الشجرة غير معروف هو والحديبية من مدة قرون ، بشهادة مؤرخي مكة ، والمدينة .

قال الفاسي في (شفاء الغرام) في كلامه على مسجد الشجرة ، وعلى المسجد الآخر الذي بناه يقطين بن موسى في الشق الأيسر : هذان المسجدان ، والحديبية لا يعرفون اليوم ، والله أعلم .
وقال في موضع آخر ما نصه : هي - أي الحديبية - والاعشاش لا يعرفان اليوم .
وذكر في محل آخر القول بأن موضع الحديبية هو الذي فيه البئر المعروفة ببئر شميسي ، بطريق جدة ، وتعبه بقوله : الشجرة والحديبية لا يعرفان الآن ، وليست الحديبية بالموضع الذي يقال له الحديبية في طريق جدة ، لقرب هذا الموضع من جدة ، وبعده عن مكة ، والحديبية دونه بكثير إلى مكة .
وقال الزين المراغي في (تحقيق النصرة بمعالم دار الهجرة) في كلامه على مسجد الحديبية : لا يعرف اليوم ، بل يقال : إن مكة ليس فيها أحد يعرف الحديبية بعينها ، وإنما يعرفون الجهة لا غير .

وقال السهمودي في (وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى) : هو - أي مسجد الحديبية - غير معروف ، بل قال المطري : لم أر في أرض مكة من يعرف اليوم الحديبية ، إلا الناحية لا غير .

وإذا كان هذا مآل مسجد الشجرة ، والحديبية في عصر أولئك ، فكيف باليوم !.

وأما موقف السلف من ذلك المسجد المسمى بمسجد الشجرة أيام كان هو والحديبية معروفين ، فهو أنهم لا يرون رأي السائل ، وهو أنه شهد بيعة الرضوان ، ومن قام ببيان ذلك من السلف سعيد بن المسيب ، فقد روى الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن طارق بن عبد الرحمن ، قال : انطلقت حاجاً فممرت بقوم يصلون ، فقلت : ما هذا المسجد ، قالوا : هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها ، فلم نقدر عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد لم يعلموها ، وعلمتموها أنتم ، فأنتم أعلم ؟!

وروى ابن جرير الطبري في تفسيره عن سعيد بن المسيب قال : كان جدي يقال له حزن ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، يقول : فأتيناه من قابل فعميت علينا .

وكان ابن عمر يذكر أن تعمية شجرة البيعة رحمة من الله ، روى البخاري في صحيحه في (باب البيعة في الحرب على ألا يفروا) من كتاب الجهاد عن نافع ، قال : قال ابن عمر رضي الله عنهما : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، كانت رحمة من الله .

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : الحكمة في إخفائها هي أن لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم الجهال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع وضرر ، كما نراه الآن مشاهداً فيما دونها . قال : وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله : كانت رحمة من الله . أي كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تعالى . هذا ما صار إليه شأن شجرة البيعة في عهد النبي ﷺ .

ثم صار في خلافة عمر بن الخطاب ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم) : وهو توهم من توهم في شجرة بالحديبية أنها هي الشجرة التي بايع الصحابة النبي ﷺ تحتها .

فكان من توهم ذلك ينتابها ويصلي عندها ، فأمر عمر بن الخطاب بقطعها فقطعت .

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رواه ابن سعد في (الطبقات الكبرى) قال : حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، قال : أخبرنا عبد الله بن عون ، عن نافع ، قال : كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان ، فيصلون عندها ، قال : فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب فأوعدهم فيها ، وأمر بها فقطعت ، وصحح الحافظ في (الفتح) إسناد هذه الرواية ، واعتمدها صاحب (عيون الأثر) وعزاها السيوطي في (الدر المنثور) إلى مصنف ابن أبي شيبة .

قال ابن وضاح في كتاب (البدع والنهي عنها) : سمعت عيسى بن يونس مفتي طرسوس يقول : أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة . قال عيسى بن يونس : وهو عندنا من حديث ابن عون ، عن نافع : إن الناس كانوا يأتون الشجرة ، فقطعها عمر .

قال ابن وضاح : فعليكم بالإتباع لأئمة الهدى المعروفين ، فقد قال بعض من مضى : كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس ، كان منكراً عند من مضى ، ومتحجب إلى الله بما يبغضه ، ومتقرب إليه بما يبعده منه ، وكل بدعة عليها زينة وبهجة أهـ.

وهذا ما لزم بيانه ، وصلى الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم . ص - ف - ٢٠٢٣ في ٢٩-١٠-١٣٨٢هـ

وهذه فتوى للشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله بشأن حكم الإسلام في إحياء الآثار .

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وآله وصحبهوبعد :

فقد نشرت بعض الصحف مقالات حول إحياء الآثار ، والاهتمام بها ، لبعض الكتاب ، ومنهم الأستاذ صالح محمد جمال ، وقد رد عليه سماحة العلامة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد ، فأجاد ، وأفاد ، وأحسن ، أجزل الله مثوبته ، ولكن الأستاذ أنور أبا الجدايل ، هداه الله ، وألهمه رشده ، لم يقتنع بهذا الرد ، أو لم يطلع عليه ، فكتب مقالاً في الموضوع نشرته جريدة المدينة بعددها الصادر برقم ٥٤٤٨ وتاريخ ٢٢/٢/١٤٠٢ هـ بعنوان (طريق الهجرتين) قال فيه (والكلمة المنشورة بجريدة المدينة بالعدد ٥٤٣٣ وتاريخ ٧ / ٤ / ١٤٠٢ هـ للأستاذ الباحثة عبد القدوس الأنصاري عطفاً على ما قام به الأديب الباحث الأستاذ عبد العزيز الرفاعي من تحقيق للمواقع التي نزل بها رسول الله ﷺ في الطريق الذي سلكه في هجرته من مكة إلى المدينة المنورة ، تدفعنا إلى استنهاض همة المسئولين إلى وضع شواخص تدل عليها ، كمثّل خيمتين أدنى ما تكونان إلى خيمتي أم معبد ، مع ما يلائم بقية المواقع من ذلك ، بعد اتخاذ الحيلة اللازمة لمنع أي تجاوز يعطيها صفة التقديس ، أو التبرك ، أو الانحراف عن مقتضى الشرع ، لأن المقصود هو إيقاف الطلبة ، والدارسين ، ومن يشاء من السائحين على ما يريدونه من التعرف على هذا الطريق ، ومواقفه هذه لمعرفة ما عاناه الرسول ﷺ في رحلته السرية المتكتمة هذه من متاعب ، وذلك لمجرد أخذ العبرة ، وحمل النفوس على تحمل مشاق الدعوة إلى الله ، تأسيساً بما تحمله في ذلك عليه الصلاة والسلام ، على أن تعمل لها طرق فرعية معبدة ، تخرج من الطريق العام ، وتقام بها نزل ، واستراحات للسائحين ، وأن يعنى أيضاً بتسهيل الصعود إلى أماكن تواجده ﷺ بدءاً بغار حراء ، ثم ثور ، والكراع ، حيث تعقبه سراقه بن مالك ، حتى الوصول إلى قباء ، وما سبق ذلك من مواقع في مكة المكرمة ، كدار الأرقم بن أبي الأرقم ، والشعب الذي قوطع هو وأهله فيه ، وطريق دخوله في فتح مكة ، ثم نزوله بالأبطح ، وكذا في الحديبية ، وحنين ، وبدر ، وكذلك مواقفه في المدينة المنورة ، ومواقع غزواته وتواجده في أريافها ، ثم طريقه ﷺ إلى خيبر ، وإلى تبوك ، وتواجده فيهما ، لإعطاء المزيد من الإحاطة ، والإلمام بجهاد الفذ في نشر الدعوة الإسلامية والعمل على التأسيسي به في ذلك أ.هـ كما دعا الدكتور فاروق أخضر في مقاله المنشور في جريدة الجزيرة بعددها رقم ٣٣٥٤ وتاريخ ١٣ / ١ / ١٤٠٢ هـ إلى تطوير الأماكن الأثرية في المملكة لزيارتها من قبل المسلمين بصفة مستمرة ، لضمان الدخل بزعمه بعد نفاذ البترول .

ومما استدل به أن السياحة الدينية في المسيحية في الفاتيكان تعتبر أحد الدخول الرئيسية للاقتصاد الإيطالي ، وأن إسرائيل قد قامت ببيع زجاجات فارغة على اليهود في أمريكا على اعتبار أن هذه الزجاجات مليئة بهواء القدس . كما أشار إلى أنها ستؤدي من الفوائد أيضاً (في تثبيت العلم بالإسلام عند الأطفال المسلمين إلخ ...) ونظراً لما يؤدي إليه إحياء الآثار المتعلقة بالدين من مخاطر تمس العقيدة ، أحببت إيضاح الحق ، وتأييد ما كتبه أهل العلم في ذلك ، والتعاون معهم على البر والتقوى ، والنصح لله ، ولعباده ، وكشف الشبهة ، وإيضاح الحجة ، فأقول :

إن العناية بالآثار على الوجه الذي ذكر يؤدي إلى الشرك بالله جل وعلا ، لأن النفوس ضعيفة ومجبولة على التعلق بما تظن أنه يفيدها ، والشرك بالله أنواعه كثيرة غالب الناس لا يدركها ، والذي يقف عند هذه الآثار سواء كانت حقيقة ، أو مزعومة بلا حجة يتضح له كيف يتمسح الجهلة بترابها ، وما فيها من أشجار ، أو أحجار ، ويصلي عندها ، ويدعو من نسبت إليه ، ظناً منهم أن ذلك قربة إلى الله سبحانه ، ولحصول الشفاعة ، وكشف الكربة ، ويعين على هذا كثرة دعاة الضلال الذين تربت الوثنية

في نفوسهم ، والذين يستغلون مثل هذه الآثار لتضليل الناس ، وتزيين زيارتها لهم ، حتى يحصل بسبب ذلك على بعض الكسب المادي ، وليس هناك غالباً من يخبر زوارها بأن المقصود العبرة فقط ، بل الغالب العكس ، ويشاهد العاقل ذلك واضحاً في بعض البلاد التي بليت بالتعلق بالأضرحة ، وأصبحوا يعبدونها من دون الله ، ويطوفون بها كما يطاف بالكعبة باسم أن أهلها أولياء ، فكيف إذا قيل لهم إن هذه آثار رسول الله ﷺ كما أن الشيطان لا يفتري في تحين الأوقات المناسبة لإضلال الناس ، قال الله تعالى عن الشيطان أنه قال (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين) وقال أيضاً سبحانه عن عدو الله الشيطان (قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) وقد أغوى آدم فأخرجه من الجنة ، مع أن الله سبحانه وتعالى حذره منه ، وبين له أنه عدوه ، كما قال تعالى في سورة طه (وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى) ومن ذلك قصة بني إسرائيل مع السامري حينما وضع لهم من حليهم عجلاً ليعبدوه من دون الله ، فزين لهم الشيطان عبادته مع ظهور بطلانها ، وثبت في جامع الترمذي وغيره بإسناد صحيح عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال ﷺ : الله أكبر إنها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، لتربكن سنن من كان قبلكم) .

شبه قولهم (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) بقول بني إسرائيل (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فدل ذلك على أن الاعتبار بالمعاني والمقاصد لا بمجرد الألفاظ ، ولعظم جريمة الشرك ، وخطره في إحباط العمل نرى الخليل عليه السلام يدعو الله له ولبنيه السلامة منه ، قال الله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنِي أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) الآية .

فإذا خافه الأنبياء والرسل - وهم أشرف الخلق ، وأعلمهم بالله ، وأتقاهم له - فغيرهم أولى وأحرى بأن يخاف عليه ذلك ، ويجب تحذيره منه ، كما يجب سد الذرائع الموصلة إليه ، ومهما عمل أهل الحق من احتياط ، أو تحفظ فلن يحول ذلك بين الجهال ، وبين المفساد المترتبة على تعظيم الآثار ، لأن الناس يختلفون من حيث الفهم ، والتأثر ، والبحث عن الحق اختلافاً كثيراً ، ولذلك عبد قوم نوح عليه السلام وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، مع أن الأصل في تصويرهم هو التذكير بأعمالهم الصالحة للتأسي ، والاقتناء بهم ، لا للغلو فيهم ، وعبادتهم من دون الله ، ولكن الشيطان أنسى من جاء بعد من صورهم هذا المقصد ، وزين لهم عبادتهم من دون الله ، وكان ذلك هو سبب الشرك في بني آدم ، روى ذلك البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى (وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبادت .

أما التمثيل بما فعله اليهود والنصارى فإن الله جل وعلا أمر بالحذر من طريقهم ، لأنه طريق ضلال وهلاك ، ولا يجوز التشبه بهم في أعمالهم المخالفة لشرعنا ، وهم معروفون بالضلال ، وإتباع الهوى ، والتحريف لما جاء به أنبيائهم ، فلهذا ولغيره من أعمالهم الضالة نهينا عن التشبه بهم ، وسلوك طريقهم .

والحاصل أن المفاصد التي ستنشأ عن الاعتناء بالآثار وإحيائها محققة ، ولا يحصى كميتها ، وأنواعها ، وغاياتها إلا الله سبحانه ، فوجب منع إحيائها ، وسد الذرائع إلى ذلك ، ومعلوم أن أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم أعلم الناس بدين الله ، وأحب الناس لرسول الله ﷺ وأكملهم نصحاً لله ولعباده ، ولم يحيا هذه الآثار ، ولم يعظموها ، ولم يدعوا إلى إحيائها ، بل لما رأى عمر رضي الله عنه بعض الناس يذهب إلى الشجرة التي بويح النبي ﷺ تحتها أمر بقطعها ، خوفاً على الناس من الغلو فيها ، والشرك بها ، فشكر له المسلمون ذلك ، وعدوه من مناقبه رضي الله عنه .

ولو كان إحيائها ، أو زيارتها أمراً مشروعاً لفعله النبي ﷺ في مكة ، وبعد الهجرة ، أو أمر بذلك ، أو فعله أصحابه ، أو أرشدوا إليه . وسبق أنهم أعلم الناس بشريعة الله ، وأحبهم لرسوله ﷺ وأنصحهم لله ولعباده ، ولم يحفظ عنه ﷺ ولا عنهم أنهم زاروا غار حراء حين كانوا بمكة ، أو غار ثور ، ولم يفعلوا ذلك أيضاً حين عمرة القضاء ، ولا عام الفتح ، ولا في حجة الوداع ، ولم يعرجوا على موضع خيمتي أم معبد ، ولا محل شجرة البيعة ، فعلم أن زيارتها ، وتمهيد الطرق إليها أمر مبتدع ، لا أصل له في شرع الله ، وهو من أعظم الوسائل إلى الشرك الأكبر ، ولما كان البناء على القبور ، واتخاذ مساجد عليها من أعظم وسائل الشرك نهي النبي ﷺ عن ذلك ، ولعن اليهود والنصارى على اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ، وأخبر عمن يفعل ذلك أنهم شرار الخلق . وقال فيما ثبت عنه في صحيح مسلم رحمه الله عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أتأمر عن ذلك . وفي صحيح مسلم أيضاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : نهي رسول الله ﷺ أن يخصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه . زاد الترمذي بإسناد صحيح : وأن يكتب عليه . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وقد دلت الشريعة الإسلامية الكاملة على وجوب سد الذرائع القولية ، والفعلية ، واحتج العلماء على ذلك بأدلة لا تحصى كثرة ، وذكر منها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه (إعلام الموقعين) تسعة وتسعين دليلاً كلها تدل على وجوب سد الذرائع المفضية إلى الشرك ، والمعاصي ، وذكر منها قول الله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) الآية . وقوله ﷺ (لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس ، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس) سداً لذريعة عبادة الشمس من دون الله ، ومنعاً للتشبه بمن فعل ذلك ، كما ذكر منها أن النبي ﷺ نهي عن بناء المساجد على القبور ، ولعن من فعل ذلك ، ونهي عن تخصيص القبور ، وتشريفها ، واتخاذها مساجد ، وعن الصلاة إليها ، وعندها ، وعن إيقاد المصابيح عليها ، وأمر بتسويتها ، ونهي عن اتخاذها عيداً ، وعن شد الرحال إليها ، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثاناً ، والإشراك بها ، وحرم ذلك على من قصده ، ومن لم يقصده ، بل قصد خلافه سداً للذريعة .

فالواجب على علماء المسلمين ، وعلى ولاة أمرهم أن يسلكوا مسلك نبي الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في هذا الباب وغيره ، وأن ينهوا عما نهي عنه رسول الله ﷺ وأن يسدوا الذرائع ، والوسائل المفضية إلى الشرك ، والمعاصي ، والغلو في الأنبياء ، والأولياء حماية لجناب التوحيد ، وسداً لطرق الشرك ، ووسائله .

والله المستول أن يصلح أحوال المسلمين ، وأن يفقههم في الدين ، وأن يوفق علماءهم ، وولاة أمرهم لما فيه صلاحهم ، ونجاتهم في الدنيا والآخرة ، وأن يوفق قادة المسلمين لتحكيم شريعة الله ، والحكم بها في كل شئوهم ، وأن يسلك بالجميع صراطه المستقيم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد ، وعلى آله ، وأصحابه ، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين أ.هـ

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار . حدثنا أبو العالية قال : لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف . فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأ من العرب ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيرتكم ، وأموركم ، ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد . قلت : فماذا صنعتُم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة . لما كان الليل دفناه ، وسوينا القبور كلها ، لنعميه على الناس لا ينبشونه . قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال . فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما كان تغير منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شعيرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض .

قال ابن القيم رحمه الله : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يفتتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده ، والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيف ، ولعبدوه من دون الله .

٢١ - بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ النَّوَحِيدِ ، وَسَدِّهِ كُلِّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى الشَّرِّكَ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} الآية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرَوَاتُهُ ثَقَاتٌ .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةِ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو ، فَفَهَاةُ ، وَقَالَ : أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي ، عَنْ جَدِّي ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ)) . رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ .

٢١ - بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ ،

وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى الشِّرْكِ

الباب الحادي والعشرون

وخلاصته : بيان حرص النبي ﷺ على حماية التوحيد عما ينقصه أو ينقصه ، وسد منافذ الشرك بكل صوره ووسائله .

ويذكر المصنف في آخر الكتاب باباً شبيهاً بهذا الباب إلا أنه يتعلق بالأقوال ، لأن الأبواب قبله تتعلق بالأقوال ، وهذا الباب يتعلق بالأفعال ، لأن الأبواب قبله تتعلق بالأفعال ، وهذا من حسن تصنيف المؤلف رحمه الله .

ومن الأمثلة على حماية النبي ﷺ لحمى التوحيد :

١. في الأقوال : نهي عن الإطراء ، ونهي عن قول (ما شاء الله وشئت) ونحو ذلك .

٢. في الأفعال : نهي عن الغلو ، والتبرك الممنوع ، والصلاة عند القبور ، ونحو ذلك .

ومراد المصنف بإيراد هذا الباب : أنه بعد أن بين في الأبواب السابقة وقوع بعض الناس في الشرك ووسائله ، ذكر أن النبي ﷺ لم يكتف بالتحذير من الشرك فحسب ، بل حذر من كل طريق ، أو وسيلة تفضي إلى الوقوع في الشرك .

قال في تيسير العزيز الحميد : ولقد بالغ ﷺ وحذر وأندر ، وأبدأ وأعاد ، وخص وعم في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها .
والجَنَاب : هو الجانب القريب من الشيء .

قال في فتح المجيد : والمراد : حمايته عما يقرب منه ، أو يخالطه من الشرك وأسبابه .

وقال ابن باز : جناب الشيء : الجزء منه ، وحمى التوحيد زائد على الجانب ، فالثانية أبلغ من الأولى ، لأن الأولى في الجانب ، والثانية في الحمى .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} الآية.

في هذه الآية بيان أن من جمع هذه الصفات ، من الحرص ، وكراهة المشقة لأمته ، يبعد أن لا يحذر أمته من أعظم ذنب يدخلهم النار ، وهو الشرك بالله ووسائله .

قال في فتح المجيد : فاقتضت هذه الأوصاف التي وُصف بها الرسول ﷺ في حق أمته أن أنذرهم ، وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب ، وبين لهم ذرائع الموصلة إليه .

وهذه الآية جمعت بين دفع المكروه (عزيز عليه ما عنتم) وحصول المحبوب (حريص عليكم) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورَ عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرَوَاتُهُ ثَقَاتٌ .

تخرجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، وصححه النووي ، وحسنه ابن تيمية ، وابن حجر ، وصححه الألباني .

والشاهد : تحذير النبي ﷺ أمته من أن تتخذ قبره عيداً ، وذلك بأن تكون زيارته على وجه مخصوص ، أو وقت مخصوص^(١) .

قوله (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً) أي : بترك صلاة النافلة فيها ، وقراءة القرآن .

كما في الصحيحين : اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، ولا تتخذوها قبوراً .

وعند مسلم : لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه .

وهذان الحديثان يدلان على أنه من المقرر عدم الصلاة أو قراءة القرآن في المقابر .

قال ابن تيمية : أي لا تعطلوها من الصلاة فيها ، والدعاء ، والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحري العبادة في البيوت ،

ونهى عن تحريها عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم .

قوله (فإن صلاتكم تبلغني) قال ابن تيمية : يشير بذلك ﷺ أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم منه ، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً أهـ .

وأما طريقة تبليغ الرسول ﷺ بذلك فقد أخرج أبو داود ، والنسائي مرفوعاً : إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثرُوا عَلَيَّ من

الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي ، قالوا : يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

وأما السلام عليه فقد أخرج أحمد ، والنسائي من حديث ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال : إن لله ملائكة سياحين يبلغونني عن

أمتي السلام . صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وقال ابن القيم في جلاء الأفهام : وهذا إسناد صحيح ، وصححه الألباني .

(١) وقد ذهب بعض المبتدعة إلى أن المقصود : لا تجعلوه كالعيد لا تزورونه إلا مرة ، أو مرتين في العام .

وهذا القول في قمة الافتراء على النبي ﷺ وقمة التلبيس على السذج ، وقد رد ابن القيم على هذا القول الساقط بكلام نفيس .

وذكر بعض العلماء أن المراد بهذا الحديث إنما هو السلام العام ، كالصلاة عليه ﷺ^(١) .

وقد أفتت اللجنة الدائمة أنه لم يثبت في الكتاب أو السنة الصحيحة ما يدل على أن النبي ﷺ يسمع كل نداء ودعاء من البشر ، وإنما ثبت عنه أنه يبلغه صلاة وسلام من يصلي ويسلم عليه ، سواء كان من يصلي عليه ويسلم عند قبره ، أو بعيداً عنه ، كلهم سواء في ذلك ... وأما حديث (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)^(٢) فليس بصريح أنه يسمع سلام المسلم الذي يسلم ، بل يحتمل أنه يرد عليه إذا بلغته الملائكة ذلك ، ولو فرضنا سماعه سلام المسلم لم يلزم أن يلحق به غيره من الدعاء والنداء أ.هـ .

وأما حديث (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي غائباً بلغته) فشديد الضعف .

قال ابن تيمية : هذا حديث موضوع على الأعمش بإجماعهم .

ولو فرض أنه ﷺ يسمع السلام فهو استثناء من سماع غير السلام ، كما يسمع الميت قرع نعال المشيعين ، وكما سمع قتلى بدر خطاب النبي ﷺ لهم .

ويقال أيضاً : ثبت عنه ﷺ أنه قال : ما من أحد يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام .

قال الشيخ ابن باز رحمه الله : المشروع للمسلم إذا زار مسجد الرسول ﷺ أن يبدأ بالصلاة في مسجده عليه الصلاة والسلام ، وإذا أمكن أن يكون ذلك في الروضة الشريفة فهو أفضل ، ثم يتوجه إلى قبر النبي ﷺ ويقف أمامه بأدب وخفض صوت ، ثم يسلم على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه رضي الله عنهما .

وقد أخرج أبو داود بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام ، وقد احتج جماعة من أهل العلم بهذا الحديث على أنه ﷺ يسمع سلام المسلمين عليه إذا ردت عليه روحه ، وقال آخرون من أهل العلم ليس هذا الحديث صريحاً في ذلك ، وليس فيه دلالة على أن ذلك خاص بمن سلم عليه عند قبره ، بل ظاهر الحديث يعم جميع المسلمين عامة ، وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علي ، قالوا : يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك ، وقد أرمت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء . خرجه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه بإسناد حسن .

وسبق قوله ﷺ : إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام . فهذه الأحاديث وما جاء في معناها تدل على أنه ﷺ يُبلغ صلاة المصلين عليه ، وسلامهم ، وليس فيها أنه يسمع ذلك ، فلا يجوز أن يقال إنه يسمع ذلك إلا بدليل صحيح صريح يعتمد عليه ، فإن هذه الأمور وأشباهاها توقيفية ليس للرأي فيها مجال ، وقد قال الله سبحانه (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) وقد ردنا هذه المسألة إلى القرآن العظيم ، وإلى السنة الصحيحة ، فلم نجد ما يدل على سماعه ﷺ صلاة المصلين ، وسلامهم ، وإنما في السنة الدلالة على أنه يبلغ ذلك ، وفي بعضها التصريح بأن الملائكة هي التي تبلغه ذلك ، والله سبحانه أعلم أ.هـ .

فائدة : لم يثبت عنه ﷺ صيغة معينة في الصلاة والسلام عليه عند قبره .

(١) وقالوا : السلام نوعان : سلام مسموع ، وهو ما كان عند قبره ﷺ وسلام معروض وهو ما كان بعيداً عنه ، والله أعلم بالصواب .

(٢) رواه أبو داود ، وحسنه الألباني .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو ، فَتَنَاهَا ، وَقَالَ : أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي ، عَنْ جَدِّي ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ)) . رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ .

تخرجه : رواه ابن أبي شيبة ، وأبو يعلى ، والمقدسي في المختارة^(١) ، وحسنه السخاوي ، وصححه الألباني .
والشاهد : النهي عن قصد القبور لأجل الدعاء عندها ، أو الصلاة عندها ، وأنه لا يجوز تقصد القبر ، أو البقعة التي حوله بشيء من العبادات .

قال ابن تيمية : وما علمت أحداً من علماء المسلمين يقول : إن الذكر هناك ، أو الصيام ، أو القراءة أفضل منه في غير تلك البقعة .

وقال في قصد زيارة قبر النبي ﷺ للدعاء : لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان بدعة محضة .
وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، المعروف بزين العابدين ، قال الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل منه .
وفي هذا الأثر : حرص آل البيت الذين هم من أشد الناس حباً للنبي ﷺ على سد كل الطرق الموصلة للغلو فيه ، ووقوفهم عند ما حده لهم ﷺ وفقهم لقوله .

قال ابن تيمية : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة ، وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب ، وقرب الدار ، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبط .

فائدة : يلزم بعضهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالجفاء في حق النبي ﷺ ويفترون عليه كذباً أنه ينكر شفاعته النبي ﷺ وأنه لا يرى زيارة قبره ، وغير ذلك من الافتراءات التي يصدون بها الجهال عن دعوة الرسل .

وقد رد الشيخ رحمه الله تلك الافتراءات ، وبين منهجه في عدد من كتبه ، وكتب عقيدته التي يدين الله بها في رسالة مستقلة .

ويقول هنا في مسائل هذا الباب : نهي عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال .

وقال رحمه الله في رسالة كشف الشبهات : فإن قال : أتتكر شفاعته رسول الله ﷺ وتبرأ منها ؟

فقل : لا أنكرها ، ولا أتبرأ منها ، بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته .

(١) كتاب (المختارة) لضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي ، وهو كتاب جمع فيه الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين .

قال ابن تيمية : تصحيحه في مختارته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب أهـ .

ولعل عزو المصنف الحديث للمختارة من أجل بيان الصحة ، وإلا فعزوه إلى من هو أسبق أولى ، فقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه .

٢٢ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْْبُدُ الْأَوْثَانَ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنِّ وَالطَّاغُوتِ }.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصْبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ }.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا }.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَدُّو الْقِدَّةَ بِالْقِدَّةِ ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَلَيْهَودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : ((فَمَنْ ؟)) . أَخْرَجَاهُ .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَىٰ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيَتْ الْكَنَزَيْنِ : الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسِيَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا)) .

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ ، وَزَادَ : ((وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ فِتْنَامُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) .

٢٢ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْْبُدُ الْأَوْثَانَ

الباب الثاني والعشرون

وخلاصته : التحذير من الوقوع في الشرك ووسائله ، وأنه سيوجد في أمة محمد ﷺ من يترك الدين ، ويعبد الأوثان ، والعياذ بالله .

وإنما أورد المصنف هذا الباب لعدة أسباب :

- ١ . الرد على بعض الجهال الذين يقولون : إن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة ، لأنها أمة معصومة ، وأن ما يقع عند القبور ليس من الشرك المخرج من الملة^(١) .
 - ٢ . الرد على من قال : إن من قال (لا إله إلا الله) لا يقع منه الشرك . ويأتي بيان ذلك عند شرح كتاب كشف الشبهات .
 - ٣ . الرد على من قال : إن الشرك لا يقع في جزيرة العرب ، ويستدلون بحديث : إن الشيطان يؤس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب . رواه مسلم^(٢) .
- ويجاب عن هذا الحديث بعدة أجوبة منها :
- ١ . أن هذا إخبار منه ﷺ عن يأس الشيطان ، وهذا اليأس وقع في زمن مخصوص لما انتشر الإسلام ، فلا يبعد أنه إذا ضعف دين الناس أن يرتفع يأسه ، لأنه لا يعلم الغيب .
 - ٢ . الألف واللام في قوله (المصلون) للعهد ، ويقصد بهم الصحابة ، فيؤس من أن يعبد الصحابة ، ولا يعني أنه يؤس من غيرهم .
 - ٣ . أن الألف واللام للعموم ، ويكون يأسه في اجتماع الناس كلهم على عبادته . واختاره ابن رجب .
- قال في تيسير العزيز الحميد : أراد المصنف بهذه الترجمة : الرد على عباد القبور الذين يفعلون الشرك ، ويقولون : إنه لا يقع في هذه الأمة الحمدية ، وهم يقولون (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) فبين في هذا الباب من كلام الله ، وكلام رسوله ﷺ ما يدل على تنوع الشرك في هذه الأمة ، ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان ، وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى .

(١) وتبنى هذه الشبهة كل من عبدالله المويس ، وسليمان بن عبد الوهاب ، وابن جرجيس . وانظر كتاب (دعاوى المناوئين) .

(٢) والمراد بعبادة الشيطان : طاعته في الكفر ، ومنه عبادة القبور .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ } .

في هاتين الآيتين يخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم وقعوا في الشرك الأكبر ، وقد جاء في الحديث أن هذه الأمة ستتبع طريقة أهل الكتاب شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، فدل أنه سيقع أناس من هذه الأمة في الشرك الأكبر ، والعياذ بالله . وفي الآية الأولى إنكار تعجب : كيف أن هؤلاء أوتوا الكتاب ، ومع ذلك حصل منهم الشرك ! وفيه تحذير لهذه الأمة ، وأنه يمكن أن يكون منهم ذلك ، حتى وإن كان معهم القرآن والهدى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا } .

إذا كان في الأمم الماضية من بنى المساجد على القبور ، وعظمها ، وعظم أهلها ، فسيكون في هذه الأمة من يفعل ذلك ، لأن النبي ﷺ أخبر أن هذه الأمة ستتبع سنن الأمم الماضية ، وقد وقع ذلك ، وكان بدايته على أيدي الروافض . قال في تيسير العزيز الحميد : وقد حكى ابن جرير في القائلين في ذلك قولين : أحدهما أنهم المسلمون ، والثاني أنهم المشركون ، وعلى القولين فهم مذمومون ، لأن النبي ﷺ قال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحيهم مساجد . وقال ابن كثير رحمه الله بعد ما حكى عن ابن جرير القولين : والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ، لأن النبي ﷺ قال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحيهم مساجد ، يحذر ما فعلوا ، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق ، أمر أن يخفى عن الناس ، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده ، فيها شيء من الملاحم وغيرها أ.هـ والاستدلال بهذه الآيات من جهة تحذير هذه الأمة مما وقع فيه من سبقهم من الأمم ، خاصة إذا ضُمت إلى حديث أبي سعيد الآتي ، حيث أخبر ﷺ أن هذه الأمة ستتبع طريقة من قبلها من الأمم .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوُ الْقَدَّةِ بِالْقَدَّةِ , حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ)) . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : ((فَمَنْ ؟)) . أَخْرَجَاهُ .

تخرجه : متفق عليه , بلفظ : لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر , وذراعاً بذراع , حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن .

وفي لفظ عند البخاري : حتى لو سلکوا جحر ضب لسلکتموه .

ولا يوجد عندهما بلفظ : (حذو القذة بالقذة) وجاءت هذه اللفظة عند أحمد من حديث شداد بن أوس .

والشاهد : أن النبي ﷺ أخبر أن هذه الأمة ستتبع طريقة الأمم قبلها , وخاصة اليهود والنصارى , ومعلوم أن اليهود والنصارى وقعوا في الشرك , فسيقع بعض هذه الأمة في ذلك .

قال شيخنا : لا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثاً في هذه الأمة .

قوله (سنن) فيها ضبطان : (سَنَنَ) و (سُنَنَ) , والأفصح الفتح , والسنن هي الطرق .

قوله (حذو القذة بالقذة) القذة : ريش آخر السهم , وله قذتان متساويتان , وإلا صار مختلفاً .

قوله (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) وجاء عند الترمذي : حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية , لكان في أمي من يصنع ذلك . ضعفه الألباني .

وعند الحاكم : حتى لو أن أحدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه . صححه الألباني .

قوله (اليهود والنصارى ؟ قال : فمن) اختار شيخنا أن هذا استفهام استعظام , والمعنى أن الصحابة استعظموا أن يتبعوا اليهود والنصارى بعد ما من الله عليهم بهذا الهدى القويم .

وقيل : استفهام استفصال , والمعنى : أتعني اليهود والنصارى ؟ واختاره في تيسير العزيز الحميد .

وقال في تيسير العزيز الحميد : ثم إنه فسر هنا باليهود والنصارى , وفي رواية أبي هريرة في البخاري بفارس والروم , ولا تعارض كما

قال بعضهم , لاختلاف الجواب بحسب اختلاف المقام , فحيث قيل فارس والروم كان ثم قرينة تتعلق بالحكم بين الناس ,

وسياسة الرعية , وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها , كذا قال , ولا يلزم وجود

قرينة , بل الظاهر أنه أخبر أن هذه الأمة ستفعل ما فعلته الأمم قبلها من الديانات , والعادات , والسياسات مطلقاً , والتفسير

ببعض الأمم لا ينفي التفسير بأمة أخرى , إذ المقصود التمثيل لا الحصر أ.هـ

وقال في تيسير العزيز الحميد أيضاً : لكن ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمة , لما تواتر عنه أنها لا تجتمع على ضلالة .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ : الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بَسَنَةٌ بَعَامَةٌ ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ ، وَإِنِّي أُعْطِيْتُكَ لِأَمْتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةٌ بَعَامَةٌ ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا)) .

تخرجه : رواه مسلم .

والشاهد : أن النبي ﷺ أخبر أنه سيعبد فنام - جماعات كثيرة - من أمته الأوثان ، وأخبر أيضاً أنه سيلحق حي من أمته بالمشركون ، والحي : القبيلة ، كما في بعض الروايات .

ويلاحظ أن المصنف جاء أولاً بنصوص تدل على أن هذه الأمة ستتبع الأمم قبلها في كل شيء ، ومن ذلك الشرك ، ثم جاء بهذا الدليل الخاص الذي يبين نصاً أن بعض هذه الأمة سيقع في الشرك الأكبر ، ويعبد الأوثان ، لأنه ربما يعارض معارض بالاستدلال الأول .

قوله (زوى لي الأرض) جمع الله له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ، وهذا من الآيات العظام .

قوله (وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوى لي منها) وقد حصل هذا في زمن الفتوحات الإسلامية ، حيث توسعت الدولة الإسلامية ، ووصلت مشارق الأرض ومغاربها .

قوله (وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض) المراد : كنز كسرى وقيصر . الأحمر : الذهب ، لأنه الغالب عند الروم ، وهو الذي يتاجرون به ، والأبيض : الفضة ، لأنه الغالب عند فارس ، وهو الذي يتاجرون به .

وقد حصل ذلك في عهد عمر ، حيث جيء له بكنوز فارس والروم .

قوله (وإنني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة) المراد بالسنة : الجذب والقحط ، كما قال تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) .

والمراد أن النبي ﷺ دعا ربه ألا يهلك أمته بالقحط والجذب العام ، والهلاك العام ، كما حصل لقوم نوح ، وعاد ، وغيرهم .

قال في تيسير العزيز الحميد : هكذا ثبت في أصل المصنف (بعامة) بالباء ، وهي رواية صحيحة في أصل (مسلم) وفي بعض أصوله (بسنة عامة) بحذفها . قال القرطبي : وكأنها زائدة لأن (عامة) صفة لسنة ، فكأنه قال (بسنة عامة) .

وقال الشيخ محمد حامد الفقي في تعليقه على فتح المجيد : الذي في سنن أبي داود مع شرح عون المعبود ، وهي طبعة هندية مصححة بدقة (بسنة بعامة) وقال في عون المعبود : وفي رواية مسلم (بسنة بعامة) في باب الفتن أ.هـ

قوله (فيستبيح بيضتهم) قال في تيسير العزيز الحميد : قال الجوهرى : بيضة كل شيء حوزته ، وبيضة القوم ساحتهم ، وعلى هذا فيكون معنى الحديث إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض ولو اجتمع عليهم كل من بين أقطار الأرض ، وهو جوانبها ، وقيل : بيضتهم معظمهم وجماعتهم ، قلت : وهذا هو الظاهر ، وأن الله تعالى لا يسلط الكفار على معظم المسلمين وجماعتهم ، وإمامهم ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة في قوله (حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً) فأما إذا وجدت هذه الأوصاف فقد يسلط الكفار على جماعتهم ومعظمهم وإمامهم كما وقع .

قوله (ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً) (حتى) تحتل معنيين :

- ١ . عاطفة : بمعنى (لكن) ، والمعنى أن هذه الأمة سيهلك بعضها بعضاً ، ويسبي بعضها بعضاً .
- ٢ . غائية : والمعنى أنه إن أهلك بعض هذه الأمة بعضاً ، وسبي بعضها بعضاً فعندها يرتفع موعود الله بأن لا يهلكهم بسنة بعامة .

قال في فتح المجيد : والظاهر أن (حتى) عاطفة ، أو تكون لانتهاء الغاية ، أي أن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع ، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم أ.هـ . وفي صحيح مسلم قال ﷺ : سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألت أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألت أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها .

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ ، وَزَادَ : ((وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِتْنَامَ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) .

تخرجه : رواه البرقاني ، وهو عند أحمد ، وأبي داود ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وقال الألباني : بسند صحيح .

قوله (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) المراد بهم : أمراء الظلم ، وعلماء السوء ، وعباد الجهالة .

قوله (وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) وهذا هو الواقع ، فمذ قُتل عثمان رضي الله عنه والسيف لم يرفع عن الأمة ، فإذا وضع في جهة قام في جهة أخرى .

قوله (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فتنام من أمتي الأوثان) وهذا الأمر وقع في عهد أبي بكر وبعده ، وهذا هو الشاهد من الحديث ، وفيه الرد على من قال بخلافه .

قال في تيسير العزيز الحميد : وفي معنى هذا ما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً : لا تقوم الساعة حتى تضطرب ألياث نساء دوس على ذي الخلصة . قال : وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية .

وروى ابن حبان عن معمر قال : إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً .

وفي صحيح مسلم عن عائشة مرفوعاً : لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى .

قال النووي : أما قوله (أَلْيَاثُ) فبفتح الهمزة واللام , ومعناه (أعجازهن) جمع (ألية) والمراد : يضطربن من الطواف حول ذي الخصلة , أي : يكفرون , ويرجعون إلى عبادة الأصنام .

وقال ابن حجر : ويحتمل أن يكون المراد أنهن يتزاحمن , بحيث تضرب عجيزة بعضهن الأخرى عند الطواف حول الصنم المذكور . وفي معنى هذا الحديث ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لا تقوم الساعة حتى تدافع مناكب نساء بني عامر على ذي الخصلة أ.هـ

قوله (وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي) قال ابن حجر : وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سو داء , وإنما المراد من قامت له شوكة وبدت له شبهة .

ومراده بقوله (من قامت له شوكة) ليخرج من لم يكن كذلك لكثرتهم , وما زال أولئك يظهرون إلى يومنا هذا .

قوله (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره , لا يضرهم من خذلهم , ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى) في هذا بشارة لأهل الخير , وأنهم قليل , لقوله (طائفة) وفيه بشارة لهم بثباتهم , مع وجود المخالف والمخذل .

قال في تيسير العزيز الحميد : قوله (حتى يأتي أمر الله) الظاهر أن المراد بأمر الله ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة , ووقوع الآيات العظام , ثم لا يبقى إلا شرار الناس , كما روى الحاكم وأصله في مسلم عن عبدالرحمن بن شماس أن

عبدالله بن عمرو قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق , هم شر من أهل الجاهلية , فقال عقبة بن عامر لعبد الله : اعلم ما تقول , وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول : لا تزال عصاة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم

الساعة على ذلك , فقال عبد الله : ويبعث الله رجلاً ربحها المسك , ومسها مس الحرير , فلا تترك أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته , ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة , وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود مرفوعاً : لا تقوم الساعة إلا على

شرار الناس , وفي صحيحه أيضاً : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله , وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها , وخروج الدابة , وسائر الآيات العظام , وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تنثر الخرز بسرعة . رواه أحمد ,

ويؤيده حديث عمران بن حصين مرفوعاً : لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوهم حتى يقاتل آخرهم الدجال . رواه أبو داود , والحاكم , وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة , وما أشبهه من الأحاديث حتى تأتيهم الساعة

ساعتهم , وهي وقت موتهم ببوب الريح . ذكره الحافظ وهو المعتمد أ.هـ

وفي هذا الحديث كثير من أعلام نبوة نبينا ﷺ .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مسائل هذا الباب : وكل هذا وقع كما أخبر , مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول .

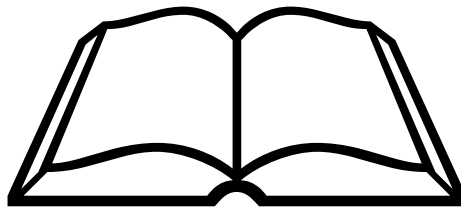
الوجيز في شرح كتاب

التوحيد

(الجزء الثالث)

آخر نسخة ١٤٤٧ هـ

عبدالله محمد الجهني



٢٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ } .

وَقَوْلُهُ : { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } .

قَالَ عُمَرُ : الْجِبْتُ السِّحْرُ ، وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ .

وَقَالَ جَابِرٌ : الطَّاغُوتُ كُفَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)) . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : ((الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)) .

وَعَنْ جُنْدَبٍ - مَرْفُوعًا - : ((حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ)) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه : أَنْ أَفْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ . قَالَ : فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ .

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرْتُهَا ، فَقَتَلَتْ .

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ .

قَالَ أَحْمَدُ : عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ .

٢٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي السَّحْرِ

الباب الثالث والعشرون

وخلاصته : بيان حكم السحر والساحر ، وبيان عقوبته في الدنيا والآخرة .

وهذا الباب وستة أبواب بعده يتكلم فيها المصنف عن بعض الأمور التي يسلكها أهل الجاهلية ، وما زالت باقية في الناس ، ومن

ذلك : السحر ، والكهانة ، والتنجيم ، والتطير ، والاستسقاء بالأنواء .

ووجه إدخال المصنف لهذه الأبواب في كتاب التوحيد : أن هذه الأمور مخالفة للتوحيد إما أصلاً وإما كمالاً .

المسائل المتعلقة بالباب :

أولاً : تعريف السحر :

السحر لغة : ما خفي ودق ولطف سببه ، والمعنى : أن هذا الشيء يقع بخفاء ودقة .

واصطلاحاً : هو رقى ، وعزائم ، وأعمال ، تؤثر في قلب الإنسان ، وعقله ، وبدنه ، بإذن الله القدري^(١).

قال ابن تيمية : اسم الساحر معروف في جميع الأمم .

قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) .

ثانياً : حكمه :

السحر محرم وشرك أكبر ، إذ إنه لا يتأتى إلا بالكفر بالله ، كما يأتي .

قال ابن قدامة رحمه الله في كتابه (المغني) : فإن تعلم السحر وتعليمه حرام ، لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم .

وقال في تيسير العزيز الحميد : بل هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام ، كما قال تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) .

ثالثاً : أنواعه : يقسم جمع من أهل العلم السحر إلى نوعين :

١ . سحرٌ باستخدام الشياطين : وهذا كفر بلا نزاع ، لقوله تعالى (ماله في الآخرة من خلاق) وقوله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) فإذا كان المعلم للسحر كافراً ، فما يعلمه كفر ، وقوله تعالى عنهم (إنما نحن فتنة فلا تكفر) .

٢ . سحرٌ بالأدوية ، والعقاقير ، والأدخنة : وهذا فيه خلاف :

أ . الجمهور : يرون أنه كفر ، لعموم الأدلة ، حيث لم تفرق في موضع بين سحر وسحر .

ب . الشافعية : ليس بكفر ، لأنه ليس فيه استخدام الشياطين .

قال أبو بكر الجصاص : وقول الشافعي في ذلك خارج عن قول جميعهم .

وقال في تيسير العزيز الحميد : وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف ، فإن من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك ، وليس

كذلك ، بل لا يأتي السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك ... وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر ، وإن سمي

سحراً فعلى سبيل المجاز ، كتسمية القول البليغ ، والنميمة سحراً ، ولكنه حرام لمضرته ، يعزر من فعله تعزيراً بليغاً .

وقال الشيخ الأمين الشنقيطي : التحقيق في هذه المسألة - يعني تكفير الساحر - هو التفصيل ، فإن كان السحر مما يعظم فيه غير

الله ، كالكواكب ، والجن ، وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر ، فهو كفر بلا نزاع ، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في

سورة البقرة ، فإنه كفر بلا نزاع ... وإن كان السحر لا يقتضي الكفر ، كالاستعانة بخواص بعض الأشياء ، من دهانات وغيرها

فهو حرام حرمة شديدة ، ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر ، هذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى في هذه المسألة التي اختلف فيها

العلماء أ.هـ

(١) وله تعريفات كثيرة لاختلاف صوره وكثرتها .

قال الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان : اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع ، لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته ، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها ، مانعاً لغيرها ، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافًا متبايناً .

والتحقيق : أن السحر كفر مطلقاً ، لأنه لا يحصل إلا باستخدام الشياطين ، وأما الشعوذة ، والتمويه باستخدام المواد الكيميائية ، والأدخنة ، ونحو ذلك ، فلا يصل إلى الكفر ، ولكنه محرم ، وهذا النوع يسميه بعض العلماء سحراً ، ولذا جرى الخلاف حسب التقسيم السابق .

رابعاً : حقيقة السحر :

الذي عليه أهل السنة والجماعة أن السحر له حقيقة ، لأنه يُعلم ، ولأن الله ذكر أنه يفرق بين المرء وزوجه ، ولأن النبي ﷺ سحر ، وفك سحره ، وخالف المعتزلة في ذلك وقالوا : السحر كله تخيل ، لا حقيقة له ، لأنه لو كان له حقيقة لاختلطت آيات الأنبياء بخوارق السحرة ، واختاره ابن حزم .

وأهل السنة يقولون : السحر نوعان : حقيقي ، وتخيلي^(١).

والفرق بين السحر الحقيقي ، والتخيلي : أن الحقيقي له تأثير محسوس على عقل الإنسان ، أو قلبه ، أو بدنه مثلاً ، بخلاف التخيلي فلا يؤثر في الإنسان ذلك ، وإنما تأثيره وهمي على نظر العين ، بحيث يرى الشيء على خلاف ما هو عليه . قال ابن القيم في كتابه (بدائع الفوائد) فصل : وقد دل قوله (ومن شر النفاثات في العقد) وحديث عائشة المذكور : على تأثير السحر ، وأن له حقيقة ، وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وقالوا : إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ، ولا قتل ، ولا حل ولا عقد ، قالوا : وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك . وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف ، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف ، وما يعرفه عامة العقلاء .

والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً ، وحلاً وعقداً ، وحباً وبغضاً ، وتزيناً وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس ، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه .

وقوله تعالى (من شر النفاثات في العقد) دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه .

(١) قال ابن حجر في فتح الباري : واختلف في السحر فقيل : هو تخيل ولا حقيقة له ، وهذا اختيار أبي جعفر الاسترابادي من الشافعية ، وأبي بكر الرازي من الحنفية ، وابن حزم الظاهري ، وطائفة .

قال النووي : والصحيح أن له حقيقة ، وبه قطع الجمهور ، وعليه عامة العلماء ، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة ، انتهى . لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا ؟ فمن قال : إنه تخيل فقط ، منع ذلك ، ومن قال : إن له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج ، فيكون نوعاً من الأمراض ، أو ينتهي إلى الإحالة ، بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً ، وعكسه ؟ فالذي عليه الجمهور هو الأول ، وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني . فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم ، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف ، فإن كثيراً ممن يدعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه ، ونقل الخطابي أن قوماً أنكروا السحر مطلقاً ، وكأنه عني القائلين بأنه تخيل فقط ، وإلا فهي مكابرة .

وقال المازري : جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة ، ونفي بعضهم حقيقته ، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة ، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر ، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق ، أو تركيب أجسام ، أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص ، ونظير ذلك ما يقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض ، حتى ينقلب الضار منها بمفردة بالتركيب نافعاً ، وقيل : لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى في قوله (يفرقون به بين المرء وزوجه) لكون المقام مقام تحويل ، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره . قال المازري : والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك ، قال : والآية ليست نصاً في منع الزيادة ، ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك . انتهى كلام ابن حجر رحمه الله .

قال ابن تيمية في كتابه (الصغدية) : وأما قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه ، كمصير الخشب حيواناً حساساً متحركاً بالإرادة يبلغ عصياً وحبالاً ولا يتغير فليس هذا من جنس مقدور البشر لا معتاداً ولا نادراً ، ولا يحصل بقوى نفس أصلاً ، ولهذا لما رأى سحرة فرعون ذلك علموا أنه خارج عن طريقة السحر .

وأيضاً فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به مع أن هذا تغير في إحساسهم ، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم .

وما الفرق بين التغير الواقع في الرؤية ، والتغير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن .

فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركاً ، والمتصل منفصلاً ، والميت حياً ، فما الحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً ، والبغض محبوباً وغير ذلك من التأثيرات .

وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) فبين سبحانه أن أعينهم سُحرت ، وذلك إما أن يكون لتغير حصل في المرئي وهو الحبال والعصي ، مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهي الشياطين ، فظنوا أنها تحركت بأنفسها ، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له ، مع أنه هو الذي يجره ، فهكذا حال الحبال والعصي التبيستها الشياطين فقلبتا كتقلب الحية ، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها ، والشياطين هم الذين يقلبوها .

وإما أن يكون التغير حدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تتحرك وهي ساكنة في أنفسها .

ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به ، وتارة يتصرف في المرئي باستعانتها بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها .

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيتها ، مثل الزئبق وغيره حتى سعت ، فهذا باطل من وجوه كثيرة ، فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً بل حركة حقيقية ، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس ، ولا يسمى ذلك سحراً ، بل صناعة من الصناعات المشتركة ، وقد قال تعالى (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون ، لم يكن هذا من السحر في شيء ، ومثل هذا لا يخفى .

وأيضاً لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء ، لكان طريق إبطائها إخراج ما فيها من الزئبق ، وبيان ذلك المحال ، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لا بتلاعها .

وأيضاً فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة ، بل يكفي فيها حذاق الصانع ، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والجزاء .

وأيضاً فإنه لا يقال في ذلك : إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها .

وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده أهـ

وللسحر عدة طرق من أشهرها :

١. **العقد والنفث** : قال تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) وهذه أشهر طرق السحرة , وأكثر من يستخدمها النساء , ولذا قال تعالى (النفاثات) وطريقة ذلك أن يأتين بخيط , ويتمتمن , ثم ينفثن في الخيط , ثم يعقدنه , وهذه الطريقة يكون فيها استعانة بالشياطين .

٢. **سحر العيون** : قال تعالى (سحروا أعين الناس) وقال تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وصورة ذلك أن يفعل أشياء , ويسحر أعين المشاهدين بغيرها^(١) , ومنه أيضاً إرسال الساحر للجني على دماغ الإنسان فيؤثر في مزاجه , ومركز الرؤية في الدماغ , بحيث يرى الشيء على غير حقيقته , وفي هذه الحال يكون جمع بين السحر الحقيقي , وسحر التخيل , ويُنظر كلام ابن القيم السابق .

وهناك طرق تشبه السحر وليست منه على الصحيح , ومن أشهرها :

١. **استعمال بعض المواد الكيميائية , والأدخنة** : كأن يركب بعض المواد مع بعض فينتج عن ذلك مادة تمنع تأثير بعض المواد , مثل ما كان يفعل بعض أصحاب الطرق الصوفية من إيهام الناس أنهم لا تؤثر فيهم النار , وحقيقة الأمر أنهم يدهنون أنفسهم ببعض المواد التي تمنع تأثير النار فيهم , وهم الذين تحدّاهم ابن تيمية رحمه الله في أن يغتسلوا بالماء الساخن قبل دخولهم النار , فرفضوا ذلك .

٢. **خفة اليد** : وهو ما يحصل اليوم فيما يسمى (السيرك) من إخفاء بعض الأشياء ثم إظهارها , أو قطع بعض الأشياء ثم وصلها , أو المشي على حبل , أو إدخال السكين في الجسد , أو إماتة بعض الأشياء ثم إحيائها , ونحو ذلك . ومن ذلك أن يأتي بحمامة فيخنقها أمام المشاهدين , ثم يضربها بيده فتقوم وتطير , والحقيقة أنه كان في يده بنج (مخدر) وأوهمهم أنه خنقها فماتت , ثم لما ضربها أفأقت من البنج .

(١) قال الرازي في تعداده لأنواع السحر : النوع الرابع من السحر : التخيلات , والأخذ بالعيون , وهذا الأخذ مبني على مقدمات :

إحداها : أن أغلاط البصر كثيرة , فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركاً , وذلك يدل على أن الساكن يرى متحركاً , والمتحرك يرى ساكناً , والقطرة النازلة ترى خطأً مستقيماً , والذبالة التي تدار بسرعة ترى دائرة , والعنبة ترى في الماء كبيرة كالإحاجصة , والشخص الصغير يرى في الضباب عظيماً , وكبخار الأرض الذي يربك قرص الشمس عند طلوعها عظيماً , فإذا فارقت وارتفعت عنه صغرت , وأما رؤية العظيم من البعيد صغيراً فظاهر .

فهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أن القوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه في الجملة لبعض الأسباب العارضة .

وثانيها : أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان له مقدار ما , فأما إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً ثم أدركت بعده محسوساً آخر , وهكذا , فإنه يختلط البعض ببعض , ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض , وذلك فإن الرحي إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارت , فإن الحس يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان .

وثالثها : أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء , فما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به البتة , كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان آخر ويتكلم معه فلا يعرفه , ولا يفهم كلامه , لما أن قلبه مشغول بشيء آخر , وكذا الناظر في المرأة فإنه ربما قصد أن يرى قذاة في عينه فيراها , ولا يرى ما هو أكبر منها , إن كان بوجهه أثر , أو بجهته , أو بسائر أعضائه التي تقابل المرأة , وربما قصد أن يرى سطح المرأة هل هو مستو أم لا , فلا يرى شيئاً مما في المرأة .

إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر , وذلك لأن المشعبد الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به , ويأخذ عيونهم إليه , حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديث نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة , فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت الشئين , أحدهما : اشتغالهم بالأمر الأول , والثاني : سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني , وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه , فيتعجبون منه جداً , ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل , ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجها , لفطن الناظرون لكل ما يفعله , فهذا هو المراد من قولهم : إن المشعبد يأخذ بالعيون , لأنه بالحقيقة يأخذ العيون إلى غير الجهة التي يمتثل فيها , وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى كان أحذق في عمله , وكلما كانت الأحوال التي تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد كان هذا العمل أحسن , مثل أن يجلس المشعبد في موضع مضيء جداً , فإن البصر يفيد البصر كلالاً واختلالاً , وكذا الظلمة الشديدة , وكذلك الألوان المشرفة القوية تفيد البصر كلالاً واختلالاً , والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها , فهذا مجامع القول في هذا النوع من السحر .

وكل هذا داخل في سحر العيون .

خامساً : حكم الساحر :

اتفق أهل العلم على أن الساحر إن وصل إلى ما يوجب الكفر ، كالسجود للأرواح الخبيثة والشياطين ، أو يستعين بهم ، أو يدعي معرفة الغيب ، فهو كافر لا خلاف في ذلك ، كما نقل ذلك ابن تيمية وغيره ، ثم اختلفوا في بعض الصور .
والتحقيق أن السحر كله كفر ، والساحر كافر ، لأنه سبق أن السحر لا يتأتى إلا بالكفر ، وأما بعض الأمور التي تسمى سحراً لغة ، كاستخدام بعض الأدوية والعقاقير ، أو استخدام خفة اليد ، فهذا لا يعد كفراً ، لكن صاحبه يعزر تعزيراً بليغاً .

سادساً : عقوبة الساحر :

الساحر عقوبته في الدنيا القتل ردة ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد ، واختارته اللجنة الدائمة ، وأما في الآخرة فالنار خالداً فيها أبداً ، لأنه كافر ^(١) .
وأما من يستخدم الأدوية ، أو الخداع البصري ، أو خفة اليد ، فلا يكفر بذلك ، إلا إن صاحبه اعتقاد آخر يوجب كفره ، ولكن يعزز تعزيراً بليغاً ، وقد يصل إلى قتله ، ولو قتل في هذه الحال فإنه يقتل حداً لا ردة ^(٢) .

سابعاً : وجه دخول السحر في الشرك والكفر من جهتين :

- ١ . استخدام الشياطين ، والاستعانة بهم ، والتعلق بهم ، والتقرب إليهم بالكفر .
- ٢ . ادعاء علم الغيب ، ومشاركة الله في ذلك . أفاده السعدي .

ثامناً : حكم إتيان السحرة :

يأتي الكلام عن ذلك في باب ما جاء في الكهان ونحوهم ، إن شاء الله تعالى .

(١) واختلفوا هل يستتاب قبل أن يقتل أو لا ؟ على قولين :

أ . لا يستتاب : لأن الصحابة لم يستتبوا السحرة الذين قتلوهم ، قال ابن قدامة : لم ينقل عن أحد منهم أنه استتاب ساحراً .

وهذا مذهب مالك ، والمشهور في مذهب أحمد ، ورجحه في تيسير العزيز الحميد ، واختاره ابن باز ، وله فتوى بأنه إن جاء تائباً قبلت توبته ، وإن قبض عليه لم تقبل توبته .

ب . يستتاب ، فإن تاب خلى سبيله ، لأنه ذنب لا يزيد عن الشرك ، والمشرک يستتاب وتقبل توبته ، ولأن الله قبل توبة سحرة فرعون .

وهذا مذهب الشافعي ، ورواية عن أحمد ، اختارها ابن تيمية .

تنبيه : هذا الخلاف في إسقاط الحد عنه بالتوبة ، وأما فيما بينه وبين الله ، فإن كان صادقاً قبلت توبته قولاً واحداً .

(٢) قال ابن قدامة : ويكفر الساحر بتعلمه ، وفعله ، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته . وروي عن أحمد ما يدل على أنه لا يكفر إلى أن قال : وقال أصحاب أبي حنيفة : إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء ، كفر ، وإن اعتقد أنه تخيل لم يكفر .

وقال الشافعي : إن اعتقد ما يوجب الكفر ، مثل التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس ، أو اعتقد حلّ السحر ، كفر ، لأن القرآن نطق بتحريمه ، وثبت بالنقل المتواتر ، والإجماع عليه ، وإلا فسق ولم يكفر ، لأن عائشة رضي الله عنها باعت مدبرة لها سحرها ، بمحض من الصحابة ، ولو كفرت لصارت مرتدة يجب قتلها ، ولم يجز استرقاقها ، ولأنه شيء يضر بالناس ، فلم يكفر بمجرد ، كأذاهم .

قال ابن قدامة : ولنا قول الله تعالى (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) إلى قوله (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر) . أي : وما كفر سليمان ، أي وما كان ساحراً كفر بسحره .

وقولهما (إنما نحن فتنه فلا تكفر) أي : لا تتعلمه فتكفر بذلك .

إلى أن قال : وقول عائشة قد خالفها فيه كثير من الصحابة ، وقال علي رضي الله عنه : الساحر كافر . ويحتمل أن المدبرة ثابت ، فسقط عنها القتل والكفر بتوبتها ، ويحتمل أنها سحرها ، بمعنى أنها ذهبت إلى ساحر سحر لها .

قال ابن قدامة : وجد الساحر القتل ، روي ذلك عن عمر ، وعثمان بن عفان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ، وقيس بن سعد ، وعمر بن عبد العزيز . وهو قول أبي حنيفة ، ومالك .

ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر ، وهو قول ابن المنذر ، ورواية عن أحمد ، قد ذكرناها فيما تقدم .

ووجه ذلك : أن عائشة رضي الله عنها باعت مدبرة سحرها ، ولو وجب قتلها لما حلّ بيعها ، ولأن النبي ﷺ قال : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ، كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق . ولم يصدر منه أحد الثلاثة فوجب أن لا يحلّ دمه .

قال ابن قدامة : ولنا ما روى جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال (حد الساحر ضربه بالسيف) قال ابن المنذر : رواه إسماعيل بن مسلم ، وهو ضعيف .

وروى سعيد ، وأبو داود في كتابيهما عن بجالة قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس ، إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة : اقتلوا كل ساحر . فقتلنا ثلاث سواحر في يوم . وهذا اشتهر فلم يُنكر ، فكان إجماعاً ، وقتلت حفصة جارية لها سحرها . وقتل جندب بن كعب ساحراً كان يسحر بين يدي الوليد بن عقبة ، ولأنه كافر فيقتل للخبر الذي روه ... الخ .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ}.

في هذه الآية بيان مصير من تعلّم السحر ، وبيان أنه في النار خالداً فيها ، وهذا يدل على كفره ، فكيف بمن فعله ؟! قال حافظ حكمي : فبين تعالى أنه بمجرد تعلمه يكفر ، سواء عمل به وعلمه أو لا . ومعنى (اشتراه) تعلمه ، وإنما عبر عنه بذلك ، لأنهم كانوا يعلمونه بثمن ، وقيل : لأنه قدم دينه ثمناً بتعلمه السحر . وفي هذه الآية عدة أوجه تدل على كفر الساحر ، ومنها : قوله تعالى (وما كفر سليمان) وذلك أنه لم يتعاطى السحر ، فدل أن تعاطي السحر كفر . قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) فكفروا بتعليمهم السحر . قوله تعالى (وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) أي : لا تكفر بتعلمك السحر . قوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق) من تعلم السحر فليس له حظ في الآخرة ، وهذا الأسلوب في القرآن غالباً يأتي في حق الكافر .

وَقَوْلِهِ : {يُؤْمِنُونَ بِالْجَبْتِ وَالطَّاغُوتِ}.

في هذه الآية بيان أن من صفات أهل الكتاب التي ذمهم الله عليها أنهم يؤمنون بالجبتي ، وهو السحر - على قول عمر - ، ويؤمنون بالطاغوت ، وهو الكاهن - على قول جابر - ومعنى الإيمان هنا : التصديق ، والقبول . والشاهد من الآية في الباب أن هذه الأفعال محرمة ، لأن الله ذم أهل الكتاب عليها ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ بمخالفة أهل الكتاب .

قَالَ عُمَرُ : الْجَبْتُ السِّحْرُ ، وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ .

تخرجه : رواه البخاري معلقاً مجزوماً به ، ووصله ابن جرير ، وقال عنه الحافظ ابن حجر : إسناده قوي . **والشاهد :** بيان معنى الجبتي ، حيث فسره عمر بالسحر ، وهو من باب التفسير بالمثال . والجبتي : قيل : الشيطان ، وقيل : الشرك ، وقيل : الأصنام ، وقيل : السحر ، وقيل : الكاهن ، وقيل : كعب بن الأشرف . والظاهر أنه لفظ عام يشمل أفراداً ، كما قال الجوهري : الجبتي كلمة تقع على الصنم ، والكاهن ، والساحر ، ونحو ذلك . وقال شيخنا : والأصح أنه عام لكل صنم ، أو سحر ، أو كهانة ، أو ما أشبه ذلك . وقال ابن باز : الجبتي هو الشيء الذي لا خير فيه ، كالسحر ، والصنم ، وغيره .

وَقَالَ جَابِرٌ : الطَّوَاعِيتُ كُفَّانَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ .

تخریجه : علقه البخاري بصيغة الجزم ، ووصله ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

والشاهد : بيان معنى الطاغوت ، وهو من باب التفسير بالمثل ، وسبق بيان معنى الطاغوت وبيان أنواعه في شرح رسالة الأصول الثلاثة .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ)) . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : ((الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَאֲكُلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)) .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : أنه ﷺ ذكر السحر من المهلكات التي تهلك صاحبها في الدنيا والآخرة ، وهذا يدل على عظيم تحريمه .

وَعَنْ جُنْدَبٍ ^(١) - مَرْفُوعًا - : ((حَدَّثَنَا السَّاحِرُ صَرِيَّةٌ بِالسَّيْفِ)) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ : الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ .

تخریجه : رواه الترمذي ، وقال عنه : الصحيح أنه موقوف ، ورواه الدارقطني ، والبيهقي ، والحاكم وصححه ، ورجح الذهبي ، وابن حجر وقفه ، وضعف المرفوع الترمذي ، وابن عبد البر ، وابن حجر ، والألباني .

والشاهد : بيان عقوبة الساحر في الدنيا ، وأنها القتل .

ويؤيده ما جاء عن عمر ، وحفصة رضي الله عنهما .

قوله (ضربة بالسيف) فيها ضبطان :

١ . بالهاء : ضربه بالسيف .

٢ . بالتاء المربوطة : ضربه بالسيف .

مسألة : وأما كون النبي ﷺ لم يقتل لبید بن الأعصم الذي سحره ، فلأن مفسدة قتله أعظم ، كما جاء في البخاري : إني كرهت أن أثير على الناس شراً .

ولذا ذهب بعض العلماء إلا أن القتل راجع للإمام .

والصحيح أن يقال : الأصل في الساحر القتل ، لأن عمله من أعظم الفساد في الأرض ، فأما إن وجدت المفسدة كف عنه .

وينبه أن (الحد) في الحديث يراد به العقوبة ، لا الحد المقابل للردة .

(١) المراد جندب الأزدي ، المعروف بجندب الخير ، قاتل الساحر ، وليس جندب بن عبد الله البجلي ، رضي الله عن جميع الصحابة .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ قَالَ : كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه : أَنْ أَقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ . قَالَ : فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والبيهقي ، وصححه الألباني .

وعليه فعزو المصنف الحديث للبخاري فيه نظر ، خاصة وأن اللفظ الذي نقله (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) ليس في البخاري . وذكر بعض أهل العلم أن العزو للبخاري باعتبار الأصل ، فإن أصل الحديث عند البخاري ، قال في تيسير العزيز الحميد بعد أن سرد لفظه عند البخاري : وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه أ.هـ. ولعل المصنف تبع ابن كثير في تفسيره ، حيث قال : وقد استدل بقوله (ولو أنهم آمنوا واتقوا) من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، وقيل : بل لا يكفر ، ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل قالا : أخبرنا سفيان ، هو ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبدة يقول : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر . وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً ، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرها جارية لها فأمرت بها فقتلت ، قال الإمام أحمد بن حنبل : صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر أ.هـ.

وقوله (فقتلنا ثلاث سواحر) ليس في البخاري ، ولكنها موجودة في مسند أحمد ، وصححها ابن حزم ، والألباني .

والشاهد : بيان عقوبة الساحر في الدنيا ، وأنها القتل ، حيث أمر عمر بقتل السحرة ، واستجاب الصحابة لذلك فقتلوا ثلاث سواحر .

قال ابن قدامة في المغني عن أثر بجالة : وهذا اشتهر فلم ينكر ، فصار إجماعاً .

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا ، فَقَتِلَتْ .

تخریجه : رواه مالك ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة .

والشاهد : بيان عقوبة الساحر في الدنيا ، وأنها القتل ، حيث أمرت حفصة بقتل الجارية التي سحرها .

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ .

تخریجه : رواه الحاكم ، وابن أبي شيبة ، ورواه البخاري في التاريخ الكبير عن أبي عثمان النهدي قال : كان عند الوليد رجل يلعب ، فذبح إنساناً ، وأبان رأسه ، ففجئنا ، فأعاد رأسه ، فجاء جندب الأزدي فقتله .

قَالَ أَحْمَدُ : عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ .

نقله عنه الخلال ، ونقله ابن كثير في تفسيره كما سبق ، وهم : عمر ، وابنته حفصة ، وجندب الأزدي .
وكذلك جاء عن ابن عمر ، كما روى أبو بكر الأثرم قال : سمعت أبا عبد الله يُسأل : تحفظ عن ابن عمر رضي الله عنهما في المرتدة تقتل ؟ قال : رأى ابن عمر قتل الساحر .
قال ابن قدامة : وحد الساحر القتل ، روي ذلك عن عمر ، وعثمان بن عفان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ، وقيس بن سعد ، وعمر بن عبدالعزيز ، وهو قول أبي حنيفة ، ومالك .
وذكر ابن تيمية أنه روي عن عمر ، وعثمان ، وحفصة ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم .

٢٤ - بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ ، حَدَّثَنَا قَطْنُ بْنُ قَبِيصَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ)) .

قَالَ عَوْفٌ : الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ بِالأَرْضِ ، وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ : رَنَّةُ الشَّيْطَانِ . إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

وَلِأَبِي دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيِّ ، وَابْنِ حَبَّانَ - فِي صَحِيحِهِ - الْمُسْنَدُ مِنْهُ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ ، زَادَ مَا زَادَ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : ((مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ)) .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَلَا هَلْ أَنْبِئُكُمْ مَا الْعَصَةُ ؟ هِيَ التَّمِيمَةُ : الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا)) .

٢٤ - بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحْرِ

الباب الرابع والعشرون

وخلاصته : بيان بعض الأمور التي جاءت النصوص بتسميتها سحراً ، وبعضها لا يدخل في السحر الاصطلاحي ، وإنما سميت بذلك مراعاة للمعنى اللغوي ، فلا تأخذ حكم السحر ، ولا تؤثر تأثير السحر .
وهذه الصور المذكورة في الباب هي :

١. العيافة :

وهي لغة : مصدر عاف يعيف عيافة ، مأخوذة من عاف الشيء إذا تركه .
واصطلاحاً : زجر الطير والاستدلال باتجاهه على الثمن أو الشؤم .
والعائف أو العياف : هو الذي يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل .
وكانت العرب إذا أرادوا أن يعقدوا أمراً زجروا الطير ، فإن ذهب يميناً تفاءلوا ، وإن ذهب شمالاً تشاءموا .
وحكم هذا الفعل : شرك أصغر ، إلا إن صحبه اعتقاد آخر .
٢. الطرق :

وأصل الطرق في اللغة : الضرب ، ومنه سميت المطرقة بذلك ، لأنه يضرب بها .
وأما الطرق عند العرب فهو ما يستخدمه الرمال من طرق للتفاؤل أو التشاؤم ، أو معرفة الغيب^(١) .
وله عدة طرق منها ما ذكره الخطابي في معالم السنن قال : فإن الخط عند العرب فيما فسر ابن الأعرابي أن يأتي الرجل العراف وبين يديه غلام فيأمره بأن يخط في الرمل خطوطاً كثيرة وهو يقول (ابني عيان اسرعا البيان) ثم يأمره أن يحو منها اثنين اثنين ، ثم ينظر إلى آخر ما يبقى من تلك الخطوط ، فإن كان الباقي منها زوجاً فهو دليل الفلح والظفر ، وإن كان فرداً فهو دليل الخيبة واليأس .
والذي يستخدم هذه الطريقة يسمى الرامل أو الرمال .
وحكم هذا الفعل : شرك أصغر ، إلا إن صحبه اعتقاد آخر .
تنبيه : جاء عند مسلم قوله ﷺ : كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك .
والجواب عن هذا الحديث أن النبي ﷺ علق الإباحة بأمر مستحيل ، وهو معرفة تلك الطريقة التي فعلها هذا النبي ، وهي معجزة له لا يمكن أن يصل إليها أحد .

(١) وذكر حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون) أن الطرق هو : علم يعرف به الاستدلال على أحوال المسألة حين السؤال بأشكال الرمل وهي اثني عشر شكلاً على عدد البروج .
وأكثر مسائل هذا الفن أمور تخمينية ، مبنية على التجارب ، فليس بنام الكفاية ، لأنهم يقولون : كل واحد من البروج يقتضي حرفاً معيناً ، وشكلاً من أشكال الرمل ، فإذا سئل عن المطلوب ؟ فحينئذ يقتضي وقوع أوضاع البروج شكلاً معيناً ، فيدل بسبب المدلولات ، وهي البروج على أحكام مخصوصة مناسبة لأوضاع تلك البروج ، لكن المذكورات أمور تقريبية لا يقينية . ثم ذكر عدداً من الكتب المؤلفة في هذا الفن .

وقال الشيخ محمد حامد الفقي : وهذا ذائع بين أهل العصر ، ول بعضهم فيه تأليف ، وقد يتعیش به كثير من المخنكين .

٣. التنجيم :

وهو محاولة معرفة الغيب عن طريق النجوم .
وقد أفرد المؤلف له باباً مستقلاً ، يأتي قريباً إن شاء الله .

٤. النفث :

وهو ما يستخدمه السحرة من النفث في العقد التي يعقدونها ، وينفثون فيها من الألفاظ الشركية ، ومخاطبة الجن .
كما قال تعالى (ومن شر النفاثات في العقد) .
وحكم هذا الفعل : شرك أكبر ، لأنه سحر ، وفيه استعانة بالشياطين .

٥. الطيرة :

وهي التشاؤم أو التفاؤل بمسموع ، أو مرئي ، أو زمان ، أو مكان .
وقد أفرد المؤلف لها باباً مستقلاً ، يأتي قريباً إن شاء الله .

٦. النميمة :

وهي نقل الكلام بين الناس بغرض الإفساد .
وحكمها : محرم ، لا يصل إلى الشرك .
ووجه مشابقتها للسحر : أنها تفعل كفعله ، من التفريق بين الناس ، وما يحصل بسببها من الشر والفساد .
وقد نقل ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال : يفسد المنام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة .
٧. البيان : وهو لغة : الوضوح ، وهو نوعان :

أ. **البيان العام** : وهو النطق ، ومطلق الكلام ، وهو المراد بقوله تعالى (خلق الإنسان علمه البيان) على أحد التفاسير في الآية .
ب. **البيان الخاص** : وهو الفصاحة ، والبلاغة ، وحسن العرض والأداء ، وهو المراد بقوله ﷺ : إن من البيان لسحراً .
والبيان الخاص من حيث الحكم ينقسم إلى قسمين :

١. محرم : إذا استعين به على باطل ، كما لو قلب الحق باطلاً ، والباطل حقاً .
 ٢. جائز ، وقد يكون مستحباً : إذا كان فيه إظهار الحق ، وقمع الباطل .
- ووجه مشابقتها للسحر : أنه ربما قلب الحقائق ، فيجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً .
كما قال الشاعر في وصف العسل : تقول (هذا مجاج النحل) تمدحه
وإن شئت قلت (ذا قيء الزناير)
مدحاً وذمماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

تنبيه : هذه الأنواع السبعة تختلف من حيث الحكم ، ومن حيث مشابقتها للسحر .
فالعيافة ، والطرق ، والطيرة : شرك أصغر ، لأنها من باب إثبات أسباباً بلا دليل ولا تجربة ظاهرة .
والتنجيم شرك أكبر ، لأن فيه إثبات مدبر مع الله ، وادعاء علم الغيب .
والنفث في العقد شرك أكبر ، لأن فيه استعانة بغير الله من الجن والشياطين .
والنميمة محرمة ، ومن كبائر الذنوب . والبيان سبق التفصيل في حكمه ، وأنه نوعان محمود ، ومذموم .

وقفات مع أدلة الباب

قَالَ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ ، حَدَّثَنَا قَطْنُ بْنُ قَبِيصَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ)) .

تخریجه : رواه أحمد ، وابن حبان ، وأبو داود ، والنسائي ، وحسنه النووي ، وابن تيمية ، وجود إسناده ابن حجر ، وابن مفلح ، وضعفه الألباني .

والشاهد : أنه ﷺ ذكر بعض الأمور التي يستخدمها بعض الجهال لمحاولة معرفة الغيب ، كالطرق ، والعيافة ، والطيرة ، ثم ذكر ﷺ أن هذه الأفعال من الجبت ، وسبق في الباب السابق قول عمر : الجبت : السحر . قال الشنقيطي في أضواء البيان : ولا خلاف بين العلماء في منع العيافة ، والكهانة ، والعرافة ، والطرق ، والزجر ، والنجوم ، وكل ذلك يدخل في الكهانة ، لأنها تشمل جميع أنواع ادعاء الاطلاع على علم الغيب . وقد سئل رسول الله ﷺ عن الكهان فقال (ليسوا بشيء) .

قَالَ عَوْفٌ : الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ ، وَاجْتِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ : رَنَّةُ الشَّيْطَانِ . إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

تخریجه : قول عوف : رواه أحمد ، وقول الحسن : رواه أحمد ، وأبو داود . وسبق بيان معنى العيافة ، والطرق ، والجبث ، وهنا فسر الحسن الجبث بأنه : رنة الشيطان . وهو صوته^(١) .

وَلَأَبِي دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيَّ ، وَابْنَ حَبَّانَ - فِي صَحِيحِهِ - الْمُسْنَدُ مِنْهُ .

قال في تيسير العزيز الحميد : يعني أن هؤلاء رووا الحديث ، واقتصروا على المرفوع منه ، ولم يذكروا التفسير الذي فسره به عوف .

(١) قول الحسن (رنة الشيطان) ، لفظ الإمام أحمد (إنه الشيطان) .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : رنة الشيطان لا أعرف مقصود الحسن . الدرر السنية ج٣ ص ١٥٢ . وقال في تيسير العزيز الحميد : لم أجد فيه كلاماً .

وقال شيخنا : والظاهر أن رنة الشيطان أي : وحي الشيطان ... وإملائه .

وقد جاء في حديث أبي هريرة : رن الشيطان أربع رنات ، رنة عندما لعن ، ورنة عندما أهبط ، ورنة عندما بُعث النبي ﷺ ورنة رابعة عندما أنزلت فاتحة الكتاب . والمقصود بالرنّة : صوته . ذكره في فتح المجيد .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ ، زَادَ مَا زَادَ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

تخرجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وصححه النووي ، وابن تيمية ، والألباني .
ولفظه : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد .
والشاهد : أنه ﷺ أخبر أن من تعلم علم النجوم فقد وقع في السحر ، زاد ما زاد .
قوله (من اقتبس) أي : من تعلم .
قوله (زاد ما زاد) أي : كلما زاد من تعلمه زاد من شعب السحر ، وزاد إثمهُ .
قال ابن تيمية : فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر .

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : ((مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكَلَّ إِلَيْهِ)) .

تخرجه : رواه النسائي ، وقال الذهبي : لا يصح ، وضعفه الألباني .
وقال ابن باز : فيه ضعف ... لكن له شواهد من حيث المعنى .
والشاهد : أنه ﷺ أخبر أن النفث في العقدة من السحر ، وذلك أن فيه استعانة بالشياطين ، كما سبق .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَلَا هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ مَا الْعُضَةُ ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ : الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .
تخرجه : رواه مسلم .

والشاهد : أنه ﷺ أخبر أن النميمة تفرق بين الناس ، وتفسد بينهم ، كما يفعل السحر .
والأصل أن العضه هي السحر ثم قيل للنميمة عضه ، والله أعلم .
روى ابن جرير في تفسيره عن عكرمة أن (العضه) السحر بلسان قريش ، تقول للساحرة : إنها العاضهه .
وروى إبراهيم المجري ، عن أبي الأحوص ، عن ابن مسعود قال : كنا نسمي العضيهه : السحر ، وهو اليوم : قيل وقال .
وفسر إسحاق بن راهويه (العضيهه) في حديث عبادة بن الصامت قال : لا ييهت بعضكم بعضاً . نقله عنه محمد بن نصر .
وذكر أهل اللغة أن العضيهه : الشتيمة ، والعضيهه : البهتان ، والعاضهه ، والمستعضهه : الساحرة المستسحرة أ.هـ .
قوله (العضه) : قال النووي : هذه اللفظة رووها على وجهين : أحدهما (العِضَه) بكسر العين ، وفتح الضاد المعجمة ، على وزن العِدَّة ، والزِنَّة ، والثاني (العِضَه) بفتح العين ، وإسكان الضاد على وزن الوجْه ، وهذا الثاني هو الأشهر في روايات بلادنا ، والأشهر في كتب الحديث ، وكتب غريبه ، والأول أشهر في كتب اللغة ، ونقل القاضي أنه رواية أكثر شيوخهم ، وتقدير الحديث والله أعلم : ألا أنبئكم ما العضه الفاحش الغليظ التحريم أ.هـ .

والمراد بها في اللغة : البهتان والكذب , والمراد بها في الحديث : النيمة .

قال شيخنا ابن عثيمين : والعضة : من القطع والتمزيق , ومنه قوله تعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) يعني قطعاً وأجزاء , يؤمنون ببعضه , ويكفرون ببعضه , فما هي الأداة المفرقة للأمة الممزقة لهم ؟ قال : هي النيمة : أن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم , وهي من كبائر الذنوب .

قوله (القالة بين الناس) قال المناوي في فيض القدير : أي كثرة القول , وإيقاع الخصومة بينهم , فيما يحكى للبعض عن البعض , وقيل (القالة) بمعنى المقولة , وزعم بعضهم أن القالة هنا جمع , وهم الذين ينقلون الكلام , ويوقعون الخصومة بين الناس .

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لِسِحْرًا)) .

تخریجه : جاء هذا الحديث من رواية ابن عمر عند البخاري بلفظ : قدم رجلان من المشرق فخطبا , فعجب الناس لبيانهما , فقال رسول الله ﷺ : إن من البيان لسحراً , أو : إن بعض البيان لسحر .

وجاء عند مسلم من رواية عمار بن ياسر بلفظ : قال أبو وائل : خطبنا عمار فأوجز وأبلغ , فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت , فلو كنت تنفست , فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن طول صلاة الرجل , وقصر خطبته , مئنة من فقهه , فأطيلوا الصلاة , واقصروا الخطبة , وإن من البيان سحراً .

وعليه فقول المصنف (ولهما عن ابن عمر) غير صحيح .

والشاهد : أن النبي ﷺ سمى البيان سحراً , وذلك لما يحصل بسببه من التأثير على السامع .

وقد اختلف العلماء : هل مورد الحديث المدح أو الذم ؟

يرى ابن رجب أنه على سبيل الذم , وقال : (إن من البيان سحراً) وإنما قاله في ذم ذلك لا مدحاً له , كما ظن ذلك من ظنه , ومن تأمل سياق ألفاظ الحديث قطع بذلك .

وذهب ابن حجر , وغيره إلى أنه على سبيل المدح .

وقال ابن عبد البر : تأولته طائفة على الذم , لأن السحر مذموم , وذهب أكثر أهل العلم , وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح , لأن الله مدح البيان .

قال في تيسير العزيز الحميد : قلت : والأول أصح , وهو أنه خرج مخرج الذم لبعض البيان لا كله , وهو الذي فيه تصويب الباطل , وتحسينه حتى يتوهم السامع أنه حق , أو يكون فيه بلاغة زائدة عن الحد , أو قوة في الخصومة , حتى يسحر القوم ببيانه , فيذهب بالحق , ونحو ذلك , فسماه سحراً , لأنه يستميل القلوب كالسحر , ولهذا لما جاءه رجلان من المشرق فخطبا , فعجب الناس لبيانهما , فقال رسول الله ﷺ (إن من البيان لسحراً) رواه الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما , كما رواه مالك , والبخاري وغيرهما .

وأما جنس البيان فمحمود , بخلاف الشعر فجنسه مذموم , إلا ما كان حكماً , ولكن لا يحمد البيان إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب , والإطناب , أو تصوير الباطل في صورة الحق , فإذا خرج إلى هذا الحد فمذموم , وعلى هذا تدل الأحاديث كقوله ﷺ : إن الله ييغض البليغ من الرجال , الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها . رواه أحمد , وأبو داود . هـ

وقال ابن باز : البيان إذا كان في الحق , والدعوة إلى الكتاب والسنة , فهذا ممدوح , أما إذا أريد به الخداع , واللبس فهذا ذم وعيب , والحديث يحتمل الاثنين , والكتاب والسنة قد جاءت بأوضح البيان وأفصحه في بيان الحق , ودعوة الناس أ.هـ

٢٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكَهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أَتَى عَرَّافًا ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، فَصَدَّقَهُ ^(١)) لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أَتَى كَاهِنًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ : صَحِيحٌ عَلَى شَرَطِهِمَا - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ^(٢) : ((مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) . وَلَأَيُّ يَعْلى - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مُوقُوفًا .

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - مَرْفُوعًا - : ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تَكَهَّنَ لَهُ ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) . رَوَاهُ الْبَزَّازُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ .

وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ - بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ - مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، دُونَ قَوْلِهِ : ((وَمَنْ أَتَى ... إِلَى آخِرِهِ)) .

قَالَ الْبَغَوِيُّ : الْعَرَّافُ الَّذِي يَدْعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَقِيلَ : هُوَ الْكَاهِنُ ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَقِيلَ : الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ .

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ ، وَالْمَنْجَمِ ، وَالرَّمَّالِ ، وَنَحْوِهِمْ ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ " أَبَا جَادٍ " ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ - : مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ .

(١) هذه اللفظة ليست في صحيح مسلم .

(٢) الأصل أن الشيخ يبيِّن اسم الراوي ، ولم يذكره .

٢٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

الباب الخامس والعشرون

وخلاصته : بيان حكم الكاهن ، وبيان الوعيد الشديد لمن أتى الكهان فصدقهم أو سألهم .
وقوله (ونحوهم) يقصد : العرافين ، والمنجمين ، والمشعوذين .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

تعريف الكاهن :

لغة : مأخوذ من التكهن ، وهو التخمين ، والتطلع إلى أمور غيبية .
واصطلاحاً : هو من يدعي معرفة الغيب عن طريق الشياطين أو طرق أخرى .
قال ابن الأثير : الكاهن : الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، ويدعي معرفة الأسرار .
وقد كان في العرب كهنة ، كشق ، وسطيح ، وغيرهما ، فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن ورثياً يلقي إليه الأخبار ، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا يخصونه باسم العراف ، كالذي يدعي معرفة الشيء المسروق ، ومكان الضالة ونحوها .
وللكاهن ثلاث طرق في الإخبار عن المغيبات :

١. عن طريق مسترق السمع : وهذا كان كثيراً قبل البعثة ، وأما اليوم فقليل .
عن عائشة قالت : سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ليسوا بشيء . قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً . فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني ، فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة . متفق عليه . وفي لفظ للبخاري : فيقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة .
قال ابن حجر في الفتح : (فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة) أي : يشبها ، والمراد بقر الدجاجة : صوتها . وأما الرواية الأخرى (فيقرها قرقرة الدجاجة) فالمعنى يرددها ترديد صوت الدجاجة .
٢. عن طريق قرينه من الجن : فيخبره بما غاب عنه ، وهذا هو الغالب اليوم .
وقد جاء في البخاري أن عمر سأل رجلاً ، وكان كاهناً قبل أن يسلم ، فقال له : ما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ .
قال الشيخ محمد حامد الفقي : والواقع أن ذلك من تألف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الإنسان الخبيث ، فيتناجيان ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يجب من الأخبار التي يتلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الإنسان الآخر ، وهكذا .
فإن لكل إنسان قريناً من الشياطين ، كما جاء ذلك في القرآن والسنة ، فيخبر شيطان الإنس بما أوحى إليه شيطان الجن من أخبار السائل ، وأحواله في منزله ، وخصوصية نفسه ، مما ألقاه إليه الشيطان القرين ، فيظن الجهلة والمغفلون أن ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات ، وأنه بصلاحه قد كشف الحجاب عنه ، وهذا من أضل الضلال ، ومن أعظم الخذلان ، وإن اعتقده وخذع به كثير ممن ينتسب إلى ظاهر العلم والصلاح .

٣. عن طريق التخمين ، والتخرص ، والكذب ، وقد يستخدم بعض الطرق ، كالطرق ، وقراءة الكف ، والفنجان ، ونحو ذلك^(١) ، لإيهام الغير بمعرفة الغيب عن طريق ذلك .

وكلما ضعف التوحيد والعلم الشرعي راج سوق الكهان ، وكلما انتشر العلم ، وظهرت أنوار التوحيد بارت سوق الدجالين والكهان .

قال ابن أبي العز : والواجب على ولي الأمر ، وكل قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين ، والكهان ، والعرافين .
مسألة : الكاهن في الحكم كالساحر ، إذا كان يستخدم الشياطين ، وهو الغالب .

مسألة : إتيان الكاهن ، والعراف ، والساحر ، له عدة صور :

١. أن يأتيه مع اعتقاده أنه يعلم الغيب ، سواء الغيب المطلق ، أو النسبي ، فهذا كفر أكبر ، قال تعالى (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) .

٢. أن يأتيه مع اعتقاده أنه لا يعلم الغيب ، ولكن سأله من باب أنه يصله ذلك عن طريق مسترق السمع ، أو القرين .
فهذا يختلف العلماء في حكمه :

أ. كفر أكبر : لعدة أمور ، منها :

١. عموم قول النبي ﷺ : من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد .
والحديث عام ليس فيه تفريق بين صورتين .

٢. لأن في ذلك معارضة لقول النبي ﷺ عن الكهان (ليسوا بشيء) رواه مسلم .

٣. لأن غالب الكهان في عصر النبوة يخبرون عن طريق الشياطين ومع ذلك قال ﷺ (فصدقه بما يقول فقد كفر) وقال ﷺ (ليسوا بشيء) رواه مسلم .

ب. محرم : لعدة أمور ، منها :

١. حديث (من أتى عرافاً فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)^(٢) فلو كان الكفر أكبر ما قبلت منه الصلاة أبداً .

٢. لقوة الشبهة فيه ، وهي كون الذهاب إليه يعلم أنه لا يعلم الغيب ، وإنما يأتيه الخبر عن طريق القرين أو غيره من الجن ، ويعتقد أن هذا الأمر من الغيب النسبي .

قال المناوي : إن مصدق الكاهن إن اعتقد أنه يعلم الغيب كفر ، وإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعته من الملائكة ، وأنه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر .

وقال ابن حزم في المحلى : ومن أتى عرافاً - وهو الكاهن - فسأله مصداقاً له وهو يدري أن هذا لا يحل له ، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة إلا أن يتوب إلى الله عز وجل^(٣) .

(١) ومن هذه الطرق :

١. قراءة الكف : وتعتمد على تفسير الخطوط التي في الكف وتعرجاقها ، ثم يخبر الشخص بالفأل أو بالشؤم .

٢. قراءة الفنجان : بحيث يطلب من الشخص أن يشرب في فنجان ، وبعد فراغه يديه عدة مرات ثم ينظر ما علق بجدران الفنجان من خطوط من بقايا القهوة أو غيرها ، فإن تشكل فيها ما يشبه الحية مثلاً تشاءم ، وإن ظهر ما يشبه الوردة مثلاً تفاءل .

٣. قراءة النار : بحيث ينظر في النار ، فإن تشكل من لهبها ما يشبه الحية أو الفأس تشاءم ، وإن تشكل ما يشبه الوردة أو الشجرة تفاءل .

٤. فتح الكتاب : بحيث يفتح القرآن ، أو أي كتاب بطريقة عفوية ، وينظر إلى أول كلمة ، فإن كانت مبشرة تفاءل وإلا تشاءم .

(٢) قال في تيسير العزيز الحميد : فإن الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه ، والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه .

قال في تيسير العزيز الحميد بعد أن نقل هذا القول : وفيه نظر , وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان , لا اعتقاده أنه يعلم الغيب , وسواء كان ذلك من قبل الشياطين , أو من قبل الإلهام , لا سيما وغالب الكهان في وقت النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين أ.هـ

وهذه المسألة من المسائل الدقيقة التي اختلف قول أهل العلم فيها , واختلفوا في موارد النزاع فيها , والله أعلم بالصواب .
٣. أن يأتيهم لا لمصلحة شرعية , كالفرجة مثلاً , أو مصاحباً لشخص آخر , أو غير ذلك : فهذا حرام , لحديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه , قال : قلت : يا رسول الله : أموراً كنا نصنعها في الجاهلية , كنا نأتي الكهان , قال : فلا تأتوا الكهان . رواه مسلم .

مسألة : ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن مشاهدة السحرة , والكهان عن طريق شاشة التلفاز , أو الأجهزة الحديثة , أو قراءة الأبراج في المجلات , والمواقع الالكترونية يأخذ حكم إتيان الكهان , وهذا القول له وجه قوي من حيث النظر , والله أعلم .
٤. أن يأتيه ليفضح أمره للناس , أو يقبض عليه , وهذا جائز بل مطلوب , كما أتى النبي ﷺ ابن صياد , وسأله ليفضح أمره . قال ابن تيمية رحمه الله : وأما إن كان يسأل المسؤول ليمتحن حاله , ويختبر باطن أمره , وعنده ما يميز به صدقه من كذبه , فهذا جائز , كما ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ سأل ابن صياد فقال : ما يأتيك , فقال : يأتيني صادق وكاذب , قال : ما ترى , قال : أرى عرشاً على الماء , قال : فإني قد خبأت لك خبيئاً , قال : الدخ , الدخ , قال : اخسأ فلن تعدوا قدرك فإنما أنت من إخوان الكهان .

والخلاصة أن إتيان الكهان محرم على كل حال إلا في حال إتيانهم لكشف حالهم , أو القبض عليهم .

مسألة : ليس من الكهانة : الإخبار عن الطقس , والأحوال الجوية , أو الإخبار عن وقت الكسوف والخسوف , ونحو ذلك , وينبغي عدم الجزم بذلك , وتعليق ذلك بمشيئة الله تعالى .

والقاعدة : أن كل أمر يمكن أن يدرك بالحساب , أو بأمر محسوس فالإخبار عنه ليس من الكهانة .

وقفات مع أدلة الباب

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أَتَى عَرَّافًا ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، فَصَدَّقَهُ ^(١)) لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)) .

تخریجه : رواه مسلم دون لفظ (فصدقه) وهذا اللفظ موجود عند الإمام أحمد في مسنده .
قال في تيسير العزيز الحميد : الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه ، والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه .

وقال ابن باز : فعل المؤلف وهم ، أو نقله من نسخة فيها هذه الكلمة .
وقال شيخنا : والظاهر أن المؤلف إما أن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ (فصدقه) أو أنه عزاه إلى مسلم باعتبار أصله .
والشاهد : التحذير من إتيان العرافين ، وذلك ببيان الوعيد الشديد لمن أتى العراف ، وسأله عن شيء .
والكاهن أشد منه ، والنهي عن إتيانهم إنما هو لتحقير شأنهم ، لأنهم في الحقيقة ليسوا بشيء ، كما قال ﷺ في صحيح مسلم :
ليسوا بشيء ، لا تأتوهم .

قال في تيسير العزيز الحميد : وظاهر الحديث أن هذا الوعيد مرتب على مجيئه ، وسؤاله ، سواء صدقه ، أو شك في خبره ، لأن إتيان الكهان منهي عنه .

قوله (عن بعض أزواج النبي ﷺ) جاء في بعض الروايات أنها حفصة رضي الله عنها .
قوله (لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) المعنى : لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة في إسقاط الفرض عنه .
قال في تيسير العزيز الحميد : إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول ؟ وهو من كلام ابن تيمية .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أَتَى كَاهِنًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .
والشاهد : التحذير من إتيان الكهان ، وذلك ببيان كفر من أتى الكاهن ، وسأله عن شيء ، وصدقه .
قال في تيسير العزيز الحميد : وهل الكفر في هذا الموضوع كفر دون كفر ، أو يجب التوقف ، فلا يقال : ينقل عن الملة ؟
ذكروا فيها عن أحمد روايتين ، وقيل : هذا على التشديد والتأكيد ، أي قارب الكفر ، والمراد كفر النعمة ، وهذان القولان باطلان .
أ.هـ

(١) هذه اللفظة ليست في صحيح مسلم .

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ : صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ^(١) : ((مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) .

تخریجه : عزاه المصنف هنا للأربعة والحاكم ، والصحيح أنه لم يخرج أحداً من أصحاب السنن الأربعة ، ولعله تبع في هذا الحافظ ابن حجر ، كما نبه على ذلك الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد .
وقد رواه أحمد ، والحاكم ، وصححه العراقي ، وقال الذهبي : إسناده قوي ، وصححه الألباني .
والشاهد : التحذير من إتيان الكهان والعرافين ، وذلك ببيان كفر من أتاهم ، وسألهم عن شيء ، وصدقهم .

وَلَأَبِي يَعْلَى - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْقُوفًا .

تخریجه : رواه أبو يعلى في مسنده ، وجود ابن حجر إسناده ، وقال : ومثله لا يقال بالرأي .

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ - مَرْفُوعًا - : ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطَيِّرَ لَهُ ، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)) . رَوَاهُ الْبَزَارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ .

تخریجه : رواه البزار ، وقال ابن حجر : بسند جيد ، وصححه الألباني .

والشاهد : تحريم الكهانة ، لأن عبارة (ليس منا) أقل أحوالها التحريم ، وفي الحديث أيضاً التحذير من إتيان الكهان ، وذلك ببيان كفر من أتى الكاهن ، وسأله عن شيء ، وصدقته .
وفي هذا الحديث بيان تحريم الكهانة نصاً ، بقوله (ليس منا من تكهن) وأما الأحاديث السابقة ففيها تحريم الكهانة بدلالة اللزوم ، وذلك أنه ﷺ لما حرم إتيان الكهان دل على أن فعلهم محرم .

وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ - بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ - مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، دُونَ قَوْلِهِ : ((وَمَنْ أَتَى ... إِلَى آخِرِهِ)) .

تخریجه : رواه الطبراني ، وصححه الألباني .

(١) الأصل أن الشيخ بيض اسم الراوي ، ولم يذكره .

قَالَ الْبَغَوِيُّ : الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَقِيلَ : هُوَ الْكَاهِنُ ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَقِيلَ : الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ .

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ ، وَالْمُنَجِّمِ ، وَالرَّمَالِ ، وَنَحْوِهِمْ ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ .

اختلف أهل العلم في التفريق بين الكاهن والعراف ، فذهب بعضهم إلى أنه لا فرق بينهما ، واختار الأكثر أن ثمة فرق بين الكاهن والعراف ، وهو الصحيح ، لكنهم اختلفوا في تحديد هذا الفرق .

فَقِيلَ : الْعَرَّافُ يَتَكَلَّمُ فِي الْأُمُورِ الْحَاضِرَةِ ، كَمَا إِذَا ضَاعَ شَيْءٌ أَوْ فَقَدَ ، وَأَمَّا الْكَاهِنُ فَيَتَكَلَّمُ فِي أُمُورِ الْمُسْتَقْبَلِ .

وَقِيلَ : الْعَرَّافُ : يَزْعَمُ أَنَّهُ يَعْرِفُ الْأُمُورَ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا ، ككَلَامٍ مِنْ يَأْتِيهِ أَوْ حَالِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَمَّا الْكَاهِنُ : فَيَزْعَمُ أَنَّ لَهُ تَابِعاً مِنَ الْجِنِّ يَأْتِيهِ بِالْأَخْبَارِ .

وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .

وَقَدْ يُطْلَقُ الْكَاهِنُ عَلَى الْعَرَّافِ وَالْعَكْسِ .

وَقَوْلُ الْمُصَنِّفِ هُنَا (وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ...) يُوْهِمُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ نَقَلَهُ بِصِيغَةِ التَّمْرِیْضِ وَرَجَحَ غَيْرَهُ ، كَمَا هُوَ نَصُّ كَلَامِهِ فِي الْفَتَاوَى حَيْثُ قَالَ : وَالْعَرَّافُ قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ اسْمٌ عَامٌّ لِلْكَاهِنِ ، وَالْمُنَجِّمِ ، وَالرَّمَالِ ، وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي تَقْدِیمِ الْمَعْرِفَةِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ ، وَلَوْ قِيلَ : إِنَّهُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِبَعْضِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ ، فَسَائِرُهَا يَدْخُلُ فِيهِ بِطَرِيقِ الْعُمُومِ الْمَعْنَوِيِّ ، كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَنَحْوِهَا أ.هـ

وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ السَّاحِرِ : أَنَّ هَؤُلَاءِ يُخْبِرُونَ ، وَالسَّاحِرُ يَتَصَرَّفُ ، كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي كِتَابِ النُّبُوءَاتِ : الْكَاهِنُ إِنَّمَا عِنْدَهُ أَخْبَارٌ ، وَالسَّاحِرُ عِنْدَهُ تَصَرُّفٌ ، بِقَتْلِ ، وَإِمْرَاضٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ " أَبَا جَادٍ " ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ - : مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ .

تخرجه : قال في تيسير العزيز الحميد : هذا الأثر ذكره المصنف عن ابن عباس ولم يعزه ، وقد رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً - وإسناده ضعيف - ولفظه : رب معلم حروف (أبي جاد) دارس في النجوم ليس له عند الله من خلاق يوم القيامة أ.هـ . وقد رواه عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي ، وصححه ابن حجر موقوفاً ، والمرفوع باطل .
والشاهد : أن قراءة الحروف بهذه الطريقة محرم .

وقد ذكر أهل العلم أن هذه الحروف لها استخدامان :
١ . مباح : وذلك كحساب الجُمَّل^(١) ، أو التهجي (أ ، ب ، ج ، د ...) وما شابه ذلك . وما زال العلماء يستخدمونها ، ويؤرخون بها .

وطريقة حساب الجُمَّل أنهم يبدءون بالآحاد ، ثم العشرات ، ثم المئات ، ثم يحتمونها بالألف .
ثم يبدأ بالألف ، ثم يجمع المئات ، ثم يجمع العشرات ، ثم يجمع الآحاد .
أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ .

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠

ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

ومن أمثلة ذلك قولهم لتاريخ وفاة الأئمة الأربعة :

لنعماهم (قان) و (طعق) لمالك وللشافعي (در) و (رم) لابن حنبل

٤٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٠ ، ٤٠

١٠٠ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠

٢٤٠ ٢٠٤

١٧٩ ١٥١

ومنه قول السعدي رحمه الله في تاريخ بناء الجامع القديم :

جد بالرضا واعط المنى من ساعدوا في ذا البنا

تاريخه حين انتهى قول المنيب (اغفر لنا)

والشهر في شوال يا رب تقبل سعيينا

فقله (اغفر لنا) لو عددناها بهذه الطريقة كان المجموع : ١٣٦٢ هـ

(١) ذكر بعض أهل العلم أن هذه الطريقة المسماة (حساب الجُمَّل) من ميراث اليهود ، فلا ينبغي استعمالها ، وذكر صاحب كتاب (خلاصة التفريد في شرح كتاب التوحيد) أن أرسطو عقد فصلاً في آخر كتاب (السياسة) عن حساب الجُمَّل ، وذكر أنه يعرف به الغالب من المغلوب ، وبعض أمور الغيب .
ولا شك أن البعد عنه أسلم ، وهو مخالف ليسر الشريعة ، خاصة وقد رأينا اليوم من ينزل آيات القرآن على الأحداث المستقبلية معتمداً على هذا الحساب .

وقال حافظ حكيم في آخر منظومته في الاعتقاد , والتي سماها (سلم الوصول) :
 أبياتها (يُسر) بعدّ الجمل تأريخها (الغفران) فافهم وادع لي
 ٢٧٠ ١٣٦٢ هـ

٢. محرم : وهو كتابتها مربوطة بسير النجوم , وحركتها , وطلوعها , وغروبها , فينظرون في النجوم ليستدلوا بالموافقة والمخالفة على
 ما سيحدث في الأرض , إما على سبيل العموم , كالجدب , والمرض , والحرب , وما شابه ذلك , وإما على سبيل الخصوص ,
 كقولهم : سيحدث لك مرض , أو سعادة , وما شابه ذلك .

٢٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ ؟ فَقَالَ : ((هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَقَالَ : سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا ؟ فَقَالَ : ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ ، قُلْتُ لَابْنِ الْمُسَيَّبِ : رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ أَوْ يُؤَخِّدُ عَنِ امْرَأَتِهِ ، أَيَحِلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ ؟ قَالَ : لَا بَأْسَ بِهِ ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يَنْفَعْ عَنْهُ .

وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَحِلُّ السِّحْرُ إِلَّا سَاحِرٌ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ ، وَهِيَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا حَلُّ بِسِحْرِ مِثْلِهِ ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاسِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ ، فَيُبْطَلُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ ، وَالثَّانِي : النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالِدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ ، فَهَذَا جَائِزٌ .

٢٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

الباب السادس والعشرون

وخلاصته : بيان حقيقة النشرة ، وبيان حكمها .

المسائل المتعلقة بالباب :

تعريف النشرة :

لغة : مأخوذة من النشر - وهو ضد الطيّ - وهو الكشف والإزالة .

واصطلاحاً : حل السحر عن المسحور بسحر مثله .

وسميت بذلك ، لأنه يكشف بها عن المسحور ما خامره من الداء .

أقسام النشرة :

ذكر عدد من أهل العلم أن النشرة على قسمين :

١ . جائزة : وهي حل السحر عن المسحور عن طريق الرقية الشرعية ، أو الأدوية المجربة المباحة .

٢ . محرمة : وهي حل السحر عن المسحور عن طريق السحر والتعاويذ الشركية .

والأقرب أن النشرة عند الإطلاق يراد بها النشرة المحرمة ، وهي حل السحر بالسحر ، وهي المعروفة في الجاهلية ، ولذا لما سئل عنها عليه السلام قال : هي من عمل الشيطان . ولم يفصل في حكمها .

وأما حل السحر بالطرق الشرعية فيسمى رقية .

وإطلاق لفظ النشرة عليه من باب النظر إلى المعنى اللغوي ، والله أعلم .

وعلاج السحر لا يجوز إلا بقراءة القرآن ، والأدعية المباحة ، والوقاية من ذلك بالتحصن بما ثبت من الأذكار النبوية . قال ابن حجر في فتح الباري : قال ابن القيم : من أنفع الأدوية ، وأقوى ما يوجد من النشرة : مقاومة السحر الذي هو من تأثيرات الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية : من الذكر ، والدعاء ، والقراءة ، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله ، معموراً بذكره ، وله ورد من الذكر ، والدعاء ، والتوجه ، لا يخل به ، كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له . قال : وسلطان تأثير السحر هو في القلوب الضعيفة ، ولهذا غالب ما يؤثر فيه : النساء ، والصبيان ، والجهال ، لأن الأرواح الخبيثة إنما تنشط على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها . انتهى ملخصاً . ويعكر عليه حديث الباب ، وجواز السحر على النبي ﷺ مع عظيم مقامه ، وصدق توجهه ، وملازمة ورده ، ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذي ذكره محمول على الغالب ، وإنما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك ، والله أعلم . انتهى كلام ابن حجر .

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى في تعليقه على حديث المرأة التي تصرع : وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء ، والالتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير ، وأن تأثير ذلك وانفعال البدن عنه أعظم من تأثير الأدوية البدنية ، ولكن إنما ينجع بأمرين : أحدهما من جهة العليل ، وهو صدق القصد ، والآخر من جهة المداوي ، وهو قوة توجهه ، وقوة قلبه بالتقوى والتوكل ، والله أعلم .

ومن الطرق المستخدمة في حل السحر ما ذكره وهب بن منبه ، وهو من أصل فارسي ، وله علم بالكتب السماوية . قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ، ويقرأ عليه آية الكرسي ، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ، ويغتسل . فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

وقد نص غير واحد من الأئمة على صحة هذه الطريقة ونفعها منهم ابن القيم ، وابن باز . وذلك لأن الجن تكره السدر وتتضايق منه .

ومن الطرق المذكورة أيضاً : الحجامة ، وأكل تمر العجوة ، واستخدام القسط الهندي ، وقيل إن الشياطين تتأذى منه ، والله أعلم . قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله : لا شك أن السحر موجود ، وبعضه تخيل ، وأنه يقع ويؤثر بإذن الله عز وجل ، كما قال الله سبحانه وتعالى في حق السحرة (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد) يعني الملكين (حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فالسحر له تأثير ، ولكنه بإذن الله الكوني القدري ، إذ ما في الوجود من شيء إلا بقضاء الله وقدره سبحانه وتعالى ، ولكن هذا السحر له علاج وله دواء ، وقد وقع على النبي ﷺ فخلصه الله منه وأنجاه من شره ، ووجدوا ما فعله الساحر ، فأخذ وأتلف ، فأبرأ الله نبيه من ذلك عليه الصلاة والسلام ، وهكذا إذا وجد ما فعله الساحر من تعقيد الخيوط ، أو ربط المسامير بعضها ببعض ، أو غير ذلك ، فإن ذلك يتلف ، لأن السحرة من شأنهم أن ينفثوا في العقد ويضربوا عليها لمقاصدهم الخبيثة ، فقد يتم ما أرادوا بإذن الله ، وقد يبطل ، فربنا على كل شيء قدير سبحانه وتعالى ، وتارة يعالج السحر بالقراءة ، سواء كان ذلك بقراءة المسحور نفسه إذا كان عقله سليماً ، وتارة بقراءة غيره عليه ، فينفث عليه في صدره ، أو في أي عضو من أعضائه ، ويقرأ عليه الفاتحة ، وآية الكرسي ، و (قل هو الله أحد) والمعوذتين ، وآيات السحر المعروفة من سورة الأعراف ، وسورة يونس ، وسورة طه ، من سورة الأعراف قوله تعالى : (وأوحينا إلى موسى أن ألق

عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون* فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون* فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) ومن سورة يونس قوله سبحانه : (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم* فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون* فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبيطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين* ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ومن سورة طه قوله سبحانه : (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى* قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى* فأوجس في نفسه خيفة موسى* قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) ويقرأ أيضا سورة (قل يا أيها الكافرون) إلى آخرها، وسورة (قل هو الله أحد) و (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) والأولى أن يكرر سورة (قل هو الله أحد) والمعوذتين ثلاث مرات، ثم يدعو له بالشفاء (اللهم رب الناس ، أذهب البأس ، واشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاءك ، شفاء لا يغادر سقماً) ويكرر هذا ثلاثاً، وهكذا يرقيه بقوله (بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ، بسم الله أرقيك) ويكررها ثلاثاً ، ويدعو له بالشفاء والعافية ، وإن قال في رقيته (أعيدك بكلمات الله التامات من شر ما خلق) وكررها ثلاثاً فحسن .

كل هذا من الدواء المفيد، وإن قرأ هذه الرقية والدعاء في ماء ثم شرب منه المسحور ، واغتسل بباقيه ، كان هذا من أسباب الشفاء والعافية بإذن الله، وإن جعل في الماء سبع ورقات من السدر الأخضر بعد دقها كان هذا أيضاً من أسباب الشفاء، وقد جرب هذا كثيراً ونفع الله به، وقد فعلناه مع كثير من الناس فنفعهم الله بذلك .

فهذا دواء مفيد ونافع للمسحورين ، وهكذا ينفع هذا الدواء لمن حبس عن زوجته ، لأن بعض الناس قد يحبس عن زوجته فلا يستطيع جماعها، فإذا استعمل هذه الرقية وهذا الدعاء نفعه بإذن الله، سواء قرأه على نفسه ، أو قرأه عليه غيره ، أو قرأه في ماء ثم شرب منه واغتسل بالباقي، كل هذا نافع بإذن الله للمسحور والمحبوس عن زوجته، وهذه من الأسباب، والله سبحانه وتعالى هو الشافي وحده، وهو على كل شيء قدير، بيده جل وعلا الدواء والداء، وكل شيء بقضائه وقدره سبحانه، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله .

وهذا فضل منه سبحانه وتعالى ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل أ.هـ

مسألة : الجمهور على أن حل السحر بالسحر محرم , وهو الصحيح لما يلي :

١. أن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال : هي من عمل الشيطان . وهذا دليل على التحريم .
 ٢. عموم نهي النبي ﷺ عن إتيان السحرة , والكهان , وترتيب الوعيد الشديد على ذلك .
 ٣. جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ (اعرضوا عليّ رقاكم , لا بأس بما ليس فيه شرك) ومعنى ذلك أن ما فيه شرك , واستعانة بالشياطين لا يجوز .
 ٤. أن في ذلك معارضة لقول النبي ﷺ عن الكهان : ليسوا بشيء .
 ٥. أن الله سبحانه لم يجعل شفاء الأمة فيما حرم عليها .
 ٦. أن في استخدامها إضعاف للرقية الشرعية , وللتوكل على الله .
 ٧. أن في إباحتها إقرار للسحرة .
 ٨. الغالب أن ذلك يكون عن طريق الاستعانة بالشياطين , وفي هذا رضاً بالشرك , وإعانة عليه .
 ٩. أن السلف كرهوا ذلك , والكراهة عندهم تعني التحريم في الغالب .
 ١٠. أنه لم يرد دليل على جواز ذلك , بل ظاهر الأدلة خلاف ذلك , وكذلك لم يرد عن أحد من الصحابة , وغاية من أباحه اعتماده على قول سعيد بن المسيب رحمه الله , وهو معارض بقول من هو أعلم منه .
- وقد ذهب فقهاء الحنابلة إلى جواز ذلك للضرورة , وليس لهم دليل إلا ورود ذلك عن ابن المسيب , وهو قول مرجوح .
- واستباحة المحرم للضرورة إنما يكون في حال عدم وجود طريق آخر , أما في حال وجود طريق آخر فلا ينتهك المحرم .
- تنبيه :** من قال بجوازها اشترط لذلك عدة شروط , وهي :
١. أن يعتقد كفر الساحر .
 ٢. أن يعتقد أنه لا يعلم الغيب .
 ٣. أن لا يعمل بما يأمره به من الشراكيات , كالذبح لغير الله , ونحو ذلك .
 ٤. أن لا يتقدم معه إلى الشياطين .
 ٥. أن يعتقد أن الشفاء بيد الله وحده , وأن الساحر سبب .
- وهذه الشروط والقيود لا بد من ذكرها عند من يقول بالجواز , حتى لا يلتبس على الناس فعل الشرك من أجل الضرورة .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النَّشْرَةِ ؟ فَقَالَ : ((هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ ، وَأَبُو دَاوُدَ .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، وحسن إسناده ابن حجر ، وابن مفلح ، وصححه الألباني .
والشاهد : أنه ﷺ جعل النشرة من عمل الشيطان ، والمراد النشرة المحرمة ، لأنها الأصل عند الإطلاق ، وهي المعروفة عند العرب في الجاهلية .

وَقَالَ : سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا ؟ فَقَالَ : ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ .

القائل هو أبو داود صاحب السنن .
 وقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن إبراهيم النخعي أنه قال : كانوا - يقصد أصحاب ابن مسعود - يكرهون التمام ، والرقى ، والنشر أ.هـ فلعلهم أخذوا ذلك عنه ، والله أعلم .
 قال في تيسير العزيز الحميد عن جواب الإمام أحمد : مراد أحمد - والله أعلم - أن ابن مسعود يكره النشرة التي من عمل الشيطان ، والنشرة التي بكتابة وتعليق كالتمام ، فإن ابن مسعود كان يكره التمام كلها من القرآن وغير القرآن ، أما النشرة بالتعويذ والرقى بأسماء الله وكلامه من غير تعليق فلا أعلم أحداً كرهه أ.هـ

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ ، قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ : رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ أَوْ يُؤَخِّدُ عَنِ امْرَأَتِهِ ، أَيْحُلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُّ ؟ قَالَ : لَا بَأْسَ بِهِ ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يَنْفَعْ عَنْهُ .

تخرجه : رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم^(١) ، وقال ابن حجر : إسناده صحيح ، وصححه الألباني .

والشاهد : أن ابن المسيب يرى جواز النشرة ، لقوله (فأما ما ينفع فلم ينفع عنه) ومراده رحمه الله أن عمل الساحر إذا كان فيه إضرار فهو محرم ، وأما إن كان فيه نفع كحل السحر وإبطاله فلا بأس به ، وهو رحمه الله لا يتكلم عن حكم الساحر هنا ، ومع ذلك فهو اجتهاد منه خالفه فيه جماهير العلماء ، لما سبق بيانه^(٢) .

قوله (به طب) أي : سحر .

قوله (أو) يحتمل أنه شك ، ويحتمل أنه سأله عن الأمرين : المسحور ، والذي يحبس عن امرأته .

قوله (يؤخِّد) يحبس عن امرأته .

قوله (أَيْحُلُّ عَنْهُ ، أو ينشَرُّ) قال شيخنا : لا شك أن (أو) هنا للشك ، لأن الحل هو النشرة .

(١) في علم المصطلح أن تعليقات البخاري التي بصيغة الجزم صحيحة ، لكنها ليست على شرطه .

(٢) الظاهر - والله أعلم - أن ابن المسيب يرى جواز حل السحر بالسحر ، كما هو ظاهر كلامه أعلاه ، وأصرح منه ما روى ابن جرير في التهذيب من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه ، فقال : هو صلاح . قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك ، يقول : لا يعمل ذلك إلا ساحر ، فقال سعيد بن المسيب : إنما نهي الله عما يضر ، ولم ينه عما ينفع .

ففي هذا دليل أنه يريد حله بالسحر لا بالرقى الشرعية ، لأنه عارض قول الحسن .

وقد تكلف بعض العلماء في دفع ذلك عن ابن المسيب .

قال في تيسير العزيز الحميد : وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من السحر أم لا ، فأما أن يكون ابن المسيب يفتي بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله ليعمل السحر فلا يظن به ذلك ، حاشاه منه ، ويدل على ذلك قوله (إنما يريدون به الإصلاح) فأى إصلاح في السحر ؟! بل كله فساد وكفر .

قلت هذا الكلام خلاف الظاهر - والله أعلم - ويدل عليه قوله (فأما ما ينفع فلم ينفع عنه) فلو أراد الرقية الشرعية لم يكن فيها شيء لا ينفع .

وقال في تيسير العزيز الحميد أيضاً : هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب ، أو على نوع لا يدري هل هو من السحر أم لا ، وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة فإنه محمول على ذلك ، وغلط من ظن أنه أجاز النشرة ، وليس في كلامه ما يدل على ذلك ، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر ، قال : قد رخص فيه بعض الناس ، قيل : إنه يجعل في الطنجير ماءً يغيب فيه ، فنفض يده وقال : لا أدري ما هذا . قيل له : أفترى أن يؤتى مثل هذا ؟ قال : لا أدري ما هذا . وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه . وكيف يجيزه وهو الذي روى الحديث (إنما من عمل الشيطان) لكن لما كان لفظ النشرة مشتركاً بين الجائز والتي من عمل الشيطان ، ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان وحاشاه من ذلك أ.هـ.

قال شيخنا ابن عثيمين : ولكن على كل حال حتى لو كان ابن المسيب ، ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز فليس معنى ذلك أن يكون جائزاً في حكم الله ، حتى يعرض على الكتاب والسنة ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال : هي من عمل الشيطان أ.هـ.

وقد ذهب ابن جرير الطبري إلى جواز حل السحر بالسحر ، وروي ذلك عن الإمام أحمد .

وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ .

تخرجه : قال في تيسير العزيز الحميد : هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد بغير إسناد , ولفظه (لا يطلق السحر إلا ساحر) أ.هـ

ورواه ابن أبي شيبة قال : حدثنا ابن مهدي عن الحكم بن عطية قال : سمعت الحسن , وسئل عن النشر ؟ فقال : سحر .

والشاهد : أن الحسن يرى تحريم النشر .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ , وَهِيَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا حَلُّ بِسِحْرِ مِثْلِهِ , وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ , وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ , فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ , فَيُبْطَلُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ , وَالثَّانِي : النُّشْرَةُ بِالرُّقِيَّةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالِدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ , فَهَذَا جَائِزٌ .

كلام ابن القيم كالشرح والبيان لهذا الباب .

قال السعدي : ذكر المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع , وفيه كفاية .

وسبق أن الأصل أن النشر يقصد بها النشر الشركية , وهي حل السحر بالسحر , وأما حل السحر بالقرآن والأدعية فهو رقية .

٢٧ - بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّطِيرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

وَقَوْلُهُ: {قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} الآية .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا عَدْوَى ، وَلَا طَيْرَةَ ، وَلَا هَامَةً ، وَلَا صَفَرَ)) . أَخْرَجَاهُ .

زَادَ مُسْلِمٌ : ((وَلَا نَوْءَ ، وَلَا غُولَ)) .

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا عَدْوَى ، وَلَا طَيْرَةَ ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ)) . قَالُوا : وَمَا الْفَأَلُ ؟ قَالَ : ((الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ)) .

وَلَأَبِي دَاوُدَ - بِسَنَدٍ صَحِيحٍ - عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ^(١) قَالَ : ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((أَحْسَنُهَا الْفَأَلُ ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا ، فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ لَا يَأْتِنِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)) .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - مَرْفُوعًا - : ((الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا ... وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ .

وَلَأَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو : ((مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ)) . قَالُوا : فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : ((أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)) .

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ : ((إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ)) .

(١) في جميع نسخ كتاب التوحيد (عن عقبة) والصحيح أن راوي هذا الحديث هو عروة بن عامر ، وقد ورد هذا الخطأ في كتاب الأذكار للنووي ، والوابل الصيب لابن القيم ، فعمل المصنف نقله عن أحد الكتّابين ، والله تعالى أعلم .

٢٧ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ

الباب السابع والعشرون

وخلاصته : النهي عن التطير ، وبيان حكمه ، وأنه شرك أصغر منافٍ لكمال التوحيد .

وفي هذا الباب جمع المصنف عدة أمور تتعلق بالتطير ، وهي :

١ . حقيقة التطير . ٢ . حكم التطير .

٣ . ضابط التطير . ٤ . علاج من وقع في الطيرة .

وفقه هذا الباب راجع إلى ربط القلوب بالله ، وتخليصها من التعلقات الباطلة .

المسائل المتعلقة بالباب :

أولاً : تعريف التطير :

لغة : مصدر تطير يتطير تطيراً ، والطيرة أيضاً - بكسر الطاء ، وفتح الياء ، وقد تسكن - مصدر تطير .

وأصل التطير : محاولة معرفة الخير والشر بدلالة الطير .

قال ابن عبد البر : أصل التطير واشتقاقه عند أهل العلم باللغة ، والسير ، والأخبار هو مأخوذ من زجر الطير ، ومروره سائحاً أو بارحاً ، منه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء من الحيوان وغير الحيوان ، فتطيروا من الأعور ، والأعصب ، والأبتر . وقال ابن القيم : كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها ، فما تيامن منها وأخذت ذات اليمين سموه سائحاً ، وما تياسر منها سموه بارحاً ، وما استقبلهم منها فهو الناطح ، وما جاءهم من الخلف فهو القعيد ، فمن العرب من يتشاءم بالبارح ، ويتبرك بالسانح ، ومنهم من يرى خلاف ذلك^(١) .

فالتطير اصطلاحاً : التشاؤم ، أو التفاؤل بمسموع ، أو مرئي ، أو معلوم (كالأسماء ، والألفاظ ، والأزمان ، والبقاع) .

كما كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بأسماء الحيوانات وحركاتها ، وغير ذلك ، فالغراب يدل على الغربة ، والهدهد يدل على الهدى ، ونحو ذلك .

ومن صور التطير المعاصر : التشاؤم أو التفاؤل ببعض الأرقام ، فيتفاءلون بالرقم (٧) ويتشاءمون بالرقم (١٣)^(٢) ، ومنه التفاؤل أو التشاؤم ببعض الألوان .

فائدة : قال في تيسير العزيز الحميد : واعلم أن من كان معتنياً بها - أي : الطيرة - قابلاً بها ، كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره ، وتفتحت له أبواب الوسوس فيما يسمعه ، ويراه ، ويعطاه ، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه ، وينكد عليه عيشه .

(١) قال المدائني : سألت رؤية بن العجاج : ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنه ، قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره ، قال : والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد .

ومن العرب من يتشاءم بالبارح ويتبرك بالسانح ، وبالعكس .

وهناك من العرب من ينكر هذه الاعتقادات ، كما قال بعضهم : وما أنا ممن يزجر الطير هم ولا السانحات البارحات عشية
أطار غراب أم تعرض ثعلب
أمر سليم القرن أم مَرَّ أعضب

(٢) وبعض الفنادق الدولية ذات الطوابق الكثيرة لا ترقم الدور (١٣) بل (١٢) والذي يليه (١٤) .

ثانياً : حكم التطير :

الأصل في التطير : أنه شرك أصغر ، لأنه من باب اتخاذ سببٍ لم يجعله الشارع سبباً .

لكن إن اعتقد في الطير ونحوه أن له تأثيراً في جلب النفع أو دفع الضر ، وأنها تفعل بذاتها ، فهو شرك أكبر في باب الربوبية .

والتطير ينافي التوحيد من عدة جهات ، منها :

١ . أن المتطير قطع توكله على الله ، واعتمد على غيره .

٢ . أنه تعلق بأمر لا حقيقة له .

٣ . أنه تطلب علم الغيب بطريق غير شرعي ولا حسي صحيح .

ثالثاً : ضابط التطير :

هو ما أدى إلى عمل من إقدام أو إحجام ، أما ما يقع في النفس فلا يحاسب عليه إذا حاول مدافعته .

وهذا معنى قول ابن مسعود : وما منا إلا ، ولكن الله يذهب بالتوكل .

أي : ما منا أحدٌ إلا ويقع في نفسه شيء من التطير ، ولكن الله يذهب بالتوكل .

قال المصنف في مسائل الباب : أن الواقع في القلب من ذلك - مع كراهته - لا يضر ، بل يذهب الله بالتوكل .

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ (ومنا أناس يتطيرون ، قال ﷺ : ذلك شيء يجده أحدكم

في نفسه فلا يصدنكم) .

قال النووي : قال العلماء : معناه أن الطيرة شيء تجدونه في نفوسكم ضرورة ، ولا عتب عليكم في ذلك ، فإنه غير مكتسب لكم ،

فلا تكليف به ، ولكن لا تمتنعوا بسببه من التصرف في أموركم ، فهذا هو الذي تقدرن عليه ، وهو مكتسب لكم ، فيقع به

التكليف ، فمنهاهم ﷺ عن العمل بالطيرة ، والامتناع من تصرفاتهم بسببها ، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة في النهي عن التطير

، والطيرة محمولة على العمل بها ، لا على ما يوجد في النفس من غير عمل على مقتضاه عندهم .

رابعاً : علاج من وقع في الطيرة :

١ . علاج قولي :

أ . أن يقول : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

ب . أن يقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك .

٢ . علاج فعلي : وهو أن يتوكل على الله ، ولا ترده الطيرة عما عزم عليه من إقدام أو إحجام .

ومن خلال النصوص التي ذكرها المصنف في هذا الباب نجد أن الشريعة نفت عدة أمور ، وهي :

١. العدوى : وهي انتقال المرض من المريض إلى الصحيح .

قال ﷺ : لا عدوى . متفق عليه .

وفي الصحيحين أن أعرابياً قال : يا رسول الله : فما بال الإبل تكون كأنها الظباء فيجئ البعير الأجرب فيدخل فيها فيجرها كلها ؟!

قال ﷺ : فمن أعدى الأول .

ووردت عدة أحاديث تثبت وجود العدوى ، وانتقال المرض ، منها قوله ﷺ : لا يورد ممرض على مصح . رواه مسلم ، والمراد هنا :

لا يورد صاحب الإبل المراض على إبل صاحب الإبل الصحاح .

وجاء عند أحمد ، والبخاري معلقاً مرفوعاً : فر من المجذوم كما تفر من الأسد .

وجاء عند مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : كان في وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبي ﷺ : إنا قد بايعناك

فارجع .

وقد اختلفت أقوال العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث ، وأصح الأقوال أن تحمل أحاديث الإثبات للعدوى على حقيقتها ، لأن

الواقع يثبت ذلك ، وتحمل الأحاديث التي ظاهرها نفي العدوى على ما كان يعتقد أهل الجاهلية من أن الأمراض تعدي بذاتها لا

بأمر الله وقدره ، ولذا قال النبي ﷺ للأعرابي (فمن أعدى الأول؟) يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره ، فكذلك الثاني

وما بعده .

قال ابن الأثير : كانوا يظنون أن المرض بنفسه يتعدى ، فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس الأمر كذلك ، وإنما الله هو الذي يُمرض ، ويُنزل

الداء .

وقد ذكر هذا القول البيهقي ، واختاره ابن القيم ، وابن رجب ، والبغوي ، وابن الصلاح ، وسليمان بن عبد الله ، وصديق حسن

خان ، والألباني ، وشيخنا ، وأفقت به اللجنة الدائمة .

قال في تيسير العزيز الحميد : وأما أمره بالفرار من المجذوم ، ونهيه عن إيذاء الممرض على المصح ، وعن الدخول إلى موضع الطاعون

، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى ، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان

في عافية ، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء ، أو في النار ، أو تحت الهدم ، أو نحو ذلك ، كما جرت العادة بأنه يهلك

ويؤذي ، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم ، وقدم بلد الطاعون ، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، والله تعالى هو

خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ، ولا مقدر غيره .

وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره ، فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ، ورجاء

منه أن لا يحصل به ضرر ، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك ، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة .

وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود ، والترمذي أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ، ثم قال : كُلْ بِسْمِ

الله ، ثقة بالله ، وتوكلاً عليه . وقد أخذ به الإمام أحمد ، وروي ذلك عن عمر ، وابنه ، وسلمان رضي الله عنهم .

ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم ، ومنه مشي سعد بن أبي وقاص ، وأبي مسلم الخولاني على

متن البحر ، قاله ابن رجب رحمه الله أ.هـ

وقد تكلم ابن حجر عن هذه المسألة في فتح الباري ، وذكر الأقوال فيها ، بما لا مزيد عليه .

٢. الطيرة : وهي التشاؤم أو التفاؤل بمسموع , أو مرئي , أو معلوم (كالأسماء , والألفاظ , والأزمان , والبقاع) .

٣. الهامة : وقد اختلف العلماء في معنى الهامة على أقوال :

أ. البومة : وهي الطائر المعروف , وقد كان العرب يتشاءمون بها إذا وقعت على بيوتهم .

ب. عظام الميت تجتمع وتصير طائراً اسمه (الصدى) .

وبهذا المعنى جزم ابن رجب , وقال : وهذا شبيه باعتقاد أهل التناسخ أن أرواح الموتى تنتقل إلى أجساد حيوانات من غير بعث ولا نشور .

ج. أن الرجل إذا قُتل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة , وهي دودة تدور حول قبره وتقول (اسقوني) وفي ذلك يقول شاعرهم :

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة (اسقوني)

وأياً كان المعنى فجميع هذه الاعتقادات باطلة .

٤. صَفَرٌ : وفي معناه عدة أقوال للعلماء , منها :

أ. أنه حية تكون في البطن تصيب الماشية , والناس , وهي أعدى من الجرب عند العرب .

ومن قال به : سفيان بن عيينة , وأحمد , وابن جرير , والبخاري , وقال (باب : لا صفر , وهو داء يأخذ البطن) واختاره النووي .

ب. المراد به شهر صفر , واختلفوا في معنى النفي :

١. النفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه من النسيء , حيث كانوا يحلون الحرم , ويحرمون صفرًا مكانه , وهذا قول مالك . قال في تيسير العزيز الحميد : وفيه نظر .

وقال شيخنا محمد بن عثيمين : وهذا القول ضعيف , ويضعفه أن الحديث في سياق التطير وليس في سياق التغيير .

٢. النفي لما كان أهل الجاهلية يتشاءمون به , فلا يسافرون , ولا ينكحون فيه , ونحو ذلك , وهو كتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة .

قال ابن رجب : ولعل هذا القول أشبه الأقوال , واختاره شيخنا ابن عثيمين .

فائدة : قال شيخنا : وبعض الناس إذا انتهى من شيء في صفر أرّخ ذلك , وقال (انتهى في صفر الخير) فهذا من باب مداواة البدعة ببدعة , والجهل بالجهل , فهو ليس شهر خير ولا شر ... ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال : خيراً إن شاء الله , فلا يقال خير ولا شر , بل هي تنعق كبقية الطيور .

٥. نَوَاءٌ : الأنواء هي منازل القمر , وهي ثمان وعشرون منزلة ينزلها القمر , قال تعالى (والقمر قدرناه منازل) وكانت العرب تزعم أنه مع سقوط المنزلة , وطلوع رقيبها يكون مطر , وينسبونوه إليها , فيقولون : مطرنا بنوء كذا , وكانوا يتفاءلون ببعضها , ويتشاءمون ببعضها الآخر .

وهذه المنازل هي ظروف للأحداث والأقذار , وليست مسببة لها , ويأتي الكلام عن ذلك قريباً إن شاء الله .

٦. غُولٌ : هو بالفتح مصدر معناه البعد والهلاك ، وبالضم الاسم ، وجمعه أغوال وغيلان وهو المراد هنا .

وحقيقتها : أنها جنس من الجن والشياطين تتراءى للناس في الفلاة لتضلهم عن الطريق : إما بتخويفهم وإدخال الرعب في قلوبهم مما يجعلهم ينصرفون عن وجهتهم التي أرادوا إلى غيرها ، أو أنها تظهر بشكل أشخاص فتسير بطريق مخالف فيتبعونها ، أو أنها تظهر بشكل أشخاص فتكلمهم وترشدهم إلى غير الطريق .

وهل المراد بالنفي نفى وجودها ، أو نفى تأثيرها المزعوم ؟

قال ابن حجر في فتح الباري : وأما الغول فقال الجمهور : كانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات ، وهي جنس من الشياطين تتراءى للناس ، وتتغول لهم تغولاً ، أي تتلون تلوناً ، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، وقد كثر في كلامهم (غالته الغول) أي أهلكته أو أضلته ، فأبطل ﷺ ذلك .

وقيل : ليس المراد بإبطال وجود الغيلان ، وإنما معناه إبطال ما كانت العرب تزعمه من تلون الغول بالصور المختلفة ، قالوا : والمعني : لا يستطيع الغول أن يضل أحداً . ويؤيده حديث (إذا تغولت الغيلان فنادوا بالأذان) أي : ادفعوا شرها بذكر الله .

وفي حديث أبي أيوب عند قوله (كانت لي سهوة فيها تمر ، فكانت الغول تجيء فتأكل منه) الحديث أ.هـ

ولعل الأقرب أن النفي يعود على اعتقاد أن الغول كائن مستقل - حيوان أو غيره - فنفي النبي ﷺ ذلك ، وأخبر أن ذلك من تلون الشياطين والجن ، والله أعلم .

مسألة : هناك بعض الأحاديث قد يفهم منها البعض جواز التطير , ومنها :

ما جاء عن عبد الله بن عمر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إنما الشؤم في ثلاثة : في الفرس , والمرأة , والدار . متفق عليه

وقد جاء مثل هذا الحديث بلفظ : الشؤم في ثلاث : في المرأة , والدار , والدابة . متفق عليه

وبلفظ : إن يكن من الشؤم حق ففي الفرس , والمرأة , والدار . رواه مسلم

وبلفظ : إن كان الشؤم في شيء ففي ... متفق عليه .

وقد اختلف أهل العلم في توجيه هذه الأحاديث على أقوال ملخصها ما يلي :

١ . إنكار هذا الحديث أصلاً , وهو قول عائشة رضي الله عنها .

قال ابن عبد البر رحمه الله : وكانت عائشة تنكر حديث الشؤم , وتقول إنما حكاه رسول ﷺ عن أهل الجاهلية وأقوالهم , وكانت تنفي الطيرة , ولا تعتقد شيئاً منها .

قال ابن القيم رحمه الله : ولكن قول عائشة هذا مرجوح , ولها رضي الله عنها اجتهد في رد بعض الأحاديث الصحيحة خالفها فيه غيرها من الصحابة , وهي رضي الله عنها لما ظنت أن هذا الحديث يقتضي إثبات الطيرة التي هي من الشرك لم يسعها غير تكذيبه ورده , لكن الذين رووه من الذين لا يمكن رد روايتهم , ولم ينفرد بهذا أبو هريرة وحده رضي الله عنه , ولو انفرد به فهو حافظ الأمة .

وقال الحافظ ابن حجر : ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة , مع موافقته من ذكرنا من الصحابة له في ذلك .

٢ . وقالت طائفة : لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم على هذه الثلاثة , بل علقه على الشرط , كما ثبت ذلك في الصحيح . وغلطوا الراوي في روايته بالجزم دون الشرط , ونصر هذا القول الألباني رحمه الله .

قال في تيسير العزيز الحميد : ولا يصح تغليظه مع إمكان حمله على الصحة , ورواية تعليقه بالشرط لا تدل على نفي رواية الجزم .

٣ . وقالت طائفة : إضافة الرسول ﷺ الشؤم إلى هذه الثلاثة مجاز , واتساع . أي : قد يحصل مقارناً لها وعندها , لا أنها هي في أنفسها مما يوجب الشؤم .

٤ . وقالت طائفة أخرى منهم الخطابي : هذا مستثنى من الطيرة . أي : الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكنها , أو امرأة يكره صحبتها , أو فرس , أو خادم فليفارق الجميع بالبيع , والطلاق , ونحوه , ولا يقيم على الكراهة , والتأذي به .

٥ . وقيل : إن الشؤم بهذه الأشياء إنما يلحق من تشاءم بها وتطير بها , فيكون شؤمها عليه , ومن توكل على الله ولم يتشاءم , ولم يتطير لم تكن مشؤمة عليه .

قالوا : ويدل عليه حديث أنس : لا طيرة , والطيرة على من تطير .

وقد يجعل الله تطير العبد وتشاؤمه سبباً لحلول المكروه به عقوبة له .

٦ . وقيل : إن معنى الحديث إخباره ﷺ عن الأسباب المثيرة للطيرة الكامنة في الغرائز . يعني : أن المثير للطيرة في غرائز الناس هي هذه الثلاثة , فأخبرنا بهذا لنأخذ الحذر منها , فالحوادث والمصائب التي تكثر وتتوالى عندها , تدعو الناس إلى التشاؤم بها .

ونصر هذا القول ابن حجر , ونقله عن ابن العربي , وقال : والمراد من ذلك : حسم المادة , وسد الذريعة لئلا يوافق شيء من ذلك القدر فيعتقد من وقع له أن ذلك من العدوى أو الطيرة .

٧. وقيل : إن هذه الثلاثة أشياء يُقدر الله بها اليُمن أو الشؤم ، والنفع والضرر ، فمن ابتلي بشؤم شيء منها ، فوجد في نفسه الكراهة لذلك أُبيح له تركه ومفارقته ، وليس المراد ما يعتقدُه أهل الجاهلية من أنها مؤثرة بطبعها .

وهذا اختيار ابن القيم ، وابن رجب ، ولعله أقرب الأقوال للصواب ، وبعض الأقوال المذكورة لا تعارضه ، بل تدخل فيه .

من ذلك نستطيع القول : إن الشؤم موجود في بعض الأشياء ، لكن التشاؤم بهذه الأشياء ابتداء هو الممنوع ، فالواجب على المسلم أن يعتقد أن كل شيء من الله تعالى ، ولا مانع من أن يتعد عن الأعيان المشؤمة حقاً إذا ظهر له ذلك ، لا ما يتوهمه ويوسوس له الشيطان به ، لأن الاسترسال في ذلك يفتح له أبواباً من الشيطان ، تُفسد عليه دينه ، ودنياه .

وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه : قال رجل : يا رسول الله إنا كنا في دار كثير فيها عددنا ، وكثير فيها أموالنا ، فتحولنا إلى دار أخرى ، فقلَّ فيها عددنا ، وقلَّت فيها أموالنا ، فقال رسول الله ﷺ : ذروها ذميمة . رواه أبو داود ، وقال الألباني : إسناده حسن .

وسئل شيخنا ابن عثيمين عن شخص سكن في دار فأصابته الأمراض ، وكثير من المصائب ، مما جعله يتشاءم هو وأهله من هذه الدار ، فهل يجوز له تركها لهذا السبب؟

فأجاب بقوله : ربما يكون بعض المنازل ، أو بعض المركوبات ، أو بعض الزوجات مشؤماً ، يجعل الله بحكمته مع مصاحبته إما ضرراً ، أو فوات منفعة ، أو نحو ذلك ، وعلى هذا فلا بأس ببيع هذا البيت ، والانتقال إلى بيت غيره ، ولعل الله أن يجعل الخير فيما ينتقل إليه ، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : (الشؤم في ثلاث : الدار ، والمرأة ، والفرس) فبعض المركوبات يكون فيها شؤم ، وبعض الزوجات يكون فيهن شؤم ، وبعض البيوت يكون فيها شؤم ، فإذا رأى الإنسان ذلك فليعلم أنه بتقدير الله عز وجل ، وأن الله سبحانه وتعالى بحكمته قدر ذلك لينتقل الإنسان إلى محل آخر ، والله أعلم .

ولعل تخصيص هذه الثلاثة بالذكر - مع أن كثيراً من الأمور قدر الله بها اليمن أو الشؤم - لأن أكثر الناس لا يستغني عنها ، ولأن ملازمة الإنسان لها أكثر من غيرها ، وربما حصل له تضجر منها ، والله أعلم .

قال في تيسير العزيز الحميد : ولكن يبقى على هذا أن يقال : هذا جارٍ في كل مشؤوم ، فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر ؟

جوابه : أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة ، فخصت بالذكر .

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلام نفيس حول هذا الحديث إذ يقول : فإخباره ﷺ بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ، ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها ، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤمة على من قاربها ، وسكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ، ولا شر ، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه ، ويعطي غيرها ولداً مشؤماً نذلاً يريان الشر على وجهه ، وكذلك ما يُعطاه العبد من ولاية أو غيرها ، ف كذلك الدار ، والمرأة ، والفرس ، والله سبحانه خالق الخير والشر ، والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ، ويقضي بسعادة من قاربها ، وحصول اليمن له والبركة ، ويخلق بعض ذلك نحوساً ينتحس بها من قاربها ، وكل ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب ، وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة ، فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة ، ولذذ بها من قاربها من الناس ، وخلق ضدها وجعلها سبباً لإيذاء من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس ، ف كذلك في الديار ، والنساء ، والخيول ، فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر .

وقال ابن رجب في لطائف المعارف : والتحقيق أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاثة ... إن هذه الثلاثة أسباب يقدر الله بها الشؤم واليمن , ويقرنه بها , ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة , أو أمة , أو دابة أن يسأل الله تعالى من خيرها , وخير ما جبلت عليه , ويستعيذ به من شرها , وشر ما جبلت عليه , كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ خرج أبو داود وغيره , وكذا ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك , وقد أمر النبي ﷺ قوماً سكنوا داراً فقلّ عددهم , وقلّ ما لهم أن يتركوها ذميمة , فترك ما لا يجد الإنسان فيه بركة من دار , أو زوجة , أو دابة غير منهي عنه ... أ.هـ

واختار هذا القول أيضاً في تيسير العزيز الحميد .

يُنظر في هذه المسألة كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن القيم , وكتاب (تيسير العزيز الحميد) للشيخ سليمان بن عبد الله , وكتاب (عقيدة الإمام ابن عبد البر) للشيخ سليمان الغصن , وكتاب (أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين) للشيخ سليمان الديلمي .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

هذه الآية نزلت في قوم موسى ، حيث إنهم إذا أصابهم خير ، ورزق ، وعافية ، قالوا : نحن جديرون بذلك ، وإن أصابهم جلد ، أو بلاء قالوا : هذا بسبب موسى ومن معه ، كما قال تعالى (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) فأبطل الله ذلك بقوله (ألا إنما طائرهم عند الله) هو الذي قدره وقضاه ، بسبب أعمالكم ، لا بسبب موسى ومن معه .

وفي الآية دليل على تحريم التطير من عدة أوجه :

- ١ . إبطال التطير (ألا إنما طائرهم عند الله) فكل ما يحصل لهم مقدر ومكتوب من قبل .
- ٢ . أن التطير من عمل أعداء الرسل والشرع ، ولذا لم يذكره الله عز وجل إلا عن أعداء الرسل .
- ٣ . أنه ورد في سياق الهمز لأهله القائلين به ، ووصفهم بعدم العلم ، مما يدل أنه لا يعمل إلا الجهال .

وَقَوْلِهِ: {قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ} الآية .

هذه الآية نزلت في أعداء الرسل الذين قص الله عنهم في سورة (يس) حيث قالوا لرسولهم (إنا تطيرنا بكم) أي : تشاء منا بكم ، فقال لهم الرسل (طائركم معكم) أي : ما حصل لكم من شؤم وبلاء فبسبب أعمالكم . قال شيخنا : ولا منافاة بين هذه الآية والتي قبلها ، لأن الأولى تدل على أن المقدر لهذا الشيء هو الله ، والثانية تبين سببه وهو أنه منهم ، فهم في الحقيقة طائرهم معهم (أي الشؤم) إن كان هناك شؤم أ.هـ . وهذا مثل قوله تعالى في سورة النساء (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً * ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والمعنى أن الكل يقع بتقدير الله ، وهذا التقدير من أسبابه أعمال العباد ، كما قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) .

قال في تيسير العزيز الحميد : ومطابقة الآيتين لمقصود الباب ظاهر ، لأن الله تعالى لم يذكر التطير إلا عن أعدائه ، فهو من أمر الجاهلية ، لا من أمر الإسلام .

ويستفاد من الآيتين أن التطير كان معروفاً في الأمم السابقة ، لأن الآية الأولى في قوم فرعون ، والآية الثانية في قصة أصحاب القرية ، أفاده شيخنا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا عَدْوَى ، وَلَا طَيْرَةَ ، وَلَا هَامَةَ ، وَلَا صَفَرَ)) . أَخْرَجَاهُ .

زَادَ مُسْلِمٌ : ((وَلَا نَوَاءً ، وَلَا غُولَ)) .

تخرجه : متفق عليه ، واللفظ للبخاري ، وزيادة مسلم (ولا غُول) جاءت عنده من حديث جابر .
والشاهد : نفي النبي ﷺ لتأثير بعض الأمور التي كان يعتقد أهل الجاهلية ، وسبق الكلام عليها ، وبيان حقيقة النفي .
قال ابن القيم في قوله ﷺ (لا طيرة ...) : هذا يحتمل أن يكون نفيًا ، وأن يكون نهيًا ، أي : لا تتطيروا ، ولكن قوله في الحديث : لا عدوى ، ولا صفر ، ولا هامة . يدل على أن المراد النفي ، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيتها ، والنفي في هذا أبلغ من النهي ، لأن النفي يدل على بطلان ذلك ، وعدم تأثيره ، والنهي إنما يدل على المنع منه .

وَلَمَّا عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا عَدْوَى ، وَلَا طَيْرَةَ ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ)) . قَالُوا : وَمَا الْفَأَلُ ؟ قَالَ : ((الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ)) .

تخرجه : متفق عليه .
والشاهد : نفي النبي ﷺ لتأثير بعض الأمور التي كان يعتقد أهل الجاهلية .
وقوله (ويعجبني الفأل) الفأل هو الكلمة الطيبة يسمعها الإنسان بدون تقصد منه ، فيشرح لها صدره ، ولا علاقة لها بإقدام أو إحجام ، وإلا كانت طيرة .
قال في تيسير العزيز الحميد : فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة ، والملائمة للنفس ، فأما أن يعتمد عليه ويمضي لأجله مع نسيان التوكل على الله ، فإن ذلك من الطيرة .
وقال حافظ حكيم : ومن شرط الفأل أن لا يعتمد عليه ، وأن لا يكون مقصوداً ، بل أن يتفق للإنسان ذلك من غير أن يكون له على بال أ.هـ .

والمقصود أن الفأل لا يؤثر في الإقدام ، وإنما يشرح الصدر لما هو عازم عليه .
قال ابن تيمية : والفأل الذي يحبه هو أن يفعل أمراً أو يعزم عليه متوكلاً على الله ، فيسمع الكلمة الحسنة التي تسره ، مثل أن يسمع : يا نجيح ، يا مفلح ، يا سعيد ، يا منصور ، ونحو ذلك ... وأما الطيرة بأن يكون قد فعل أمراً متوكلاً على الله أو يعزم عليه ، فيسمع كلمة مكروهة ، مثل : ما يتم ، أو ما يفلح ، ونحو ذلك ، فيتطير ويترك الأمر ، فهذا منهى عنه .
وقال الشيخ السعدي في التفريق بين الفأل والطيرة : والفرق بينهما أن الفأل الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله ، وليس فيه تعليق القلب بغير الله ، بل فيه من المصلحة : النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة .
وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود ، أو على حالة من الأحوال المهمة ، ثم يرى في تلك الحال ما يسره ، أو يسمع كلاماً يسره ، مثل يا راشد ، أو سالم ، أو غانم ، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه ، فهذا كله خير وآثاره خير ، وليس فيه من المحاذير شيء .

وأما الطيرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا ، فيرى أو يسمع ما يكره أثر في قلبه أحد أمرين ، أحدهما أعظم من الآخر :

أحدهما : أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازماً على فعله أو بالعكس ، فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازماً عليه ، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق ، وعمل عليه ، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله ، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه ، وأخل بتوحيده وتوكله ، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدث له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين ، وتعلقه بالأسباب ، وبأمر ليس أسباباً ، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله ، وهذا من ضعف التوحيد والتوكل ، ومن طرق الشرك ووسائله ، ومن الخرافات المفسدة للعقل .

الأمر الثاني : أن لا يستجيب لذلك الداعي ، ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهماً وغماً ، فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد ، وضعف لقلبه ، وموهن لتوكله ، وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره ، وربما تدرج إلى الأمر الأول .

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وضمها ، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل .

وينبغي لمن وجد شيئاً من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ، ويستعين الله على ذلك ، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه .

وقال ابن القيم : ليس في الإعجاب بالفعال ومحبه شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة ، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها ، كما أخبرهم ﷺ أنه حبيب إليه من الدنيا النساء ، والطيب ، وكان يحب الحلواء ، والعسل ، ويجب حسن الصوت بالقرآن والأذان ، ويستمتع إليه ، ويجب معالي الأخلاق ، ومكارم الشيم .

وبالجملة يحب كل كمال وخير ، وما يفضي إليهما ، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبه ، وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح ، والاستبشار ، والسرور باسم الفلاح ، والسلام ، والنجاح ، والتهنئة ، والبشرى ، والفوز ، والظفر ، ونحو ذلك ، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس ، وانشرح لها الصدر ، وقوي بها القلب ، وإذا سمعت أصدادها أوجب لها ضد هذه الحال ، فأحزنها ذلك ، وأثار لها خوفاً ، وطيرة ، وانكماشاً ، وانقباضاً عما تصدت وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً في الدنيا ، ونقصاً في الإيمان ، ومقارفة الشرك .

وَلَا فِي دَاوُدَ - بِسَنَدٍ صَحِيحٍ - عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ^(١) قَالَ : ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((أَحْسَنُهَا الْفَأَلُ ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ)) .

تخریجه : رواه أبو داود ، وصححه النووي ، وضعفه الألباني .

والشاهد : أن النبي ﷺ ذكرت عنده الطيرة فأعرض عنها ، وأرشد إلى الفأل الحسن الذي هو ضد الطيرة ، وأخبر ﷺ أن الطيرة لا ينبغي أن ترد المسلم عما عزم عليه ، كما أرشد في الحديث إلى علاج من وقع في قلبه شيء من الطيرة ، وهو قول : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

وقد فسر غير واحد من أهل العلم الحسنات والسيئات هنا بأنها : النعمة ، والمصيبة .

وقوله (وأحسنها الفأل) لا يدل على أن الفأل من الطيرة ، لأن الفأل يحصل بلا تقصد ، كما سبق بيانه ، بخلاف الطيرة ، فيكون المعنى : أما الفأل فحسن ، ولا بأس به ، والله أعلم .

والتمييز هنا لوجود قدر من الاشتراك بين الطيرة ، والفأل ، وهو وجود التأثير على النفس .

قال ابن القيم : فقلوه ﷺ (لا طيرة ، وخيرها الفأل) ينفي عن الفأل مذهب الطيرة ، من تأثير ، أو فعل ، أو شركة .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - مَرْفُوعًا - : ((الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا ... وَلَكِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُهُ بِالتَّوَكُّلِ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الترمذي ، والحاكم ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني .

والشاهد : أنه ﷺ بين حكم الطيرة ، وأنها شرك ، وإنما تكون شركاً إذا ترتب عليها فعل من إقدام أو إحجام .

قوله (وما منا إلا ... ولكن الله يذهب بالتوكل) هذه اللفظة مدرجة من كلام ابن مسعود على الصحيح ، كما اختاره ابن القيم ، وابن حجر .

وفي كلام ابن مسعود (وما منا إلا ... ولكن الله يذهب بالتوكل) بيان لعلاج الطيرة بالفعل ، وهو المضى والتوكل على الله .

وفي كلامه محذوف تقديره : إلا يقع في قلبه شيء من ذلك .

(١) في جميع نسخ كتاب التوحيد (عن عقبة) والصحيح أن راوي هذا الحديث هو عروة بن عامر ، وقد ورد هذا الخطأ في كتاب الأذكار للنووي ، والوابل الصيب لابن القيم ، فلعل المصنف نقله عن أحد الكتّابين ، والله تعالى أعلم .

وَلَأَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو : ((مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ)) . قَالُوا : فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : ((أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)) .

تخریجه : رواه الإمام أحمد ، وصححه العراقي ، والمنائي ، والألباني .
والشاهد : أنه ﷺ بين حكم الطيرة ، وأنها شرك إن ترتب عليها عمل ، كما ذكر العلاج القولي للتطير ، وهو قول (اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك) .
 قوله (لا خير إلا خيرك) فيه حصر الخير في الله ، وأن الخير لا يكون حقيقة إلا من الله ، فوجب تعليق القلب به سبحانه .
 قوله (لا طير إلا طيرك) لن يحصل إلا ما قدرته .

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ : ((إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ)) .

تخریجه : رواه الإمام أحمد ، وأكثرهم على ضعفه .

قال في تيسير العزيز الحميد : وقرأت بخط المصنف : فيه رجل مختلف فيه ، وفيه انقطاع أ.هـ .
 والانقطاع كما أشار إليه ابن حجر أن الراوي عن الفضل رحمه الله لم يسمعه منه ، وأما الراوي المختلف فيه فهو محمد بن عبد الله بن علانة .

والشاهد : بيان ضابط الطيرة المحرمة ، وهو ما ترتب عليه عمل .
 وأما ما يقع في القلب فلا يؤخذ عليه ، وعليه دفعه بقدر المستطاع .
فائدة : جاء في صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ (ومنا أناس يتطيرون ، قال ﷺ : ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم) فأخبر ﷺ أن ما يجده المرء في نفسه من أمر الطيرة إنما هو من نفسه ووهمه ، ولا حقيقة له ، ولا تأثير له في قدر الله .

قال ابن القيم عن هذا الحديث : فأخبر أن تأذيه ، وتشاؤمه إنما هو في نفسه ، وعقيدته ، لا في المتطير به ، فوهمه ، وخوفه ، وإشراكه هو الذي يطيره ، ويصده ، لا ما رآه وسمعه ، فأوضح لأئمة الأمر ، وبين لهم فساد الطيرة .

٢٨ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ : قَالَ قَتَادَةُ : خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثٍ : زِينَةً لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا ، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ ، وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ . انْتَهَى .

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ " ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا " .

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ ، وَإِسْحَاقُ .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : مُدْمِنُ الْخَمْرِ ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ ، وَمُصَدِّقُ السَّحْرِ)) .
رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ .

٣٨ - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

الباب الثامن والعشرون

وخلاصته : بيان حكم التنجيم ، وأنه شرك أكبر منافٍ لأصل التوحيد ، والمراد علم التأثير .

المسائل المتعلقة بالباب :

أولاً : تعريف التنجيم :

وهو لغة : مأخوذ من النجم .

واصطلاحاً : الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث التي تقع في الأرض .

والمعنى : أن ينظر في النجوم ثم يستدل بها على أحوال الأرض ، من حدوث مصائب ، كزلازل ، وحروب ، ونحوها ، أو سعاد ، كأمطار ، وأرزاق ، ونحوها .

وعلم التنجيم من العلوم القديمة في الحضارات السابقة للإسلام ، كالبابليين ، والهنود ، واليونانيين ، وغيرهم ، ومنهم أخذ العرب ذلك .

وذكر الشيخ حافظ حكمي في معارج القبول أن التنجيم أنواع :

١ . أعظمها ما يفعله عبدة النجوم ، ويعتقدونه في السبعة السيارة وغيرها ، فقد بنوا بيوتاً لأجلها ، وصوروا فيها تماثيل سموها بأسماء النجوم ، وجعلوا لها مناسك وشرائع يعبدونها بكيفياتها ، ويلبسون لها لباساً خاصاً ، وحلية خاصة ، وينحرون لها من الأنعام أجناساً خاصة ، لكل نجم منها جنس زعموا أنه يناسبه ، وكل نجم جعلوا لعبادته أوقاتاً مخصوصة ، كأوقات الصلوات عند المسلمين ، واعتقدوا تصرفها في الكون .

وهذا هو المعروف عن قوم إبراهيم ببابل وغيرها ، وإياهم خاطب فيما حكى الله عنهم متحدياً لهم ، مبيناً سخافة عقولهم ، وضلال قلوبهم .

٢ . ما يفعله من يكتب حروف (أبي جاد) ويجعل لكل حرف منها قدراً من العدد معلوماً ، ويجري على ذلك أسماء الآدميين ، والأزمنة ، والأمكنة ، وغيرها ، ويجمع جمعاً معروفاً عندهم ، ويطرح منها طرماً خاصاً ، ويثبت إثباتاً خاصاً ، وينسبه إلى الأبراج الاثني عشر المعروفة عند أهل الحساب ، ثم يحكم على تلك القواعد بالسعود ، والنحوس ، وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان ، وكثير منهم يغير الاسم لأجل ذلك ، ويفرق بين المرء وزوجه بذلك ، ويعتقد أنهم إن جمعهم بيت لا يعيش أحدهم ، وقد يتحكم بذلك في الغيب ، فيدعي أن هذا يولد له وهذا لا ، وهذا الذكر وهذا الأنثى ، وهذا يكون غنياً وهذا يكون فقيراً ، وهذا يكون شريفاً وهذا وضعياً ، وهذا محبباً وهذا مبغضاً ، كأنه هو الكاتب ذلك للجنين في بطن أمه ، لا والله لا يدره الملك الذي يكتب ذلك حتى يسأل ربه : أذكر أم أنثى ؟ شقي أم سعيد ؟ ما الرزق ؟ وما الأجل ؟ فيقول له ، فيكتب ، وهذا الكاذب المفترى يدعي علم ما استأثر الله بعلمه ، ويدعي أنه يدركه بصناعة اخترعها ، وأكاذيب اختلقها ، وهذا من أعظم الشرك في الربوبية ، ومن صدقه به ، واعتقده فيه كفر ، والعياذ بالله .

٣ . النظر في حركات الأفلاك ، ودورانها ، وطلوعها وغروبها ، واقتنائها وافتراقها ، معتقدين أن لكل نجم منها تأثيرات في كل حركاته منفرداً ، وله تأثيرات آخر عند اقتترانه بغيره ، في غلاء الأسعار ورخصها ، وهبوب الرياح وسكونها ، ووقوع الكوائن ، والحوادث ، وقد ينسبون ذلك إليها مطلقاً ، ومن هذا القسم الاستسقاء بالأنواء .

٤. النظر في منازل القمر الثمانية والعشرين ، مع اعتقاد التأثيرات في اقتران القمر بكل منها ، ومفارقته ، وأن في تلك سعاداً أو نحوساً ، وتأليفاً وتفريقاً ، وغير ذلك .

وكل هذه الأنواع اعتقاد صدقها محادة لله ورسوله ، وتكذيب بشرعه وتنزيله ، وإتباع لزخارف الشيطان ، ما أنزل الله بذلك من سلطان ، والنجم مخلوق من المخلوقات ، مربوب ، مسخر ، مدبر ، كائن بعد أن لم يكن ، مسبوق بالعدم المحض ، متعقب به ، ليس له تأثير في حركة في الكون ولا سكون ، لا في نفسه ولا في غيره أهـ

ثانياً : حكم التنجيم :

التنجيم شرك وكفر أكبر مخرج من الملة ، لقوله ﷺ : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد . رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وصححه النووي ، وابن تيمية ، والألباني .

فالتنجيم نوع من السحر فيأخذ أحكامه : في حكم المنجم ، وحكم الذهاب إليه . وعليه فالتنجيم جمع بين الشرك والكفر ، فهو شرك ، لأن فيه اعتقاد المشاركة لله في التأثير والإيجاد ، وهو كفر ، لأن فيه ادعاء لعلم الغيب .

يقول ابن تيمية : صناعة التنجيم ... صناعة محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل .

وهذا هو حكم التنجيم ، ولكن يدخل بعض أهل العلم صوراً أخرى في التنجيم ، ولا يكون لها نفس الحكم ، كما في إدخال ما يسمى بعلم التسيير ، وكما في إدخال مسألة السببية ، والظرفية . والحق أن علم التسيير ليس من التنجيم ، ولا يدخل في نصوصه الدامة له ، وكذلك نسبة نزول المطر إلى وقت النجم ليس من باب التنجيم .

ثالثاً : أقسام علم التنجيم :

يقسم كثير من أهل العلم علم التنجيم إلى قسمين ، وهما :

١. علم التأثير : وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

وهذا النوع من حيث الحكم ينقسم إلى أقسام :

- أ. أن يعتقد أن النجم بذاته يوجد الأحداث ، فحكمه شرك أكبر في الربوبية ، لأنه أثبت خالقاً مع الله .
- ب. أن يستدل بحركات النجوم على الأمور المستقبلية ، فحكمه شرك أكبر ، لأن فيه ادعاء لعلم الغيب .
- ج. أن ينسب لها الحوادث بعد وقوعها ، على أنها سبب والله الفاعل ، كنسبة نزول المطر بعد نزوله إلى النجم الفلاني .
- وحكمه : شرك أصغر ، لأنه من باب إثبات أسباب لم يثبتها الشرع ، ويأتي الكلام عنه في الباب التالي^(١) .

(١) تنبيه : الفرق بين القسم الثاني والثالث ، أن الثاني فيه ادعاء للغيب ، أما الثالث فليس فيه ذلك ، وإنما هو من باب الأسباب ، فالثاني قبل الحدث ، والثالث بعده .

٢. علم التسيير : وهو تعلم سير النجوم وتحركاتها ، وطلوعها وأفولها ، لمعرفة بعض مصالح الدين ، كمعرفة اتجاه القبلة ، أو مصالح الدنيا كمعرفة الطرق في البر والبحر ، ومعرفة فصول السنة ، وأوقات المحاصيل الزراعية ، ونحوها .

لأن طلوع بعض النجوم ، أو غيابها يدل على تغير في أحوال الجو ، من الحرارة والبرودة ، والرياح ، والرطوبة ، والأمطار ، فيستدل بها المزارعون على الغرس والزرع ، وجني الثمار ، وحفظ الزروع ، ونحو ذلك ، ويستدل بها الصيادون في معرفة أحوال البحر ، وقرب الأسماك من الشاطئ ، أو بعدها عنه ، أو غورها في قاع البحر ، ونحو ذلك ، ويستدل بها كثير من الناس في مصالحهم .

وهذا النوع من المعرفة لا بأس به ، لأنه يُعرف بالخبرة ، وهذه التأثيرات من باب الأسباب الحقيقية التي جعلها الله ، ولا دخل للنجوم في هذا التأثير ، فالنجم ظرف ، وليس سبباً .

وقد كرهه بعض السلف ، كقتادة ، سداً للذريعة ، وأجازه عامة السلف ، كسعيد بن المسيب ، والإمام أحمد ، واختاره ابن تيمية ، وابن رجب ، وابن باز ، وشيخنا .

قال ابن رجب : وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ، ومعرفة القبلة ، والطرق ، جائز عند الجمهور ، وما زاد عليه لا حاجة إليه ، لإشغاله عما هو أهم منه .

قال تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) .

وقفات مع أدلة الباب

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ : قَالَ قَتَادَةُ : خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثٍ : زِينَةً لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا ، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ ، وَأَضَاعَ نَصِيْبَهُ ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ . انْتَهَى .

تخریجه : رواه البخاري معلقاً ، ووصله ابن جرير .

والشاهد : أن الله تعالى ذكر في كتابه العزيز أنه خلق النجوم لثلاثة أمور ، وهي :

- ١ . زينة للسماء ، قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) .
 - ٢ . رجوماً للشياطين ، قال تعالى (وجعلناها رجوماً للشياطين) .
 - ٣ . علامات يُهْتَدَى بِهَا ، قال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون)^(١) .
- ولو كان هناك مصلحة للعباد في النجوم غير هذه الثلاثة لذكرها .
ففيه إبطال علم التنجيم المزعوم .

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ " ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا " .

وَرَخِّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ ، وَإِسْحَاقُ .

اتفق العلماء على تحريم علم التأثير ، واختلفوا في جواز تعلم علم التسيير ، والصحيح ما ذهب إليه النخعي ، والإمام أحمد ، وإسحاق بن راهويه من جواز ذلك بقدر ما يحتاج إليه ، ويدل عليه قوله تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقوله تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) ولما يحصل من تعلمه من المصالح في معرفة القبلة ، وأوقات الصلوات ، ومعرفة مواسم الزرع ، وأوقات السفر سيما في البحار ، وغير ذلك من أنواع المصالح الدينية والدنيوية .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ : مُدْمِنُ الْخَمْرِ ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ ، وَمُصَدِّقُ السَّحْرِ)) .
رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ .

تخریجه : رواه الإمام أحمد ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وضعفه الألباني .

والشاهد : الوعيد الشديد لمن صدق بالسحر ، وتعامل به أو معه ، حيث يحرم من دخول الجنة .

ووجه إدراج المصنف لهذا الحديث في باب التنجيم ، لأن التنجيم نوع من السحر ، كما قال ﷺ : من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد . رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وصححه النووي ، وابن تيمية ، والألباني .

(١) ذهب بعض المنجمين إلى الاستدلال بالآية على أن المراد بها الاهتداء إلى علم الغيب ، والرد عليهم بقوله تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) .

٢٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِيهِ الْاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ } .

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُوهُنَّ : الْفَخْرُ بِالْأَخْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ)) وَقَالَ : ((النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ : صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : ((هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟)) . قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ . قَالَ : ((قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)) .

وَهُمَا ^(١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ ، وَفِيهِ : قَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ : { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } إِلَى قَوْلِهِ { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ } .

(١) الحديث عند مسلم فقط .

٢٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِيهِ الْإِسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ

الباب التاسع والعشرون

وخلاصته : تحريم نسبة نزول الأمطار إلى الأنواء .

وهذا الباب قريب من الباب السابق ، إلا أن السابق عام ، وهذا خاص بنسبة نزول المطر إلى النوء .

المسائل المتعلقة بالباب :

الاستسقاء : طلب السقيا ، وهو هنا نسبة السقيا إلى النجم .

والأنواء : جمع نوء ، وهي منازل النجوم المعروفة ، وقيل : هي النجوم المعروفة (سهيل ، والثريا...) .

قال ابن الأثير : وهي ثمان وعشرون منزلة ، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها ، ومنه قوله تعالى (والقمر قدرناه منازل) يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من الشرق ، فتتقضي جميعها مع انقضاء السنة ، وكانت العرب تزعم أنه مع سقوط المنزلة ، وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبونه إليها ، فيقولون (مطرنا بنوء كذا) وإنما سمي نوءاً ، لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ، ناء الطالع بالمشرق ، أي : نهض وطلع أهد .

وقال ابن عبد البر في التمهيد : الأنواء على الحقيقة النجوم التي هي منازل القمر ، وهي ثمان وعشرون منزلة ، يبدو لعين الناظر منها أربعة عشر منزلاً ، ويخفى أربعة عشر ، فكلما غاب منها منزل بالمغرب ، طلع رقبه من المشرق ، فليس يعدم منها أبداً أربعة عشر للناظرين في السماء ، وإذا لم ينزل مع النوء ماء قيل : خوى النجم ، وأخوى ، وخوى النوء ، وأخلف .

وأما العرب فكانت تضيف المطر إلى النوء ، وهذا عندهم معروف مشهور في أخبارهم وأشعارهم ، فلما جاء الإسلام نهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك ، وأدبهم وعرفهم ما يقولون عند نزول الماء ، وذلك أن يقولوا (مطرنا بفضل الله ورحمته) ونحو هذا من الإيمان والتسليم لما نطق به القرآن .

ونسبة المطر للأنواء له ثلاثة أحوال ، وهي :

نسبة تأثير وإيجاد ، ونسبة سبب ، ونسبة ظرف ووقت .

١ . أما إن نسب نزول المطر إلى النوء أو النجم على أنه هو الذي أوجده ، فهذا شرك أكبر في الربوبية .

٢ . وأما إن نسبته إلى النوء أو النجم على اعتقاد أنه سبب في نزول المطر ، وأن الله هو الموجد والمقدر لذلك .

فهذا من باب الشرك الأصغر ، لأنه أثبت سبباً لم يجعله الشارع سبباً ، وهو أيضاً من باب كفر النعمة ، حيث نسب هذه النعمة إلى غير الله مع تناسي ذكر الله فيها .

قال ابن عبد البر في التمهيد : وأما قوله حاكياً عن الله عز وجل (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) فمعناه عندي على وجهين : أما أحدهما فإن المعتقد أن النوء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل ، فذلك كافر كفراً صريحاً ، يجب استتابته عليه ، وقتله لنبذه الإسلام ، ورده القرآن .

والوجه الآخر أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء ، وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق في علمه ، فهذا وإن كان وجهاً مباحاً فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله عز وجل ، وجهلاً بلطيف حكمته ، لأنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنوء كذا ، ومرة دون النوء ، وكثيراً ما يخوى النوء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله لا من النوء .

وقال في الاستذكار : وأما قوله ﷺ حاكياً عن الله عز وجل (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) فمعناه عندي على وجهين : أحدهما : أن القائل (مطرنا بنوء كذا) أي بسقوط نجم كذا , أو بطلوع نجم كذا , إن كان يعتقد أن النوء هو المنزل للمطر , والخالق له , والمنشئ للسحاب من دون الله , فهذا كافر كفرة صريحاً ينقل عن الملة , وإن كان من أهلها استتيب فإن رجع إلى ذلك إلى الإيمان بالله وحده وإلا قتل إلى النار .

وإن كان أراد أن الله عز وجل جعل النوء علامة للمطر , ووقتاً له , وسبباً من أسبابه , كما تحيا بالأرض الماء بعد موتها , وينبت به الزرع , ويفعل به ما يشاء من خليفته , فهذا مؤمن لا كافر , ويلزمه مع هذا أن يعلم أن نزول الماء لحكمة الله تعالى ورحمته وقدرته لا بغير ذلك , لأنه مرة ينزله بالنوء , ومرة بغير نوء , كيف يشاء لا إله إلا هو .

والذي أحب لكل مؤمن أن يقول كما قال أبو هريرة (مطرنا بفضل الله ورحمته) أ.هـ.

ولا شك في أن النجم لا يوجد المطر , وأن من اعتقد ذلك فقد كفر كفرة أكبر , والعياذ به .

ولا شك أيضاً أن العادة جارية في أن المطر ينزل في كل منطقة في أوقات معلومة في الغالب , فنسبة الأمطار إلى نجوم ذلك الوقت بقصد الظرفية لا السببية لا بأس به , والأولى استعمال الألفاظ الدالة على الظرفية , مثل : مطرنا بفضل الله ورحمته في نجم سهيل مثلاً .

ويبقى القول : هل هذه الأنواء من الأسباب القدرية التي جعلها الله أسباباً لنزول المطر ؟

الأقرب أنها ليست أسباباً لذلك , وإنما هي ظروف كما سبق بيانه , وعليه فكلام ابن عبد البر السابق أنه لو اعتقد أنها من الأسباب القدرية لنزول المطر فلا بأس بذلك , وإن كان ثم محذور فهو من جهة نسبة النعم إلى أسبابها الصحيحة مع تناسي الله , يقال : هذا الكلام غير صحيح , لأن الأنواء ليست أسباباً قدرية لنزول المطر , وكفر النعمة يكون حين تنسب النعم إلى أسبابها الصحيحة مع تناسي المنعم سبحانه وتعالى .

وينبه إلى أن لبعض الكواكب تأثيراً حقيقياً ملحوظاً في أحوال الأرض , كتأثير القمر في المد والجزر , وتأثيره على جسم الإنسان والحيوان , وتأثيره في الغرس , ونحو ذلك , وأثر الشمس في المطر , والزروع , وغير ذلك , وعليه فيصح إضافة هذه التأثيرات للشمس والقمر , لأنها أسباب قدرية صحيحة .

ويزعم البعض أن بعض النجوم له تأثير حقيقي في الحر والبرد والمطر , فإن ثبت ذلك حقاً فلا بأس بإضافة ذلك إلى النجم على جهة السببية , لأنه لا فرق بين هذا وبين ثبوت تأثير القمر في المد والجزر .

والمقطوع به أن النجوم لا علاقة لها بالسعادة والشقاوة , ولا علاقة لها أيضاً بالمستقبل الخاص أو العام .

٣. وأما إن نسبته إلى النوء أو النجم على أنه وقع في وقت ظهور هذا النجم , ولا يقصد أنه سبب لنزول المطر , ولا موجد له .

فهذا جائز لا بأس به , قال ابن تيمية : وأما جعل الأنواء من باب العلامات والدلائل فلا شيء فيه , والأصل فيه الجواز والإباحة أ.هـ.

والأفضل أن يقول (مطرنا في نوء كذا) ولا يقول (مطرنا بنوء كذا) ولو قصد السببية .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ } .

معنى الآية : وتجعلون شكركم لله على ما أنزل عليكم من الغيث والمطر والرحمة : التكذيب ، بنسبة ذلك إلى غيره .
فكان في الآية محذوفاً : شكر رزقكم .

والشاهد : أن الله أنكر نسبة نزول المطر إلى غيره ، وسماه تكذيباً .

روى ابن عينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس في قوله عز وجل (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال : ذلك في الأنواء ، وهو قول جماعة أهل التفسير للقرآن .

قال في تيسير العزيز الحميد : روى الإمام أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والضياء في المختارة عن علي رضي الله عنه قال : قال ﷺ : وتجعلون رزقكم يقول : شكركم أنكم تكذبون تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا . هذا أولى ما فسرت به الآية .

وروي ذلك عن علي ، وابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء الخرساني ، وغيرهم ، وهو قول جمهور المفسرين ، وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية على الترجمة أ.هـ

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتَرَكُوهُنَّ : الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ)) وَقَالَ : ((النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تُتَبَّ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

تخرجه : رواه مسلم .

والشاهد : أن النبي ﷺ ذكر أن الاستسقاء بالنجوم من عمل أهل الجاهلية المنسوين للجهل ، وعدم الاعتماد على العلم^(١) ، وبين ﷺ أن هذا الأمر سيظل في عموم هذه الأمة ، وليس في كل أفرادها^(٢) ، وفي ذلك التحذير منه .
وقد جاء في البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال : أبغض الرجال إلى الله ثلاثة : ملحد في الحرم ، ومطلب لدم أمريء بغير حق ، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية .

وقوله ﷺ (أربع في أمتي) ليس على سبيل الحصر ، وإنما على سبيل العد ، والقاعدة أن العدد لا مفهوم له .

١. الفخر بالأحساب : الحسب هو مكانة الإنسان الاجتماعية ، ويدخل في ذلك الفخر بالنسب .

٢. الطعن في الأنساب : يتنقص أنساب الناس ، ويذمها ، أو يشكك فيها .

٣. والاستسقاء بالنجوم : نسبة المطر إليها ، أو طلب المطر منها .

(١) قال في فتح المجيد : وكل ما يخالف ما جاء به النبي ﷺ فهو جاهلية .

(٢) واليوم تقام معاهد في بعض الدول الإسلامية لتعلم منازل النجوم للوصول للغيب ، وإلى الله المشتكى .

٤. النياحة : رفع الصوت على الميت , مأخوذ من نوح الحمام .

وقوله ﷺ (والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران , ودرع من جرب) .

السربال : الثوب أو القميص . والقطران : قيل : النحاس المذاب , وقيل غيره . والدرع : الثوب , أو القميص , ويطلق غالباً على لباس النساء . والجرب : مرض جلدي .

والمعنى : أنها تلتطخ بالقطران , فيصير لها كالقميص , حتى يكون اشتعال النار بجسدها أعظم , ورائحتها أتن , والعياذ بالله . ومن فوائد الحديث : أن الإنسان قد تجتمع فيه خصال الإسلام مع خصال الجاهلية .

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ : صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ , فَلَمَّا انْصَرَفَ , أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ , فَقَالَ : ((هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟)) . قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ((قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ يِي وَكَافِرٌ , فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ , فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ يِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ , وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطْرِنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا , فَذَلِكَ كَافِرٌ يِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)) .

تخرجه : متفق عليه .

الشاهد : أن النبي ﷺ أخبر أن نسبة المطر إلى الكوكب كفر بالله تعالى , والمراد بذلك الكفر الأصغر , بنسبة ذلك إلى غير الله , وكفران نعمته , كما رجح ذلك في تيسير العزيز الحميد .

وقال المصنف في مسائل الباب : أن من الكفر ما لا يخرج من الملة .

ومن فوائد الحديث : جواز التحديث بعد الصلاة أحياناً , خلافاً لمن أنكر ذلك .

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ , وَفِيهِ : قَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نُوءُ كَذَا وَكَذَا , فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ : { فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } إِلَى قَوْلِهِ { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ } .

تخرجه : ذكر المصنف أن هذا الحديث متفق عليه , والصحيح أن الحديث لم يروه البخاري , وإنما رواه مسلم .

والشاهد : أن النبي ﷺ وصف من نسب نزول المطر إلى النوء أنه كافر , والمراد كفر النعمة , وذلك أن لفظ الحديث عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : أصبح من الناس شاكراً , ومنهم كافر , قالوا : هذه رحمة الله , وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا . قال : فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) .

والصحيح أن المراد بمواقع النجوم : مساقطها عند غروبها .

ومن الأخطاء الشائعة اليوم نسبة المطر إلى المنخفضات الجوية مع تناسي ذكر الله المنعم , وكذا قول بعضهم عن بعض النجوم : وقل أن يخلف نوؤه , أو هذا نوؤه صادق , ويوجد هذا في بعض التقاويم السنوية .

مسألة : قال شيخنا : قول الله عن إبراهيم (فنظر نظرة في النجوم) هذا من باب التورية لقومه , لأنهم يعتقدون أنها آلهة , ويعبدون النجوم والكواكب , مثل قوله (هذا ربي) وهو لا يعتقد أنه ربه .

وقال في تيسير العزيز الحميد : وكأن هذا - المستدل بالآية على جواز التنجيم - ما شعر أن إبراهيم عليه السلام إنما بُعث إلى الصابئة المنجمين مبطلاً لقولهم , مناظراً لهم على ذلك .

فإن قيل على هذا : فما فائدة نظره في النجوم ؟

قيل : نظره في النجوم من معاريض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر الأصنام , كما كان قوله (بل فعله كبيرهم هذا) فمن ظن أن نظره في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام , وعلم أن طالعه يقتضي عليه بالنحس , فقد ضل ضالاً بعيداً أ.هـ.

٣٠ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}.

وقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ { الآية .

عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ ، وَوَالِدِهِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) .
أَخْرَجَاهُ .

وَهُمَا عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ)) .

وَفِي رِوَايَةٍ : ((لَا يَجِدُ أَحَدٌ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى)) إِلَى آخِرِهِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ ، وَوَالَى فِي اللَّهِ ، وَعَادَى فِي اللَّهِ ، فَإِنَّمَا تَنَالُ وَلَايَةَ اللَّهِ بِذَلِكَ ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ لَا يُجِدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} قَالَ : الْمَوَدَّةُ .

باب ما جاء في المحبة^(١)

الباب الثالثون

وخلاصته : أن محبة الله واجبة ، وهي عبادة من أجل العبادات ، وأن من أحب غير الله على جهة التعبد فقد وقع في الشرك الأكبر ، وأنه يجب تقديم محبة الله على جميع المحاب .

قال ابن القيم : فأصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله ، وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأوليائه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه أ.هـ

المسائل المتعلقة بالباب :

محبة الله من أعظم مقامات القلوب ، ولن يجد عبد لذة العبادة حتى يحقق هذا المقام العظيم .

قال السعدي : أصل التوحيد وروحه : إخلاص المحبة لله وحده ، وهي أصل التأله والتعبد له ، بل هي حقيقة العبادة ، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه ، وتسبق جميع المحاب ، وتغلبها ، ويكون لها الحكم عليها ، بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه .

وقال ابن القيم : فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب ، وغذاء الأرواح ، وليس للقلب لذة ، ولا نعيم ، ولا فلاح ، ولا حياة إلا بها ، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقد شمّه ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح . وهذا الأمر لا يصدّق به إلا من فيه حياة ، وما لجرحٍ بميت إيلام أ.هـ

وقال ابن تيمية : فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها ، وقوتها يكون سيره إليه . وقال أيضاً : كلما قويت محبة العبد لمولاه صغرت عنده المحبوبات وقلت ، وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت .

ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله :

١ . التعرف على صفات الله تعالى .

قال ابن القيم في مدارج السالكين : فمن عرف الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله أحبه لا محالة .

٢ . النظر في نعم الله ، العامة والخاصة .

٣ . كثرة ذكر الله ، مع الاستحضار والتأمل .

٤ . كثرة قراءة القرآن بتدبر .

٥ . كثرة الدعاء بأن ينال العبد هذا المقام العظيم .

٦ . عدم التعلق بالدنيا .

ثم من حصلت له هذه المحبة فلا يسأل بعد ذلك عن شيء ، فقد حيزت له الدنيا والآخرة بحذافيرها .

(١) تنبيه : هذا التبويب ليس من وضع الشيخ المصنف .

ومن هنا بدأ المصنف الكلام عن أعمال القلوب ، والشركيات التي تتعلق بها .

والحبة من حيث الجهة تنقسم إلى قسمين :

١. محبة الله : وهي واجبة ، وشرط في الإسلام ، بشرط أن لا تصل إلى محبة أهل البدع من المقامات التي يذكرونها في المحبة ، كالفناء ، والاصطلام ، والعشق ، وغيرها .

٢. محبة المخلوق : وهذه تنقسم من حيث الحكم إلى أقسام :

أ. المحبة الشركية : ومن صورها :

١. محبة العبادة : وضابطها أن تؤدي به هذه المحبة إلى التعظيم والذل لهذا المحبوب ، كما يحصل من عباد القبور .

ومن صورها كذلك حصول الطاعة المطلقة لهذا المحبوب .

٢. تقديم محبة غير الله على محبة الله ، أو مساواتها مطلقاً .

ب. المحبة الكفرية : وهي محبة دين الكفار ، كمحبة الشيوعية ، أو النصرانية ونحوها ، أو محبة الكافر لدينه ، أو محبة أن يظهر دين الكفار على دين الإسلام .

ج. المحبة المحرمة : وضابطها أن تؤدي المحبة الجائزة إلى ترك واجب ، أو فعل محرم .

د. المحبة الجائزة : وهي المحبة الطبيعية التي لا يتكلفها الإنسان ، ولها صور :

١. محبة طبيعية : كمحبة المال ، والأولاد ، والزوجة ، ونحو ذلك .

٢. محبة إشفاق : كمحبة الوالد لولده ، ومحبة المسكين ، والمريض ، ونحو ذلك .

٣. محبة إجلال وتقدير : كمحبة الولد لوالده ، والطالب لشيخه ، ونحو ذلك .

٤. محبة إلف وأنس : كمحبة الصديقين لتوافق طبعهما ، ومحبة المشتركين في صنعة واحدة ، ونحو ذلك .

ويقسم بعضهم المحبة إلى ثلاثة أقسام ، وهي :

١. محبة شرعية مطلوبة ، وهي :

أ. محبة الله وتقديمها على جميع المحاب .

ب. المحبة في الله ، ولأجله ، سواء في الأشخاص ، أو الأعمال ، أو الأماكن ، أو الأزمان .

٢. محبة مباحة : وهي المحبة الطبيعية : كمحبة الولد ، والوالد ، والزوجة ، والأطعمة ، والجو الجميل ، ونحو ذلك .

٣. محبة ممنوعة ، وهي :

أ. أن يقدم محبة مخلوق على محبة الله ، أو في مستوى محبة الله ، وهذه هي المحبة الشركية .

ب. محبة ما يبغضه الله من الكفر والمعاصي .

وقفات مع أدلة الباب

قول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}.

في هذه الآية بيان أن من أحب أحداً مثل محبة الله ، فقد اتخذ نداءً مع الله ، ووقع في الشرك الأكبر . قال ابن القيم : أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى ، فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا نداء في المحبة ، لا في الخلق والربوبية أ.هـ.

وقال المصنف في مسائل الباب : أن من اتخذ نداءً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر . وقوله تعالى (يحبونهم كحب الله) اختلف العلماء في معناها على قولين :

- ١ . أن أولئك أحبوا أندادهم محبة مساوية لمحبتهم لله ، فساووا بين محبة الله ومحبة آلهتهم . ويدل عليه قوله تعالى (إذ نسويكم برب العالمين) والمعنى في المحبة ، والتعظيم ، وعليه يكون عند أولئك محبة الله . وهذا المعنى هو الذي عليه أكثر المفسرين ، ورواه ابن جرير عن مجاهد ، واختاره ابن تيمية ، وابن القيم ، وشيخنا .
- ٢ . أن أولئك أحبوا أندادهم محبة عظيمة ، كمحبة المؤمنين لله .

قال ابن تيمية : وهذا متناقض ، وهو باطل ، فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين الله . وقال شيخنا : وهذا وإن احتمله اللفظ لكن السياق يأباه ، لأنه لو كان المعنى ذلك لكان مناقضاً لقوله تعالى فيما بعد (والذين آمنوا أشد حبا لله) .

وقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ} الآية .

في هذه الآية يبين سبحانه أنه يجب على المؤمن تقديم محبة الله على جميع المحاب ، مهما كان الأمر ، ويهدد من لم يفعل ذلك . وسبب نزول هذه الآية : أن بعض المسلمين الذين كانوا بمكة لما أمروا بالهجرة تعلق بعضهم بالأهل والولد والمال ، فلم يهاجروا . والملاحظ أنهم لم يعاتبوا على أصل محبتهم لذلك ، لأن ذلك جائز ، وإنما عوتبوا في تقديمهم لها على محبة الله . قال السعدي : وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله ، وعلى تقديمها على محبة كل شيء ، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله . وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران ، أحدهما يحبه الله ورسوله ، وليس لنفسه فيه هوى ، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ، ولكنه يفوت عليه محبوباً لله ورسوله ، أو ينقصه ، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله ، دل ذلك على أنه ظالم ، تارك لما يجب عليه أ.هـ.

عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ ، وَوَالِدِهِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)) .
أَخْرَجَاهُ .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : وجوب تقديم محبة النبي ﷺ على محبة الولد والوالد والناس أجمعين ، ونفي الإيمان على من قدم محبة الولد أو الوالد على محبة النبي ﷺ ، ولا شك أن تقديم محبة الله عز وجل من باب أولى .
وفي البخاري قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ : والله يا رسول الله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : فإنه الآن يا رسول الله ، فوالله إنك لأحب إلي من نفسي ، فقال : الآن يا عمر .
وهذه المحبة من باب المحبة في الله ، لا مع الله .

وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ)) .
وَفِي رِوَايَةٍ : ((لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى)) إِلَى آخِرِهِ .

تخریجه : متفق عليه ، وأما الرواية الثانية المذكورة فلم يخرجها مسلم ، وإنما هي عند البخاري .
والشاهد : أن تمام الإيمان ، وحلاوته لا تحصل إلا بتقديم محبة الله على جميع المحاب ، وانظر إلى كلام ابن القيم ، والسعدي المذكور في بداية الباب .
وفي هذا الحديث بيان أن للإيمان حلاوة وطعم ، يتذوقه من حقق هذه الأمور ، وفي حديث العباس قال ﷺ : ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً . رواه مسلم

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ ، وَوَالَى فِي اللَّهِ ، وَعَادَى فِي اللَّهِ ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعَمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ لَا يُجِدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

تخریجه : عزاه المصنف لابن جرير ، ولا يوجد في تفسيره ، ورواه ابن المبارك في الزهد ، وفيه ضعف ، لكن له شاهد عند أبي داود ، قال عليه السلام : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان . صححه الألباني .
والشاهد : أن تمام الإيمان ، وحلاوته لا تحصل إلا بأن يحب في الله ، ويبغض في الله .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى - : { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } قَالَ : الْمَوَدَّةُ .

تخریجه : رواه ابن جرير ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي .
والأثر فيه ضعف ، قال شيخنا : لكن معناه صحيح .
والشاهد : أن جميع المحاب تنقطع ، ولا تنفع في الآخرة ، إلا محبة الله ، والمحبة فيه .
وتفسير ابن عباس من باب التفسير بالمثال ، وإلا فالآية عامة لكل سبب باطل ، ولذا فسرهما البعض : بالأرحام ، والبعض : بالمحباب ، والبعض : بالعلائق .
قال تعالى (ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) وقال تعالى (إذ تبرا الذين أتبعتوا من الذين اتبعوا) .

٣١ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} .

وقوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} الآية .

وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} الآية .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه - مَرْفُوعًا - : ((إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ , وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ , وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ ؛ إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصٌ حَرِيصٍ , وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهٍ)) .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أُلْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ , وَمَنْ أُلْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ)) . رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ .

باب ما جاء في الخوف^(١)

الباب الحادي والثلاثون

وخلاصته : وجوب الخوف من الله تعالى ، وبيان أن الخوف عبادة يجب صرفها لله ، وأن صرفها لغير الله على جهة التعبد شرك أكبر ، وبيان أنه يجب تقديم خوف الله على خوف الخلق مهما كانا .
قال المصنف في مسائل الباب : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

المسائل المتعلقة بالباب :

جاء المصنف بباب الخوف بعد باب المحبة ، لأن العبادة تركز على أمرين ، وهما : المحبة ، والخوف ، فالمحبة تبعث على العمل الصالح ، والخوف يمنع من الوقوع في المعاصي .
والخوف من الله من مقامات القلوب العظيمة ، وقد ذكره الله في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة ، والأنبياء ، والصالحين .
قال تعالى عن الملائكة (وهم من خشيته مشفقون) وقال عنهم (يخافون ربهم من فوقهم) .
وقال تعالى عن الأنبياء (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) .
وقال تعالى عن الصالحين (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) .
قال ابن القيم : ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به ، فأعرف الناس أحشاهم لله .
وقال ابن تيمية : فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه ، قال الله تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق ، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف .
وقال أيضاً : فما حفظت حدود الله ، ومحارمه ، ووصل الواصلون إليه ، بمثل خوفه ، ورجائه ، ومحبته ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فساداً لا يُرجى صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

ومن الأسباب الجالبة للخوف من الله :

- ١ . التعرف على صفات الله تعالى .
- ٢ . الحذر من مكر الله .
- ٣ . النظر في عواقب الذنوب .
- ٤ . النظر في عاقبة الغفلة .

(١) تنبيه : هذا التبويب ليس من وضع الشيخ المصنف .

والخوف من حيث الجهة ينقسم إلى قسمين :

١. الخوف من الله : وهذا واجب , بشرط أن لا يصل إلى درجة اليأس , والقنوط , والوسوسة .

قال ابن القيم : والخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل , فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس , والقنوط .

وقال أيضاً : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله أ.هـ

ولما شرح قول الهروي (وهو على ثلاث درجات . الدرجة الأولى : منع الخوف أن لا يتعدى إلى اليأس) قال : يريد أنه لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط , واليأس من رحمة الله , فإن هذا الخوف مذموم , وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله , فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه .

وهذا الخوف الموقع في الإيأس : إساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه , وجهل بها أ.هـ

٢. الخوف من المخلوق : وينقسم من حيث الحكم إلى أقسام :

أ. شرك أكبر : وله صور :

١. خوف العبادة : وضابطه أن يؤدي به الخوف إلى التعظيم والذل للمخلوق .

٢. الخوف من المخلوق في شيء من خصائص الخالق .

مثل : قطع النسل , أو إدخال نار الآخرة , ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله .

٣. أن يخاف من غير الله في غيبته , أو بعد موته^(١) .

٤. الخوف من المخلوق كخوف الله أو أشد .

ب. محرم : وهو كل خوف أدى إلى ترك طاعة , أو فعل محرم دون الشرك .

ج. جائز : وهو الخوف الطبيعي , كالخوف من القتل , أو السبع , أو النار , ونحو ذلك .

قال تعالى عن موسى عليه السلام (فأصبح في المدينة خائفاً يترقب) وقال موسى لربه عز وجل حينما أرسله وهارون إلى فرعون (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) .

قال السعدي : وهذا إذا كان خوفاً محققاً قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم , وإن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً , أو له سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء .

(١) ويسميه بعض العلماء (خوف السر) لأن الخائف يعتقد أن لمن خافه سراً , ويمكن أن يطلع عليه , وهذا ما يعتقد أهل القبور فيمن يتوجهون إليهم , ولذا يخلفون بالله كذباً , ولا يمكن أن يخلفوا بأهنتهم كذباً .

وقد ذكر الله ذلك في كتابه عن قوم هود , حيث قالوا لنبيهم (إن نقول إلا اعتراك بعض آلنا بسوء) .

وذكر في تيسير العزيز الحميد مثلاً لهذا الخوف حيث قال : بعض الناس أخذ من التجار أموالاً عظيمة أيام الموسم - موسم الحج - ثم بعد أيام ظهر الإفلاس فقام عليه أهل الأموال , فالتجأ إلى قبر في جدة يقال له (المظلوم) فما تعرض له أحد بمكره خوفاً من سر المظلوم .

وقفات مع أدلة الباب

قول الله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

في هذه الآية وجوب إفراد الله بالخوف ، وعدم الخوف من غيره (فلا تخافوهم وخافون) وفيها ربط الخوف من الله بالإيمان به سبحانه (إن كنتم مؤمنين) .

ومعنى قوله تعالى (يخوف أوليائه) يخوفكم أوليائه ، قال ابن القيم : المعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه . قال قتادة : يعظمهم في صدوركم أ.هـ .

وفي قراءة ابن مسعود (يخوفكم أوليائه) .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : ومن كيد عدو الله تعالى أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدوهم ، ولا يأمرهم بالمعروف ، ولا ينهونهم عن المنكر ، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان .

وقوله: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} الآية .

في هذه الآية ثناء من الله على الذين يفرّدونه بالخشية ، والشاهد منها قوله (ولم يخش إلا الله) والقاعدة أن مجيء أداة الاستثناء بعد النفي يدل على الحصر والقصر ، فدل على أن صرف الخشية لغير الله شرك .
والخشية أخص من الخوف^(١).

(١) ذكر شيخنا أن الفرق بين الخوف والخشية من وجهين ، وهما :

١ . أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي ، والخوف قد يكون من جاهل .

٢ . أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي ، بخلاف الخوف فقد يكون لضعف الخائف .

وقال ابن القيم : خشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية أ.هـ .

وأما الوجل فهو الخوف من أمر نازل به ، والخوف يكون من أمر مستقبل ، وقيل : الوجل : خوف يوجب الهيبة والتعظيم .

وأما الرهبة فهي خوف مقرون بفرع واضطراب ، وقد يكون معه عمل من هرب ونحوه .

قال ابن القيم : الوجل ، والخوف ، والخشية ، والرهبة ، ألفاظ متقاربة غير مترادفة .

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : الخوف ، والخشية ، والخشوع ، والإخبات ، والوجل معانيها متقاربة ، فالخوف يمنع العبد عن محارم الله ، وتشاركه الخشية في ذلك ، وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله ، وأما الخشوع ، والإخبات ، والوجل فإنما تنشأ عن الخوف ، والخشية لله ، فيخضع العبد لله ، ويخبت إلى ربه منيباً إليه بقلبه ، ويحدث له الوجل ، وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله ، وسكون ظاهره وباطنه ، فهذا خشوع خاص ، وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ، ومراقبته ، فيستولي ذلك على القلب كما تستولي الحبة .

وقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} الآية .

في هذه الآية ذم الله من خاف من غيره كخوفه منه ، وجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بأن خاف منها ، وترك ما أوجب الله عليه ، أو أقدم على ما حرم الله عليه ، خشية كلام الناس وأذاهم .
قال البغوي : أي : جزع من عذاب الناس ، ولم يصبر عليه ، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه .
وقال في تيسير العزيز الحميد : وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس كعذاب الله ، وهو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره ، بسبب الإيمان بالله ، وذلك من جملة الخوف من غير الله .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه - مَرْفُوعًا - : ((إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ ؛ إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ ، وَلَا يَزُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ)) .

تخریجه : رواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي ، وهو ضعيف ، وحكم بعضهم عليه بالوضع .
وتمام الحديث : وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .
قال في تيسير العزيز الحميد : إسناده ضعيف ، ومعناه صحيح .
وقال في فتح المجيد : ومعنى الحديث صحيح .
والشاهد : ذم من قَدَّم رضا الناس على رضا الله ، وأنه دليل على ضعف الإيمان واليقين ، وضعف الخوف من الله .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ)) . رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ .

تخریجه : رواه الترمذي ، وابن حبان ، وصححه الألباني .
والشاهد : الإشارة إلى تقديم رضا الله على رضا الناس ، وأنه دليل على قوة الإيمان ، والتحذير من تقديم رضا الناس على رضا الله ، وأنه دليل على ضعف الإيمان ، وبيان عاقبة الأمرين .
قال في تيسير العزيز الحميد : وفي الحديث عقوبة من خاف الناس ، وآثر رضاهم على رضا الله ، وأن العقوبة قد تكون في الدين ، عياداً بالله من ذلك ، فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان .
قال شيخنا : **وخلاصة الباب** أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف ، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالى ، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه فالعاقبة له ، وإن التمس رضا الناس ، وتعلق بهم ، وأسخط الله ، انقلبت عليه الأحوال ، ولم ينل مقصوده ، بل حصل له عكس مقصوده ، وهو أن يسخط الله عليه ، ويسخط عليه الناس .

٣٢ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

وَقَوْلِهِ : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

وَقَوْلِهِ : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

وَقَوْلِهِ : {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ , وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ : {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا} الْآيَةِ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

باب ما جاء في التوكل^(١)

الباب الثاني والثلاثون

وخلاصته : وجوب إفراد الله بالتوكل ، وبيان أن التوكل عبادة من أعظم العبادات ، فمن صرفه لغير الله فقد أشرك .

قال المصنف في مسائل الباب : التوكل من الفرائض . وقال : وأنه من شروط الإيمان .

قال في تيسير العزيز الحميد : ومراد المصنف بهذه الترجمة : النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى ، لأنه من أفضل

العبادات ، وأعلى مقامات التوحيد ، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين أ.هـ.

قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان .

وقال ابن القيم : فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان ، والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة

الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل أ.هـ.

والتوكل على الله من أعظم مقامات القلوب ، وهو دليل على المعرفة التامة بالله عز وجل ، ونقص التوكل يدل على قلة المعرفة بالله

تعالى .

وحقيقة التوكل هو في اعتماد القلب على الله بكليته ، وقطع النظر في الأسباب ، ولا يقدر فيه الأخذ بالأسباب .

يقول ابن القيم : وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده ، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد

عليها ، والركون إليها ، كما لا ينفعه قوله (توكلت على الله) مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به ، **فتوكل اللسان شيء** ،

وتوكل القلب شيء ، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء ، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء ، فقول العبد (توكلت

على الله) مع اعتماد قلبه على غيره ، مثل قوله (تبت إلى الله) وهو مصر على معصيته ، مرتكب لها أ.هـ.

وقال ابن تيمية : فإن من كمال التوكل ألا يكون للمؤمن حاجة إلى غير الله ، أي : لا يسأل غير الله ، ولا يستشرف بقلبه إلى غير

الله .

ويقول السعدي : التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان ، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه ، ويتم توحيده

، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه ، وحقيقة التوكل على الله : أن

يعلم العبد أن الأمر كله لله ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه هو النافع الضار ، المعطي المانع ، وأنه لا حول ولا قوة

إلا بالله ، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه ، وفي دفع المضار ، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول

مطلوبه ، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة .

فمتى استدام العبد هذا العلم ، وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة ، وليبشر بكفاية الله له ، ووعدده للمتوكلين ، ومتى

علق ذلك بغير الله فهو شرك ، ومن توكل على غير الله وتعلق به ، وكل إليه وخاب أمله أ.هـ.

(١) تنبيه : هذا التبويب ليس من وضع الشيخ المصنف .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

التوكل لغة : الاعتماد والتفويض .

وشرعاً : الاعتماد على الله عز وجل وحده , وتفويض الأمر إليه , وعدم الالتفات إلى غيره , مع الأخذ بالأسباب المأذون بها .
والتوكل عمل قلبي , إن صُرف لله فهو عبادة , وإن صُرف لغيره فهو شرك , لأن حقيقته : تفويض الأمر إلى من بيده الأمر , وهو الله وحده , وأما الاعتماد على الأشخاص أو الأسباب فمنافٍ للتوكل على الله تعالى , وأما توكليل الغير في عملٍ ما فليس من التوكل , بل هو من بذل الأسباب مع اعتماد القلب على الله تعالى , قال ابن تيمية : فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله , بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه .

والتوكل من حيث الجهة ينقسم إلى قسمين :

١. التوكل على الله : وهذا واجب , بشرط أن لا يصل إلى توكل الصوفية من تركهم الأسباب .

٢. التوكل على المخلوق : وينقسم من حيث الحكم إلى أقسام :

أ. شرك أكبر : وله صور :

١. أن يتوكل على المخلوق دون الله .

٢. أن يتوكل على المخلوق كتوكله على الله أو أكثر .

٣. أن يتوكل على المخلوق في شيء من خصائص الخالق , كأن يتوكل عليه في دخول الجنة , أو النجاة من النار , ونحو ذلك .

٤. أن يتوكل على الأموات , أو الغائبين , أو الجمادات .

ب. شرك أصغر : وهو أن يلتفت إلى السبب بقلبه , مع اعتقاده أن الله هو المسبب , وهو ما يسميه بعض السلف (التفات القلب) ويسمى (الالتفات إلى الأسباب) .

قال ابن رجب : وأكثر الناس يركن بقلبه إلى الأسباب , وينسى المسبب لها , وقلّ من فعل ذلك إلا وكل إليها وخُذِل .

وقال شيخنا : التوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير مع الشعور بعلو مرتبته , وانحطاط مرتبة المتوكل عنه , مثل أن يعتمد عليه في حصول المعاش , ونحوه , فهذا نوع من الشرك الأصغر , لقوة تعلق القلب به , والاعتماد عليه .

أما لو اعتمد عليه على أنه سبب , وأن الله تعالى هو الذي قدّر ذلك على يده , فإن ذلك لا بأس به , إذا كان للمتوكل عليه أثر صحيح في حصوله . هـ

مسألة : اختلفت مسالك الناس في الأسباب :

- ١ . قوم ينفون تأثير الأسباب , ويعلقون الأمر بالقدر , ونسوا أن الأسباب من القدر , فقالوا : الإحراق ليس بالنار , وإنما يحصل عند النار , والارتواء ليس بالماء , لكن يحصل عند الماء , وهكذا .
- وهذا المذهب فاسد شرعاً وعقلاً , ويأتي الكلام عليه عند شرح الواسطية إن شاء الله .
- ٢ . قوم يثبتون الأسباب , لكن ينفون الأخذ بها , حتى لا يلتفت القلب إليها .
- وهذا مذهب بعض الصوفية , وفيه طعن في الشرع .
- قال ابن القيم : فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض , وإن كان مشوباً بنوع من التوكل , فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً , ولا عجزه توكلاً , بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها .
- ٣ . قوم يأخذون بالأسباب الصحيحة شرعاً أو قدراً , ولا يعتمدون عليها .
- وهذا مذهب أهل السنة والجماعة , وهو الموافق للشرع والعقل .
- قال ابن القيم : فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب , وتعلق الجوارح بها , فيكون منقطعاً منها متصلاً بها .
- والقاعدة في باب الأسباب :** أن ترك الأسباب قدح في العقل , والاعتماد على الأسباب قدح في الشرع .
- والحق أن كليهما قدح في الشرع والعقل .

وقفات مع أدلة الباب

قول الله تعالى : {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

في هذه الآية وجوب إفراد الله بالتوكل ، يظهر ذلك من وجوه :

١. الأمر بالتوكل ، فدل على أنه عبادة .
٢. تقديم ما حقه التأخير ، وهذا يفيد الحصر .
٣. قوله (إن كنتم مؤمنين) قال ابن القيم : فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفا الإيمان عند انتفاء التوكل . وقال في موضع : فمن لا توكل له ، لا إيمان له .
- وقال في موضع عن هذه الآية : وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه ، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً ، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد .

وقوله : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

والشاهد قوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) في تمام الآية .
وفيه تقديم ما حقه التأخير - الجار والمجرور - وهذا يدل على الحصر .
والمعنى أفردوه بالتوكل ، فلم تلتفت قلوبهم لسواه ، كما أن الآية ذكرت التوكل من صفات المؤمنين .

وقوله : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

في هذه الآية بيان أن الله وحده هو الكافي ، فيجب الاعتماد عليه وحده . وهذا كقوله تعالى (والله يعصمك من الناس) .
قال في تيسير العزيز الحميد : وفي ضمن ذلك أمرٌ لهم بإفراده تعالى بالحسب ، استكفاء بكفايته تبارك وتعالى ، وذلك هو التوكل .

وقوله : {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}.

في هذه الآية بيان ثمرة التوكل على الله ، وأن من توكل على الله فقد كفاه ووقاه .
قال ابن القيم : أي : كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه ، فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لا بد منه ، كالحر ، والبرد ، والجوع ، والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده ، فلا يكون أبداً.... فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومن فيهن ، لجعل له مخرجاً وكفاه ونصره .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ , وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ : { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا } الْآيَةُ . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

تخرجه : رواه البخاري , وفي رواية للبخاري : كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .
والشاهد : أن هذه العبادة حققها خير المرسلين , الخليلان : إبراهيم , ومحمد عليهما السلام , وفيها عاقبة المتوكل , وأن الله يؤيده , وينصره , ولو بعد حين .

٣٣ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

وَقَوْلِهِ {وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ ؟ فَقَالَ : ((الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ)) .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ : الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ . رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ .

باب ما جاء في الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ^(١)

الباب الثالث والثلاثون

وخلاصته : تحريم الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، وأنهما ينافيان كمال التوحيد .
والأمن من مكر الله أن يكثر العبد من الذنوب ، أو يقصر في الطاعات ، ومع ذلك لا يخشى عواقب ذلك ، أو يظن عدم معالجة الله له بالعقوبة ، أو أن ما أمده الله به من النعم دليل على الرضا .

يقول ابن القيم : وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم ، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة ، فلا يزال مستيقظاً حذراً ، وأما من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه ، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة ، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه ، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة ، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عافية معها أ.هـ

والقنوط من رحمة الله أن يقطع العبد أمله ورجاءه من رحمة الله وفضله .

وكلا الفعلين دال على عدم المعرفة بالله عز وجل .

والعبد لا بد له في سيره إلى الله أن يوازن بين مقامات العبودية ، ومن ذلك الموازنة بين مقام الخوف ، ومقام الرجاء ^(٢) .

وذلك أن من أغفل مقام الخوف ، وبالع في مقام الرجاء ، وقع في الأمن من مكر الله ، الذي قال الله فيه (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ومن أغفل مقام الرجاء ، وبالع في مقام الخوف ، وقع في القنوط من رحمة الله ، الذي قال الله فيه (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) .

وقد أثنى الله على خاصة عباده بقوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) وقال تعالى (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) وعليه فهذا الباب منعقد بالآيتين جميعاً .

قال ابن تيمية : فما حُفظت حدود الله ومحارمه ، ووصل الواصلون إليه ، بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فساداً لا يُرجى صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

وقال ابن القيم : والرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ، ونوع غرور مذموم ، فالأولان : رجاء رجل عمل بطاعة الله ، على نور من الله ، فهو راجٍ لثوابه ، ورجل أذنب ذنباً ثم تاب منها ، فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وكرمه ، والثالث : رجل متمادٍ في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور ، والتمني ، والرجاء الكاذب .

(١) تنبيه : هذا التبويب ليس من وضع الشيخ المصنف .

(٢) قال ابن القيم : والفرق بين الرغبة ، والرجاء : أن الرجاء طمع ، والرغبة طلب ، فهي ثمرة الرجاء ، فإنه إذا رجا الشيء طلبه ، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

اختلف العلماء هل الأفضل أن يغلب العبد جانب الرجاء , أو جانب الخوف على أقوال :

١. يغلب جانب الخوف على جانب الرجاء مطلقاً . قال ابن رجب : وهو يحكى عن الفضيل , وأبي سليمان الداراني .
 ٢. يغلب جانب الخوف في حال الصحة , وجانب الرجاء في حال المرض .
 ٣. يغلب جانب الخوف عند إرادة الوقوع في المعصية , أو التكاسل عن الطاعة , ويغلب جانب الرجاء في غير ذلك .
 ٤. يوازن بين مقام الخوف والرجاء كما قيل : هما كجناحي الطائر .
- وهذا أقرب الأقوال , واختاره ابن تيمية , وقال : وينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً , فأيهما غلب هلك صاحبه , ونص عليه الإمام أحمد , لأن من غلب خوفه رجاءه وقع في نوع من اليأس , ومن غلب رجاءه وقع في نوع من الأمن من مكر الله .
- وقال ابن رجب : فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنهما يستويان , لا يرجح أحدهما على الآخر , قاله مطرف , والحسن , وأحمد , وغيرهم أ.هـ
- وقد حكى ابن حجر الاتفاق على استحباب التسوية بينهما في حال الصحة .

وقفات مع أدلة الباب

قول الله تعالى : {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}.

في هذه الآية ذم الله من آمن مكره ، وذكر أنه من الخاسرين ، فدل أنه محرم .
يقول ابن جرير : يقول تعالى ذكره : أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ، ويجحدون آياته ، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ، ورخاء العيش ، كما استدراج الذين قصَّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم ؟ فإن مكر الله لا يأمنه ، يقول : لا يأمن ذلك أن يكون استدراجاً ، مع مقامهم على كفرهم ، وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون ، وهم الهالكون أ.هـ

واختلفت عبارات السلف في تفسير (مكر الله) على أقوال منها : استدراج الله لعباده ، وقيل : الأخذ بغفلة .
ويرى ابن القيم أنه إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي ، وحمل عليه عبارات السلف المختلفة ، وبين أنها كلها داخلية في هذا المعنى .

تنبيه : لا يسمى الله بالماكر ، ولا يوصف بالمكر على وجه الإطلاق ، وإنما يوصف بالمكر في مقام المدح والثناء ، وهو إذا كان المكر في محله ، كما لو كان متوجهاً لمن يستحق ذلك .
والقاعدة في هذا الباب : أن الصفات أو الأفعال التي تأتي على وجه الذم وعلى وجه المدح ، لا يوصف الله بها بإطلاق ، بل يوصف بها إذا كانت في مقام المدح ، والثناء ، والكمال .
وذلك مثل صفة : المكر ، والكيد ، والمخادعة .

وقوله : {وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}.

في هذه الآية ذم الله القانطين من رحمته ، وبين أنهم ضالون عن الطريق القويم ، فدل أنه محرم .
والقنوط هو أشد اليأس ، كما قال ابن الأثير . وكذا قال شيخنا ابن عثيمين : القنوط أشد اليأس .
قال شيخنا : اليأس أن يستبعد زوال المكروه ، والقنوط أن يستبعد حصول المطلوب .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ ؟ فَقَالَ : ((الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ)) .

تخریجه : رواه ابن أبي حاتم ، وحسنه العراقي ، والألباني ، وقال ابن كثير : في إسناده نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً .
والشاهد : أن النبي ﷺ جعل الأمن من مكر الله ، واليأس من روح الله من الكبائر .
قوله (واليأس من روح الله) روح الله : رحمته ، كما قال ابن الأثير .
وقال شيخنا : الروح قريب من معنى الرحمة ، وهو الفرج والتنفيس .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ : الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ . رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ .

تخریجه : رواه عبدالرزاق ، وابن جرير ، والطبراني ، وصححه ابن كثير ، والألباني .
والشاهد : أن ابن مسعود جعل الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله من الكبائر .
تنبيه : جاء هذا الأثر في بعض النسخ عن ابن عباس ، والصحيح أنه عن ابن مسعود .

٣٤ - بَابُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ : الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } .

قَالَ عَلَقَمَةُ : هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((ائْتَنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا يَهْمُ كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ ، وَالتِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ)) .

وَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - مَرْفُوعًا - : ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)) .

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) . حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ .

٣٤ - بَابُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ : الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

الباب الرابع والثلاثون

وخلاصته : بيان وجوب الصبر على أقدار الله المؤلمة ، وأن ذلك من شعب الإيمان ، وأن ضده من شعب الكفر المنافي لكمال التوحيد .

ومقام الصبر مقام عظيم قال عنه ﷺ : ما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر . متفق عليه ، وقال ﷺ : والصبر ضياء . رواه مسلم . وقال عمر بن الخطاب : وجدنا خير عيشنا بالصبر . رواه البخاري .

وفي هذا الباب بيان حكم الصبر ، وفضله ، وثمرته .

المسائل المتعلقة بالباب :

تعريف الصبر :

لغة : الحبس .

وشرعاً : حبس النفس على ما ينفعها ، وعما يضرها .

والصبر ثلاثة أنواع ، وهي :

١. الصبر على طاعة الله : بأن يلزم نفسه الطاعة - ولو ثقلت عليه - ويستقيم عليها ، ولا يملها ، حتى يلقي الله بها ، وهذا أعلى مراتب الصبر ، كما نص عليه ابن تيمية ، ونصره ابن القيم .

٢. الصبر عن معصية الله : بأن يلزم نفسه ترك المعصية ، وإن مالت إليها النفس ، وتوفرت الدواعي .

٣. الصبر على أقدار الله المؤلمة : وهو حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الحدود ، وشق الجيوب ، ونحوها ، كما ذكر ابن القيم .

قال ابن القيم : فإن قيل : أي أنواع الصبر الثلاثة أكمل : الصبر على المأمور ، أم الصبر على المحذور ، أم الصبر على المقدور؟ قيل : الصبر المتعلق بالتكليف ، وهو الأمر والنهي أفضل من الصبر على مجرد القدر ، فإن هذا الصبر يأتي به البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختياراً أو اضطراراً ، وأما الصبر على الأوامر والنواهي فصبر أتباع الرسل ، وأعظمهم إتباعاً أصبرهم في ذلك .

وكل صبر في محله وموضعه أفضل ، فالصبر على الحرام في محله أفضل ، وعلى الطاعة في محلها أفضل أ.هـ

وذكر رحمه الله أن صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز أعظم من صبره على ما ناله من إخوته حين ألقوه في الجب .

وقد جمع الإمام ابن القيم أحكام الصبر ومسائله في كتابه (عدة الصابرين) فليراجع .

والنصوص التي ذكرها المصنف هنا كلها في النوع الثالث ، وأكثر من يتكلم في الصبر يقصره في الصبر على أقدار الله المؤلمة .

مسألة : الإنسان عند المصيبة له أربعة أحوال :

١. الجزع : وهذا محرم ، وقد يؤدي إلى الشرك ، والعياذ بالله .

٢. الصبر : وهذا واجب .

وأكمل الصبر عند الصدمة الأولى ، والاستمرار في الصبر واجب من أول الأذى حتى نهايته .

٣. الرضا : وهذا مستحب على الصحيح الذي اختاره الحسن البصري ، وابن تيمية ، وابن القيم .

قال ابن القيم : وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه ، واختلفوا في وجوبه على قولين ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيهما على قولين لأصحاب أحمد ، وكان يذهب إلى القول باستحبابه ، قال : ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر ، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم أ.هـ

تنبيه : المراد الرضا بالمقدور ، وأما الرضا بالقدر فيجب الرضا به ، لأنه فعل الله تعالى .

٤. الشكر : وهذا مستحب ، ويدل على تمام الرضا بالله .

قال ابن تيمية : وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها . فالمراتب ثلاث : الصبر ، والرضا ، والشكر .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } .

بداية الآية (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) والمعنى - والله أعلم - أن الإنسان إذا حلت به المصيبة , وصبر على ذلك ابتغاء ما عند الله من الأجر والمثوبة , فإن الله يطمئن فؤاده , ويهدي قلبه للرضا , والقبول , واستحضار الأجر , وغير ذلك , وإن كانت المصيبة باقية , فإن تلك الثمرة باقية إذا حل الصبر , ولذا قال عمر بن الخطاب كما عند البخاري : وجدنا خير عيشنا بالصبر .

يقول ابن جرير : يقول تعالى ذكره : لم يصب أحداً من الخلق (مصيبة إلا بإذن الله) يقول : إلا بقضاء الله وتقدير ذلك عليه (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) يقول : ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك (يهد قلبه) يقول : يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه .

والشاهد : بيان أن الصبر من صفات أهل الإيمان , وأنه من ثمرات الإيمان , وفي الآية أيضاً بيان ثمرة من ثمرات الصبر .

قَالَ عُلُقَمَةُ : هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ , فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ .

تخریجه : رواه ابن جرير , ورواه البخاري عن ابن مسعود معلقاً بصيغة الجزم .

وفسر علقمة رحمه الله هذه الآية بأنه الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم , وقال سعيد بن جبیر : يعني يسترجع , يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون^(١) . وكل هذا من باب التفسير بالمثال .

قال في تيسير العزيز الحميد عن علقمة : ولد في حياة النبي ﷺ وسمع من أبي بكر , وعمر , وعثمان , وعلي , وسعد , وابن مسعود , وعائشة , وغيرهم .

(١) لطيفة : قال تعالى (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) وكثير من الناس يقول عند المصيبة (لا حول ولا قوة إلا بالله) قال ابن تيمية : إن هذه الكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) كلمة استعانة , لا كلمة استرجاع , وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع , ويقولها جزعاً لا صبراً . وقال أيضاً : فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل , فأما ما وقع فإما فيه الصبر والتسليم والرضا .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((ائْتَنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا يَمُومٌ كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ)) .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : أن النبي ﷺ ذكر أن النياحة من شعب الكفر ، والنياحة إنما تكون عند الجزع وفقد الصبر ، فدل أن الصبر واجب . والنياحة هي الندب على الميت على وجه التسخط ، وأما ندبه لا على وجه التسخط فلا بأس به إن كان يسيراً . قال في تيسير العزيز الحميد : فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ، ولا تنافي الصبر الواجب ، نص عليه الإمام أحمد ، لما رواه في مسنده عن أنس أن أبا بكر دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ، ووضع يديه على صدغيه ، وقال : وآنياء ، وآخيلاه ، وآصفياء . وكذلك صح عن فاطمة أنها نذبت أباهما ﷺ فقالت : يا أبتاه ، أجاب رباً دعاه .

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - مَرْفُوعًا - : ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْحُدُودَ ، وَشَقَّ الْجُبُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)) .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : أن النبي ﷺ ذكر في الحديث ثلاث صفات كان يفعلها أهل الجاهلية عند حلول المصيبة ، وكلها تدل على الجزع ، وعدم الرضا بقضاء الله وقدره ، وعدم الصبر على ذلك ، وذكر ﷺ أن من فعل ذلك كان فيه من صفات الجاهلية ، فقال (ليس منا) بل أفعاله هذه من أفعال أهل الجاهلية ، لا من أفعال أهل الإسلام . وقوله (ودعا بدعوة الجاهلية) المراد ما كان يفعله أهل الجاهلية من النياحة وتعداد محاسن الميت ، كقولهم (وا خليلاه ، وا نصيراه) ونحو ذلك .

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

تخریجه : رواه الترمذي ، وحسنه ، والحاكم ، وصححه الألباني .

والشاهد : أن ما يقع على العبد من المصائب قد يكون بسبب ذنوب عجلت عقوبتها له في الدنيا ، ولكن هذا من الخير الذي أَرَادَهُ اللهُ بِعَبْدِهِ إِذَا صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ ، واحتسب الأجر . وفي الحديث : ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة . رواه أحمد ، والترمذي ، وحسنه الألباني .

قال ابن تيمية : المصائب نعمة , لأنها مكفرات للذنوب , ولأنها تدعو إلى الصبر , فيثاب عليها , ولأنها تقتضي الإجابة إلى الله , والذل له , والإعراض عن الخلق , إلى غير ذلك من المصالح العظيمة فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق , إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصٍ أعظم مما كان قبل ذلك , فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه .

فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر , أو مرض , أو وجع حصل له من النفاق , والجزع , ومرض القلب , والكفر الظاهر , وترك بعض الواجبات , وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه , فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة , كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية , فهي بعينها فعل الرب عز وجل , ورحمة للخلق , والله تعالى محمود عليها .

فمن ابتلي بفرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه , وحصل له بعد ما كفر من خطايا رحمة , وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه , قال تعالى (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وحصل له غفران السيئات , ورفع الدرجات , فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك أ.هـ

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ , وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ , فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى , وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) . حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ .

تخریجه : رواه أحمد , والترمذي وحسنه , وحسنه الألباني .

والشاهد : أن ما يصيب العبد من المصائب قد يكون من أجل الابتلاء , ورفع الدرجات , وأن هذا الابتلاء يعظم على قدر إيمان العبد , كما روى مصعب بن سعد , عن أبيه سعد بن أبي وقاص , قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال : الأنبياء , ثم الأمثل فالأمثل , فيبتلي الرجل على حسب دينه , فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه , وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه , فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة . رواه أحمد , والترمذي , وابن ماجه , وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح , وصححه الألباني .

وكذا يعظم جزاءه في الآخرة على قدر هذا البلاء إذا صبر عليه , أو على قدر صبره على هذا البلاء .

وهذان الحديثان فيهما الحث على الصبر , وبيان فضله .

تنبيه : قال في تيسير العزيز الحميد : قوله : وقال النبي ﷺ (إن عظم الجزاء) إلى آخره , فهو أول حديث آخر , لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد عن صحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد .

٣٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّبَاءِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} الآية .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - مَرْفُوعًا - : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ - مَرْفُوعًا - : ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ؟)) قَالُوا : بَلَى . قَالَ : ((الشِّرْكُ الْخَفِيُّ : يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّيَ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

٣٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

الباب الخامس والثلاثون

وخلاصته : بيان حكم الرياء العملي وأنه شرك أصغر , منافع لكمال التوحيد .

وفي النصوص الواردة في الباب : بيان خطر الرياء من حيث إحباطه العمل , وبيان خطره من حيث خفائه .

المسائل المتعلقة بالباب :

الرياء لغة : مصدر رأى يرأي رياءً ومراءً , مشتق من الرؤية .

وشرعاً : فعل العبادة من أجل ثناء الناس عليه .

والسمعة داخلية فيه , فإذا اجتمعا كانت السمعة فيما يُسمع , والرياء فيما يُرى .

وفي الحديث المتفق عليه قال ﷺ : من سمع , سمع الله به , ومن يرأي , يرأي الله به .

والرياء من أخطر الأدواء خاصة على الصالحين , يقول ابن القيم : وأما الشرك في الإرادات والنيات , فذلك البحر الذي لا ساحل له , وقل من ينجو منه , فمن أراد بعمله غير وجه الله , أو نوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه , فقد أشرك في نيته وإرادته .

وينبه أن الرياء لا يكون إلا في العبادات على الصحيح , وأما في اللباس , والمركب , ونحو ذلك فيدخل في باب التفاخر والكبر .

جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود , عن النبي ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر , قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً , ونعله حسنة , قال : إن الله جميل يحب الجمال , الكبر بطر الحق , وغمط الناس .

مسألة : الأصل أن نية التعبد تصاحب العمل من أوله إلى آخره , فإن تخلفت عن العمل فله أحوال :

أ. إن كانت في جميع الأعمال , فهذه لا تتصور من مسلم , بل صاحبها منافق كافر .

ب. إن كانت موجودة , ولكن تتخلف أحياناً في بعض الأعمال , فله أحوال :

١. إن كان العمل من أصله لغير الله : بطل العمل كله , كما جاء في الحديث القدسي : من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه . رواه مسلم .

قال ابن رجب : ولا نعرف عن السلف في هذا خلافاً , وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين .

٢. إن كان العمل من أصله لله , ثم طرأت النية الفاسدة عليه , فله حالان :

أ. أن يجاهد نفسه على دفعها , فلا شيء عليه , ويصح العمل , ويؤجر على المجاهدة .

قال ابن رجب : إن كان خاطراً ودفعه , فلا يضره بغير خلاف .

ب. أن يركن إليها ويرضى بها , فللعمل حالان :

١. إن كان العمل لا يترتب آخره على أوله , كالصدقة , والذكر , وقراءة القرآن .

صح العمل فيما كان لله , وبطل في الذي دخلته النية الفاسدة .

٢. إن كان العمل يترتب آخره على أوله , كالصلاة , والصيام , ففيه خلاف :

أ. يبطل جميع العمل , واختاره شيخنا .

ب. يبطل ما حصل فيه الرياء من الصفة , والعدد , كما لو حسن وقوفه , أو أطاله , أو زاد في عدد التسبيحات , أو حسن قراءته , وتجويده , ونحو ذلك .

فتبطل تلك الصفات , والزيادات , ويصح العمل .

وهذا اختيار الإمام أحمد , وابن جرير , وغيرهم , وهو مروي عن الحسن البصري وغيره .

ومن صور الرياء الخفية التي ذكرها أهل العلم :

١. أن يخفي عبادته عن الناس , لكنه يحب في نفسه أن يقدره الناس إذا رأوه , وأن يقدموه في المجالس , وأن يثنوا عليه , وينشطوا في قضاء حاجاته , ونحو ذلك .

٢. أن يذم نفسه أمام الناس , وينتقصها , وهو في داخله يريد الثناء عليها بذلك , حتى يقول الناس متواضع .

٣. أن يعمل العمل لله وقصده بذلك مطلب آخر , كما قال ابن تيمية : حكى أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه , قال : فأخلصت أربعين يوماً , فلم يتفجر شيء , فذكرت ذلك لبعض العارفين , فقال لي : إنما أخلصت للحكمة ولم تخلص لله .

قال ابن تيمية : فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص , وإرادة وجهه , كان متناقضاً , لأن من أراد شيئاً لغيره , فالثاني هو المراد المقصود بذاته , والأول يراد لكونه وسيلة إليه , فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالماً , أو عارفاً , أو ذا حكمة , أو صاحب مكاشفات , وتصرفات , ونحو ذلك , فهو هنا لم يرد الله , بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى .

وهناك صور لا تدخل في الرياء , منها :

١. أن يفرح الإنسان بفعله الطاعة , قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

وقال ﷺ : من سرته حسنته , وسأته سيئته فهو مؤمن . رواه أحمد , والترمذي , وقال : حسن صحيح , وصححه ابن حبان , والحاكم , ووافقه الذهبي , وصححه الألباني .

٢. أن يحصل الثناء له بعد العمل , لأن النبي ﷺ لما سئل عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن . رواه مسلم .

٣. أن ينشط الإنسان في العبادة عند مجالسة العابدين , كأن ينشط في صلاته عند رؤية المصلين .

٤. أن يعمل العمل , أو يظهر العمل لأجل أن يقتدي الناس به , ولكن يحذر المؤمن من هذا , لأنه مزلق خطير .

مسألة : إن جاءت النية الفاسدة بعد الانتهاء من العمل , فلا تؤثر على العمل السابق , لأن العمل كان لله , ولكن قد تنقصه من جهة أخرى كسائر الذنوب المنقصة للحسنات .

ومن ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) فالمراد أن سيئة المن والأذى تقابل حسنة الصدقة فتبطلها .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} الآية .

والشاهد من جهتين : الأول : الأمر بالعمل الصالح ، والعمل المخلوط بالرياء ليس عملاً صالحاً .
والثاني : قوله تعالى في آخر الآية (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فمنهى الله في هذه الآية عن الشرك ، وهذه الآية نزلت في الرياء ، وقد سمى النبي ﷺ الرياء (الشرك الأصغر) لأن المرائي يشرك غير الله في قصده .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - مَرْفُوعاً - : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : بيان خطر الرياء من جهة تسميته شركاً ، ومن جهة إحباطه للعمل .
والأصل في هذا الحديث أنه في الرياء .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ - مَرْفُوعاً - : ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ؟)) قَالُوا : بَلَى . قَالَ : ((الشِّرْكَ الحَقِيقِيُّ : يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزِينُ صَلَاتَهُ ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ .

تخریجه : رواه أحمد ، وابن ماجه ، وحسنه الألباني .

والشاهد : بيان خطر الرياء من جهة خوف النبي ﷺ على أصحابه منه ، ومن جهة تسميته شركاً ، ومن جهة خفائه .

٣٦ - بَابُ مِنَ الشُّرُكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ } الْآيَتِينَ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعِسَ عَبْدُ الْحَمِيلَةِ : إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّةَ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ)) .

٣٦ - بَابُ مِنَ الشَّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

الباب السادس والثلاثون

وخلاصته : أن قصد الدنيا بالعمل الصالح نوع من أنواع الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد ، ووجه ذلك أنه أشرك في إرادته وقصده غير الله ، والمسألة فيها تفصيل يأتي .

المسائل المتعلقة بالباب :

الأصل أن العبادات شرعت تعظيماً لله وتذلاً له ، وعليه فمتى خلت العبادة عن هذا المعنى فهي عبادة مردودة غير مقبولة ، وقد يُخالط العبادة مقصد آخر وحينها فالمسألة فيها تفصيل :

١ . إن كان هذا المخالط رياء : فالعمل الذي خالطه الرياء باطل ، لقوله تعالى في الحديث القدسي : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه . رواه مسلم .
ولما روى أبو أمامة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزاً يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ قال ﷺ : لا شيء له ، ثم قال ﷺ : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغي به وجهه . رواه النسائي ، وحسنه العراقي ، وجود إسناده ابن رجب .

فالرياء ينافي إخلاص العبادة لله ، ولا يمكن أن يُصحح العمل المخالط للرياء ، وسبق في الباب السابق التفصيل في ذلك .
٢ . إن كان هذا المخالط إرادة الدنيا ، ففيه تفصيل :

أ . إن كان أراد بعمله الدنيا فقط دون النظر إلى الأجر ، فعمله مردود ، ولا أجر له بهذا العمل الصالح ، وربما حصل له أجر الدنيا وربما لم يحصل له .

وهذا كمن يجاهد للغنيمة فقط ، ولا قصد له في إعلاء كلمة الله ، وكمن يُعلم العلم من أجل المال فقط ، ونحو ذلك .
والدليل قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) .

قال ابن جرير : من عمل صالحاً التماس الدنيا ، صوماً ، أو صلاة ، أو تهجداً بالليل ، لا يعملها إلا لالتماس الدنيا ، يقول الله : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمل التماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين أ.هـ .
ومنه حديث عمر المشهور : ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . متفق عليه
وهذه الصورة لها حكم الرياء ، إذ لا يمكن تصحيح العمل مع هذه النية الخالية من قصد وجه الله تعالى بالعمل ، والغالب أن هذه الحال تكون من المنافقين .

ب . إن أراد بعمله وجه الله ، لكنه قصد مع ذلك أمراً من أمور الدنيا المباحة ، كمن يجاهد للأجر والغنيمة ، أو يطلب العلم للأجر والوظيفة ، أو يصلي بالناس إماماً للأجر وللراتب ، ونحو ذلك ، وهذا يحصل كثيراً في أحوال الناس .

وهذه الصورة تختلف نظر أهل العلم فيها على أقوال ، والذي يظهر لي والله أعلم أنه لا بأس بذلك ، وأن هذا الأجر الدنيوي من ثمار وبركة العبادات ، لكن عليه أن يجاهد نفسه في تغليب أجر الآخرة ، ثم عليه أن يحول نية الدنيا إلى نية صالحة ، كأن ينوي ما يحصل له من المال والوظيفة لخدمة الدين ، أو الكفاف ، ونحو ذلك .

ومما يدل على جواز هذه الصورة أن النصوص الشرعية ذكرت عمل الدنيا ضمن العبادات ، وفي هذا إشارة إلى جواز قصدها على جهة التبع والله أعلم ، وإلا لم يكن لذكرها فائدة .

ومن ذلك قوله تعالى في الحج (ليشهدوا منافع لهم) وقال نوح لقومه (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) وقال هود لقومه (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم) وقال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال ﷺ في الجهاد : من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه . متفق عليه ، وقال ﷺ : من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره فليصل رحمه . متفق عليه ، وقال ﷺ : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء . متفق عليه ، وقال ﷺ : السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب . رواه أحمد ، وصححه الألباني .

والنصوص التي جاء فيها ذكر فوائد دنيوية في العمل الصالح كثيرة جداً .

وبعض أهل العلم فرق بين قصد ما ذكر في النصوص من أمور الدنيا فأجاز قصده تبعاً ، وبين ما لم يذكر فلم يُجز قصده ولو تبعاً ، والذي يظهر أنه لا فرق ، بل ذكر بعض أمور الدنيا يدل على سائرهما ، سيما والمذكور كثير ومتنوع ، والله أعلم .

كما ينبه أن بعض أهل العلم يفرق بين كون عمل الدنيا هو الغالب ، أو أن يكون مساوياً ، أو يكون الأقل ، وهذا التفريق وإن كان يمكن أن يُقبل ، لكن معرفة ذلك قد تكون متعذرة أو متعسرة ، والله أعلم ، لكن الممكن أن يُبحث الشخص على مجاهدة نفسه في قصد الآخرة .

والخلاصة أن يقال : الأصل في تشريع العبادات قصد وجه الله فيها ، وطلب أجر الآخرة ، فإن كانت هذه العبادات مضمنة لفائدة دنيوية جاز قصدها تبعاً ، واستُحب تحويل ثمره الدنيا لأمر الآخرة ، وأما إن قصد الدنيا فقط فلا أجر له بهذا العمل .

قال السعدي في كتابه (بهجة قلوب الأبرار) عند شرحه لحديث (من أحب أن يُبسط له في رزقه...) : وفي هذا الحديث دليل على أن قصد العامل ما يترتب على عمله من ثواب الدنيا لا يضره إذا كان القصد وجه الله والدار الآخرة ، فإن الله بحكمته ورحمته رتب الثواب العاجل والآجل ، ووعد بذلك العاملين ، لأن الأمل واستثمار ذلك ينشط العاملين ، ويبعث همهم على الخير ، كما أن الوعيد على الجرائم ، وذكر عقوباتها مما يخوف الله به عباده ويبعثهم على ترك الذنوب والجرائم .

فالمؤمن الصادق يكون في فعله وتركه مخلصاً لله ، مستعيناً بما في الأعمال من المرغبات المتنوعة على هذا المقصد الأعلى ، والله الموفق .

وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير : فأما إن كان للنفس حظ عاجل ، وكان حاصلاً تبعاً للعبادة وليس هو المقصود ، فهو مغتفر ، وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس ، أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة .

وقال ابن باز : كما ينبغي أن نشجع على الإخلاص والصدق في طلب العلم ، من أراد الشهادة ليتقوى بها على تبليغ العلم ، والدعوة إلى الخير فقد أحسن في ذلك ، وإن أراد المال ليتقوى به فلا بأس أن يدرس ليتعلم ، وينال الشهادة التي يستعين بها على نشر العلم ، وأن يقبل الناس منه هذا العلم ، وأن يأخذ المال الذي يعينه على ذلك ، فإنه لولا الله سبحانه ثم المال لم يستطع الكثير التعلم وتبليغ الدعوة .

فالمال يساعد المسلم على طلب العلم ، وعلى قضاء حاجته ، وعلى تبليغه للناس ، ولما ولي عمر رضي الله عنه أعمالاً ، أعطاه رسول الله ﷺ مالاً ، قال : أعطه من هو أفقر مني . فقال النبي ﷺ : خذ هذا المال فتموله ، أو تصدق به ، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ، ولا سائل فخذ ، وما لا فلا تتبعه نفسك . أخرجه مسلم في صحيحه .

وأعطى النبي عليه الصلاة والسلام المؤلفات قلوبهم ، ورغبهم حتى دخلوا في دين الله أفواجاً ، ولو كان حراماً لم يعطهم ، بل أعطاهم قبل الفتح وبعده .

وفي يوم الفتح أعطى الناس على مائة من الإبل ، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر - عليه الصلاة والسلام - ترغيباً في الإسلام ودعوة إليه .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى للمؤلفات قلوبهم حقاً في الزكاة ، وجعل في بيت المال حقاً لهم ، ولغيرهم من المدرسين ، والقضاة ، وغيرهم من المسلمين ، والله ولي التوفيق .

فائدة : الفرق بين إرادة الدنيا والرياء من وجوه :

- أ. أن الرياء كله محرم ، أما إرادة الدنيا فبعضه جائز ، كما سبق .
 - ب. أن الرياء يكون العمل فيه لغير الله ، وأما إرادة الدنيا فقد تكون لله .
 - ج. أن الرياء يبطل العمل الذي قارنه ، وأما إرادة الدنيا فقد تكون جائزة .
 - د. أن الرياء مصروف للناس ، وأما إرادة الدنيا فتكون لهم ، وللمال ، وللجاه ، وللمرتبة .
- ويلاحظ أن كل رياء فهو من إرادة الدنيا .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِهِ تَعَالَى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ } الْآيَتِينَ .

في هذه الآية يذم الله تعالى الكفار الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا ، ويبين أن أعمالهم باطلة ، وأن سعيهم حابط ، وأن مآلهم إلى النار ، فدل ذلك أن من أراد بعمله الدنيا فله نصيب مما ذكر ، بقدر إرادته .

وهذه الآية مقيدة بآية الإسراء (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) لأن الآية الأولى فيها أن من أراد بعمله الدنيا نوفر لهم ثواب أعمالهم ، من الصحة ، والسرور في المال والأهل والولد (وهم فيها لا يبخسون) لا ينقصون .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ : إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ ، مُغَبَّرَةً قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ)) .

تخریجه : رواه البخاري بغير هذا اللفظ ، وليس عنده ولا عند غيره ذكر (الخميصة) بل الثابت (القطيفة) .

والشاهد : أن النبي ﷺ قسم الناس إلى قسمين : أثنى على من همه الآخرة ، وذم من كان همه الدنيا وسماه عبداً .

يقول ابن تيمية : كيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعباداً من الدرهم والدينار ، من الشهوات والأهواء والمحوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته .

قوله (تعس) تعس : خاب وخسر ، والتعاسة ضد السعادة .

قوله (عبد الدينار.... عبد الدرهم) وفي رواية في غير الصحيحين (عبد الدنيا)^(١) سماه عبداً لهذه الأشياء ، لأن هذه الأشياء استرقت قلبه حتى صار كالعبد المطيع لها ، أينما توجهه توجه معها ، يرضى ويسخط بسببها ، ولذا قال (إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط) .

قوله (عبد الخميصة عبد الخميصة) قال ابن الأثير : الخميصة ثوب خز أو صوف معلم ، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة ، والخميصة ذات الحمل ثياب لها حمل - هذب - من أي شيء كان أ.هـ بتصرف .

وذكر ابن تيمية أن الخميصة ما يلبس من الثياب ، والقطيفة ما يجلس عليه .

قوله (تعس ، وانتكس) انتكس : انتكست أموره ، وتعسرت عليه .

وهذا يحتمل الدعاء ، ويحتمل الإخبار .

(١) وقد نسبها بعض الشراح لصحيح البخاري .

قوله (وإذا شيك فلا انتفش) ليس المراد الشوكة بذاتها ، بل إنه إذا وقع في مصيبة تجده عاجز حيران ، أو هو دعاء عليه بتعسر أموره حتى اليسيرة ، وهو دعاء عليه بحصول نقيض قصده .

ثم ذكر ﷺ من كان همه الآخرة ، وذكر من صفاته أنه مهتم بما يقربه من الله تعالى ، من عمل الصالحات ، وذكر في الحديث أنه (أخذ بعنان فرسه في سبيل الله) أي : مقود الفرس ، وهو اللجام في الجهاد (أشعث رأسه مغبرة قدماه) فهو لا يهتم بتصفيف شعره ، وإزالة الغبار عن قدميه ، لأنه مشغول بالجهاد في سبيل الله ، فدل أن همه الأجر والدار الآخرة .

وذكر من صفاته أيضاً أنه لا يتطلع إلا إلى رضا الله تعالى والقرب منه ، ولا يتطلع إلى رفعة الدنيا ، فهو (إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقية - وهي مؤخر الجيش - كان في الساقية) .

ولهذا الوصف تفسيران :

١ . أنه لا يطلب رفعة الدنيا ، ولا رئاسة ، بل مبتغاه رضا الله تعالى ، فهو إن وضع في الحراسة رضي بها ، وإن وضع في الساقية رضي بذلك .

٢ . أنه إن وضع في الحراسة قام بعمله أتم القيام ، وأتقنه أتم الإتقان ، وإن وضع في الساقية قام بعمله على وجه التمام ، والإتقان كذلك ، وهذا دليل على إخلاصه ، وإرادته وجه الله والدار الآخرة .

قال شيخنا : والحديث صالح للمعنيين ، يحمل عليهما جميعاً ، والله أعلم .

قوله (إن استئذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع) والمعنى أنه خامل الذكر ، لا يعرفه الوجهاء والكبراء ، فليس له جاه معروف يشفع به ، أو يقدر عند الاستئذان .

قال شيخنا : والحديث قسم الناس إلى قسمين :

الأول : ليس له هم إلا الدنيا ، إما لتحصيل المال ، أو لتجميل الحال ، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته .

الثاني : أكبر همه الآخرة ، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة ، وهو الجهاد في سبيل الله ، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه أ.هـ .

وبين النبي ﷺ في هذا الحديث حال من شغل قلبه بالدنيا ، وهو تعسر الأمور عليه ، وعدم حصوله على مراده .

وفي حديث أنس قال ﷺ : من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت

الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له . رواه الترمذي ، وصححه الألباني .

ورحم الله ابن القيم حين قال : من أنواع العذاب : اشتغال القلب ، والبدن بتحمل أنكد الدنيا ، ومحاربة أهلها إياه ، ومقاساة معاداتهم ، كما قال بعض السلف : من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب .

ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث : هم لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضي ، وذلك أن محبتها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه ، كما في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً أ.هـ .

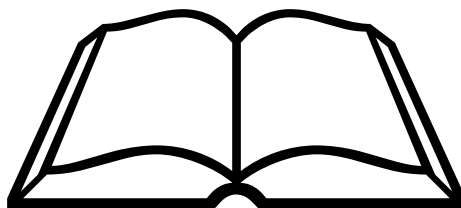
الوجيز في شرح كتاب

التوحيد

(الجزء الرابع)

آخر نسخة ١٤٤٧ هـ

عبدالله محمد الجهنى



٣٧ - بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، أَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتَقُولُونَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ؟ ! .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّتْهُ ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ ؟ الْفِتْنَةُ : الشِّرْكُ ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ .

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ؓ : أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } الْآيَةُ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّا لَسَنَّا نَعْبُدُهُمْ . قَالَ : ((أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟)) فَقُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : ((فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ .

٣٧ - بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

الباب السابع والثلاثون

وخلاصته : بيان أن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى ، وأما غير الله فلا يطاع إلا تبعاً لطاعة الله عز وجل .
ومن أطاع أحداً في تغيير الشرع ، فحرم ما أحل الله معتقداً حرمة ، أو حلل ما حرم الله معتقداً حله فقد خرج من ملة الإسلام ،
لأنه صرف حقاً من حقوق الله (وهو التشريع) لغيره ، وأما إن أطاعه من غير اعتقاد الحل أو الحرمة فهي معصية من المعاصي
لا تصل إلى حد الشرك .

والتحليل والتحريم حق لله وحده ، فمن حلل أو حرم من عنده ، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله ، ويسمى هذا النوع (شرك
التشريع) قال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وفي حق المطيع يسمى (شرك الطاعة) .
قال في تيسير العزيز الحميد : والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام . هـ
ومن ذلك قول الله تعالى (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) أي : إن أطعتموهم في استباحة أكل الميتة التي حرم الله أكلها .
وهذا الباب والذي يليه في بيان مقتضيات ولوازم كلمة التوحيد .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

أوجب الله سبحانه وتعالى على المؤمنين طاعة ولاية الأمر من العلماء والأمرء ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) وهذه الطاعة لهم تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ولذا لم يكرر الفعل (وأطيعوا) في حق أولي الأمر ، ليبين أن طاعتهم ليست مطلقة ، وإنما هي تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وأما إذا أمروا بمعصية فلا سمع ، ولا طاعة ، وفي الحديث المتفق عليه (لا طاعة في معصية ، إنما الطاعة في المعروف) .

قال ابن تيمية : كل من أمر الله بطاعته من عالم ، وأمير ، ووالد ، وزوج ، فلأن طاعته طاعة الله ، وإلا فإذا أمر بخلاف طاعة الله فإنه لا طاعة له أ.هـ

وقال ابن القيم : والتحقيق أن الأمرء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم ، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء ، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم ، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ، فطاعة الأمرء تبع لطاعة العلماء ، ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمرء ، وكان الناس كلهم لهم تبعاً ، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين ، وفساده بفسادهما أ.هـ

وطاعة العلماء والأمرء في تحليل الحرام أو تحريم الحلال لا تخلو من حالين :

١. أن يكون ذلك عن جهل : وهذا لا شك أنه ليس شركاً ، ولكن إن كان جهله عن تفريط أثم على ذلك ، وإن كان جهله ليس عن تفريط لم يَأْثَم ، والإثم على من ضلله .

وهذا كحال كثير من عباد القبور الذين يعتقدون أن فعلهم من أعظم القربات ، بسبب ما يسمعون من علمائهم .

٢. أن يكون ذلك عن علم : وهذا له صورتان :

أ. إن اعتقد أنهم يملكون حق التشريع ، أو أن حكمهم أفضل من حكم الشرع ، أو مثله ، أو يجوز الأخذ به ، فإنه يكفر بذلك الاعتقاد .

ب. إن لم يعتقد ذلك ، لكنه أطاعهم لهوى في نفسه ، أو محابة ، أو خوفاً ، فإنه لا يكفر بذلك ، ولكنه يكون من جنس العصاة^(١) .

قال ابن تيمية : وهؤلاء الذين اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين :

أحدهما : أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله ، فيتبعوهم على التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ، ويسجدون لهم ، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء .

والثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال (إنما الطاعة في المعروف) وقال (على المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية) وقال (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) وقال (من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه) أ.هـ

(١) إلا إذا أطاعهم فيما هو شرك أو كفر ، مع علمه بذلك .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، أَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتَقُولُونَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ؟ ! .

تخریجه : رواه أحمد وغيره بغير هذا اللفظ^(١) .

والشاهد : أن ابن عباس غضب لما قدموا قول أبي بكر وعمر على قول النبي ﷺ في اعتقاده هو ، والله يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) هذا مع أن النبي ﷺ قال : فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا . رواه مسلم ، فكيف بمن قدم قول غيرهما على قول الله ، أو قول رسوله ﷺ .

ومناسبة هذا القول أن ابن عباس كان يرى وجوب التمتع في الحج ، فلما قيل له : إن أبا بكر وعمر يحجان مفردين غضب ، وقال هذا الكلام .

وإن كان الحق في هذه المسألة مع جمهور العلماء ، بل نقل الإجماع على جواز الأنساك الثلاثة .

وفي كلام ابن عباس دلالة على أن الإنسان إذا بلغه الدليل وجب عليه الأخذ به .

قال الشافعي : أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، وما زال العلماء يجتهدون في الوقائع ، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به ، وتركوا اجتهداهم أهـ

وفي كلام ابن عباس رد على مقلدة الفقهاء الذين يتمسكون بأقوال الأئمة ، وإن كان الدليل خلاف ذلك ، وقد تكلم الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد عن هذه المسألة بكلام نفيس ، يحسن الرجوع إليه .

(١) جاء في مسند أحمد عن ابن عباس قال : تمتع النبي ﷺ فقال عروة بن الزبير : نحى أبو بكر وعمر عن المتعة . فقال ابن عباس : أراهم سيهلكون ، أقول : قال النبي ﷺ ويقول : نحى أبو بكر وعمر .

وعند أحمد أيضاً : قال عروة لابن عباس : حتى متى تضل الناس يا ابن عباس ؟ قال : ما ذاك يا عروة ؟ قال : تأمرنا بالعمرة في أشهر الحج ، وقد نحى أبو بكر وعمر . فقال ابن عباس : قد فعلها رسول الله ﷺ . فقال عروة : هما كانا أتبع لرسول الله ﷺ وأعلم به منك .

وعند الطحاوي في شرح معاني الآثار أن عروة قال لابن عباس رضي الله عنهما : أضللت الناس يا ابن عباس . قال : وما ذاك يا عروة ؟ قال : تفتي الناس أنهم إذا طافوا بالبيت فقد حلوا ، وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجهنان ملبين بالحج ، فلا يزالان محرمين إلى يوم النحر . قال ابن عباس : بهذا ضللتهم ، أحدثكم عن رسول الله ﷺ وتحدثوني عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ! فقال عروة : إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا أعلم برسول الله ﷺ منك .

وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فلا يوجد في شيء من كتب الحديث ، وهو من الرواية بالمعنى ، وقد ذكره كذلك ابن تيمية في أكثر من موضع .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّحْتُهُ ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ ؟ الْفِتْنَةُ : الشِّرْكُ ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ .

تخرجه : رواه عنه الفضل بن زياد ، وأبو طالب ، وأثبتته غير واحد من أهل العلم .

والشاهد : أن الإمام أحمد أنكر على الذين يقلدون الأئمة ، ويتعصبون لأقوالهم ، ويتركون الدليل لقول الإمام بزعم أن الإمام أعلم منهم بالحديث .

وسفيان هنا هو الثوري إمام معروف كان له مذهب ، وله أصحاب ، ومذهبه مشهور يذكره العلماء في الكتب التي تذكر فيها مذاهب الأئمة ، كالتمهيد ، والاستذكار ، والمحلى ، والمغني ، والأوسط .

وإنكار الإمام أحمد إنما هو على من كان عنده علم وقدرة على معرفة الدليل وصحته ، بالاطلاع على سنده ، أو على من عرض عليه الدليل وتركه ، وأما العامي فيعذر بالتقليد قبل بلوغه الدليل .

ونبه الإمام أحمد على أن ترك كلام النبي ﷺ ومخالفته سبب لزيغ القلب الذي يكون به الهلاك في الدارين ، قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ولذا نقل الفضل بن زياد عن الإمام أحمد قوله : نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاث وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو (فليحذر...) .

قال ابن تيمية : فإذا كان المخالف عن أمره قد حُذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم ، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم ، ومعلوم أن افضاؤه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية ، فافضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقتزن به من استخفاف بحق الأمر ، كما فعل ابليس لعنه الله أ.هـ.

وقال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) فلما انصرفوا أولاً عن القرآن وتلقيه وتفهمه ، صرف الله قلوبهم عن الحق ، عقوبة لهم .

قال السعدي : فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم ، فكما انصرفوا عن العمل (صرف الله قلوبهم) أي : صدها عن الحق وخذلها (بأنهم قوم لا يفقهون) فقهاً ينفعهم ، فإنهم لو فقهوا لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها ، وانقادوا لأمرها أ.هـ. وقال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) فلما رفضوه أول أمرهم ، ابتلاهم الله بتقليب قلوبهم وأبصارهم ، فلا تقبل الحق ولا تبصره ، عقوبة لهم .

قال ابن كثير : وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى .

وقال السعدي : فإن المتشاغل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة ، لا يوفق له بعد ذلك ، ويحال بينه وبينه .

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه : أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } الْآيَةَ , فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ . قَالَ : ((أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ , وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ ؟)) فَقُلْتُ : بَلَى , قَالَ : ((فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ)) . رَوَاهُ أَحْمَدُ , وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ .

تخریجه : رواه الترمذي ، والبيهقي ، وحسنه ابن تيمية .

ذكر المصنف أن الترمذي حسنه ، والموجود في سنن الترمذي قوله : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .
والشاهد : أن النبي ﷺ سمى طاعة العلماء والعباد في تحريم الحلال وتحليل الحرام (عبادة) وهو ما يسمى (شرك الطاعة) وسبق التفصيل في ذلك .

والقاعدة أن حكم الشيء تابع لحقيقته لا لاسمه ، ولا لاعتقاد صاحبه ، فهم لم يسموا فعلهم عبادة مع أنه كذلك .
ومما أحله النصارى مما حرمه الله : أكل لحم الخنزير ، وإسقاط الختان ، واتخاذ الصور في الكنائس ، وتعظيم الصليب .
وأما اليهود فقد بدلوا حد الرجم في الزنا بالتحميم ، وهو تسويد وجه الزاني والزانية .
وليت المصنف رحمه الله بدأ الباب بهذا الحديث ، أولاً لأنه حديث مرفوع ، وثانياً أنه أشبه بالترجمة .

٣٨ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} الآيات .

وَقَوْلِهِ : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} .

وَقَوْلِهِ : {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} الآية .

وَقَوْلِهِ : {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ)) . قَالَ النَّوَوِيُّ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ ، رُوِيَ فِي كِتَابِ "الْحُجَّةِ" بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ - عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ - ، وَقَالَ الْمُنافِقُ : نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ ؛ لَعَلِمَهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ ، فَنَزَلَتْ : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} الآية

وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : نَتَرَفَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَالَ الْآخَرُ : إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، ثُمَّ تَرَفَعَا إِلَى عُمَرَ ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَكْذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ .

٣٨ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} الآيات .

الباب الثامن والثلاثون

وخلاصته : وجوب إفراد الله بالحكم , والتحاكم , والتحذير من التحاكم إلى غير شريعة الله الخاتمة .
وقد أمرنا الله تعالى بالتحاكم إلى شرعه , وجعل ذلك من مقتضيات الإيمان , كما قال تعالى (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) وحذر سبحانه من التحاكم إلى غيره , وبين أنه ضد الإيمان , فقال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .
والخلق خلق الله , والأمر له , كما قال تعالى (ألا له الخلق والأمر) فهو الذي خلق , وهو الذي يأمر وينهى , فمن يحكم بين خلق الله فليحكم بينهم بحكم الله , وإلا فليخلق خلقاً يحكمهم بما يرى .
قال ابن تيمية : ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر .
قال شيخنا : هذا الباب له صلة قوية بما قبله , لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمرء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله , وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

الحكم بغير ما أنزل الله له حكمان :

١. شرك أكبر : وله عدة صور :

أ. أن يجحد حكم الله . وقد نُقل الإجماع على أنه كفر أكبر .

ب. أن يستحل الحكم بغير ما أنزل الله . وقد نُقل الإجماع على أنه كفر أكبر .

قال ابن تيمية : والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه ، أو حرم الحلال المجمع عليه ، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتداً باتفاق الفقهاء ، وفي مثل هذا نزل قوله على أحد القولين (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) أي : المستحل للحكم بغير ما أنزل الله .

ج. أن يعتقد أنه أفضل وأصلح من حكم الله ، أو يعتقد أنه مثله .

د. أن يعتقد أنه يجوز التحاكم إلى غير الله ، حتى لو اعتقد أن حكم الله أحسن .

يقول ابن أبي العز الحنفي في شرحه للطحاوية : إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب ، وأنه مخير فيه ، أو استهان به ، مع تيقنه أنه حكم الله فهو كفر أكبر .

هـ. أن يشرع للناس أحكاماً يتحاكمون إليها دون حكم الله ، وتعرف هذه المسألة بمسألة التشريع ، أو الاستبدال ، أو وضع القوانين ، ولها حالان :

١. إن كان هذا الاستبدال والتشريع كلياً ، أو أغلبياً بمعنى أنه ينحي حكم الله في كل الأمور ، أو أكثرها ، ويتحاكم إلى غيره ، فلا شك في كفره ، والعياذ بالله ، لأن صورة الشريعة غائبة حينئذ .

٢. إن كان هذا الاستبدال والتشريع ليس كلياً ، وإنما في بعض القضايا والأمور ، مع البقاء على أحكام الشريعة في باقي الأمور ، فالصحيح أنه كفر أكبر لسببين :

الأول : أن في ذلك منازعة لله في شيء من خصائصه ، قال تعالى (إن الحكم إلا لله) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر) .

قال ابن تيمية : (ألا له الخلق والأمر) فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره ، بل الدين كله له ، هو المعبود المطاع الذي لا يستحق العبادة إلا هو ، ولا طاعة لأحد إلا طاعته ، وهو ينسخ ما ينسخه من شرعه ، وليس لغيره أن ينسخ شرعه .

وقال ابن كثير : فله الخلق والأمر ، وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عبادته بما يشاء ، فيحل ما يشاء ، ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : ولما كان التشريع وجميع الأحكام شرعية كانت أو كونية قدرية من خصائص الربوبية ، كما دلت عليه الآيات المذكورة كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع رباً ، وأشركه مع الله .

والثاني : أنه ما استبدل هذا الحكم في هذه القضية ، وجعله حكماً مستمراً ، إلا لأنه يعتقد أنه أصلح للناس من حكم الله .

وفي ذلك تفضيل لحكم البشر على حكم الله ، وهذا الأمر لازم للتشريع ، ولا يصح دفعه .

وهذان الأمران يكونان في التشريع ولو في حكم واحد ، وعليه فالاستبدال لا يكون إلا كفراً أكبر .

وهذا اختيار الشيخ محمد بن إبراهيم ، وشيخنا ابن عثيمين^(١) ، وهو الصحيح ، بل ظاهر كلام ابن تيمية يدل أنه من مسائل الإجماع ، حيث قال رحمه الله : والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه ، أو حرم الحلال المجمع عليه ، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتداً باتفاق الفقهاء أ.هـ فلم يفرق بين كون التبديل عاماً ، أو في بعض الأحكام .

وعليه يُعلم خطورة الحكم بالقوانين الوضعية ، يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم ، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم أ.هـ وانظر رسالة (تحكيم القوانين) لمفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، وفتاوى الشيخ عبد العزيز بن باز المفتي بعده ص ٩٧٧ وما بعدها من جمع الشيخ عبد الله الطيار .

وذهب بعض أهل العلم إلى أنه محرم ، ومن الكبائر ، وهو كفر أصغر ، لأنه اعتقد استحقاق الله للحكم ، ويعلم أنه مخالف للحق ، وعاص لله ، وهو قول مرجوح .

٢. محرم ، وكفر أصغر :

وهو أن يحكم في قضية معينة ، أو بعض القضايا بخلاف الشريعة ، مع اعتقاده بوجوب التحاكم إلى الشريعة ، والحكم بها في غالب حكمه ، كمن يحكم في قضية بخلاف الشريعة طلباً للمال ، أو محاباة لقريب ، أو لهوى في نفسه ، وهذا فسوق ، وعصيان .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : وهذا وإن لم يخرج كفرة عن الملة ، فإنه معصية عظمى ، أكبر من الكبائر ، كالزنا ، وشرب الخمر ، والسرقه ، واليمين الغموس ، وغيرها ، فإن معصية سماها الله في كتابه كفراً ، أعظم من معصية لم يسمها كفراً .

وقال ابن القيم في مدارج السالكين بعد أن ذكر عدة أقوال في تأويل قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) : والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم ، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب ، وأنه مخير فيه ، مع تيقنه أنه حكم الله تعالى ، فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأه ، فهذا مخطيء ، له حكم المخطئين أ.هـ

وأما المتحاكم إلى غير الشريعة اختياراً ، كمن يتحاكم إلى المحاكم القانونية المخالفة للشريعة ، فهو كافراً ، لأنه متحاكم إلى الطاغوت ، وأما إن كان مجبراً جاز له ذلك بشرط أن يكون الحق له .

(١) قال شيخنا : وهناك فرق بين المسائل التي تعتبر تشريعاً عاماً لا يتأتى فيها التقسيم السابق ، وإنما هي من القسم الأول فقط ، لأن هذا المشرع تشريعاً يخالف الإسلام إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد ، كما سبقت الإشارة إليه .

وقال قبلها : ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهجاً يسير عليه الناس ، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات إلا وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق ، ومن المعلوم بالضرورة العقلية ، والجليلة البشرية الفطرية أن الإنسان لا يعدل من منهج إلى منهج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ، ونقص ما عدل عنه .

وقال في الشرح الممتع في باب حكم المرتد ج ١ ص ٤٠٩ : أما من سن هذه القوانين فقد جعل نفسه في مقام الألوهية ، أو في مقام الربوبية ، يعني جعل نفسه رباً مشرعاً ، ومن أطاعه في ذلك ووافق عليه فهو مشرك ، لأنه جعله بمنزلة الرب في التشريع .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } الْآيَات .

في هذه الآية بيان أن من ادعى الإيمان وهو يريد التحاكم إلى غير شرع الله ، فهو كاذب في دعواه ، إذ لا يجتمع الإيمان مع إرادة التحاكم إلى غير شرع الله .

قال ابن كثير : والآية دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة ، وتحاكم إلى ما سواها من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت ههنا . وقال في فتح المجيد : فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله ، أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده ، فقد خلع ربة الإسلام والإيمان من عنقه .

قال ابن تيمية : ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم ، في أصول دينهم وفروعه ، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء ألا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما حكم ، ويسلموا تسليماً . قال تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) . وقال ابن القيم : ومن ذلك قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم ، من الأصول والفروع ، وأحكام الشرع ، وأحكام المعاد ، وسائر الصفات ، وغيرها ، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج ، وهو ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح ، وتنفس له كل الانفساح ، وتقبله كل القبول ، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه : مقابلة حكمه بالرضى والتسليم ، وعدم المنازعة ، وانتفاء المعارضة والاعتراض ، فهنا قد يحكم الرجل غيره وعنده حرج من حكمه ، ولا يلزم من انتفاء الحرج الرضا والتسليم والانقياد ، إذ قد يحكمه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه ، ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه ، والتسليم أخص من انتفاء الحرج ، فالحرج مانع ، والتسليم أمر وجودي ، ولا يلزم من انتفاء الحرج حصوله بمجرد انتفائه ، إذ قد ينتفي الحرج ويبقى القلب فارغاً منه ، ومن الرضى به ، والتسليم له ، فتأمل .

وقال السعدي في تفسير قول الله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) .

يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين (الذين يزعمون أنهم) مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله ، ومع هذا (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت .

والحال أنهم (قد أمروا أن يكفروا به) فكيف يجتمع هذا والإيمان؟! فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور ، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله ، فهو كاذب في ذلك .

وهذا من إضلال الشيطان إياهم ، ولهذا قال (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) عن الحق (فكيف) يكون حال هؤلاء الضالين (إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) من المعاصي ، ومنها تحكيم الطاغوت (ثم جاءوك) معتذرين لما صدر منهم ، ويقولون (إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً) أي : ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين ، والتوفيق بينهم ، وهم كذبة في ذلك ، فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) .

ولهذا قال (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) أي : من النفاق ، والقصد السيئ (فأعرض عنهم) أي : لا تبال بهم ، ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه (وعظهم) أي : بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله ، والترهيب من تركه (وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) أي : انصحهم سراً بينك وبينهم ، فإنه أنجح لحصول المقصود ، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه ، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه فإنه ينصح سراً ، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به .

وَقَوْلِهِ : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } .

وَقَوْلِهِ : { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } الآية .

في هاتين الآيتين نهي عن الفساد في الأرض ، والمراد هنا : ارتكاب المعاصي بأنواعها ، وأعظمها الشرك بالله . قال أبو العالية وغيره في تفسير الآية : لا تعصوا الله في الأرض .

ومن أعظم أنواع الفساد في الأرض : التحاكم إلى غير الله ، والحكم بغير ما أنزل الله .

قال ابن القيم : قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي ، والدعاء إلى غير طاعة الله ، بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله فالشرك ، والدعوة إلى غير الله ، وإقامة معبود غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله هو أعظم الفساد في الأرض .

وقال ابن باز : وصلاح الأرض باتباع الشرع وتحكيمه ، وفسادها بمخالفة أمر الله ، والتحاكم إلى غيره .

ولعل مراد المصنف بإيراد الآية الأولى : بيان حجة المنافقين في ابتغائهم غير شرع الله ، وأنهم أرادوا بذلك الإصلاح .

ويتبين من الآية أن مخالفة شرع الله هو الفساد الأعظم ، وفيها أن هذا الفعل من صفات المنافقين .

وَقَوْلِهِ : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } .

في هذه الآية ينكر الله تعالى على من يريد أن يبدل شريعة الله بالقوانين الوضعية ، ويبين سبحانه أن هذا سفه ، وجهل ، وقدح في العقل ، كيف يترك حكم العليم الحكيم (ألا يعلم من خلق) إلى حكم غيره ! .
وفي الآية بيان أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو منسوب إلى الجهل ، والجاهلية ، سواء تحاكم إلى سلوم وعادات القبائل ، أو إلى قوانين الشرق أو الغرب .

وللعلماء في المراد بـ (الجاهلية) في هذه الآية تفسيران :

- ١ . المراد : الجاهلية الأولى ، حيث كانوا يتحاكمون إلى غير أمر الله ، من العوائد ، والتقاليد ، والسلوم .
- ٢ . المراد : الجهل ، فكل من تحاكم إلى غير الله فهو جاهل ، لأنه تحاكم إلى الجهل ، وترك الرشد والصلاح ، وإن سمي قانوناً ، أو نظاماً ، أو دستوراً ، أو غير ذلك .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ)) . قَالَ النَّوَوِيُّ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ ، رُوِيَ عَنْهُ فِي كِتَابِ " الْحُجَّة " بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

تخریجه : رواه المقدسي في كتاب (الحجة) ، وابن أبي عاصم ، وضعفه ابن رجب ، والألباني .

قال في تيسير العزيز الحميد : ومعناه صحيح قطعاً ، وإن لم يصح إسناده .

وقال ابن باز ، وشيخنا : معناه صحيح .

والشاهد : أن الإنسان لا يكون مؤمناً حتى يكون هواه تبعاً للشرعية ، راضياً بها ، معتقداً لأحقيتها ، وصلاحها ، محباً لها .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ - عَرَفَ أَنَّهُ لَا

يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ - ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ : نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ ؛ لَعَلَّمَهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ

فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ ، فَنَزَلَتْ : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } الْآيَةَ

تخریجه : رواه ابن جرير مرسلًا ، وأكثر أهل العلم على ضعفه .

والشاهد : أن التحاكم إلى غير الشريعة من التحاكم إلى الطاغوت المأمورين باجتنابه ، كما أن هذا الفعل من أفعال اليهود الذين أمرنا بمخالفتهم .

قال ابن باز : فهذا يدل على أن المنافق أشر من اليهود ، لأنهم يلبسون على الناس أمرهم ، ويحصل بهم الضلال ، فصاروا بذلك في الدرك الأسفل من النار .

وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : نَتَرَفَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَالَ الْآخَرُ : إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، ثُمَّ تَرَفَعَا إِلَى عُمَرَ ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَكْذَلِكُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ وَهَذَا

القول مثله ، ولكنه ضعيف لا يثبت ، بل قيل : موضوع ، ولذا ذكره المصنف بصيغة التضعيف .

قال ابن باز : وفي القصة نظر ، لكن المعنى صحيح .

٣٩ - بَابُ مَنْ جَدَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} الآية .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيُّ : حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ ! .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا إِنْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنكَارًا لِذَلِكَ . فَقَالَ : مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ ؟ ! . انْتَهَى .

وَلَمَّا سَمِعَتْ فُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ (الرَّحْمَنَ) أَنْكَرُوا ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} الآية .

٣٩ - بَابُ مَنْ جَدَّ شَبِيْهًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

الباب التاسع والثلاثون

وخلاصته : وجوب إثبات الأسماء والصفات لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه , وهذا من دلائل التوحيد , والتحذير من تعطيلها , أو تعطيل بعضها , أو تمثيلها بصفات المخلوقين , وهذا من قوادح التوحيد .
ويدخل في جحد الأسماء والصفات ما يسميه المتكلمون (التأويل) وهو عندهم (صرف اللفظ عن معناه الظاهر) وحقيقته أنه تعطيل وجحد لمعناه المراد .

وهذا الباب وما بعده من الأبواب إلى نهاية الكتاب في تعظيم جناب الربوبية , وذكر بعض الأمور التي نخدش في تعظيم جناب الرب عز وجل , وبعض هذه الأمور من باب الشرك أو الكفر الأكبر , وأكثرها من باب الشرك الأصغر المتعلق بشرك الألفاظ , ثم ختم الكتاب ببيان عظمة الرب عز وجل , وذكر النصوص الدالة على ذلك في باب (وما قدروا الله حق قدره) .

المسائل المتعلقة بالباب :

الواجب على المسلم إثبات ما أثبتته الله لنفسه , أو أثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات , وعلى المسلم الحذر من ثلاثة مزالق في هذا الباب , وهي :

١. **التعطيل** : ويكون بنفي الصفات الثابتة في النصوص الشرعية , بشبهة أن إثباتها يلزم منه التشبيه , ويسمون هذا الصنيع (تأويلاً) وقد سلك هذا المسلك طوائف متعددة من أهل البدع , فمستقل منه ومستكثر .
 ٢. **التشبيه** : ويكون بتشبيه صفات الله بصفات خلقه , بشبهة أن الله خاطبنا بما نعقل .
 ٣. **التفويض** : ويكون بإقرار لفظ النص الشرعي مع اعتقاد أن معناه لا يعلمه أحد إلا الله .
- وسياتي إن شاء الله في شرح العقيدة الواسطية , والعقيدة الحموية , والعقيدة التدمرية بيان أكثر لهذه المناهج .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } الآية .

والشاهد : أن جحد أسماء الله من شعب الكفر ، ومن صفات الكافرين .
ويأتي ذكر الخلاف في مناسبة نزول هذه الآية في آخر الباب ، وليت المصنف جاء به بعد ذكر الآية .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ : حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ ! .

تخریجه : رواه البخاري ، ولفظه عنده : أتحبون أن يكذب الله ورسوله .

والشاهد : أن العالم ينبغي له أن يراعي أفهام الناس وأحوالهم ، ولا يذكر لهم من العلم إلا ما ينفعهم ، ويتجنب من ذلك ما قد يفتنهم ، أو يشككهم ، أو يحيرهم ، أو يقنطهم ، أو يثبطهم عن العمل ، ونحو ذلك .
وهذا راجع إلى فقه العالم ، كما في قوله ﷺ لمعاذ حين أخبره بأن من قال (لا إله إلا الله) دخل الجنة : لا تبشرهم فيتكلوا . متفق عليه .

وجاء عن الحسن البصري أنه أنكر على أنس بن مالك تحديته الحجاج بحديث العرنيين .

ولذا بوب البخاري : باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا .

وباب : من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ، فيقعوا في أشد منه .

وجاء عند مسلم عن ابن مسعود : إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

وأثر علي الذي استدل به المصنف هنا عام ، واستدلال المصنف به صحيح ، لأنه يمكن أن يدخل في هذا الباب : من يتكلم في أسماء الله وصفاته وأفعاله بشيء من التفصيل الذي لا تدركه عقول البعض .

وينبه أنه لا يعني ذلك ترك ذكر أحاديث الصفات أمام العامة ، فالقرآن فيه من الآيات المضمنة لذكر الصفات الشيء الكثير ، كذكر الاستواء على العرش ، وذكر الوجه ، واليدين ، والقبض ، والطيء ، وغير ذلك ، ولكن يُترفق في ذكر ذلك ، ولا يتعمق فيه ، ولا تذكر أقوال الفرق المخالفة .

قال في تيسير العزيز الحميد : وفي الأثر دليل على أنه إذا خشي ضرراً من تحديث الناس ببعض ما يعرفون^(١) فلا ينبغي تحديثهم به ، وليس ذلك على إطلاق ، وإن كثيراً من الدين ، والسنن يحمله الناس ، فإذا حُذثوا به كذبوا بذلك ، وأعظموه ، فلا يترك العالم تحديثهم ، بل يعلمهم برفق ، ويدعوهم بالتي هي أحسن .

وقال في فتح المجيد : وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم ، وعبادتهم ، ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته ، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي : كالمنعش ، والمرعش ، والتبصرة ، لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب ، وأنفع ، وفيها ما الله به أعلم ، مما لا ينبغي اعتقاده ، والمعصوم من عصمه الله .

(١) كذا في الكتاب ، ولعله (ببعض ما لا يعرفون) .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنَكَارًا لِذَلِكَ . فَقَالَ : مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ ؟ ! . انْتَهَى .

تخرجه : رواه عبد الرزاق في مصنفه ، وابن أبي شيبة في مصنفه ، وابن أبي عاصم في كتابه (السنة) بألفاظ متقاربة ، وليس فيها لفظة (رقة) وقد ذكرها ابن رجب في فتح الباري ، وفي (اختيار الأولى في شرح حديث اختصاص الملائكة الأعلى) . وقال الألباني عن أثر ابن عباس : إسناده صحيح .

والشاهد : أن ابن عباس أنكر على من لم يقبل بعض الصفات ، لأن عقله لم يفهمها ، وأخبر أن الواجب الإيمان بذلك ، ورد علم الكيفية إلى الله تعالى .

وقد جاء في بعض طرق أثر ابن عباس أن الصفة التي أنكرها الرجل هي صفة (القدم) لله تعالى ، كما نقل ابن رجب في فتح الباري عن طاوس قوله : سمعت رجلاً يحدث ابن عباس بحديث أبي هريرة (تحاجت الجنة والنار) وفيه (فلا تمتلي حتى يضع رجله - أو قال قدمه - فيها) رواه عبد الرزاق عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه .

وفي بعض طرقه أيضاً أن الرجل من الخوارج ، كما روى ابن جرير قال : حدثني يونس ، قال أخبرنا سفيان ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس وذكر عنده الخوارج وما يلحقون عند القرآن ، فقال : يؤمنون بمحكمه ، ويهلكون عند متشابهه . وكذا عند ابن أبي شيبة أن ابن عباس ذكر ما يلحق الخوارج عند القرآن .

تنبيه : شككت لفظة (يجِدُون) في اللفظ الذي ذكره المصنف هنا بـ (يجِدُون عند محكمه) وعند ابن أبي شيبة (يؤمنون عند محكمه) .

وفي هذا الأثر بعض الإشكال في مراد ابن عباس بهذا الكلام ، وفي المراد بالمحكم والمتشابهة في كلامه .

ولعل مراده رضي الله عنه أن هؤلاء لم يسلكوا طريقاً واحداً في تعاملهم مع نصوص الصفات ، بل إنهم إن مرت بهم نصوص الصفات التي يعرفون أثبتوها بطمأنينة نفس ، وإن مرت بهم صفة لا يعرفونها أو لا تقبلها عقولهم - لسابقة التشبيه - أنكروها ، وهذا هو طريق أهل الكلام في تعاملهم مع نصوص الصفات .

ويحمل كلامه رضي الله عنه في الأحكام والتشابه على الأحكام والتشابه الخاص ، فالإحكام الخاص هو النص ظاهر الدلالة ، والتشابه الخاص هو النص خفي الدلالة على بعض الناس دون بعض .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب (الرد على الجهمية) عن أبيه قال : حدثنا وكيع ، عن إسرائيل بحديث (إذا جلس الرب على الكرسي) فاقشعر رجل عند وكيع ، فغضب وكيع وقال : أدركنا الأعمش ، وسفيان ، يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها .

وينبغي التنبيه على أن آيات الصفات من محكم القرآن لا من المتشابه ، يقول ابن تيمية : وأما إدخال أسماء الله وصفاته ، أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ، ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين : الأول : من قال : إن هذا من المتشابه ، وأنه لا يفهم معناه ، فنقول : أما الدليل على بطلان ذلك فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ، ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه

قوله (ما فرق) فيها عدة أوجه :

١. ما فَرَّقَ : والمعنى : ما الذي خوفهم من إثبات تلك الصفة , فتكون (ما) استفهامية إنكارية .
 ٢. ما فَرَّقَ , أو ما فَرَّقَ : والمعنى : لم يفرقوا بين الحق والباطل , وتكون (ما) نافية .
- وإتيان المصنف بأثر ابن عباس بعد أثر علي دليل على فقهه , وذلك أنه قد يفهم البعض من أثر علي عدم جواز التكلم في نصوص الصفات , فجاء بكلام ابن عباس ليبين أن الكلام في الصفات مطلوب , مع مراعاة أفهام الناس .

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ (الرَّحْمَنَ) أَنْكَرُوا ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ : { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } الآية .

تخرجه : رواه ابن جرير عن مجاهد مرسلًا .

قال البغوي في تفسيره : قال قتادة ، ومقاتل ، وابن جريج : الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية ، وذلك أن سهيل بن عمرو لما جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح , فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا : لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة - يعنون مسيلمة الكذاب - اكتب كما كنت تكتب (باسمك اللهم) فهذا معنى قوله (وهم يكفرون بالرحمن) .

والمعروف أن الآية مكية ، وسبب نزولها : أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعو : يا الله , يا رحمن , فرجع إلى المشركين فقال : إن محمداً يدعو إلهين , يدعو الله , ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن , ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة , فنزلت هذه الآية , ونزل قوله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ : اسجدوا للرحمن , قالوا : وما الرحمن ؟ قال الله تعالى (قل) لهم يا محمد إنَّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته (هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت) اعتمدتُ (وإليه متاب) أي : توبتي , ومرجعي أ.هـ

وقال ابن الجوزي : قوله تعالى (وهم يكفرون بالرحمن) في سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن النبي ﷺ لما قال لكفار قريش : اسجدوا للرحمن , قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت هذه الآية , وقيل لهم : إن الرحمن الذي أنكرتم هو ربي , هذا قول الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنهم لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية , كتب علي عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم , فقال سهيل بن عمرو : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة , فنزلت هذه الآية , قاله قتادة , وابن جريج , ومقاتل .

والثالث : أن رسول الله ﷺ كان يوماً في الحِجْر يدعو , وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول : يا رحمن , فولى مدبراً إلى المشركين فقال : إن محمداً كان ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين , فنزلت هذه الآية أ.هـ

٤٠ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}.

قَالَ مُجَاهِدٌ - مَا مَعْنَاهُ - : هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي ، وَرِثَتُهُ عَنْ آبَائِي .

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : يَقُولُونَ: لَوْلَا فَلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا .

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آهْلِنَا .

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ : ((أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ...))
الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ - : وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ أَنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ .
قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : هُوَ كَقَوْلِهِمْ : كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً ، وَالْمَالُ حَادِقًا ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ .

٤٠ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}.

وخلاصته : وجوب نسبة النعم إلى الله سبحانه وتعالى ، والثناء بها عليه ، واستعمالها في مرضاته ، وكل هذا من خصال الإيمان ودلائل التوحيد ، وضده من خصال الكفر ودلائل الشرك .

ونسبة النعم إلى غير الله خلل من جهتين : من جهة إضافتها للسبب دون المسبب وهو الله ، ومن جهة تناسي شكر الله عليها . ومقام الشكر من مقامات الدين العظيمة ، وقد ذكر الله أنه قليل من عباده من يقوم به ، قال تعالى (وقليل من عبادي الشكور) وحقيقته كما ذكر ابن القيم أنه مبني على ثلاثة أركان : الاعتراف بها باطناً ، والتحدث بها ظاهراً ، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها ، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكره .

وقال أيضاً : وأما الشكر فهو القيام بطاعته ، والتقرب إليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً أ.هـ .

والله سبحانه هو المستحق للشكر في كل نعمة ، وفي كل حين ، وما يحصل من إنعام على يد الخلق فهو في الحقيقة منه سبحانه ، إذ هو الميسر له ، وهو المنعم على المنعم من الخلق والمنعم عليه ، ولذا قال سبحانه (وما بكم من نعمة فمن الله) .

قال ابن تيمية : فهو - أي : الله سبحانه وتعالى - يستحق الشكر المطلق العام التام ، وإنما يستحق غيره من الشكر ما يكون جزاء على ما يسره الله على يديه من الخير ، كشكر الوالدين ، فإنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس أ.هـ .

والعبد مهما بلغ من الشكر بقلبه ، ولسانه ، وعمله فلن يوفي حق الله أبداً ، ولكن الكريم تفضل علينا بهذا الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عبد الله بن غنام أن رسول الله ﷺ قال : من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة ، أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر . فقد أدى شكر يومه ، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته . قال النووي : سنده جيد ، وحسنه ابن القيم في زاد المعاد ، وحسنه ابن حجر ، وصححه الشوكاني .

وقد أخبر النبي ﷺ أن على كل مفصل من مفاصل الإنسان صدقة يجب أن تؤدي كل يوم ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، يعدل بين الاثنين صدقة ، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة . متفق عليه .

وصلاة الضحى تجزئ عن شكر ذلك ، كما جاء في حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال : يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى . رواه مسلم

المسائل المتعلقة بالباب :

الواجب في النعم أن تنسب لمسديها الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى ، ولا بأس بذكر السبب متأخراً بلفظ التراخي ، كأن يقال : لولا فضل الله ثم مهارة السائق لحصل لنا حادث ، ولولا فضل الله ثم حذق الطبيب لهلك فلان ، ونحو ذلك .

وأما نسبة النعم إلى غير الله فلها عدة أحكام :

١ . نسبة خلق وإيجاد : وهذا لا شك أنه كفر أكبر - سواء كان السبب صحيحاً أم غير صحيح - كنسبة نزول المطر إلى النجم على أنه الموجد له دون الله ، أو نسبة النعم إلى الولي إيجاداً .

٢ . نسبة سبب : وهذا له عدة صور :

أ . نسبتها إلى أسباب غير صحيحة ، كنسبة نزول المطر إلى النجم من باب أنه سبب ، والله الموجد ، ونسبة الشفاء إلى وضع الحلقة أو الخيط ، ونحو ذلك .

وهذا من أنواع الشرك الأصغر ، لأن القاعدة : أن كل من أثبت سبباً لم يجعله الشارع سبباً ، ولا التجربة الظاهرة فقد وقع في الشرك الأصغر .

وهذه القاعدة يذكرها كثير من أهل العلم ، ويشعّب عليها البعض ، والأظهر أنها صحيحة في الجملة .

ب . نسبتها إلى أسبابها الصحيحة ، وهذا له حالان :

إن نسبتها إلى أسبابها الصحيحة وتناسى شكر الله المسبب لهذه الأسباب ، فهذا من كفر النعمة .

مثل : نسبة الشفاء إلى مهارة الطبيب ، ونسبة النجاة إلى حذق السائق ، ونحو ذلك ، مع تناسي استحضار فضل الله في ذلك . أما لو نسبتها إلى أسبابها الصحيحة مستحضراً فضل الله بقلبه لكنه لم يذكر ذلك بلسانه ، كما لو قال : شُفي ولدي بسبب مهارة الطبيب .

فقليل : لا بأس بذلك ، ولا يعد من كفر النعمة ، لحديث العباس حيث قال للنبي ﷺ : هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان

يحوطك ، ويدافع عنك ؟ قال : نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار .

وقيل : لا يصح نسبتها إلى أسبابها الصحيحة استقلالاً ، لتفسير عبدالله بن عون إنكار النعمة بإضافتها إلى غير الله ، وكما في أثر

ابن عباس في الباب التالي أنه جعل من الشرك الخفي قول : لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتني اللصوص ،

واختار هذا القول ابن باز .

وقفات مع أدلة الباب

وقول الله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}.

في هذه الآية يذم الله سبحانه من يعرف أن النعم من عنده ، ثم ينسبها إلى غيره ، أو ينسى شكر الله عليها . ومعنى (ينكرونها) ينكرون إضافتها إلى الله ، وليس المعنى ينكرون وجودها . وهذه الآية وردت في سورة النحل ، والتي يسميها العلماء (سورة النعم) لكثرة ما ذكر الله فيها من النعم الدينية والدنيوية ، وأول ما ذكر فيها من النعم : نعمة إرسال الرسل ، والتي يحصل بسببها الفلاح في الدنيا والآخرة ، ثم ذكر نعمة خلق الإنسان ، وتسوية خلقتة ، ونعمة خلق البهائم وما فيها من مصالح ، من الأكل والشرب والركوب وغير ذلك ، ونعمة السفن التي تُقطع بها البحار ، ونعمة صنوف الزروع التي يأكل منها الخلائق ، وما يحصل لهم منها من عظيم الفوائد الأخرى ، ونعمة النجوم في السماء ، ونعمة المطر ، وأنواع المشارب ، من الألبان والعسل ، ونعمة المساكن وأنواعها حسب حاجة الإنسان وبيئته ، ونعمة أنواع الألبسة للوقاية والجمال ، ونعمة الزواج وما يحصل به من السكن النفسي والحسي ، ونعمة الذرية ، وبعد كل هذه النعم وغيرها يقول تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) ألا ما أكفر الإنسان ، وما أحلم الكريم .

قَالَ مُجَاهِدٌ - مَا مَعْنَاهُ - : هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي ، وَرِثَتُهُ عَنْ آبَائِي .

بعد أن ذكر المصنف هذه الآية أردف ذلك بعبارات للسلف في معنى الآية وتفسيرها ، وقد أخرج هذه الآثار عنهم ابن جرير الطبري ، وجميع هذه المعاني صحيحة ، والآية عامة تشمل هذا وغيره ، وهو من باب التفسير بالمثال . والمصنف وغيره ذكروا كلام مجاهد بمعناه ، ونصه كما في تفسير ابن جرير : قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها ، والسرّابيل من الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ، ثم تنكره بأن تقول : هذا كان لأبائنا، فورثونا إياه . ووجه كون هذا من كفر النعمة أنه لم ينسب الفضل في هذه النعمة لله تعالى . وقد قال ابن القيم في التعليق على قصة الأقرع والأبرص والأعمى حينما قال الأبرص والأقرع (إنما ورثناه كابراً عن كابر) ويأتي الكلام عن القصة في باب مستقل إن شاء الله ، يقول رحمه الله : وكونها مورثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم ، إذ أنعم بها على آباءهم ، ثم ورثهم إياها ، فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه .

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : يَقُولُونَ : لَوْلَا فَلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا .

ووجه كون هذا من كفر النعمة أنه لم ينسب الفضل في هذه النعمة لله تعالى .

قال ابن القيم : فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن ، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرراً ولا نفعاً ، وغايته أن تكون جزء من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده ، والسبب لا يستقل بالإيجاد ، وجعله سبباً هو من نعم الله عليه ، وهو المنعم بتلك النعمة ، وهو المنعم بما جعله من أسبابها ، فالسبب والمسبب من إنعامه ، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب ، وقد ينعم بدونه ، فلا يكون له أثر ، وقد يسلبه تسببته ، وقد يجعل لها معارضاً يقاومها ، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه ، فهو وحده المنعم على الحقيقة .

وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : يَقُولُونَ : هَذَا بِشَفَاعَةِ آلهَتِنَا .

قول عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري في حق المشركين الذين ينسبون النعم إلى شفاعة آلهتهم ، وفي ذلك محذوران :

الأول : شركهم بالأصنام والأولياء ، والثاني : إثباتهم لسبب غير صحيح .

ونسبة النعم إلى مثل هذه الأسباب المتهمة شرك أكبر مخرج من الملة .

يقول ابن الجوزي في تفسير آية الباب : قوله تعالى (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) وفي هذه النعمة قولان :

أحدهما : أنها (المساكن) نعم الله عز وجل عليهم في الدنيا . وفي إنكارها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم يقولون (هذه ورثناها عن آبائنا) روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : نِعَمَ الله : المساكن ، والأنعام ، وسرايل

التياب ، والحديد ، يعرفه كفار قريش ، ثم ينكرونها بأن يقولوا : هذا كان لآبائنا ، ورثناه عنهم ، وهذا عن مجاهد .

والثاني : أنهم يقولون (لولا فلان ، لكان كذا) فهذا إنكارهم ، قاله عون بن عبد الله .

والثالث : يعرفون أن النعم من الله ، ولكن يقولون (هذه بشفاعة آلهتنا) قاله ابن السائب ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أن المراد بالنعمة هاهنا : محمد ﷺ يعرفون أنه نبي ، ثم يكذبونه ، وهذا مروى عن مجاهد ، والسدي ، والزجاج .

قوله تعالى (وأكثرهم الكافرون) قال الحسن : وجميعهم كفار ، فذكر الأكثر ، والمراد به الجميع أهـ

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ : ((أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ...))

الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ - : وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : هُوَ كَقَوْلِهِمْ : كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً ، وَالْمَلَأُ حَادِقًا ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ .

سبق الكلام عن هذا الحديث في باب (الاستسقاء بالأَنْوَاءِ) وسبق التفصيل في ذلك .

ووجه كون هذا من كفر النعمة لأنهم لم ينسبوا الفضل في هذه النعمة لله تعالى ، وهو كذلك شرك أصغر لأنهم نسبوا نعمة نزول

المطر إلى سبب غير صحيح .

وقول بعض السلف (كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً) لأنه كانت في زمنهم السفن تتحرك بالريح عن طريق الأشرعة ،

فيحصل نسبة نعمة النجاة ، أو غيرها إلى الرياح ، أو إلى قائد السفينة . قال بعضهم : سمى ملاحاً ، لأنه لازم الماء الملحي .

٤١ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي الْآيَةِ - : الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكَ ، أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاقِ سَوْدَاءٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ : وَاللَّهِ وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانٌ ، وَحَيَاتِي ، وَتَقُولَ : لَوْلَا كُتَيْبَةُ هَذَا لِأَتَانَا اللَّصُوصُ ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لِأَتَى اللَّصُوصُ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ ، لَا تَجْعَلُ فِيهَا (فُلَان) ^(١) ، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكَ . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ^(٢) أَنَّهُ قَالَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ^(٣) : لِأَنَّهُ أَحْلَفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا .

وَعَنْ خُذَيْفَةَ ^(٤) أَنَّهُ قَالَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ : أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ ، وَجُوزُ أَنْ يَقُولَ : بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ . قَالَ : وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ ، وَلَا تَقُولُوا : لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ .

(١) في أكثر النسخ المطبوعة (فلاناً) قال في تيسير العزيز الحميد : هكذا ثبت بخط المصنف بلا تنوين ، والمعنى : لا تجعل فيها ، أي : في هذه الكلمة (فلان) فتقول : لولا الله وفلان .

بل قل : لولا الله وحده . ولا تقل : لولا الله وفلان . فهو نهي عن ذلك أ.هـ.

(٢) صوابه : عن ابن عمر .

٤١ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

الباب الحادي والأربعون

- وخلاصته : بيان أن الشرك والتنديد يكون في الألفاظ , ولو لم يقصد التنديد .
وفي هذا الباب بيان خطورة الشرك وخفائه , إذ قد يقع الإنسان فيه بلفظ وهو لا يشعر .
وفيه التحذير من بعض الألفاظ التي تتضمن شيئاً من تنقص جناب الربوبية , والتي تجري على ألسنة بعض الناس , وهم يجهلون حكمها , أو لا يشعرون بعظيم جرمها .
وجميع الألفاظ التي ذكرت هنا من باب الشرك الأصغر من حيث الأصل , وهي :
- ١ . الحلف بغير الله .
 - مثل قول : وحياتك يا فلان , أو : وحياتي .
 - ٢ . التسوية بين الله وغيره في اللفظ .
 - مثل قول : ما شاء الله وشئت , أو : لولا الله وفلان , أو : أعوذ بالله وبك , ونحوها .
- وسيفرد المصنف لها أبواباً مستقلة , تأتي قريباً إن شاء الله , ولذا سترجي الكلام عن أحكام الحلف بغير الله , وأحكام التسوية في المشيئة , وأحكام كلمة (لو) عند شرح أبوابها إن شاء الله تعالى , والله الموفق .

وقفات مع أدلة الباب

وقول الله تعالى : { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .

في هذه الآية نهي عن التنديد عموماً فيدخل فيه التنديد الأصغر , كما قال ﷺ للرجل الذي قال له : ما شاء الله وشئت . فقال : أ جعلتني لله نداً .

وكثيراً ما يستدل أهل العلم بمثل ذلك , ومنه صنيع ابن عباس في هذه الآية كما ذكره المصنف هنا . قال المصنف في مسائل الباب : أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر . وهذه الآية من سورة البقرة هي أول آية ورد فيها نهي في القرآن , وهذا النهي نهي عن الشرك الذي هو أعظم الذنوب , كما في حديث ابن مسعود حين سأل النبي ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . متفق عليه

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - فِي الْآيَةِ - : الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكَ , أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ , وَهُوَ أَنْ تَقُولَ : وَاللَّهِ وَحْيَاتِكَ يَا فُلَانٌ , وَحَيَاتِي , وَتَقُولَ : لَوْلَا كُتَيْبَةُ هَذَا لَا تَأْتَانَا اللَّصُوصُ , وَلَوْلَا الْبُطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللَّصُوصُ , وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ , وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ , لَا تَجْعَلُ فِيهَا (فُلَان) , هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

تخریجه : رواه ابن أبي حاتم , وقال في تيسير العزيز الحميد : وسنده جيد .
والشاهد : أن ابن عباس فسر الأنداد في الآية بما ذكره من صور الشرك الأصغر , وهذا من باب التفسير بالمثال , وهو معروف ومشهور جداً عند الصحابة .
وفي هذا الأثر بيان خطر شرك الألفاظ , وشدة خفاءه , حتى إن ابن عباس ذكر أنه أخفى من أثر النمل على الصفاة - الصخرة - السوداء في ظلمة الليل , وأثر النمل لا يظهر على الصخر , فكيف إن كان الصخر أسود , وكان ذلك ليلاً .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ أَنَّهُ قَالَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ , وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ .

تخریجه : رواه أحمد , وأبو داود , والترمذي وحسنه , والحاكم وصححه , وصححه الألباني .
والحديث عن ابن عمر , وليس عن عمر , وجاء في مسند أحمد عن عمر أن النبي ﷺ قال : من حلف بشيء دون الله فقد أشرك .
والشاهد : تحريم الحلف بغير الله , وأنه من أنواع الشرك الأصغر , ويأتي الكلام عنه قريباً إن شاء الله .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَخْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا .

تخریجه : رواه عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والطبراني ، وصححه الألباني .

والشاهد : خطورة الحلف بغير الله ، وخطورة الشرك ولو كان أصغر .

وكلام ابن مسعود يدل على فقه الصحابة في الدين ، ومعرفتهم بمراتب الذنوب ، إذ إن الكذب محرم ، والحلف بغير الله شرك ، وجنس الشرك أغلظ من جنس الكبائر .

قال ابن تيمية : وتوحيد معه كذب خير من شرك معه صدق .

وقال المصنف في مسائل الباب : أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس .

**وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ)) .
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .**

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وصححه النووي ، والألباني . وقال في تيسير العزيز الحميد : وهو صحيح المعنى بلا ريب .

والشاهد : تحذير النبي ﷺ أمته من قول (ما شاء الله وشاء فلان) وإرشادهم إلى قول (ما شاء الله ثم شاء فلان) وهذا على وجه الجواز ، أما على الوجه الأكمل فقول (ما شاء الله وحده) ويأتي الكلام عن هذا في باب مستقل قريباً إن شاء الله .

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ : أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ : بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ . قَالَ : وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ ، وَلَا تَقُولُوا : لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ .

تخریجه : رواه عبد الرزاق ، وابن أبي الدنيا .

والشاهد : أن ابراهيم النخعي كان يكره قول (أعوذ بالله وبك) ويجوز (أعوذ بالله ثم بك) لأن الواو تفيد المساواة ، بخلاف (ثم) فتفيد التراخي .

وهنا يجدر التنبيه على أن الاستعاذة عبادة قلبية لا يجوز صرفها لغير الله ، سواء كانت مفردة ، كقول (أعوذ بك) أو بالواو ،

كقول (أعوذ بالله وبك) أو بـثم ، كقول (أعوذ بالله ثم بك) ومن صرف ذلك لغير الله فقد وقع في الشرك الأكبر .

ومراد ابراهيم النخعي هنا هو اللجوء إليه في الأمور الظاهرة فيما يقدر عليه مثله ، مع اعتماد القلب على الله وحده .

وكذلك كان ابراهيم النخعي يكره قول (لولا الله وفلان) ويجوز (لولا الله ثم فلان) ويأتي الكلام عن ذلك قريباً في باب مستقل إن شاء الله تعالى .

والكرهية عند السلف المتقدمين كثيراً ما تستعمل بمعنى التحريم .

٤٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ لَمْ يَقْنَمْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

عَنْ ابْنِ عُمرَ عَنْهُمَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ)) . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٗ بِسَنَدٍ حَسَنٍ .

٤٢ - بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ لَمْ يَقْنَمْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

الباب الثاني والأربعون

وخلاصته : أن من تعظيم الله : الرضا والقناعة لمن حُلف له بالله ، ومن لم يرض بذلك فلنقص توحيدهِ ومعرفته بالله جل وعلا . وفي الصحيحين أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً يسرق ، فقال له : سرقت ؟ قال : كلا والله الذي لا إله إلا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله ، وكذبت عيني . ولفظ مسلم : وكذبت نفسي^(١) .

وذكر المصنف في هذا الباب حديثاً واحداً ، وهو قول النبي ﷺ : لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله . رواه ابن ماجه ، وحسنه ابن حجر ، وصححه الألباني . وهذا الحديث يشتمل على ثلاث مسائل ، وهي :

- ١ . تحريم الحلف بغير الله . في قوله ﷺ : لا تحلفوا بآبائكم^(٢) .
 - ٢ . وجوب الصدق لمن حلف بالله . في قوله ﷺ : من حلف بالله فليصدق .
 - ٣ . وجوب الرضا لمن حُلف له بالله . في قوله ﷺ : ومن حُلف له بالله فليرض .
- وكل هذه الأمور تدل على تعظيم الله تعالى .

(١) قال ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) : وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جُوز أن يكون قد أخذ من ماله ، فظنه المسيح سرقة ، وهذا تكلف ، وإنما كان الله سبحانه وتعالى في قلب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذباً ، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته ، وحمته بصره ، فرد التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين بالله ، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل ، وقال : ما ظننت أحداً يحلف بالله تعالى كاذباً . وقال في كتابه (بدائع الفوائد) : قول النبي ﷺ : رأى عيسى رجلاً يسرق فقال : سرقت ؟ قال : كلا والذي لا إله إلا هو ، فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت بصري . قيل هو استفهام من المسيح لا أنه إخبار . والمعنى : أسرقت ؟ فلما حلف له صدقه ، ويرد هذا قوله : وكذبت بصري .

وقيل : لما رآه المسيح أخذ المال بصورة السارق فقال : سرقت ؟ قال : كلا . أي ليس بسرقة . إما لأنه ماله ، أو له فيه حق ، أو لأنه أخذه لقلبه ويعيده ، والمسيح عليه السلام أحال على ظاهر ما رأى ، فلما حلف له قال : آمنت بالله وكذبت نفسي . في ظني أنها سرقة ، لا أنه كذب نفسه في أخذه المال عياناً ، فالتكذيب واقع على الظن لا على العيان ، وهكذا الرواية (كذبت نفسي) ولا تنافي بينها وبين رواية (وكذبت بصري) لأن البصر ظن أن ذلك الأخذ سرقة فأنا كذبت في ظن أنه رأى سرقة ولعله إنما رأى أخذاً ليس بسرقة .

وفي الحديث معنى ثالث ولعله أليق به ، وهو أن المسيح عليه السلام لعظمة وقار الله في قلبه وجلاله ظن أن هذا الخالف بوحداية الله تعالى صادقاً ، حمله إيمانه بالله على تصديقه ، وجوز أن يكون بصره قد كذبه وأراه ما لم ير ، فقال : آمنت بالله وكذبت بصري ، ولا ريب أن البصر يعرض له الغلط ورؤية بعض الأشياء بخلاف ما هي عليه ، ويخيل ما لا وجود له في الخارج ، فإذا حكم عليه العقل تبين غلطه ، والمسيح صلوات الله عليه وسلامه حكم إيمانه على بصره ، ونسب الغلط إليه ، والله أعلم .

(٢) وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الحلف بغير الله مكروه ، وذلك لما ورد من حلف النبي ﷺ بغير الله ، كما في حديث (أفلق وأبيه إن صدق) ولأن الله أقسم في القرآن ببعض مخلوقاته . وهذا القول في غاية الضعف ، ولذا قال القرطبي : وظاهر النهي التحريم ، ولا ينبغي أن يختلف في تحريمه .

وقال في تيسير العزيز الحميد : وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته ، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره . قال ابن عبد البر : لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع . انتهى ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين : إن ذلك على سبيل كراهة التنزيه ، فإن هذا قول باطل ، وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر ، أو شرك ، بل ذلك محرم ، ولهذا اختار ابن مسعود رضي الله عنه أن يحلف بالله كاذباً ، ولا يحلف بغيره صادقاً ، فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب ، مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل ، فدل ذلك أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات .

فإن قيل : إن الله تعالى أقسم بالمخلوقات في القرآن ؟

قيل : ذلك يختص بالله تبارك وتعالى ، فهو يقسم بما شاء من خلقه ، لما في ذلك من الدلالة على قدرة الرب ، ووحدانيته ، وإلهيته ، وعلمه ، وحكمته ، وغير ذلك من صفات كماله ، وأما المخلوق فلا يقسم إلا بالخالق تعالى ، فالله تعالى يقسم بما يشاء من خلقه ، وقد ثمانا عن الحلف بغيره ، فيجب على العبد التسليم والإذعان لما جاء من عند الله أ.هـ .

وقد حمل أهل العلم قوله ﷺ : (ومن حُلف له بالله فليرض) على عدة محامل :

١. أن ذلك في باب الخصومات .

كما لو استدان منه شخص مبلغاً من المال , ولم يوثق ذلك بكتابة , ولا شهود , فلما طلبه منه قال له : ليس لك عندي شيء . فلو رفعه للقاضي فسيطلب منه القاضي البينة , فإن لم تكن له بينة طلب القاضي من المدعى عليه الحلف , فإن حلف برأه

القاضي قضاءً . وهذه الصورة لها جهتان :

أ. من الناحية الشرعية : يجب الرضا بذلك .

والمعنى : الرضا بحكم الشرع , وعدم الاعتراض عليه , وذلك لأنه فرط , ولم يأت ببينة , من : الاستشهاد , أو الكتابة , أو نحو ذلك , وحُكم الشرع أن البينة على المدعي , واليمين على من أنكر .

ب. من الناحية الحسية : لا يجب الرضا بحلفه إن علم كذبه , لكن يجب الرضا بالحكم .

ولذا قال ﷺ لحويصة ومحبيصة : فتبرئكم يهود بخمسين يميناً . قالوا : وكيف نقبل أيمان قوم كفار؟ فلما رأى ذلك رسول الله أعطى عقله . متفق عليه , واللفظ لمسلم .

وفي صحيح مسلم عن علقمة بن وائل , عن أبيه , قال : جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي ﷺ فقال الحضرمي : يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي , فقال الكندي : هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق , فقال رسول الله ﷺ للحضرمي : ألك بينة؟ قال : لا , قال : فلك يمينه , قال : يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه , وليس يتورع من شيء , فقال : ليس لك منه إلا ذلك , فانطلق ليحلف , فقال رسول الله ﷺ لما أدبر : أما لئن حلف على ماله ليأكله ظمأً , ليلقين الله وهو عنه معرض .

٢. أن ذلك في حال علم صدق الحالف أو لم يعلم كذبه , أما لو علم كذبه أو غلب على ظنه أنه كاذب فلا يدخل في الحديث , قال تعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وفي قراءة (فتثبتوا) .

٣. أن يرضى بالحلف بالله ولا يطلب من الحالف أن يحلف بغير الله , أو يحلف بالطلاق , ونحو ذلك .

قال السعدي : وكذلك إذا بُذلت له اليمين بالله فلم يرضَ إلا بالحلف بالطلاق , أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات , فهو داخل في الوعيد , لأنه سوء أدب , وترك لتعظيم الله , واستدراك على حكم الله ورسوله .

قال في تيسير العزيز الحميد : وحُدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب عن اليمين في الدعاوى , كمن يتحاكم عند الحاكم فيحلف على خصمه باليمين , فيحلف , فيجب عليه أن يرضى أ.هـ

المسائل المتعلقة بالباب :

أولاً : تحريم الحلف بغير الله :

أجمع أهل العلم على أنه لا يجوز الحلف بغير الله ، سواء كان بالنبي ﷺ ، أو بالكعبة ، أو بالأمانة ، أو بالحياة (بحياتي أو بحياتك أو بحياة أبي) أو بالشرف (بشرفي أو بشرفك) أو بصلاتي ، أو بغير ذلك .

قال ابن عبد البر : لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع .

قال ﷺ : من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك . رواه الترمذي وحسنه .

وفي الصحيحين مرفوعاً : ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت .

والحلف هو تأكيد الكلام بذكر معظم ، وله أحكام :

١ . إن كان بالله ، وكان صادقاً فهو جائز ، ولا ينبغي الإكثار منه ، وإنما يكون عند الحاجة .

٢ . إن كان بالله ، وكان كاذباً فهو محرم .

٣ . إن كان بغير الله ، وقصد تعظيمه كتعظيم الله ، أو اعتقد جواز الحلف به ، فهو شرك أكبر .

٤ . إن كان بغير الله ، ولم يقصد التعظيم ، فهو شرك أصغر ، كما هو الحال من جريان الحلف بغير الله على السنة بعض الناس ،

كحلفهم بالنبي ، أو الكعبة ، أو غير ذلك .

مسألة : وأما قوله ﷺ : أفلح وأبيه إن صدق .

فوجهها العلماء عدة توجيهات ، وأقربها أن يقال : كان معروفاً عند العرب الحلف بالآباء ، وكانوا يحلفون بذلك في أول الإسلام ،

بل في أول الهجرة إلى المدينة ، ثم نُهي عن ذلك ونُسخ ، كما في الصحيحين : ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم .

وهذا اختيار صاحب تيسير العزيز الحميد ، وابن باز ، وشيخنا^(١) .

وينبه أنهم لم يكونوا يقصدون حقيقة الحلف ، الذي هو تعظيم الآباء ، لأن الأب ربما كان كافراً ، فيكون هذا مما يجري على

اللسان بدون قصد تعظيم المحلوف به ، والله أعلم .

(١) وقيل : هذه اللفظة شاذة لا تثبت ، كما اختاره ابن عبد البر ، والألباني .

وقيل : هو تصحيف ، والأصل : أفلح والله إن صدق . وكانوا لا يكتبون النقاط على الحروف .

وهذا يرد ما جاء عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أي الصدقة أعظم أجراً ؟ فقال : أما وأبيك لتنبأته رواه مسلم .

وقيل : إنه من خصائص النبي ﷺ .

وقيل : إنه على حذف مضاف . والتقدير : أفلح ورب أبيه .

وأجاب عن هذه الأوجه والأقوال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد .

بيان حكم بعض الصور التي يكثر السؤال عنها :

١. قول (بالأمانة ، أو بأمانتي) : إن قصد اليمين فلا يجوز ، وهو شرك أصغر ، لقوله ﷺ : من حلف بالأمانة فليس منا . رواه أحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني .
وإن قصد : أخبرني بأمانة وصدق ، جاز . والأولى التنزه عن ذلك ، كما أفتت بذلك اللجنة الدائمة .
٢. قول (بدمتي) : إن قصد اليمين فلا يجوز ، وهو شرك أصغر .
وإن قصد (في دمتي) جاز ، كما في حديث : ولكن اجعل لهم ذمتك ، وذمة أصحابك . رواه مسلم .
قال شيخنا : قول الإنسان (بدمتي) لا يراد به الحلف ، ولا القسم بالذمة ، وإنما يراد بالذمة (العهد) يعني : هذا على عهدي ، ومسئولتي ، هذا هو المراد بها ، أما إذا أراد بها القسم ، فهي قسم بغير الله ، فلا يجوز ، لكن الذي يظهر لي أن الناس لا يريدون بها القسم أهـ .
والأولى التنزه عن ذلك من باب (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) فيترك اللفظ المشتبه إلى اللفظ الواضح .
٣. قول (وأيم الله) أو (وأيم الحق) : فهذه جائزة ، لأن (أيم) يعني : يمين . فتكون من الحلف بالله .
٤. قول (لعمر الله) أو (لعمر الحق) : فهذه جائزة ، لأن العمر يقصد بها الحياة ، وقد اختلف أهل العلم في كون هذه الصيغة (لعمر) من الحلف أو لا ، كما يأتي ، وعلى كل تقدير فهي جائزة ، لأنها لو كانت حلفاً فهي من باب الحلف بصفة من صفات الله .
٥. قول (لعمرى) أو (لعمرى) : اختلف أهل العلم في هذه اللفظة في موضعين :
الأول : في حكم هذه اللفظة : هل هو جائز ، أو ممنوع .
وأكثر العلماء على الجواز ، وقد وردت عدة أحاديث صحيحة تبين استعمال النبي ﷺ والصحابة لهذه الكلمة .
وقد سئل الإمام أحمد عنها فقال : ما أعلم به بأساً .
وذهب إبراهيم النخعي ، والحسن إلى المنع .
قال إسحاق : تركه أسلم لما قال إبراهيم يعني - النخعي - : كانوا يكرهون ، ويقولون : ليقل : لعمر الله .
الثاني : هل هذه اللفظة تعتبر يميناً أو لا ؟
وأكثر العلماء على أنها ليست يميناً ، ولكن العرب استعملوها للتأكيد كاستعمالهم لليمين ، فتكون بمعنى اليمين ، وليست يميناً .
وللشيخ حماد الأنصاري رسالة باسم (القول المبين في أن لعمرى ليست نصاً في اليمين) وقال فيها : إن لفظ (لعمرى) ليس يميناً شرعياً ، بل هو يمين لغوية ، لخلوه من حروف القسم المعروفة ، المحصورة في الواو ، والباء ، والتاء هذا مع ثبوت الحديث بأن النبي ﷺ نطق بها ، وصح عن بعض أصحابه رضي الله عنهم التفوه بها ، منهم : ابن عباس ، وعثمان بن أبي العاص ، وعائشة أم المؤمنين ، وأسما بنت أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وغيرهم رضي الله عنهم .
وكذلك صح عن التابعين لهم بإحسان استعمالها ، منهم : عطاء ، وقتادة ، وغيرهما ولم يثبت عن أحد حسب الاستقراء مخالفتهم ، إلا ما حكي عن الحسن البصري ، وإبراهيم النخعي .
قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن مغيرة ، عن إبراهيم أنه كان يكره (لعمرى) ولا يرى (لعمرى) بأساً .
قال معمر : وكان الحسن يقول : لا بأس (وأيم الله) ويقول قد قال النبي ﷺ (وأيم الذي نفسي بيده) .

وهما محجوجان بالنصوص الواردة في جواز التكلم بها ، إن لم نحمل قولهما على عدم بلوغ النصوص إليهما ، وهذا هو الأظهر المظنون بمثلتهما ، أو على أنهم منعا ذلك سداً للذريعة .

وأما قياس إبراهيم النخعي هذه الكلمة (لعمرى) على قولك لإنسان (وحياتي) فقياس مع فارق ، وهو باطل - كما هو معروف في فن الأصول - لأن الأخيرة معها واحد من حروف القسم التي أجمع على أنها صريحة في اليمين ، بخلاف تلك ، أي (لعمرى) فإن اللام فيه ليست من أدوات القسم لما تقدم ، بل مثل هذه اللفظة تعتبر جرياً على رسم اللغة ، تُذكر لتأكيد مضمون الكلام ، وترويضه فقط ، لأنه أقوى من سائر المؤكدات ، وأسلم من التأكيد بالقسم بالله ، لوجوب البر به ، وليس الغرض فيه اليمين الشرعي ، فصورة القسم على هذا الوجه المذكور لا بأس به ، ولهذا شاع بين المسلمين استعمالها أ.هـ

٦. قول (بوجهي) أو (بوجهك) : إن قصد اليمين فلا تجوز ، وهو من الشرك الأصغر ، لأنه حلف بغير الله ، وإن كان يقصد بقول (بوجهي : أتعهذ والتزم ، أو : من أجلي) أو كان يقصد بقول (بوجهك : طلب الحماية) فلا تدخل في اليمين .

٧. قول (بحق الله عليك) أو (بحق القرآن) : إن قصد اليمين فلا تجوز ، وهو من الشرك الأصغر ، لأنه حلف بغير الله .

قال الشيخ ابن باز : لا يحلف بحق الله ، يحلف بالله ، والله ، بعزة الله ، والرحمن الرحيم ، وخالق كل شيء ، ورب العالمين ، والذي نفسي بيده ، ولا يحلف بحق الله ، لأن حق الله علينا تعظيمه وطاعته ، وتعظيمه وطاعته من أفعالنا ، من أفعال المخلوقين ، حق الله علينا توحيد طاعته وتعظيمه ، وتوحيدنا له وتعظيمنا له وطاعتنا له من أفعالنا وهي مخلوقة ، فمعناه الحلف بالمخلوقات ، فلا يصح الحلف ، لا يكون إلا بالله وحده ، أو بأسمائه وصفاته .

وفي فتوى اللجنة الدائمة : ليس لأحد أن يحلف بحق القرآن ، لأن حق القرآن تعظيمه منا والإيمان بأنه كلام الله سبحانه ، وهذه كلها من أفعالنا ، والمخلوق لا يُحلف به ولا بأفعاله ، وإنما الحلف يكون بالله سبحانه ، أو باسم من أسمائه ، أو صفة من صفاته سبحانه ، لقول النبي ﷺ : من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله أو ليصمت .

٨. قول (والمصحف ، أو بالقرآن) وهذا جائز ، لأن القرآن كلام الله ، والحلف بصفات الله جائز^(١) ، والأولى تركه ، لأنه ربما يخطر ببال الحالف أو السامع أن المصحف هو الورق والخبر ، فيكون من الحلف بالمخلوق .

وأما الحلف برب المصحف فلا يجوز ، لأن القرآن كلام الله وهو صفته ، وليس مربوباً له ، وقد جاء أن ابن عباس كان في جنازة فلما وُضع الميت في لحده قام رجل فقال (اللهم رب القرآن اغفر له) فوثب ابن عباس فقال : مه ، القرآن منه . زاد الصهبي في حديثه : فقال ابن عباس : القرآن كلام الله وليس بمربوب ، منه خرج وإليه يعود .

(١) أما الصفات الخيرية ففيها خلاف .

ثانياً : الكذب في الحلف , وهو : الإخبار بخلاف الواقع , وهو محرم بنصوص الكتاب والسنة , ويشتمد التحريم إذا كان الكذب مع إقسامه بالله على صدقه , والعياذ بالله .

قال السعدي : فالكذب , وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد .

ثالثاً : الرضا لمن حُلف له بالله : وسبق الكلام عنه .

٤٣ - بَابُ قَوْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

عَنْ قَتِيلَةَ : أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ . فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا : وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ . رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ .

وَلَهُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ ، قَالَ : ((أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا ؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)) .

وَلَا بِنِ مَا جَهَ عَنِ الطُّفَيْلِ - أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا - قَالَ : رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ ، قُلْتُ : إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ . قَالُوا : وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ . ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى ، فَقُلْتُ : إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ . قَالُوا : وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ . فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، قَالَ : ((هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا ؟)) . قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ((أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَهْأَكُمُ عَنْهَا ؛ فَلَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)) .

٤٣ - بَابُ قَوْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

الباب الثالث والأربعون

وخلاصته : أنه لا يجوز عطف مشيئة العبد على مشيئة الله بالواو الدالة على التسوية^(١) , وأن ذلك من شرك الألفاظ الذي هو من أنواع الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد .

المسائل المتعلقة بالباب :

مراتب نسبة المشيئة كالتالي :

- ١ . الأكمل والأفضل : إفراد الله بالمشيئة . فيقال : ما شاء الله وحده . أو : هذا بمشيئة الله .
- كما في حديث ابن عباس (بل ما شاء الله وحده) وكما في حديث الطفيل (ولكن قولوا : ما شاء الله وحده) وسبق قول ابن عباس (لا تجعل فيها فلاناً) .
- ٢ . الجائز : عطف مشيئة العبد على مشيئة الله بـ (ثم) فيقال : ما شاء الله ثم شاء فلان . كما في حديث الباب أن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت , وكما في الباب السابق في حديث حذيفة مرفوعاً (لا تقولوا : ما شاء الله و شاء فلان , ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان) .
- ٣ . شرك أصغر : عطف مشيئة العبد على مشيئة الله بالواو . كقول : ما شاء الله وفلان , أو : ما شاء الله و شاء فلان .
- قال في تيسير العزيز الحميد : وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك (وقول ما شاء الله ثم شئت) وإن كان الأولى قول (ما شاء وحده) كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره .
- وقال ابن باز : الأكمل (ما شاء الله وحده) , و (ما شاء الله ثم شاء فلان) وهذا جائز , و (ما شاء الله و شاء فلان) لا يجوز , وهو من الشرك الأصغر .
- قال السعدي في القول السديد : والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها , ونفع الأسباب إلى إرادة الله , وإلى الله ابتداء , ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه , فيقول : لولا الله ثم كذا , ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره .
- فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله نداً في قلبه , وقوله , وفعله أ.هـ

(١) حتى لو لم يقصد التسوية , لأن الصحابة الذين كانوا يقولون (ما شاء الله و شاء محمد) لم يكونوا يقصدون التسوية بين مشيئة الله ومشيئة الرسول ﷺ .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ قُتَيْبَةَ : أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُمْ ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةَ . فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا : وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتُمْ . رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ .

تخریجه : رواه النسائي وصححه ، وصححه ابن حجر ، والألباني .

والشاهد : أن النبي ﷺ أقر اليهودي على أن الحلف بغير الله ، والتسوية بين الخالق والمخلوق في المشيئة من الشرك .

وفي الحديث دليل على أنه ينبغي قبول الحق ممن جاء به أياً كان قصده .

قال في تيسير العزيز الحميد : وفي الحديث أن اليهود يعرفون الشرك الأصغر ، وكثير ممن يدعي الإسلام لا يعرف الشرك الأكبر ،

بل يصرف خالص العبادات من الدعاء ، والذبح ، والنذر لغير الله ، ويظن أن ذلك من دين الإسلام .

وقُتَيْبَةُ : بضم القاف : هي بنت صيفي الأنصارية ، وقيل : الجهنية .

وَلَهُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُمْ ، قَالَ : ((أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا ؟ بَلَى مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)) .

تخریجه : رواه أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبخاري في الأدب المفرد ، وصححه الألباني .

والشاهد : أن النبي ﷺ أنكر على من قال : ما شاء الله وشئتم ، وسمى ذلك تنديداً .

قال ابن القيم في إعلام الموقعين : ولهذا قال للذي قال له (ما شاء الله وشئتم) : أجعلتني لله نيداً ، فحسم مادة الشرك ، وسد

الذريعة إليه في اللفظ كما سدها في الفعل والقصد .

وقال أيضاً : هذا مع أن الله أثبت للعبد مشيئة ، فكيف بمن يقول : أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا في حسب الله وحسبك ،

وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض.....فوازن بين هذه الألفاظ ، وبين

قول القائل : ما شاء الله وشئتم ، ثم انظر أيهما أفحش أ.هـ

وَابْنِ مَاجَهَ عَنِ الطُّفَيْلِ - أَخِي عَائِشَةَ لَأُمِّهَا - قَالَ : رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ ، قُلْتُ : إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ . قَالُوا : وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ . ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى ، فَقُلْتُ : إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ . قَالُوا : وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ . فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، قَالَ : ((هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا ؟)) . قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : ((أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَتُحَاكَمَ عَنْهَا ؛ فَلَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)) .

تخرجه : رواه أحمد ، وابن ماجه ، وصححه البوصيري إسناده ، وصححه الألباني .

قال في تيسير العزيز الحميد : هذا الحديث لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ عن الطفيل ، إنما رواه عن حذيفة... فقد تبين أن هذا الحديث المذكور لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ ، لكن رواه أحمد ، والطبراني بنحو مما ذكره المصنف أ.هـ والشاهد : أن النبي ﷺ أمر الصحابة أن يتركوا لفظ (ما شاء الله وشاء محمد) وأن يقولوا (ما شاء الله وحده) . وجاء عند أحمد بعد قوله (رأيت) ، (فيما يرى النائم) ويدل أنها رؤيا منام قوله في هذا الحديث : فلما أصبحت . تنبيه : قوله ﷺ هنا (كان يمنعني كذا وكذا أن أتُحاكَمَ عنها) جاء عند أحمد أنه كان يمنعه الحياء . قال شيخنا : ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل ، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك . وبنحو ذلك قال الشيخ ابن باز ، وكذا في تيسير العزيز الحميد ، وفتح المجيد . إذن الحياء كان من الله ، وليس من الصحابة ، وهذا من كمال الأدب والتعظيم لله جل وعلا . قوله (عن الطفيل أخي عائشة لأُمِّها) الطفيل : هو ابن عبدالله بن سخرية الأزدي ، وليس هو الدوسي ، وأبوه جاء إلى مكة وحالف أبا بكر قبل البعثة ، ولما مات تزوج أبو بكر امرأته (أم رومان) وأنجبت له عبد الرحمن ، وعائشة ، ولهذا كان الطفيل أخو عائشة من الأم . والطفيل لا يُعرف له إلا هذا الحديث .

٤٤ - بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} الآية .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ ؛ أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)) . وَفِي رِوَايَةٍ : ((لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ)) .

٤٤ - بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

الباب الرابع والأربعون

وخلاصته : أن سب الدهر محرم على كل حال سواء قصد أم لم يقصد^(١) ، لأن فيه عود السب على الله تعالى ، لأن الدهر لا يفعل وإنما يفعل به ، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى .

قال ابن القيم : فسبب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما : إما سبه لله ، أو الشرك به ، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك ، وهو يسب من فعله ، فقد سب الله .

المسائل المتعلقة بالباب :

سب الدهر ، ونسبة الشر إليه له أحكام :

١. أن يسب الدهر على أنه فاعل للحوادث : وهذا شرك أكبر ، لاعتقاد متصرف مع الله تعالى .
 ٢. أن يسب الدهر على أنه محل للحوادث ، وليس فاعلاً لها : وهذا محرم ، ويدل على سفه العقل .
 ٣. أن يخبر عن الدهر على وجه اللوم ، والتأفف : وهذا لا يجوز .
 - مثل : يوم أقشر ، أو يوم أغبر ، أو يوم نحس ، أو يوم أسود .
 ٤. أن يخبر عن الدهر دون اللوم ، والتأفف : وهذا جائز .
 - مثل : عام المجاعة ، وعام الحزن ، ويوم شديد الحرارة ، أو : شديد البرودة .
- كما قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد) وقال عن لوط عليه السلام (هذا يوم عصيب) ومن ذلك قوله تعالى (في أيام نحسات) وقوله تعالى (في يوم نحس مستمر) والمراد نحس عليهم ، فلا يدخل في السب ، إنما هو إخبار فحسب .
- قال ابن باز : فسبب الدهر هو شتمه ، أو لعنه ، أو الدعاء عليه ، أما وصفه بالشدة فليس من السب ، كأن يقول : هذا يوم شديد ، وعسر ، ونحس ، أو بارد ، أو حار .
- والخلاصة أن سب الدهر محرم على كل حال ، وإما الإخبار فإن كان مع تأفف أو اعتراض أو لوم فهو محرم ، وإن كان إخباراً مجرداً فلا بأس .

(١) ولذا قال المصنف في مسائل الباب : الرابعة : أنه قد يكون ساباً ، ولو لم يقصده بقلبه .

وذكر ابن القيم أن في مسبة الدهر ثلاث مفاصد عظيمة :

إحداها : سبه من ليس بأهل أن يسب , فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله , منقاد لأمره , مذلل لتسخيره , فسابه أولى بالذم والسب منه .

الثانية : أن سبه متضمن للشرك , فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع , وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر , وأعطى من لا يستحق العطاء , ورفع من لا يستحق الرفعة , وحرّم من لا يستحق الحرمان , وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة , وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جداً , وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقييده^(١) .

الثالثة : أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض , وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر , وأثنوا عليه .

وفي حقيقة الأمر فرب الدهر تعالى هو المعطي المانع , الخافض الرافع , المعز المذل , والدهر ليس له من الأمر شيء , فمسبتهم للدهر مسبة لله عز وجل , ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى , كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر , وأنا الدهر .

مسألة : نخت الشريعة عن سب كل من لا يستحق السب , لأنه مدبّر , ومن ذلك : سب الريح , وسب الإبل , وسب الحمى وغير ذلك .

(١) مسبة الدهر قد فشئت في كلام العرب وأشعارهم , ومن ذلك :

قول ابن المعتز :	يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً	وأنت والد سوء تأكل الولدا
وقول المتنبي :	قبحاً لوجهك يا زمان فإنه	وجه له في كل قبح برقع
وقول الطرقي :	إن تبئلي بلباس الناس يرفعهم	عليك دهر لأهل الفضل قد خانا

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } الآية .

في هذه الآية يبين الله سبحانه أن نسبة الحوادث إلى الدهر من صفات أهل الجاهلية .
وقولهم (وما يهلكنا إلا الدهر) قيل : حوادث الدهر ، وقيل : طول العمر .
فكذبهم الله بقوله (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) فدعواهم هذه ليست مبنية على برهان ودليل ، وإنما هي مجرد وهم وظن .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ ؛ أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)) . وَفِي رِوَايَةٍ : ((لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ)) .

تخرجه : متفق عليه ، والرواية الثانية عند مسلم .

وعند مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر . فلا يقولن أحدكم : يا خيبة الدهر ، فأني أنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما .
والشاهد : أن الله تعالى بين أن في سب الدهر إيذاء له عز وجل ، لأن السب يعود عليه سبحانه ، إذ هو مصرف حوادثه ، ولذا في لفظ البخاري زيادة : وأنا الدهر ، وييدي الأمر .

وفي رواية مسلم نهي النبي ﷺ عن سب الدهر .
قال البغوي : ومعناه أن العرب كانت من شأنها ذم الدهر ، وسبه عند النوازل ، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب ، والمكاره ، فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادهم الدهر أ.هـ

قوله (وأنا الدهر) أي : أنا المتصرف في الدهر ، كما قال بعده (أقلب الليل والنهار) ولفظ مسلم (أقلب ليله ونهاره) فهو سبحانه المتصرف في الدهر ، كما في رواية (وييدي الأمر) .

قال ابن تيمية : أجمع المسلمون - وهو مما علم بالعقل الصريح - أن الله سبحانه وتعالى ليس هو الدهر الذي هو الزمان ، أو ما يجري مجرى الزمان أ.هـ

قوله (أقلب الليل والنهار) في تقليب الدهر على العباد من الحكم ما لا يعلمه إلا الله ، ويحصل فيه من الابتلاء ، والتمحيص ما يظهر عبودية الخلق ، قال تعالى (وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين *) ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) وقال تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) .

تنبيه : لا يلزم من الإيذاء الضرر ، كما قال تعالى (لن يضروكم إلا أذى) و المعنى : لن يضروكم ، لكن يحصل منهم أذى . وفي الحديث القدسي : يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني . رواه مسلم .

مسألة : ذهب ابن حزم وغيره إلى أن (الدهر) من أسماء الله^(١) , لقوله في هذا الحديث (وأنا الدهر) والصحيح أنه ليس من أسماء الله ، وذلك لعدة أمور :

- ١ . أن أسماء الله كلها حسنى ، والدهر اسم جامد لا يتضمن كمالاً .
- ٢ . أن السياق يأبى ذلك ، لأنه فسر بقلوبه (أقلب الليل والنهار) والمعنى أنه سبحانه هو الذي يقلب الدهر ، وأصرح من ذلك رواية مسلم : فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره .
- ٣ . لو كان اسماً لله لكان كلام الكفار صحيحاً حين قالوا (وما يهلكنا إلا الدهر) .

(١) ولا يقصدون أن الدهر هو الليل والنهار ، وإنما يجعلون معنى (الدهر) الباقي .

قال ابن تيمية : قول نعيم بن حماد وطائفة معه من أهل الحديث والصوفية : إن الدهر من أسماء الله تعالى ، ومعناه : القديم الأزلي .

٤٥ - بَابُ التَّسْمِيَةِ بِقَاضِيِ الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ أَحَنَعَ إِسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ)) .
قَالَ سُفْيَانُ : مِثْلُ شَاهَانَ شَاهَ .

وَفِي رِوَايَةٍ : ((أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ)) .

قَوْلُهُ : " أَحَنَعُ " : يَعْنِي أَوْضَعُ .

٤٥ - بَابُ التَّسْمِيَةِ بِقَاضِي الْقَضَاةِ وَنَحْوِهِ

الباب الخامس والأربعون

وخلاصته : النهي عن الألفاظ التي يكون فيها تعظيم مطلق للمخلوق ، وذلك لأن التعظيم المطلق ، والكمال المطلق لا يكون إلا لله وحده ، المستحق لذلك عز وجل .

المسائل المتعلقة بالباب :

إطلاق بعض الأوصاف أو الألقاب على بعض الناس له أحكام :

١. إن كان فيها تعظيم مطلق : فيحرم إطلاقها على المخلوق ، لأن التعظيم المطلق لا يكون إلا لله تعالى .
مثل : ملك الأملاك ، أو ملك الملوك ، أو عظيم العظماء ، أو كبير الكبراء ، أو سيد السادات ، أو حكيم الحكماء ، أو سلطان السلاطين ، أو قاضي القضاة^(١) .
وحقيقة هذه الألقاب أنه لا أحد فوقه في هذا الوصف .
- وسبب المنع من إطلاق هذه الألفاظ عدة أمور :
١. منازعة الله فيما يختص به من الأوصاف ، إذ هو سبحانه وحده من له الوصف الأكمل ، ولذا قال في الحديث : لا مالك الا الله .
٢. أن الاطلاق في مثل هذه الألفاظ قد يشعر بدخول الرب عز وجل فيه .
- وحتى لو لم يُقصد المعنى في هذين الأمرين ، فإن الأدب مع الله يقتضي أن لا يقال ذلك لغيره .
٣. رفع للمخلوق عن مرتبته .
٤. الغالب أنها تدخل الكبر والعجب على من أطلقت عليه .
٥. قد تطلق على من لا يستحق أدنى إكرام أو تعظيم ، وخاصة إذا كانت تنال بالوظائف الرسمية .
٦. فيها تشبه بأهل البدع والمحدثات ، إذ إن هذه الألفاظ لم تعرف في القرون الفاضلة .

(١) قال ابن باز : أما إذا قيدت : قاضي قضاة مصر ، أو مكة ، فهذا أسهل ، وتركه أولى ، كأن يسمى رئيس القضاة ، أو أمين القضاة ، مما يتعد به عن هذه الصفات المطلقة أ.هـ . قلت : وجه الجواز إذا قيدت : أنه لا منازعة فيها لله ، لأن أسماء الله وصفاته لها مطلق الكمال ، فله الملك المطلق ، وله القضاء المطلق ، وله السلطان المطلق ، وهكذا . لكن فيها محذور آخر من جهة الشخص الذي أطلقت عليه ، إذ قد يدخله العجب ، لذا تركها أسلم .

٢. إن كان فيها تعظيم لا يصل إلى التعظيم المطلق :

مثل : ركن الدين ، سيف الدين ، شيخ الإسلام^(١) ، حجة الإسلام ، فريد الدهر ، حجة الله ، آية الله ، إمام الأئمة ، كعبة العلماء ، بطل الأبطال ، شيخ المشايخ ، أزهد الزهاد ، صاحب الجلالة ، صاحب السمو^(٢) ، صاحب الفضيلة ، صاحب الفخامة .

فهذه الألفاظ فيها تعظيم دون الأول ، فليس فيها مشاركة لله في التعظيم المطلق ، لكن إن خيف من إطلاقها إدخال الكبر والعجب على من أطلقت عليه ، أو أطلقت على من لا يستحقها فإنها محرمة ، وإن لم يخف ذلك فالأولى تركها ، لأنها لم تعرف عن السلف الأول من الصحابة الذين هم أحق بكل فضل ، وأسبق بكل خير ، ولا أطلقت على من بعدهم من التابعين ، ولما قالوا للنبي ﷺ : أنت خيرنا . قال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجركم الشيطان . وذكر ابن تيمية أن عادة السلف المخاطبة بالأسماء والكنى ، وأن الأمر كان على ذلك في القرون الثلاثة ، فلما غلبت دولة بني بويه أظهروا تلك الألقاب ، مثل (ركن الدولة) و (عضد الدولة) ونحوها ، ثم بعد هذا أحدثوا الإضافة إلى (الدين) وتوسعوا في هذا . وذكر أن الأولى المخاطبة بما كان عليه السلف ، لكن من خاف تولد شر إن عدل عن هذه الألقاب المحذرة فليقتصر منها على قدر الحاجة .

وقال الشيخ بكر أبو زيد في معجم المناهي اللفظية : وتكره التسمية بكل اسم مضاف من اسم ، أو مصدر ، أو صفة مشبهة مضافة إلى لفظ (الدين) ولفظ (الإسلام) مثل : نور الدين ، ضياء الدين ، سيف الإسلام ، نور الإسلام .. وذلك لعظيم منزلة هذين اللفظين (الدين) و (الإسلام) فالإضافة إليهما على وجه التسمية فيها دعوى فجة تطل على الكذب ، ولهذا نص بعض العلماء على التحريم ، والأكثر على الكراهة ، لأن منها ما يوهم معاني غير صحيحة ، مما لا يجوز إطلاقه ، وكانت في أول حدوثها ألقاباً زائدة عن الاسم ، ثم استعملت أسماء وكان النووي رحمه الله تعالى يكره تلقيبه بمحيي الدين ، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يكره تلقيبه بتقي الدين ، ويقول : لكن أهلي لقبوني بذلك فاشتهر .

وقال في موضع : قرر أهل العلم على أن هذه النعوت المضافة إلى الدين : مثل زكي الدين ، محيي الدين ، نور الدين ، فخر الإسلام ، صدر الشريعة ، ونحوها إنما حدثت في الأزمنة المتأخرة ، أما المتقدمون فهم بريئون من ذلك ، وإنها تقتضي تركية المرء نفسه ، والله تعالى يقول (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وإنها من البدع المنكرة التي عمت بها البلوى أ.هـ.

(١) سئل شيخنا ابن عثيمين : عن لقب (شيخ الإسلام) فقال : لقب (شيخ الإسلام) عند الإطلاق لا يجوز ، أي إن الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام لا يجوز أن يوصف به شخص ، لأنه لا يعصم أحد من الخطأ فيما يقول في الإسلام إلا الرسل .

أما إذا قصد بشيخ الإسلام أنه شيخ كبير له قدم صدق في الإسلام فإنه لا بأس بوصف الشيخ به وتلقيبه به .

وقال في موضع : وأما التسمي بـ (شيخ الإسلام) مثل أن يقال : شيخ الإسلام ابن تيمية ، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، أي أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام ، فهذا لا يصح ، إذ إن أبا بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف ، لأنه أفضل الخلق بعد النبيين ، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدد في الإسلام ، وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه ، فلا بأس بإطلاقه أ.هـ.

(٢) قال شيخنا عن إطلاق لفظ (صاحب الجلالة ، وصاحب السمو) : هذه تجوز إذا قيلت لمن هو أهل لذلك ، ولم يخش عليه الترفع والإعجاب .

وأما ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال (أقضاكم : علي) (١) وقوله ﷺ (وأعلمهم بالحلل والحرام : معاذ بن جبل) رواه أحمد ،
 والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .
 فهذا من باب الإخبار بحقيقة الأمر ، وهو من باب حث الناس على الأخذ منهم ، ولم يكن الصحابة ينادونهم بذلك ، والله أعلم .
 فلا بأس مثلاً أن يقال : أحفظ الطلاب للقرآن : فلان ، وأفضلهم تجويداً : فلان ، وأفقههم : فلان ، وهكذا .

(١) قال ابن تيمية : وأما قوله (أقضاكم علي) فلم يروه أحد من أهل الكتب الستة ، ولا أهل المسانيد المشهورة ، لا أحمد ولا غيره بإسناد صحيح ولا ضعيف ، وإنما يروى من طريق من
 هو معروف بالكذب ، ولكن قال عمر بن الخطاب : أُنبي أقرؤنا ، وعلي أقضانا . وهذا قاله بعد موت أبي بكر .
 وقال رحمه الله : والذي في الترمذي وغيره : أن النبي ﷺ قال (أعلم أمتي بالحلل والحرام : معاذ بن جبل ، وأعلمها بالفرائض : زيد بن ثابت) .
 وقال رحمه الله : مع أن الحديث الذي فيه ذكر معاذ ، وزيد يضعفه بعضهم ، ويحسنه بعضهم . وأما الحديث الذي فيه ذكر علي فإنه ضعيف .

وقفات مع أدلة الباب

في الصحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ أَخْنَعَ إِسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكُ الْأَمْلاكِ ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ)) .
قال سفيان : مثل شاهان شاه .

وفي رواية : ((أَعْظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ)) .

تخرجه : متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، والرواية الثانية رواها مسلم .

والشاهد : أن الله يبغيض هذه التسمية (ملك الأملاك) ويلحق بها ما كان في معناها ، كما سبق ذكره .

ولذا جاء المصنف بقول سفيان بن عيينة : مثل (شاهان شاه) وهو بمعنى ملك الأملاك باللغة الفارسية^(١) .

قال في تيسير العزيز الحميد : هو بكسر النون والهاء في آخره ، وقد تنون ، وليست هاء تأنيث ، فلا يقال بالمشناة أصلاً ، وإنما مثل سفيان بشاهان شاه ، لأنه قد كثرت التسمية به في ذلك العصر ، فنبه سفيان بأن الاسم الذي ورد الخبر بدمه لا ينحصر في (ملك الأملاك) بل كل ما أدى معناه بأي لسان كان فهو مراد بالدم ، ذكره الحافظ أ.هـ .

وقال ابن حجر في الفتح : واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد ، ويلتحق به ما في معناه ، مثل (خالق الخلق) و (أحكم الحاكمين) و (سلطان السلاطين) و (أمير الأمراء) أ.هـ .
وبوب النووي على صحيح مسلم : باب تحريم التسمي بملك الأملاك .

قَوْلُهُ : " أَخْنَعَ " : يَعْني أَوْضَعُ .

جاء في صحيح مسلم : وقال أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو (الشيباني اللغوي) عن أخنع ؟ فقال : أوضع .

فمعنى (أخنع) : أوضع ، وأذل ، معاملة له بنقيض قصده ، لأنه لما تعاضم وترفع كان وضعاً عند الله ، وهذا كما يحشر المتكبرون كأمثال الذر يوم القيامة .

ولذا كان أحب الأسماء إلى الله ما كان فيه تعبيد له سبحانه ، ك (عبد الله ، وعبد الرحمن) .

ومن سنة الله تعالى أن من ترفع على عباد الله أذله الله في الدنيا والآخرة .

قال ابن تيمية عن التسمية ب (عز الملة والدين) و (عز الملة والحق والدين) : وأكثر ما يدخل في ذلك من الكذب المبين بحيث يكون المنعوت بذلك أحق بضد ذلك الوصف ، والذين يقصدون هذه الأمور فخراً وخيلاً يعاقبهم الله بنقيض قصدهم ، فيذلهم ويسلط عليهم عدوهم .

(١) قال ابن حجر : وقد تعجب بعض الشراح من تفسير سفيان بن عيينة اللفظة العربية باللفظة العجمية ، وأنكر ذلك آخرون ، وهو غفلة منهم عن مراده ، وذلك أن لفظ (شاهان شاه) كان قد كثرت التسمية به في ذلك العصر ، فنبه سفيان على أن الاسم الذي ورد الخبر بدمه لا ينحصر في (ملك الأملاك) بل كل ما أدى معناه بأي لسان كان فهو مراد بالدم ، ويؤيد ذلك أنه وقع عند الترمذي مثل (شاهان شاه) وقوله (شاهان شاه) هو المشهور في روايات هذا الحديث ، وحكى عياض عن بعض الروايات (شاه شاه) بالتثنية بغير إشباع في الأولى ، والأصل هو الأولى ، وهذه الرواية تخفيف منها ، وزعم بعضهم أن الصواب (شاه شاهان) وليس كذلك ، لأن قاعدة العجم تقديم المضاف إليه على المضاف أ.هـ .

وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن آخر ملوك دولة بني بويه سمى نفسه العزيز ، وتكنى بملك الأملاك فسلبهم الله ملكهم ، وجعل الملك في غيرهم .

تنبيه : الحديث الوارد بلفظ (ملك الأملاك) وتبويب المصنف (قاضي القضاة) ولعل هذا اللفظ كان منتشرًا في زمنه .

قال ابن القيم : وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا^(١) (قاضي القضاة) وقال : ليس قاضي القضاة إلا من يقضي بالحق ، وهو خير الفاصلين ، الذي إذا قضى أمرًا فإنما يقول له (كن) فيكون .

ثم قال رحمه الله : ويلي هذا الاسم في القبح ، والكراهة ، والكذب (سيد الناس) و (سيد الكل) وليس هذا إلا لرسول الله ﷺ خاصة ، كما قال : أنا سيد ولد آدم . متفق عليه .

(١) يريد ملك الأملاك .

٤٦ - بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرِ الْأَسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ : أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ)) . فَقَالَ : إِنَّ قَوْمِي إِذَا اِخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي ، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ . فَقَالَ : ((مَا أَحْسَنَ هَذَا ، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ ؟)) .
 قُلْتُ : شُرَيْحٌ ، وَمُسْلِمٌ ، وَعَبْدُ اللَّهِ . قَالَ : ((فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟)) . قُلْتُ : شُرَيْحٌ . قَالَ : ((فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَغَيْرُهُ .

٤٦ - بَابُ إِحْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرِ الْأَسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

الباب السادس والأربعون

وخلاصته : وجوب احترام أسماء الله تعالى ، ومن ذلك : عدم التسمي بها - على التفصيل الآتي - ووجوب تغيير ذلك إن وجد ، سواء كان لاسمه هو ، أو لمن يملك تغييره ، كالولد مثلاً .

المسائل المتعلقة بالباب :

التسمي بأسماء الله أو الوصف بها ، له صور وأحكام :

١. إن كانت هذه الأسماء أو الصفات خاصة بالله ، لا تطلق إلا عليه ، مثل (الله ، الرحمن ، القدوس ، القيوم^(١)) فلا يجوز التسمي بها ، ولا الوصف بها ، ولا مناداة الشخص بها مطلقاً ، بل يجب تغييرها .
 - قال ابن القيم : ومما يمنع تسمية الإنسان به : أسماء الرب تبارك وتعالى ، فلا يجوز التسمية بالأحد ، والصمد ، ولا بالخالق ، ولا بالرازق ، وكذلك سائر الأسماء المختصة بالرب تبارك وتعالى .
 ٢. إن كانت هذه الأسماء أو الصفات ليست خاصة بالله ، بل يشترك معه فيها المخلوق في المعنى الكلي ، مثل (العزيز ، الرحيم ، الرؤوف ، الحكيم) .
- فهذه على حالين :

- أ. التسمي بها : إن كان محلي (أل) كما لو تسمى ب(الرحيم ، أو الحكيم ، ونحو ذلك) فالأولى ترك ذلك .
- وأما إن تجرد عنها ، كما لو تسمى ب(رحيم ، أو حكيم ، أو عزيز ، ونحو ذلك) فلا بأس بذلك ، بشرط أن لا يراعي في ذلك معنى الصفة ، بل يكون للعلمية المحضة فقط ، ويكون لله تعالى منها ما يليق بجلاله ، وللعبد منها ما يليق بحاله .
- فلو سُمي شخص (رحيم) ففيل له : لم سُميت بذلك ؟ فقال : لأني أرحم الآخرين .
- فنقول : لا يجوز ، لأن الصفة قُصدت في الاسم ، فشابه أسماء الله في مراعاتها للصفة .
- ولذلك أنكر النبي ﷺ على أبي الحكم في هذا الحديث ، مع أنه أقر بعض الصحابة على ذلك مثل : الحكم بن عمرو الغفاري ، والحكم بن الحارث السلمي ، وحكيم بن حزام ، وحكيم بن الحارث الطائفي ، وغيرهم ، وإنما كان ذلك لمراعاة الصفة ، والله أعلم .
- ب. الوصف بها : وهذا جائز مطلقاً ، سواء كان معرفاً ب(أل) أم لا ، كما تقول (إلي أخي العزيز ، أو إلي أخي الكريم ، ونحو ذلك) وتقول (فلان عزيز علينا ، وفلان كريم ، ونحو ذلك) وقد وصف الله بعض خلقه بذلك ، فوصف النبي ﷺ بقوله (بالمؤمنين رؤوف رحيم) ووصف العرش بقوله (رب العرش الكريم) ووصف عرش بلقيس (ولها عرش عظيم) .
- والخلاصة : أن التسمي بأسماء الله أو الوصف بها إن كانت من خصائص الله لم يجز التسمي أو الوصف بها ، وإن كانت ليست من خصائص الله جاز ذلك ، بشرط أن لا تُراعى الصفة .
- إلا أن الأولى ترك التسمي بأسماء الله إذا كانت معرفة ب(أل) لأن (أل) تفيد الاستغراق في الصفة ، وهذا لا يكون إلا لله .

(١) وقد جاء أن النبي ﷺ غير اسم (قيوم) إلى (عبد القيوم) .

وفي فتوى اللجنة الدائمة : ما كان من أسماء الله تعالى علم شخص كلفظ (الله) امتنع تسمية غير الله به , لأن مسماه معين لا يقبل الشركة , وكذا ما كان من أسمائه في معناه في عدم قبول الشركة كـ(الخالق , والبارئ) فإن الخالق من يوجد الشيء على غير مثال سابق , والبارئ من يوجد الشيء بريئاً من العيب , وذلك لا يكون إلا من الله وحده , فلا يسمى به إلا الله تعالى , أما ما كان له معنى كلي تتفاوت فيه أفرادها من الأسماء والصفات كـ(الملك , والعزیز , والجبار , والمتكبر) فيجوز تسمية غيره بها , فقد سمى الله نفسه بهذه الأسماء , وسمى بعض عباده بها , مثال قول تعالى (قالت امرأة العزيز) وقال (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) إلى أمثال ذلك .

ولا يلزم التماثل , لاختصاص كل مسمى بسمات تميزه عن غيره , وبهذا يعرف الفرق بين تسمية الله بلفظ الجلالة , وتسميته بأسماء لها معانٍ كلية تشترك أفرادها فيها , فلا تقاس على لفظ الجلالة .

أما الآية (والله الأسماء الحسنى) فالمراد منها قصر كمال الحسن في أسمائه تعالى , لأن كلمة الحسنى اسم تفضيل , وهي صفة للأسماء , لا قصر مطلق أسمائه عليه تعالى , كما في قوله تعالى (والله هو الغني الحميد) فالمراد قصر كمال الغنى والحمد عليه تعالى , لا قصر اسم (الغني , والحميد) عليه , فإن غير الله يسمى غنياً , وحميداً أ.هـ. وسئل شيخنا ابن عثيمين رحمه الله عن حكم التسمي بأسماء الله مثل : كريم , وعزیز , ونحوها ؟ فأجاب بقوله : التسمي بأسماء الله عز وجل يكون على وجهين : الوجه الأول : وهو على قسمين : القسم الأول : أن يحلى بـ(أل) ففي هذه الحال لا يسمى به غير الله عز وجل , كما لو سميت أحداً بالعزیز , والسيد , والحكيم , وما أشبه ذلك , فإن هذا لا يسمى به غير الله , لأن (أل) هذه تدل على لمح الأصل , وهو المعنى الذي تضمنه هذا الاسم^(١) .

القسم الثاني : إذا قصد بالاسم معنى الصفة , وليس محلى بـ(أل) فإنه لا يسمى به , ولهذا غير النبي ﷺ كنية أبي الحكم التي تكنى بها , لأن أصحابه يتحاكمون إليه , فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إن الله هو الحكم , وإليه الحكم . ثم كناه بأكثر أولاده شريح .

فدل ذلك على أنه إذا تسمى أحد باسم من أسماء الله ملاحظاً بذلك معنى الصفة التي تضمنها هذا الاسم فإنه يمنع , لأن هذه التسمية تكون مطابقة تماماً لأسماء الله سبحانه وتعالى , فإن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف , لدلالاتها على المعنى الذي تضمنه الاسم .

الوجه الثاني : أن يتسمى بالاسم غير محلى بـ(أل) وليس المقصود به معنى الصفة , فهذا لا بأس به مثل : حكيم , ومن أسماء بعض الصحابة حكيم بن حزام الذي قال له النبي عليه الصلاة والسلام : لا تبع ما ليس عندك . وهذا دليل على أنه إذا لم يقصد بالاسم معنى الصفة , فإنه لا بأس به .

لكن في مثل (جبار) لا ينبغي أن يتسمى به , وإن كان لم يلاحظ الصفة , وذلك لأنه قد يؤثر في نفس المسمى , فيكون معه جبروت , وعلو , واستكبار على الخلق , فمثل هذه الأشياء التي قد تؤثر على صاحبها , ينبغي للإنسان أن يتجنبها^(٢) , والله أعلم أ.هـ.

(١) يشكل عليه إقرار النبي ﷺ لبعض الصحابة على مثل ذلك كـ(الحكم بن عمرو الغفاري , والحكم بن الحارث السلمي) والله أعلم .

(٢) يشكل عليه إقرار النبي ﷺ لبعض الصحابة على هذه التسمية , كما في (جبار بن صخر) .

فائدة : قال شيخنا : تغيير الاسم له ثلاث أحول :

١. أن يكون من أجل محذور لا يجوز .

٢. أن يكون من أجل محذور متوقع .

٣. أن يكون من أجل أنه أحسن , وكل هذا لا بأس به .

مسألة : بعض الأسماء المضافة إلى الله مثل (عطا الله , ضيف الله , جار الله , هداية الله , رحمة الله , وصل الله , عون الله , غرم الله , خلف الله , مد الله) اختلف العلماء في جواز التسمي بتلك الأسماء أو بعضها .

وبعض هذه الاضافات من باب الشكر والثناء مثل (عطا الله , وصل الله , نعمة الله , رحمة الله , مد الله) .

ومنها ما هو من باب التفاؤل مثل (جار الله , ضيف الله , عون الله , خلف الله) جار الله : مجاور لله , متعبد له . وضيف الله : في ضيافة الله . وعون الله : عون من الله لي . وخلف الله : يخلفني فيه بخير .

والاشكال في (غرم الله) لأنه لا يعرف المراد منه .

قال الشيخ بكر أبو زيد في معجم المناهي اللفظية : عون الله : هذا من التسميات التي حدثت في الأمة بعد اختلاطها

بالأعجميين ، وإلا فالعرب والمسلمون في صدر الإسلام لا يعرفون مثل هذه الأسماء المضافة : عون الله . ضيف الله . عطا الله .

قسم الله . عناية الله . غرم الله . خلف الله . وهكذا .

والنصيحة للمسلم أن لا يسمي بها ابتداء ، لكن من سُمِّيَ بشيء منها ، فإن غيَّرها فهو مناسب ، وإن بقي وهو على معنى (عون من الله) فلا بأس ، وإن كان بمعنى أنه هو عون الله ، فهو كذب ، والمعنى الأول هو المتبادر أ.هـ

ونقل الشيخ عبد العزيز السدحان عن الشيخ ابن جبرين أنه قال : إذا تسمى الإنسان بـ(ضيف الله , جار الله) جاز ذلك , لأن هذا وصف تشريف .

وقال الشيخ ابن جبرين في شرح الطحاوية : اسم (غرم الله) يستثقل , وذلك لأن فيه أن الله تعالى غرم لهذا الإنسان عن ولد

مات له , أو نحو ذلك , فالأقرب أنه ينهى عنه , لأن الغرم أصله التحمل , مثل تحمل الدين ونحوه .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ : أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبُو الْحَكَمِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ)) . فَقَالَ : إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي ، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ . فَقَالَ : ((مَا أَحْسَنَ هَذَا ، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ ؟)) .
قُلْتُ : شُرَيْحٌ ، وَمُسْلِمٌ ، وَعَبْدُ اللَّهِ . قَالَ : ((فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟)) . قُلْتُ : شُرَيْحٌ . قَالَ : ((فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَغَيْرُهُ .

تخرجه : رواه أبو داود ، والنسائي ، وصححه الألباني .

والشاهد : أن النبي ﷺ أمر أبا الحكم أن يغير كنيته ، وذلك لأنه روعيت الصفة في تلك التسمية .

قوله (يكنى) فيها ضبطان :

بإسكان الكاف ، والآخر بفتح الكاف مع تشديد النون ، وذكر بعض أهل اللغة أن الأفصح السكون .

والكنية : ما صدر بأب أو أم ، وتكون :

١ . لمجرد العلمية : مثل : أبو العباس .

٢ . للمدح : مثل : أبو الطيب ، أم الفضل .

٣ . للذم : مثل : أبو جهل .

٤ . للمصاحبة : مثل : أبو هريرة .

قوله (ما أحسن هذا) راجع إلى الصلح بين الناس ، لا إلى التسمية والتكني .

ومن فوائد الحديث : أن الأفضل أن يتكنى الإنسان باسم أكبر أولاده ، وله أن يتكنى بأيهم .

٤٧ - بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ ، أَوْ الْقُرْآنِ ، أَوْ الرَّسُولِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } الآية .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ - أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ فُرَاتِنَا هَؤُلَاءِ ؛ أَرْغَبَ بَطُونًا ، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا ، وَلَا أَجَبَنَ عِنْدَ الْفُقَاءِ - يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْفُقَاءَ - فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ ، لِأَخْبَرَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ، وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرِّكْبِ ؛ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ .. قَالَ ابْنُ عُمَرَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنَسْعَةِ نَاقَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ . فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : { قُلْ أَبَالَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ " .

٤٧ - بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ ، أَوْ الْقُرْآنِ ، أَوْ الرَّسُولِ

الباب السابع والأربعون

وخلاصته : أن الاستهزاء بالله ، أو برسله ، أو بالقرآن ، أو بالشرعة والدين كفر مخرج من الملة ، كما قال تعالى (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) وهذا أمر مجمع عليه .

قال ابن حزم رحمه الله : صح بالنص أن كل من استهزأ بالله تعالى ، أو بملك من الملائكة ، أو بنبي من الأنبياء عليهم السلام ، أو بآية من القرآن ، أو بفريضة من فرائض الدين - فهي كلها آيات الله تعالى - بعد بلوغ الحجة إليه ، فهو كافر .

وقال ابن قدامة : ومن سب الله تعالى كفر ، سواء كان مازحاً ، أو جاداً ، وكذلك من استهزأ بالله تعالى ، أو بآياته ، أو برسله ، أو كتبه .

وقال السعدي : إن الاستهزاء بالله ورسوله كفر يخرج عن الدين ، لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله ، وتعظيم دينه ، ورسله ، والاستهزاء بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل ، ومنافض له أشد المناقضة .

وقال شيخنا : ومن هزل بالله ، أو بآياته الكونية أو الشرعية ، أو برسله ، فهو كافر ، لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة ، كيف يسخر بأمر يؤمن به ؟! فالمؤمن بالنبي لا بد أن يعظمه ، وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به ، والكفر كفران : كفر إعراض ، وكفر معارضة ، والمستهزئ كافر كفر معارضة أ.هـ

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } الْآيَةُ .

في هذه الآية يبين سبحانه أن الاستهزاء بالله ، أو بآياته ، أو برسوله كفر مخرج من الملة ، سواء كان بالقول أم بالفعل ، وسواء كان على سبيل الجد أم على سبيل المزاح ، وقد نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع على ذلك ، منهم ابن عبد البر ، وابن تيمية .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، وَثُمَّدِ بْنِ كَعْبٍ ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ - أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ ؛ أَرْغَبَ بَطُونًا ، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا ، وَلَا أَجَبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ - يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ - فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ ، لِأَخْبَرَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَافَقَتَهُ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ، وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرُّكْبِ ؛ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ .. قَالَ ابْنُ عُمَرَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنَسْعَةِ نَاقَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ . فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : { قُلْ أَلِلَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ " .

تخریجه : هذا الحديث مجموع من عدة أحاديث واردة في سبب نزول الآية ، أدخل المصنف بعضها في بعض ، وأشار إلى ذلك بقوله (دخل حديث بعضهم في بعض) .

وبعض هذه الأحاديث ذكرها ابن جرير في تفسيره ، وبعضها ذكرها ابن أبي حاتم في تفسيره ، وفيها إرسال . قال في تيسير العزيز الحميد : وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسلام .

وهذه الطريقة ، أعني إدخال بعض الأحاديث في بعض يستخدمها بعض الأئمة ، كما فعل الزهري في حديث حادثة الإفك . **والشاهد :** أن الاستهزاء بالنبي ﷺ وما جاء به من الحق كفر أكبر ، ولو كان هزلًا .

قوله (ولكنك منافق) قال في تيسير العزيز الحميد : فيه جواز وصف الرجل بالنفاق إذا قال أو فعل ما يدل عليه .

قوله (متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ) الحزام الذي يربط به الرجل .

قوله (وإن الحجارة تنكب رجليه) أي : تصيب رجليه فتتطاير ، ولعل ذلك من سرعتة واضطراب حاله .

ومن فوائد الحديث : أنه يجوز نقل الكلام إذا كان فيه مصلحة ، كتغيير منكر مثلاً ، ولا يُعد ذلك من باب الغيبة أو النميمة . وفيه بيان الفرق بين العفو الذي يحبه الله ، وبين الغلظة على أعداء الله .

وفيهِ بيان أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل . أفاد هذا والذي قبله المصنف في مسائل الباب .

ويأتي إن شاء الله مزيد كلام عن هذا الناقض عند شرح رسالة (نواقض الإسلام) .

٤٨ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{وَلَيْنُ أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْنَتِهِ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي} الآية .

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا بِعَمَلِي ، وَأَنَا مُحْفُوقٌ بِهِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُرِيدُ : مِنْ عِنْدِي .

وَقَوْلُهُ : {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} .

قَالَ قَتَادَةُ : عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ : أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصٌ ، وَأَقْرَعٌ ، وَأَعْمَى ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الْأَبْرَصَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْ أَنَّ حَسَنًا ، وَجِلْدًا حَسَنًا ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ . قَالَ : فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ (شَكَّ إِسْحَاقُ) . فَأُعْطِيَ نَاقَةً عَشْرَاءَ ، وَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا . قَالَ : فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ . فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا . فَقَالَ : أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ . فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا ، وَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا . قَالَ : فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ . قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ ، فَمَسَحَهُ ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْغَنَمُ . فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا .

فَأَنْتَجَ هَذَانِ ، وَوُلِدَ هَذَا ، فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْغَنَمِ .

قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ ، وَابْنٌ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي ؛ فَلَا بَلَاحَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللُّونَ الْحَسَنَ ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ ، وَالْمَالَ : بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي . فَقَالَ : الْحَقُّوq كَثِيرَةٌ . فَقَالَ لَهُ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدِرُكَ النَّاسُ ، فَقِيرًا ، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ﷻ الْمَالَ ؟ فَقَالَ :

إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ . فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ . قَالَ : وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورِيهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لَهُذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ . قَالَ : وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورِيهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مُسْكِينٌ ، وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلَا بَلَغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ : شَاءَ أَتَبْلُغَ بِهَا فِي سَفَرِي . فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ ، وَدَعْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ عَنِّي . فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلَيْتُمْ ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ)) . أَخْرَجَاهُ .

٤٨ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{وَلَيْنُ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَنَّهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي} الآية .

الباب الثامن والأربعون

وخلاصته : وجوب الاعتراف بأن الله هو المنعم سبحانه , ووجوب إضافة النعم إليه , وعدم الغفلة عن شهود نعمه , وبيان أن إضافة النعم إلى غير الله , أو نسيان شكرها من خوادش التوحيد . وهذا الباب قريب جداً من باب (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) . وسبق الكلام عن الشكر , وعن أحكام إضافة النعم إلى غير الله , فليراجع .

وقفات مع أدلة الباب

قول الله تعالى : { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي } الآية .

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا بِعَمَلِي , وَأَنَا مُحَقِّقٌ بِهِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُرِيدُ : مِنْ عِنْدِي .

في هذه الآية يذكر سبحانه حال بعض الناس الذين ينعم الله عليهم بنعمه ثم بعد ذلك ينسون شكره , وينسبون النعمة إلى غيره , إما ينسبونها إلى أنفسهم , أو يدعون استحقاقهم لذلك , دون شكر المنعم . وهذا كله من سوء الأدب مع الله تعالى القائل (وما بكم من نعمة فمن الله) . وفسر مجاهد قوله تعالى (ليقولن هذا لي) يعني : بعملتي وجهدي الخاص , وأنا حقيق بهذه النعمة من الله . رواه ابن جرير في تفسيره موصولاً , ورواه البخاري معلقاً . وفسر ذلك ابن عباس بأن ذلك من عندي وبكسبي . رواه ابن أبي حاتم في تفسيره . والأولى أن يقدم المصنف أثر ابن عباس على أثر مجاهد , لأن مجاهد تلميذ ابن عباس .

وَقَوْلُهُ : { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } .

قَالَ قَتَادَةُ : عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ : أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ .

هذه الآية من سورة القصص يذكر الله قول قارون حينما ذكره قومه بنعم الله عليه , وحذروه من استخدام النعمة بالإفساد في الأرض فقال (إنما أوتيته على علم عندي) ونسي المنعم عليه بذلك , وجحد أن يكون ذلك محض فضل من الله , وزعم أنه إنما حصل له بسبب معرفته بطرق الكسب والاتجار . وهذا تفسير قتادة للآية , رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بلفظ : على خير عندي , وعلم عندي . وفسر غيره ذلك بأنه إنما استحق ذلك لأني أهل لتلك النعم , كما روى ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال في معنى الآية : علم الله أني أهل لذلك . قال في تيسير العزيز الحميد عن هذه التفسيرات للآية : وليس فيما ذكره اختلاف , وإنما هو أفراد المعنى .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصٌ ، وَأَقْرَعٌ ، وَأَعْمَى ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الْأَبْرَصَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْ أَنَّ حَسَنًا ، وَجِلْدًا حَسَنًا... الحديث .
تخرجه : متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

والشاهد : أن الأقرع ، والأبرص لما أضافوا النعم إلى غير الله سلبت منهم ، عقوبة لهم ، وأما الأعمى لما أضاف النعمة للمنع تمتع بها ، فضلاً من الله عليه .

قوله (الإبل أو البقر ، شك إسحاق) وقال في حق الأقرع (البقر أو الإبل) إسحاق : أحد رواة الحديث ، وسياق الحديث يدل على أن الأبرص أُعطي الإبل ، والأقرع أُعطي البقر .

قوله (ناقة عُشراء) بضم العين ، وفتح الشين ، وهي الحامل ، وقيل : من كان حملها مدته عشرة أشهر ، أو ثمانية أشهر .
قوله (فأعطى شاة والدًا) قيل : أعطى شاة وولدها ، وقيل : أعطى شاة معلوم أنها تلد ، واختاره النووي ، وهو الأقرب ، لأنه قال (فأنج هذان ، وولد هذا) .

قوله (فأنج هذان ، وولد هذا) وفي رواية (نتج) ، و (أنتج) فيها ضبطان :

١. أنتج بالضم ، وهو المشهور .

٢. أنتج بالفتح .

قوله (انقطعت به الحال) أي : الأسباب .

قوله (لا أجهدك) أي : لا أشق عليك في رد شيء أخذته . والمعنى : خذ ما شئت .

ومن فوائد الحديث :

١. قلة الشاكرين ، كما قال تعالى (وقليل من عبادي الشكور) فقد جحد اثنان ، وشكر واحد .

٢. أدب اللفظ من الملك حين قال (لا بلاغ لي إلا بالله ثم بك) .

٣. بيان عاقبة شكر النعمة ، وبيان عاقبة كفر النعمة .

٤. بيان حال الإنسان ، وأنه إن أصابه خير ونعمة وصحة اطمأن بها ونسي شكر النعمة .

٥. أن النعم والنقم كلها ابتلاء من الله ، كما قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) .

لطيفة : يظهر من طلب الأبرص الجشع ، حيث طلب ثلاثة أشياء ، وهي : اللون الحسن ، والجلد الحسن ، وذهاب البرص ، وطلب من المال (الإبل) التي هي أنفس المال ، وفيها دلالة على الجفاء .

وأما الأقرع فأقل منه ، حيث طلب طلبين ، وهما : شعر حسن ، وذهاب القرع ، وطلب من المال (البقر) .

وأما الأعمى فلم يطلب إلا طلباً واحداً ، وهو رد البصر ، ولم يقل : بصراً نافذاً ، أو قوياً ، وطلب من المال (الغنم) وهي الدالة على التواضع والسكينة .

٤٩ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} الآية .

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ : اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ ، كَعَبْدِ عَمْرٍو ، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلَبِ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - فِي الْآيَةِ - قَالَ : لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ ، فَقَالَ : إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ، لِنُطِيعَايَ أَوْ لِأَجْعَلَ لَكَ قَرْنِي أَيْلٍ ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ فَيَشُقُّهُ ، وَلَا فَعْلَنَ ، وَلَا فَعْلَنَ - يُخَوِّفُهُمَا - سَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ . فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ ، فَخَرَجَ مَيِّتًا . ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا ، فَأَذْرَكُهُمَا حُبَّ الْوَلَدِ ، فَسَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ . فَذَلِكَ قَوْلُهُ : {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ .

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : {لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا} قَالَ : أَشْفَقَا أَلَا يَكُونُ إِنْسَانًا .

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنْ الْحَسَنِ ، وَسَعِيدٍ ، وَغَيْرِهِمَا .

٤٩ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} الآية .

الباب التاسع والأربعون

وخلاصته : أن من احترام الله عدم تعبيد الأسماء لغيره , وأن ذلك من شرك الألفاظ القادح في جناب الربوبية , أما إن اعتقد حقيقة العبودية فهو شرك أكبر .

المسائل المتعلقة بالباب :

أجمع العلماء على تحريم تعبيد الاسم لغير الله , ك(عبد الكعبة , وعبد الحسين , وعبد الرسول , ونحو ذلك) كما نقل الإجماع ابن حزم , وابن تيمية , وابن القيم .

ولكنهم اختلفوا في (عبد المطلب) على قولين :

١ . يجوز التسمي به : واستدلوا بعدة أمور , منها :

أ. أن النبي ﷺ أقر هذا الاسم , كما جاء في الصحيحين من حديث البراء : أنا النبي لا كذب , أنا ابن عبد المطلب .

ب. أن النبي ﷺ أقر بعض الصحابة على هذا الاسم , مثل (عبد المطلب بن ربيعة) مع أنه ﷺ غير بعض الأسماء التي فيها محذور شرعي , كاسم أبي هريرة رضي الله عنه (عبد شمس) وغيره .

وقد أفتت اللجنة الدائمة بجواز ذلك , لإقرار النبي ﷺ لابن عمه عبد المطلب بن ربيعة .

٢ . يحرم التسمي به : وذلك لأن الأصل في التعبيد : التأله .

وأجابوا عن أدلة المجيزين بما يلي :

١ . أما حديث البراء فهو من باب الإخبار , وليس من باب الإقرار , كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة عند مسلم (يا بني عبد مناف) مع أنه ﷺ غير من كان اسمه عبد مناف , وعبد شمس .

٢ . وأما أن النبي ﷺ أقر بعض الصحابة على تسميته بذلك , فإنه لم يثبت ذلك إلا في (عبد المطلب بن ربيعة) وقد ذهب المحققون من أهل النسب إلى أن اسمه (المطلب) .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب : عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كان فيما ذكر أهل السير على عهد رسول الله ﷺ رجلاً , ولم يغير رسول الله ﷺ اسمه فيما علمت .

وقد رد الحافظ قول ابن عبد البر في كتابه (الإصابة) وقال : وفيما قاله نظر , فإن الزبير بن بكار أعلم من غيره بنسب قريش وأحوالهم , ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب .

وقد ذكر العسكري أن أهل النسب إنما يسمونه المطلب , وأما أهل الحديث فمنهم من يقول المطلب , ومنهم من يقول عبد المطلب^(١) .

(١) والأكثر على تسميته عبد المطلب .

ومن ذهب إلى تحريم التسمي به ابن تيمية ، وصاحب كتاب تيسير العزيز الحميد ، وشيخنا ، وهو الأقرب .
وعليه يقال : إن من سبقت تسميته باسم معبد لغير الله ومات صح إطلاقه عليه من باب الإخبار ، وأما الأحياء فلا يجوز
تسميتهم بذلك ، ولا مناداتهم به ، ويجب تغيير الاسم ، والله أعلم .
مسألة : سئل شيخنا ابن عثيمين رحمه الله : ما حكم التعبيد بأسماء لم يثبت كونها من أسماء الله الحسنى ، مثل : عبد الستار ،
وعبد المغني ، وعبد الهادي ، وعبد المنعم ، ونحوها ؟ وهل يلزم تغييرها ؟
فأجاب : الصحيح أن ما دل من الأسماء بإطلاق على الله تعالى جاز التعبيد به ، كالمذكورة ، ولا يلزم تغييره ، ومثلها : عبد
الناصر^(١) .

(١) ثمرات التدوين للدكتور أحمد بن عبد الرحمن القاضي .

وقفات مع أدلة الباب

وقول الله تعالى : { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا } الآية .

يخبر سبحانه في هذه الآية عن آدم وحواء أنهما عاهداه إن رزقهما ولدًا صالحًا ، سويًا في خلقته ، ليشكران الله على هذه النعمة ، فلما رزقهما هذا الولد الصالح كما طلبا ، سمياه (عبد الحارث) وهذا الصنيع مخالف لشكر النعمة . قال تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) .

وهذا التفسير للآية جاء عن ابن عباس ، وسمرة بن جندب ، وأبي بن كعب ، وعليه أكثر المفسرين ، بل قال ابن جرير : المعنى بذلك آدم وحواء ، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أ.هـ . ومعنى قوله (جعلاً له شركاء) أي : في الاسم ، ولم يكن شركاً في العبادة ، لأن الأنبياء معصومون عن الشرك ، وقول من قال : شركاء في طاعته . المراد : أطاعاه في هذا الفعل المعين ، وهو التسمية ، كما أطاعاه قبل في أكل الشجرة .

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ : اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ ، كَعَبْدِ عَمْرٍو ، وَعَبْدِ الْكُفَّةِ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ .

قال ابن القيم في تحفة المودود : أما قوله (أنا ابن عبد المطلب) فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك ، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذي عرف به المسمى دون غيره ، والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرم ، ولا وجه لتخصيص أبي محمد بن حزم ذلك بعبد المطلب خاصة ، فقد كان الصحابة يسمون بني عبد شمس ، وبني عبد الدار بأسمائهم ، ولا ينكر عليهم النبي ، فباب الإخبار أوسع من باب الإنشاء ، فيجوز فيه ما لا يجوز في الإنشاء أ.هـ . وقال في تيسير العزيز الحميد : لا تجوز التسمية بعبد المطلب ، ولا غيره ، مما عبد لغير الله ، وكيف تجوز التسمية وقد أجمع العلماء على تحريم التسمية بـ(عبد النبي ، وعبد الرسول ، وعبد المسيح ، وعبد علي ، وعبد الحسين ، وعبد الكعبة) وكل هذه أولى بالجواز من عبد المطلب لو جازت التسمية به .

قال ابن تيمية : كان المشركون يعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله ، فيسمون بعضهم (عبد الكعبة) كما كان اسم عبد الرحمن بن عوف ، وبعضهم (عبد شمس) كما كان اسم أبي هريرة ، واسم عبد شمس بن عبد مناف ، وبعضهم (عبد اللات) وبعضهم (عبد العزى) وبعضهم (عبد مناة) وغير ذلك مما يضيفون فيه التعبد إلى غير الله من شمس ، أو وثن ، أو بشر ، أو غير ذلك مما قد يشرك بالله ، ونظير تسمية النصاري (عبد المسيح) فغير النبي ﷺ ذلك ، وعبداهم الله وحده ، فسمى جماعات من أصحابه : عبد الله ، وعبد الرحمن ، كما سمي عبد الرحمن بن عوف ، ونحو هذا ، وكما سمي أبا معاوية ، وكان اسمه عبد العزى فسماه عبد الرحمن ، وكان اسم مولاه (قيوم) فسماه عبد القيوم .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - فِي الْآيَةِ - قَالَ : لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ ، فَقَالَ : إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ، لَنُطِيعَايَ أَوْ لِأَجْعَلَ لَكَ قَرْنِي آيِلَ ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ فَيَشُقُّهُ ، وَلَا فَعْلَنَ ، وَلَا فَعْلَنَ - يُخَوِّفُهُمَا - سَمِيَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ . فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ ، فَخَرَجَ مِثِّيَا . ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا ، فَأَذَرَكُهُمَا حُبَّ الْوَلَدِ ، فَسَمِيَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ . فَذَلِكَ قَوْلُهُ : { جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا } . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

تخرجه : رواه ابن أبي حاتم ، وسعيد بن منصور .

واختلف العلماء في تصحيح هذا الأثر ، وتضعيفه ، من جهة السند ، ومن جهة المتن .

وقد صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، ولكنه أنكر الحديث في كتابه ميزان الاعتدال ، وقال : منكر ، وصححه صاحب تيسير العزيز الحميد .

وأنكر هذا الأثر ابن حزم ، وقال : وهذا الذي نسبوه إلى آدم عليه السلام من أنه سمي ابنه (عبد الحارث) خرافة موضوعة مكذوبة ، من تأليف من لا دين له ولا حياء ، لم يصح سندها قط ، وإنما نزلت في المشركين على ظاهرها . ومن ضعفه ابن كثير في تفسيره ، وضعفه الألباني في مواضع من كتبه .

واستدل كل من الفريقين بأدلة على ما ذهب إليه :

١. من صحح القصة استدل بعدد من الأدلة :

أ. أن سياق الآية لا يحتمل إلا أنها تخص آدم وحواء .

ب. أن ذلك جاء عن ابن عباس ، وسمرة رضي الله عنهم ، بل لا يعرف عن الصحابة غير هذا القول .

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس ، وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميها عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره .

ج. أن ذلك جاء عن جمع من كبار المفسرين ، كمجاهد ، وقتادة ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، وأطال في نصرته هذا القول ، وتوجيه ما قد يُظن أنه مشكل .

قال في فتح المجيد : وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه ، كمجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومن الطبقة الثانية : قتادة ، والسدي ، وجماعة من الخلف ، ومن المفسرين ، والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة أ.هـ . واختار ذلك البغوي ، والشوكاني ، وصاحب تيسير العزيز الحميد ، وصاحب فتح الجيد ، وابن باز .

قال في تيسير العزيز الحميد : وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره ، مع ما فسره به السلف ، تبين قطعاً أن ذلك في آدم وحواء عليهما السلام ، فإن فيه غير موضع يدل على ذلك ، والعجب ممن يكذب بهذه القصة ، وينسى ما جرى أول مرة ،

ويكابر بالتفاسير المبتدعة ، ويترك تفسير السلف وأقوالهم ، وليس المحذور في هذه القصة بأعظم من المحذور في المرة الأولى ، وقوله تعالى (عما يشركون) هذا والله أعلم عائد إلى المشركين من القدرية ، فاستطرد من ذكر الشخص إلى الجنس ، وله نظائر في

القرآن أ.هـ .

واختار ابن باز أن القصة ثابتة كما قال ابن عباس ، وأن المعصية قد تقع من الأنبياء إذا كانت صغيرة ، وقال : ويحتمل أنهما حين فعلا ذلك كانا يعتقدان ذلك جائز ، فلهذا فعلاه ، ولم يعلما أنه منكر ، وإنما كرهاه أولاً ثم خضعا لوسوسته وما أراد أ.هـ.

٢. من ضعف القصة استدل بعدد من الأدلة :

أ. أنها حُكيّت مرة موقوفة ، ومرة مرفوعة ، ومرة مرسلّة ، وهذا يدل على الاضطراب .

ب. أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء .

ج. لو كانت صحيحة لكان حالهم : إما أن يتوبا من الشرك ، أو يموتا عليه ، فإن قلنا : ماتا عليه كان ذلك من أعظم الفرية ، وإن كانا تابا من الشرك فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ، ولا يذكر توبتهما .

د. أنه ثبت في حديث الشفاعة أن آدم يعتذر بأكله الشجرة ، وهو معصية ، ولو وقع منه الشرك لكان اعتذاره أقوى .

هـ. جاء في القصة أن الشيطان قال لهما (أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة) وهذا لا يقوله من يريد الإغواء ، بل يأتي بقول يقرب قبول قوله .

و. قول الشيطان لهما (لأجعلن له قرني أيل) إن صدقاه كان شركاً في الربوبية ، وإن كذباه فكيف يقبلان قوله ؟!

ز. قال تعالى (فتعالى الله عما يشركون) ولو كان لآدم وحواء لقال (عما يشركان) (١) .

وهذا القول اختاره الحسن البصري ، وابن القيم ، وابن كثير ، والسعدي ، وشيخنا .

قال ابن القيم : (المشركون) أولادهما ، ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل .

وقال ابن كثير بعد ذكر الآثار عن السلف في أنها في آدم وحواء : وهذه الآثار يظهر والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب ، أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المشركون من ذريته ، ولهذا قال (فتعالى الله عما يشركون) .

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ .

هذا الأثر رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

والذين صححوا القصة حملوا الشرك في الآية على عدة أمور منها :

١. أنه من باب الشرك في الألفاظ ، وهو من الشرك الأصغر ، فهما أطاعه في التسمية فقط .

قال المصنف في مسائل الباب : هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها .

٢. أن هذا الأمر إنما وقع من حواء فقط ، وهي ليست نبية ولا مرسلّة ، وليست معصومة .

٣. أنه ليس شركاً في الربوبية ، ولا في العبادة ، وإنما هو من باب الطاعة في شيء خاص ، وهما قد أطاعاه في أكل الشجرة ، وكل عاص لله ففيه قدر من التأله لغير الله ، لأنه من طاعة الشيطان ، والهوى . كما قال قتادة هنا .

(١) هذه الأجوبة من كلام شيخنا رحمه الله باستثناء الجواب الأول ، ويُرجع لتفسير ابن جرير للجواب عن بعض هذه الاعتراضات .

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { لئن آتَيْنَا صَالِحًا } قَالَ : أَشْفَقَا أَلَا يَكُونُ إِنْسَانًا .

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنْ الْحَسَنِ ، وَسَعِيدٍ ، وَغَيْرِهِمَا .

هذا الأثر عن مجاهد رواه ابن أبي حاتم .

قال ابن كثير في قوله تعالى (دعوا الله ربهما لمن آتيتنا صالحاً) : أي : بشراً سوياً ، كما قال الضحاك ، عن ابن عباس : أشفقاً أن يكون بهيمة . وكذلك قال أبو البختري ، وأبو مالك : أشفقاً ألا يكون إنساناً .

وقال ابن جرير : والصالح قد يشمل معاني كثيرة ، منها : الصلاح في استواء الخلق ، ومنها : الصلاح في الدين ، والصلاح في العقل والتدبير ، وإذ كان ذلك كذلك ، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني الصلاح دون بعض ، ولا فيه من العقل دليل ، وجب أن يعم كما عمه الله ، فيقال : إنهما قالا (لئن آتيتنا صالحاً) بجميع معاني الصلاح .

٥٠ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} الآية .

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : { يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } : يُشْرِكُونَ .

وَعَنْهُ : سَمَّوْا آلِلَاتٍ مِنَ الْإِلَهِ ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ .

وَعَنِ الْأَعْمَشِ : يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا .

٥٠ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} الآية .

الباب الخمسون

وخلاصته : وجوب احترام أسماء الله تعالى ، والتعبد له بما تضمنته من الصفات ، وعدم الميل بها عما يجب لها .

المسائل المتعلقة بالباب :

الإلحاد : هو الميل عن الاستقامة .

والإلحاد في أسماء الله يشمل عدة أمور ، منها :

- ١ . أن ينكر شيئاً من الأسماء ، أو مما دلت عليه من الصفات ، أو الأحكام .
- قال ابن القيم : وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر .
- ٢ . أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه ، كتسمية الفلاسفة له (العلة الفاعلة) أو (العقل الفاعل) وكتسميته بـ (القوة الخفية) أو (المهندس الأعظم) أو (المخترع) وتسمية النصارى له أباً ، ونحو ذلك .
- ٣ . أن يشتق من أسماءه أسماء للأصنام ، كما جاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى (يلحدون في أسمائه) : سمو اللات من الإله ، والعزى من العزيز .
- ٤ . أن يسلبها معانيها الكمالية ، كما عند المعتزلة حيث يثبتون لله أسماء مجردة عن صفاتها ومعانيها ، وهذا من أعظم الإلحاد .
- ٥ . أن يشبه صفات الله بصفات المخلوقين .
- ٦ . أن يفوض معاني الصفات .

والقاعدة : أن كل بدعة في باب الأسماء والصفات فهي من باب الإلحاد في أسماء الله وصفاته .

قال ابن القيم : الإلحاد في أسمائه تعالى أنواع :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسميتهم اللات من الإله ، والعزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهاً ، وهذا إلحاد حقيقة ، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وألهتهم الباطلة .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له (أباً) وتسمية الفلاسفة له (موجباً بذاته ، أو علة فاعلة بالطبع) ونحو ذلك .

وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول أخبث اليهود (إنه فقير) وقولهم (إنه استراح بعد أن خلق خلقه) وقولهم (يد الله مغلولة) وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته .

ورابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها ، وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني ، فيطلقون عليه اسم السميع ، والبصير ، والحي ، والرحيم ، والمتكلم ، والمريد ، ويقولون : لا حياة له ، ولا سمع ، ولا بصر ، ولا كلام ، ولا إرادة تقوم به ، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً ، وشرعاً ، ولغة ، وفطرة .

وخامسها : تشبيه صفاته بصفات خلقه ، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً .

وقال أيضاً : الإلحاد في أسماء الله تارة يكون بجحد معاني حقائقها , وتارة يكون بإنكار المسمى بها , وتارة يكون بالتشريك بينه وبين غيره فيها , فالتأويل الباطل هو إلحاد وتحريف , وإن سماه أصحابه تحقيقاً , وعرفاناً , وتأويلاً .

وقال أيضاً : فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها , والإلحاد فيها أنواع هذا أحدها , الثاني : تسمية الأوثان بها , كما يسمونها (آلهة) وقال ابن عباس ومجاهد : عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه , فسموا بها أوثانهم , فزادوا , ونقصوا , فاشتقوا اللات من الله , والعزى من العزيز , ومناة من المنان , وروي عن ابن عباس يلحدون في أسمائه : يكذبون عليه , وهذا تفسير بالمعنى .

وقال أيضاً : وحقيقة الإلحاد فيها : العدول بها عن الصواب فيها , وإدخال ما ليس من معانيها فيها , وإخراج حقائق معانيها عنها , هذا حقيقة الإلحاد , ومن فعل ذلك فقد كذب على الله , ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب .

وقال أيضاً : فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها , وإما بجحد معانيها وتعطيلها , وإما بتحريفها عن الصواب , وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة , وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات , كالإلحاد أهل الإلحاد , فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها , حتى قال زعيمهم : وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلاً , وشرعاً , وعرفاً , وبكل اسم مذموم عقلاً , وشرعاً , وعرفاً . تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً .

وقفات مع أدلة الباب

قول الله تعالى : {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} الآية .

في هذه الآية يبين سبحانه وتعالى أن أسماء كلها حسنى ، بالغة في الحسن غايته ومنتهاه ، فلا أحسن منها على الإطلاق ، فالواجب دعاء الله بهذه الأسماء على ما يليق به .
والدعاء هنا يشمل دعاء المسألة ، كأن يقول في دعاءه : يا الله ، يا رحمن ...
والمنبغي أن يسأل الله المغفرة باسم الغفور ، والرحمة باسم الرحيم ، والانتصار باسم المعين ، والانتقام باسم المنتقم الجبار ، وهكذا .
ولا يقل : اللهم أهلك الكفار يا أرحم الراحمين ... ونحو ذلك .
ويشمل دعاء العبادة ، وهو أن يتعرض لمعاني الأسماء والصفات ، فيراقب الله في عبادته ، ويحسن فيها لعلمه باطلاع الله عليه ، ويراعي لفظه ، ونظره ، وخاطره ، ونيته ، لعلمه بسمع الله ، وبصره ، وعلمه بدقيق الأمور ، وخفيها ، وهكذا باقي الصفات .

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : { يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } : يُشْرِكُونَ .

تخریجه : رواه ابن أبي حاتم ، وعبد الرزاق ، وابن جرير عن قتادة وليس عن ابن عباس .
قال في تيسير العزيز الحميد : وهذا الأثر لم يروه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، إنما رواه عن قتادة فاعلم ذلك أ.هـ .
والمنقول عن ابن عباس في الآية أن الإلحاد : التكذيب ، كما هو عند ابن أبي حاتم ، وابن جرير .

وَعَنْهُ : سَمَّوْا آلَاتٍ مِنَ الْإِلَهِ ، وَالْعَزَى مِنَ الْعَزِيزِ .

تخریجه : رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس بلفظ : اشتقوا العزى من العزيز ، واشتقوا اللات من الله .

وَعَنِ الْأَعْمَشِ : يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا .

تخریجه : رواه ابن أبي حاتم ، وهو ضعيف .
والشاهد من هذه الآثار : هو تفسير قوله تعالى (يلحدون في أسمائه) وكلها معان صحيحة ولا تعارض بينها ، لأن الإلحاد له صور متعددة كما سبق ذكر بعضها .

٥١ - بَابُ لَا يُقَالُ : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ ، السَّلَامُ عَلَى
فُلَانٍ وَفُلَانٍ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَا تَقُولُوا : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ)) .

٥١ - بَابُ لَا يُقَالُ : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

الباب الحادي والخمسون

وخلاصته : النهي عن قول (السلام على الله) لما في ذلك من التنقص لجنان الله عز وجل ، كما يأتي .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

الدعاء بالسلامة لشخص يشمل : الدعاء له بالحفظ والسلامة من كل مكروه ، والدعاء له بالسلامة من النقائص والعيوب ، وهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله ، لأنه سبحانه هو الحافظ الحفيظ ، السالم المسلّم ، لا يلحقه نقص ولا عيب سبحانه . قال ابن القيم في النونية :

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل ما عيب ومن نقصان

وعليه لا يجوز إطلاق لفظ (السلام على الله) لسببين :

الأول : ما سبق ذكره من أنه سبحانه له كامل الصفات ، منزّه عن كل عيب ونقص .

والثاني : أن السلام هو الله ، والله يُدعى ولا يُدعى له سبحانه ، ولذا كان من دعاء النبي ﷺ : اللهم أنت السلام ، ومنك السلام .

وأما قوله تعالى (تحيّيهم يوم يلقونه سلام) فالمراد أن الله هو الذي يسلم على المؤمنين في الجنة ، واختاره ابن كثير .

قال ابن الجوزي : قوله تعالى (تَحْيَيْتُهُمْ) الهاء والميم كناية عن المؤمنين ، فأما الهاء في قوله تعالى (يَلْقَوْنَهُ) ففيها قولان : أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، ثم فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن معناه : تحيّيهم من الله يوم يلقونه سلام .

روى صهيب عن النبي ﷺ أن الله تعالى يُسَلِّم على أهل الجنة .

والثاني : تحيّيهم من الملائكة يوم يلقون الله تعالى سلام ، قاله مقاتل .

وقال أبو حمزة الثمالي : تسلّم عليهم الملائكة يوم القيامة ، وتبشّرهم حين يخرجون من قبورهم .

والثالث : تحيّيهم بينهم يوم يلقون ربهم سلام ، وهو أن يُحيّي بعضهم بعضاً بالسلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أن الهاء ترجع إلى ملك الموت ، وقد سبق ذكره في ذكر الملائكة ، قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال له : ربّك يقرئك السلام .

وقال البراء بن عازب في قوله تعالى (تَحْيَيْتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) قال : ملك الموت ، ليس مؤمن يقبض روحه إلا سلّم عليه .

وقفات مع أدلة الباب

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا : أَلَسْلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ ، أَلَسْلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَا تَقُولُوا : أَلَسْلَامُ عَلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ أَلَسْلَامُ)) .

تخرجه : متفق عليه ، واللفظ للبخاري ، وتماه : ولكن قولوا : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ...

والشاهد : أن النبي ﷺ نهي الصحابة عن قول (السلام على الله) وبين لهم أن الله هو السلام ، السالم من كل عيب ، المسلم لغيره عز وجل .

ومقصود الصحابة من ذلك : التحية فحسب ، ولذلك أرشدهم النبي ﷺ إلى قول : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات .
فنهامهم عن اللفظ المخذور ولو كانوا لا يقصدون المعنى المخذور .

قوله (في الصلاة) المراد في التشهد ، كما جاء في بعض الروايات : كنا نقول في الصلاة قبل أن يفرض التشهد...
ولذا بوب البخاري على الحديث : باب التشهد في الآخرة .

حدثنا أبو نعيم قال : حدثنا الأعمش عن شقيق بن سلمة قال : قال عبد الله : كنا إذا صلينا خلف النبي ﷺ قلنا : السلام على جبريل ، وميكائيل ، السلام على فلان وفلان ، فالتفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : إن الله هو السلام ، فإذا صلى أحدكم فليقل : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين - فإنكم إذا قلمتموها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض - أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .
وجاء عند مسلم (السلام على الله قبل عباده) .

ومن فوائد الحديث :

١. أن من نهي عن شيء وله بديل شرعي يحسن التنبيه عليه .
٢. أن من نهي عن شيء يبين سبب النهي .
٣. أنه ينهي عن الشيء المخذور ولو كان صاحبه لا يقصد المعنى المخذور .

٥٢ - بَابُ قَوْلٍ : اَللّٰهُمَّ اِغْفِرْ لِيْ اِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اَللّٰهُمَّ اِغْفِرْ لِيْ اِنْ شِئْتَ ، اَللّٰهُمَّ اِرْحَمْنِيْ اِنْ شِئْتَ ، لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ)) .

وَلِمُسْلِمٍ : ((وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)) .

٥٢ - بَابُ قَوْلٍ : اَللّٰهُمَّ اَغْفِرْ لِيْ اِنْ شِئْتَ

الباب الثاني والخمسون

وخلاصته : النهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة لما في ذلك من المحاذير التي تنافي التعظيم لله عز وجل .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

تعليق الدعاء بالمشيئة يتضمن عدة محاذير :

- ١ . أنه قد يشعر أن الله مكروه ، وهذا المعنى أشار إليه النبي ﷺ بقوله : فإن الله لا مكروه له .
- ٢ . أنه قد يشعر أن طلب الأمور العظيمة قد تعجز الله تعالى ، وهذا المعنى أشار إليه النبي ﷺ بقوله في رواية مسلم : وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه .
- وفي الحديث القدسي : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر . رواه مسلم .
- ٣ . أنه قد يدخل في نفس العبد الشعور بالاستغناء عن الله تعالى .
- ٤ . أنه قد يدخل في نفس العبد التردد في سؤاله وطلبه ، وهذا المعنى أشار إليه النبي ﷺ بقوله : ليعزم المسألة .
- وسبق أن ذكرنا في الباب السابق أن اللفظ قد ينهي عنه ولو لم يقصد القائل المعنى المحذور .
- وعليه فلا يجوز تعليق الدعاء بالمشيئة ، بل على العبد أن يجزم في دعائه ، وأن يحسن الظن بربه الكريم .
- قال النووي : قال العلماء : عزم المسألة : الشدة في طلبها ، والجزم من غير ضعف في الطلب ، ولا تعليق على مشيئة ونحوها ، وقيل : هو حسن الظن بالله تعالى في الإجابة .
- وقال ابن باز : وكذلك إذا دعا لإخوانه لا يقول : غفر الله لك إن شاء ، أو رحمك إن شاء ، بل يجزم ، ولا يقول (إن شاء الله) ولو تبركاً ، فلا يستثني أبداً .
- مسألة : اختلف العلماء في توجيه حديث زيارة المريض وقول (لا بأس طهور إن شاء الله) رواه البخاري .
- ولعل الأقرب أن يقال : إن قول (طهور إن شاء الله) خبر وليس دعاء ، والمعنى (يكون طهوراً إن شاء الله) من باب التفاؤل .
- قال شيخنا : يظهر أنه ليس من باب الدعاء ، وإنما هو من باب الخبر ، والرجاء^(١) .
- وعليه فإن نوى الدعاء بمثل هذه الصيغة لم يجز الاستثناء ، وإن نوى الخبر جاز الاستثناء ، والله تعالى أعلم .
- ويقال أيضاً : لا يجوز قول (جزاك الله خيراً إن شاء الله) لأن هذه الجملة لا تكون إلا دعاء ، ولو كانت بصيغة الخبر ، ومثلها قول (رحمه الله) .
- وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله (طهور إن شاء الله) من باب التبرك ، كقوله تعالى عن يوسف (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) .

(١) قال شيخنا ابن عثيمين : يقول النبي ﷺ : (لا بأس طهور إن شاء الله) وهذا خبر ، وهو طهور بالنسبة للمريض إذا احتسب الأجر ، والمريض قد يحتسب الأجر وقد لا يحتسب ، فإذا لم يحتسب لم يكن طهوراً له . فقول النبي ﷺ (إن شاء الله) هو كالرجاء أن يكون هذا المريض محتسباً للأجر ، فيكون مرضه طهوراً له ، وحينئذ لا ينافي تعليق الدعاء بالمشيئة .

ومرادهم هنا أن هذا الخير قرن بمشيئة الله من باب التبرك , لا أن المعنى أن لفظ (إن شاء الله) قرن بالدعاء من باب التبرك , فالمشيئة لا تقرن بالدعاء ولو من باب التبرك , لعموم الحديث .

مسألة : الأمور المعلوم نفعها يجزم ويعزم في طلبها ، وأما الأمور التي لا يعلم عاقبتها فإنه يعلقها على علم ربه عز وجل ، كما في حديث الاستخارة : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ، ومعاشي ، وعاقبة أمري ، فاقدري لي ويسره لي...رواه البخاري ، وحديث : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي...رواه البخاري .

قال السعدي : فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين من طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها ، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها ، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها ، ولا رجحان نفعها على ضررها ، فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة ورحمة ولطفاً .

وقفات مع أدلة الباب

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يَثُلُ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ ، لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مَكْرَهَ لَهُ)) .

وَلِمُسْلِمٍ : ((وَلِيُعْظِمَ الرَّغْبَةَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاضَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ)) .

تخرجه : الحديث الأول متفق عليه ، واللفظ للبخاري ، والحديث الثاني رواه مسلم .

والشاهد : أن النبي ﷺ نهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة ، وأرشد إلى العزم في السؤال والطلب ، وإلى تعظيم الرغبة في ذلك ، وبين أن الله لا مكره له ، ولا يتعاضمه شيء سبحانه .

وقد اختلف أهل العلم في حكم هذا النهي هل هو للتحريم أو للكرهية ، فذهب النووي ، وابن حجر إلى أنه للكرهية ، وذهب ابن عبد البر إلى أنه للتحريم .

قلت : أما إن قصد أحد المحاذير فهو حرام بلا شك .

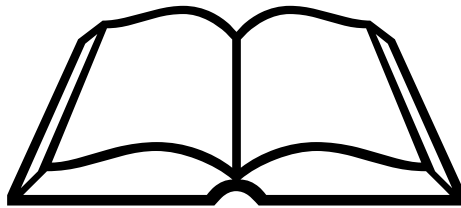
الوجيز في شرح كتاب

التوحيد

(الجزء الخامس)

آخر نسخة ١٤٤٧ هـ

عبدالله محمد الجهنى



٥٣ - بَابُ لَا يَقُولُ : عَبْدِي وَأَمَنِي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ : أَطْعِمَ رَبَّكَ ، وَصَيَّ رَبَّكَ ، وَلْيَقُلْ : سَيِّدِي وَمَوْلَايَ ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي وَأَمَنِي ، وَلْيَقُلْ : فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي)) .

٥٣ - بَابُ لَا يَقُولُ : عَبْدِي وَأَمْتِي

الباب الثالث والخمسون

وخلاصته : النهي عن بعض الألفاظ التي تخدش في جناب الربوبية .

ومن ذلك قول السيد لغلامه أو أمته (عبدي ، أمتي) أو قوله : أطعم ربك ، اسق ربك ، وضئ ربك .

ووجه النهي : ما فيه من المشاركة لمقام الربوبية في هذه الألفاظ ، فالرب عند الإطلاق يراد به رب العالمين سبحانه ، والمعبود الحق هو الله عز وجل .

ويقال أيضاً : إطلاق هذه الألفاظ فيها نوع من التناول على المملوك ، وفيها قدرٌ كبير من إدخال الكبر في نفس السيد ، فالنهي عنها من باب سد الذرائع المفضية إلى المحرم .

وهذا النهي في الأصل للكرهية والتنزيه لا للتحريم ، كما أشار إلى ذلك ابن القيم ، ونقل الإجماع على ذلك ابن حجر في الفتح . قال ابن القيم : النبي ﷺ نهى الرجل أن يقول لغلامه وجاريته (عبدي ، وأمتي) ولكن يقول (فتاي ، وفتاتي) ونهى أن يقول لغلامه (وضئ ربك ، أطعم ربك) سداً لذريعة الشرك في اللفظ والمعنى ، وإن كان الرب ههنا هو المالك ، كرب الدار ، ورب الإبل ، فعدل عن لفظ (العبد ، والأمة) إلى لفظ (الفتى ، والفتاة) ومنع من إطلاق لفظ (الرب) على السيد حمايةً لجانب التوحيد ، وسداً لذريعة الشرك .

وقال في تيسير العزيز الحميد : فنهى عن ذلك أدباً مع جناب الربوبية ، وحمايةً لجناب التوحيد أ.هـ

وخلاصة الأمر أن النهي الوارد في هذا الحديث من باب تحقيق التوحيد في الألفاظ ، وترك التشريك في الألفاظ ، وهذا من الكمال العالي في جانب التوحيد ، والله تعالى أعلم .

قال المصنف في مسائل الباب : التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ .

واقصر المصنف في الترجمة على حكم واحد ، وهو قول السيد (عبدي ، وأمتي) وهناك ألفاظ أخرى في حديث الباب يأتي الكلام عنها .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

الكلام عن الألفاظ المذكورة في الحديث ، وهي :

١. لفظ (رب) : الرب من حيث اللغة هو : المالك ، والسيد ، والمتصرف .
ولا شك أن العبد له ملك وسيادة مقيدة ، فيصح أن تطلق هذه الكلمة عليه حال ملكه لشيء ، أو سيادته على شيء ، وأما الملك المطلق ، والتصرف المطلق ، والسيادة المطلقة فلا تكون لأحدٍ غير الله عز وجل .
وعليه فإطلاق لفظ (رب) على غير الله جائز إن قصد المعنى اللغوي ، وهو الملك المقيد المحدود ، والسيادة المقيدة المحدودة .
وقد جاءت هذه الكلمة كثيراً في نصوص الشرع مضافة لغير الله تعالى ، ومن ذلك : قول يوسف عليه السلام (اذكرني عند ربك) وقوله (ارجع إلى ربك) يقصد : سيدك . وقوله عليه السلام (إنه ربي أحسن مثواي) يقصد : سيدي .
ومنه قوله ﷺ : حتى يهيم رب المال من يقبل صدقته . متفق عليه .
وقوله ﷺ في حديث الضالة : حتى يجدها ربها . متفق عليه .
وقوله ﷺ : أن تلد الأمة ربها . متفق عليه .
إلا أنه لا يصح إطلاق هذا اللفظ محلاً بـ (أل) على غير الله ، لأن هذا اللفظ لا يطلق معروفاً إلا على الله عز وجل ، وذلك أنه يفيد الاستغراق ، وهذا كما سبق لا يكون إلا لله ، فهو سبحانه من له الملك المطلق ، والسيادة المطلقة ، كذا لا يصح إطلاقه على غير الله بإطلاق وإن لم يكن محلاً بـ (أل) كقول : هذا رب ، أو هو رب .
وأما النهي الوارد في بعض الأحاديث كقوله ﷺ : لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضئ ربك . متفق عليه .
وقوله ﷺ : ولا يقل أحدكم : ربي . وليقل : سيدي ، مولاي . رواه مسلم .
فهو نهي مقيد لصورة مقيدة تُراعى فيها الشريعة الكمال العالي في جانب التوحيد ، والله تعالى أعلم .
قال النووي رحمه الله : قال العلماء : لا يطلق الرب بالألف واللام إلا على الله تعالى خاصة ، فأما مع الإضافة فيقال : رب المال ، ورب الدار ، وغير ذلك ، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح في ضالة الإبل (دعها حتى يلقاها ربها) والحديث الصحيح (حتى يهيم رب المال من يقبل صدقته) وقول عمر رضي الله عنه في الصحيح (رب الصرمة ، والغنيمة)^(١) ونظائره في الحديث كثيرة مشهورة .
وأما استعمال حملة الشرع ذلك ، فأمر مشهور معروف .
قال العلماء : وإنما كره للمملوك أن يقول لمالكة (ربي) لأن في لفظه مشاركة لله تعالى في الربوبية .
وأما حديث (حتى يلقاها ربها) و (رب الصرمة) وما في معناهما ، فإنما استعمال لأنها غير مكلفة ، فهي كالدار ، والمال ، ولا شك أنه لا كراهة في قول : رب الدار ، ورب المال .
وأما قول يوسف ﷺ : (اذكرني عند ربك) فعنه جوابان :
أحدهما : أنه خاطبه بما يعرفه ، وجاز هذا الاستعمال للضرورة ، كما قال موسى ﷺ للسامري (وانظر إلى إلهك) أي الذي اتخذته إلهاً .

(١) والصرمة : تصغير الصرمة ، وهي القطعة القليلة من الإبل . والغنيمة : تصغير الغنم ، أي صاحب الغنم القليلة .

والجواب الثاني : أن هذا شرع من قبلنا ، وشرع من قبلنا لا يكون شرعاً لنا إذا ورد شرعنا بخلافه ، وهذا لا خلاف فيه ، وإنما اختلف أصحاب الأصول في شرع من قبلنا إذا لم يرد شرعنا بموافقه ولا مخالفته ، هل يكون شرعاً لنا أم لا ؟ أهـ .
ولأهل العلم توجيهات كثيرة في هذه المسألة ، والله أعلم بالصواب .

٢. لفظ (سيد) : السيد في اللغة : من له السيادة والرئاسة على غيره .

والسيادة المطلقة ليست لأحد من الخلق ، بل هي خاصة بالله تعالى ، لكمال صفاته سبحانه ، وهذا معنى حديث عبد الله بن الشخير قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول ﷺ فقلنا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله تبارك وتعالى .
وعليه فلو أطلقت على غير الله بهذا المعنى مُنع منها ، وأما إن أطلقت على غير الله بقصد السيادة المقيدة أو المخصصة جاز ذلك بشرط أن يكون من أطلقت عليه مسلماً ، وأما الكافر أو المنافق فلا يصح ذلك لقوله ﷺ : لا تقولوا للمنافق (سيدنا) فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم . رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وصححه الألباني .
وفي نهيه ﷺ عن إطلاق ذلك على المنافق دليل على جواز ذلك في المؤمن .

قال ابن القيم رحمه الله في أحكام أهل الذمة : فصل (خطاب الكتابي بسيدي ، ومولاي) : وأما أن يخاطب بسيدنا ، ومولانا ، ونحو ذلك فحرام قطعاً أهـ .

لكن يجوز أن يقال له (سيد قومه ، أو سيد بني فلان) كما في سورة يوسف (وألفيا سيدها) وقد كان ﷺ يسأل العرب عن سيدهم ، كما في أحاديث عدة ، منها ما رواه البخاري في الأدب المفرد قال : حدثنا عبد الله بن أبي الأسود ، قال حدثنا حميد بن الأسود عن الحجاج الصواف ، قال حدثني أبو الزبير ، قال حدثنا جابر قال : قال رسول الله ﷺ : من سيدكم يا بني سلمة ؟ قلنا : جد بن قيس ، على أنا نبخله ، قال : وأي داء أدوى من البخل ، بل سيدكم (عمرو بن الجموح) وكان عمرو على أصنامهم في الجاهلية ، وكان يولم عن رسول الله ﷺ إذا تزوج . قال الألباني : صحيح .

قال النووي في الأذكار : فصل في لفظ (السيد) : اعلم أن السيد يطلق على الذي يفوق قومه ، ويرتفع قدره عليهم ، ويطلق على الزعيم ، والفاضل ، ويطلق على الحليم الذي لا يستغزه غضبه ، ويطلق على الكريم ، وعلى المالك ، وعلى الزوج ، وقد جاءت أحاديث كثيرة بإطلاق (سيد) على أهل الفضل .

فمن ذلك ما رويناه في صحيح البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد بالحسن بن علي رضي الله عنهما المنبر فقال : إن ابني هذا سيد ، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين من المسلمين .

ورويناه في صحيح البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للأَنْصار لما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه : قوموا إلى سيدكم أو خيركم ، كذا في بعض الروايات (سيدكم أو خيركم) وفي بعضها (سيدكم) بغير شك .
ورويناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن سعد بن عباد رضي الله عنه قال : يا رسول الله : أ رأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً أ يقتله ؟... الحديث ، فقال رسول الله ﷺ : انظروا إلى ما يقول سيدكم .

وأما ما ورد في النهي ، فما رويناه بالإسناد الصحيح في سنن أبي داود عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقولوا للمنافق سيد ، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل .

قلت : والجمع بين هذه الأحاديث : أنه لا بأس بإطلاق : فلان سيد ، وبيا سيدي ، وشبه ذلك إذا كان المسود فاضلاً خيراً ، إما بعلم ، وإما بصلاح ، وإما بغير ذلك ، وإن كان فاسقاً ، أو متهماً في دينه ، أو نحو ذلك ، كره له أن يقال : سيد .

وقد روينا عن الإمام أبي سليمان الخطابي في معالم السنن في الجمع بينهما نحو ذلك أ.هـ.

وقد أخذ جمعٌ من أهل العلم من هذا الحديث إثبات اسم (السيد) لله تعالى ، ومن ذهب إلى ذلك ابن منده ، والبيهقي .

٣. لفظ (مولى) : المولى في اللغة : من يتولى أمور من تحته ، أو القائم على أمور سيده ، فهو من ألفاظ الأضداد^(١) .

والله وحده من له الولاية العامة المطلقة على جميع الخلق ، وأما الولاية المقيدة فتكون للسيد على عبده ، والزوج على امرأته ، ونحو ذلك .

وإطلاق هذا اللفظ على غير الله ورد كثيراً في الشرع باختلاف موارد ، ومن ذلك قوله تعالى (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) وقوله تعالى (يوم لا يُغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم يُنصرون) .

وعليه فيجوز إطلاق هذا اللفظ على من له ولاية على غيره ، كما قال ﷺ في شأن العبد (وليقل : سيدي ، ومولاي) .

مسألة : جاء في رواية عند مسلم (لا يقل : مولاي ، فإن مولاكم الله) وحكم بعضهم على هذه اللفظة بالشذوذ لمخالفتها باقي النصوص التي تميز إطلاق تلك اللفظة ، وللاختلاف فيها عن الأعمش .

والأقرب أن يقال : هذا من باب الأدب العالي ، وأن الأولى تركها ، وهذا مما يؤيد القول بكرهية إطلاق هذه اللفظة على كل أحد ، فإذا كان الأولى بالعبد عدم إطلاقها على سيده فغيره أحق بالمنع ، والله أعلم .

قال في تيسير العزيز الحميد عن هذه الرواية : فظاهر رواية مسلم معارضة لحديث الباب ، وأجيب بأن مسلماً قد بين الاختلاف فيه عن الأعمش ، وأن منهم من ذكر هذه الزيادة ، ومنهم من حذفها .

قال عياض : وحذفها أصح ، فظهر أن اللفظ الأول أرجح ، وإنما صرنا للترجيح للتعارض بينهما ، والجمع متعذر ، والعلم بالتاريخ مفقود ، فلم يبق إلا الترجيح .

قلت : الجمع ممكن بحمل النهي على الكراهة ، أو على خلاف الأولى أ.هـ.

وبناء على ما سبق فإنه لا يجوز قول (مولانا ، أو مولاي) إلا لمن كان متولي أمر هذا الشخص ، كالخادم لسيده ، كما في حديث الباب ، ولا يُعرف أن الصحابة كانوا يتبادلون هذا اللفظ بينهم ، ولا يطلقونه على رسول الله ﷺ^(٢) .

(١) قال ابن حجر: المولى يطلق على أوجه متعددة منها الأسفل والأعلى ، فكان إطلاقه أسهل ، وأقرب إلى عدم الكراهة .

(٢) وقد ذهب الشيخ ابن باز رحمه الله إلى أنها لا تطلق إلا من العبد لسيده .

وشئنا شيخنا ابن عثيمين عن قول الإنسان إذا خاطب ملكاً (يا مولاي) فأجاب بقوله : الولاية تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : ولاية مطلقة ، وهذه لله عز وجل ، كالسيادة المطلقة ، وولاية الله بالمعنى العام شاملة لكل أحد قال الله تعالى (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) فجعل له سبحانه الولاية على هؤلاء المفتريين ، وهذه ولاية عامة ، وأما بالمعنى الخاص فهي خاصة بالمؤمنين المتقين ، قال الله تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) وقال الله تعالى (إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهذه ولاية خاصة .

القسم الثاني : ولاية مقيدة مضافة ، فهذه تكون لغير الله ، ولها في اللغة معاني كثيرة ، منها الناصر ، والمتولي للأمور ، والسيد ، قال الله تعالى (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) وقال ﷺ : من كنت مولاه فعلي مولاه . وقال ﷺ : إنما الولاء لمن أعتق .

وعلى هذا فلا بأس أن يقول القائل للملك (مولاي) بمعنى سيدي ، ما لم يخش من ذلك مخذور أ.هـ.

٤. لفظ (عبيدي ، وأمتي) :

جاء في نصوص الشرع إضافة العبودية لغير الله في عدة مواضع ، ومنها قوله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) .

وقوله ﷺ : ليس على المسلم صدقة في عبده ، ولا في فرسه . متفق عليه .

وقوله ﷺ : العبد إذا نصح سيده ، وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين . متفق عليه .

وقوله ﷺ : إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها ، فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبيعها ولو بجبل من شعر . متفق عليه .

وأما النهي الوارد في بعض النصوص ، كما في حديث الباب ، فقد ذهب بعض أهل العلم في الجمع بين هذه النصوص إلى أن النهي مقتصر على مخاطبة السيد لعبده أو أتمته بلفظ (عبيدي أو أمتي) لما فيه من الإذلال للعبد والأمة ، وأما إن كان من باب الإخبار في غيبة العبد والأمة ، أو كان بغير لفظ الخطاب فلا بأس .

وذهب بعضهم إلى أن الأمر على الجواز لورود ذلك في نصوص الشرع ، والنهي في هذا الحديث يدل على الكراهة سداً لذريعة الشرك في اللفظ والمعنى ، كما قال ابن القيم ، وذلك لأن العبودية المطلقة لا تكون إلا لله عز وجل .

قال شيخنا ابن عثيمين : ولا يقل أحدكم (عبيدي ، وأمتي) هذا خطاب للسيد ، لا يقل (عبيدي) ولا (أمتي) لأننا جميعاً عباد لله ، ونساءؤنا إماء لله ، قال النبي ﷺ : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله . فلا يقول الإنسان لمملوكه (عبيدي ، وأمتي) لماذا ؟ أولاً : لأنه إذا قال عبيدي فإنه تشبه بالله عز وجل ولو من حيث ظاهر اللفظ ، لأن الله عز وجل يخاطب عباده بكلمة (عبيدي) كما في الحديث : عبيدي استطعمتك فلم تطعمني . وما أشبه ذلك ، إذا قال الإنسان عن مملوكه (عبيدي) صار مشاركاً لله عز وجل ، حيث جعل هذا المخلوق عبداً له ، ولو باللفظ ، وإن كان السيد لا يريد بقوله (عبيدي) ما يريد الله تعالى بقوله (عبيدي) وإنما يريد السيد بقوله (عبيدي) مملوكي الذي أملكه ، لكن مع ذلك هذا من باب التنزه في اللفظ ، والبعد عما يقتضي الإشراك ، ولكن لو قالها على سبيل الخبر ، بأن قال له قائل : من هذا ؟ فقال : هذا عبيدي . فهذا جائز ، أو يقول مثلاً : بعث عبيدي فلاناً ، أو زوجت عبيدي فلاناً ، أو اشتريت كذا وكذا لعبدي ، وما أشبه ذلك ، فهذا لا بأس به ، لكن الخطاب يا عبيدي ، أو يقول : أنت عبيدي . هذا هو الذي نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام ... وكل هذا من باب حماية التوحيد ، كل هذا الذي نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام حماية للتوحيد ، وبعداً عن التشريك حتى في اللفظ أ.هـ بتصرف يسير .

وقال ابن باز : أما إذا قيل : عبد فلان ، أو إماء فلان ، فهذا من باب الإخبار ، وهو أسهل ، وليس من باب الإضافة إلى النفس أ.هـ

والخلاصة أن يقال : الأصل جواز إطلاق هذه الألفاظ لورودها في نصوص الشرع كثيراً , ومراعاة لمعناها اللغوي , وإنما يُنهي

عنها إن حُشي وجود مفسدة , ومن ذلك :

١ . إدخال الكبير والبطر في نفس السيد أو من قيلت له .

٢ . إذلال العبد أو الأمة بهذه الألفاظ .

٣ . إطلاقها بغير تقييد .

قال الخطابي : ولكن لا يقال : السيد , ولا المولى على الإطلاق من غير إضافة إلا في صفة الله تعالى أ.هـ

فإن خلت من هذه المحاذير جاز استعمالها , وترجح تركها من باب الأدب مع مقام الربوبية , والله تعالى أعلم .

وقفات مع أدلة الباب

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : أَطْعِمَ رَبَّكَ ، وَصَيَّ رَبَّكَ ، وَلَيَقُلْ : سَيِّدِي وَمَوْلَايَ ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِي وَأُمِّي ، وَلَيَقُلْ : فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي)) .

تخریجه : متفق عليه .

ولفظ البخاري : لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وصي ربك ، اسق ربك . وليقل : سيدي ، مولاي . ولا يقل أحدكم : عبدي ، أمي . وليقل : فتاي ، وفتاتي ، وغلامي .
ولفظ مسلم : لا يقل أحدكم : اسق ربك ، أطعم ربك ، وصي ربك . ولا يقل أحدكم : ربي . وليقل : سيدي ، مولاي . ولا يقل أحدكم : عبدي ، أمي . وليقل : فتاي ، وفتاتي ، غلامي .
وعند مسلم أيضاً : لا يقول أحدكم : عبدي . فكلكم عبيد الله ، ولكن ليقول : فتاي . ولا يقل العبد : ربي . ولكن ليقول : سيدي .

والشاهد : أن الشارع نهي عن بعض الألفاظ التي تحدث في مقام الربوبية .

وهذا النهي للكرهية والتنزيه لا للتحريم ، كما أشار إلى ذلك ابن القيم ، ونقل الإجماع على ذلك ابن حجر في الفتح .
وقال السعدي : وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمي ، إلى فتاي وفتاتي ، تحفظاً عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحدور ، ولو على وجه بعيد ، وليس حراماً ، وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محدوراً بوجه ، فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص ، خصوصاً هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا المقام .
وقال ابن باز : فهذا من باب الكمال ، والتأدب مع الله عز وجل .

وقال شيخنا : اتفق العلماء على أن كراهة (عبدي ، وأمي) للتنزيه ، حتى أهل الظاهر .

وقال في فتح المجيد : هذه الألفاظ المنهي عنها ، وإن كانت تطلق لغة ، فالنبي ﷺ نهي عنها تحقيقاً للتوحيد ، وسداً لذرائع الشرك ، لما فيها من التشريك في اللفظ ... وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية ، وإنما المعنى أن هذا مالك له ، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار ، فالنهي عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق تحقيقاً للتوحيد ، وبعداً عن الشرك حتى في اللفظ ...
فأرشدتهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ ، وهو قوله (سيدي ، ومولاي) وكذلك قوله (ولا يقل أحدكم عبدي وأمي) لأن العبيد عبيد الله ، والإماء إماء الله ... ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى ، وأدباً ، وإبعاداً عن الشرك ، وتحقيقاً للتوحيد ، وأرشدهم إلى (فتاي ، وفتاتي ، وغلامي) أ.هـ.
ومن فوائد الحديث : أن من نهي عن شيء وله بديل شرعي يحسن منه التنبيه إلى هذا البديل .

٥٤ - بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

٥٤ - بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

الباب الرابع والخمسون

وخلاصته : أن من إعظام الله تعالى ألا يُرد من سأل بالله .

المسائل المتعلقة بالباب :

صورة السؤال بالله أن يقول : أسألك بالله , أو بالله عليك أن تفعل كذا , أو أن تعطيني كذا , ونحو ذلك .
والسؤال بالله جائز من حيث الأصل , كما قال تعالى (واتقوا الله الذي تساءلون به) والمعنى : يسأل بعضكم بعضاً بالله , وكذا في حديث الباب (ومن سأل بالله فأعطوه) لكن إن غلب على الظن أن في ذلك إشفاق على الغير كره ذلك .
وأما الآية والحديث فهي من باب الإخبار وليست من باب الحث .

قال ابن باز : وقد جاءت عدة أحاديث تدل على كراهة السؤال بالله لما فيه من التشديد على الناس .

وأما من سئل بالله فالمنبغي عليه ألا يرد السائل إلا في أحوال :

- ١ . إن كان ذلك الأمر المطلوب محرماً .
 - ٢ . إن كان ذلك الأمر المطلوب ليس في قدرته .
 - ٣ . إن خشي أن يتضرر هو , أو يتضرر السائل بذلك .
- فإذا انتفت هذه الأمور فإن إجابة السائل متعينة .

وقفات مع أدلة الباب

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْتُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

تخریجه : رواه أبو داود ، والنسائي ، وصححه النووي في رياض الصالحين ، والألباني .

والشاهد : أن النبي ﷺ أمر من سئل بالله أن يعطي السائل .

وظاهر الحديث الوجوب بالشروط السابقة ، واختاره صاحب تيسير العزيز الحميد ، وشيخنا ، وذهب كثير من أهل العلم إلى أن ذلك على وجه الاستحباب ، وبه قال ابن قدامة ، واختاره ابن باز ، والله أعلم .

قوله (من استعاذ بالله فأعيدوه) وهذا يشمل أن يقول : أعوذ بالله منك ، أو من فلان .

والأصل أن من استعاذ بالله أن يُعَاذَ ، بشرط ألا يكون في حق عليه لله ، أو لآدمي .

قال البخاري : حدثنا الحميدي ، حدثنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، قال : سألت الزهري : أي أزواج النبي ﷺ استعاذت منه ؟ قال : أخبرني عروة ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن ابنة الجون لما أُدخِلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت : أعوذ بالله منك . فقال لها : لقد عدت بعظيم ، الحقي بأهلك .

وقال : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد الرحمن بن غسيل ، عن حمزة بن أبي أسيد ، عن أبي أسيد رضي الله عنه ، قال خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له (الشوط) حتى انتهينا إلى حائطين ، فجلسنا بينهما ، فقال النبي ﷺ : اجلسوا هاهنا ، ودخل وقد أتى بالجوينة ، فأنزلت في بيت في نخل ، في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل ، ومعها دايتها - حاضنة لها - فلما دخل عليها النبي ﷺ قال : هي نفسك لي . قالت : وهل تهب الملكة نفسها للسوقة . قال فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن ، فقالت : أعوذ بالله منك . فقال : قد عدت بمعاذ ، ثم خرج علينا ، فقال : يا أبا أسيد : اكسها رازقتين ، وألحقها بأهلها . قال ابن حجر في الفتح : والرازقية ثياب من كتان بيض طوال ، قاله أبو عبيدة ، وقال غيره : يكون في داخل بياضها زرقعة ، والرازقي الصفيق .

قوله (ومن سأل بالله فأعطوه) تعظيماً لله تعالى .

قال في تيسير العزيز الحميد : وعن ابن عباس مرفوعاً : ألا أخبركم بشر الناس ؟ رجل يُسأل بالله ولا يعطي . رواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في صحيحه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الذي يُسأل بالله ولا يعطي . رواه أحمد . إذا تبين هذا فهذه الأحاديث دالة على إجابة من سأل بالله ، أو أقسم به .

قوله (ومن دعاكم فأجيبوه) اختلف أهل العلم في حكم إجابة الدعوة :

١. الدعوة إلى وليمة العرس :

جمهور أهل العلم على وجوب إجابة دعوة العرس ، وبعضهم نقل الإجماع على ذلك ، كما نقله ابن عبد البر ، والنووي .
لما جاء في الصحيحين مرفوعاً : ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله .

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دُعي أحدكم إلى وليمة فليأتها .

وفي لفظ لمسلم : إذا دُعي أحدكم إلى وليمة عرس فليجب .

وفي الصحيحين أن ابن عمر كان يأتي الدعوة في العرس وغير العرس ، ويأتيها وهو صائم .

وكثير من أهل العلم يرى أن الوجوب خاص بمن عُين بالدعوة ، وأما الدعوة العامة فلا يَأثم بعدم الحضور ، والله أعلم .

قال ابن باز : ولا تجب الدعوة إلا إذا خصه بها .

تنبيه : الحكم بالوجوب هو الأصل ، لكن قد ترد صوارف لهذا الوجوب ، مثل أن تكون هناك أعذار للمدعو ، مثل : المرض ، أو السفر ، أو الانشغال بواجب أهم ، ونحو ذلك ، أو يكون هناك منكر في الوليمة لا يستطيع تغييره .

قال ابن قدامة : إذا دُعي إلى وليمة فيها معصية ، كالخمر ، والزمر والعود ونحوه ، وأمكنه الإنكار وإزالة المنكر لزمه الحضور والإنكار ، لأنه يؤدي فرضين : إجابة أخيه المسلم ، وإزالة المنكر ، وإن لم يقدر على الإنكار لم يحضر ، وإن لم يعلم بالمنكر حتى حضر أزاله ، فإن لم يقدر انصرف .

٢. الدعوة إلى غير وليمة في العرس :

جمهور أهل العلم على الاستحباب ، وذهب الظاهرية إلى وجوب إجابة كل دعوة .

تنبيه : هذا الحكم في حق المسلم لحديث : حق المسلم على المسلم ست وإذا دعاك فأجبه .
وأما الكافر فلا تجب ، بل ولا تشرع إلا للمصلحة .

قوله (ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) .

وهذا من حسن الأدب ، وعظيم الأخلاق ، فمن صنع المعروف فالمنبغي أن يقابل بمثله ، أو أعظم منه - وقد كان ﷺ إذا اقترض من أحد شيئاً رده بأكثر منه ، أو بأحسن منه - فإن لم يكن عنده شيء يقابل المعروف فله رده بأمرين :

أ. الشاء عليه : لقوله ﷺ : من صنع إليهم معروف فليجزه ، فإن لم يجد ما يجزيه ، فليش عليه ، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره . رواه البخاري في الأدب المفرد ، وقال الشيخ الألباني : صحيح .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن النبي ﷺ قال : ولقد أتاني جبريل عليه السلام برسالة من الله عز وجل فقال : يا محمد ، من فُعل به خير ، أو معروف ، فإن لم يجد إلا الشاء فليش ، فإن من أثنى كمن كافأ .

وفي رواية أبي عبد الله : من صنع إليه معروف فلم يجد إلا الدعاء والثناء فقد كافأ .

ومن أعظم الشاء قول (جزاك الله خيراً) كما جاء عند الترمذي وحسنه أن النبي ﷺ قال : من صنع إليه معروف فقال لفاعله :

جزاك الله خيراً ، فقد أبلغ في الشاء .

ب. الدعاء له : لقوله ﷺ في هذا الحديث : فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه .

قال المصنف في مسائل الباب : أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه .

ومن أعظم المعروف : ما يقوم به أهل العلم من بذل العلم , وتبصير الناس بالدين , فحقهم علينا : الثناء , والدعاء , وكذا ما

بذله الوالدان من أنواع المعروف , وصنوف الإحسان , فالمنبغي ألا يكلّ اللسان من الدعاء لهما أحياء وأمواتاً .

٥٥ - بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

٥٥ - بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

الباب الخامس والخمسون

وخلاصته : أن من تعظيم الله وأسمائه وصفاته أن لا يسأل بوجه الله إلا الجنة وما يقرب إليها .

قال السعدي : باب لا يُرد من سأل بالله , وباب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة :

الباب الأول خطاب للمسئول , وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل , وهو السؤال بالله , أن يجيبه احتراماً وتعظيماً لحق الله , وأداء لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم .

والباب الثاني خطاب للسائل , وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته , وأن لا يسأل شيئاً من المطالب الدنيوية بوجه الله , بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب , وأعظم المقاصد , وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم , ورضا الرب , والنظر إلى وجهه الكريم , والتلذذ بخطابه , فهذا المطلب الأسنى هو الذي يسأل بوجه الله , وأما المطالب الدنيوية , والأمور الدنية وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجهه .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

تخریجه : رواه أبو داود ، وأكثر أهل العلم على تضعيف هذا الحديث ، ومن ضعفه ابن القطان ، والمنذري ، والألباني . قال ابن باز رحمه الله : إسناد الحديث فيه لين وضعف ، لكنه ينجر بما جاء في الروايات الأخرى من النهي عن السؤال بوجه الله .

وقال في تيسير العزيز الحميد : روي بالنفي والنهي ، وروي بالبناء للمجهول ، وهو الذي في الأصل ، وروي بالخطاب للمفرد . **والشاهد :** أنه لا يجوز أن يسأل بوجه الله إلا الأمور العظيمة ، كطلب دخول الجنة ، والأمور المقربة إليها .

قال العراقي : وذكر الجنة إنما هو للتنبيه على الأمور العظام ، لا للتخصيص .

وقال في تيسير العزيز الحميد : والظاهر أن المراد لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ، أو ما هو وسيلة إليها ، كاستعاذة بوجه الله من غضبه ، ومن النار ، ونحو ذلك مما هو وارد في أدعيته ﷺ وتعوذاته أ.هـ .

وفي البخاري عن جابر رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك ، قال (أو من تحت أرجلكم) قال : أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال رسول الله ﷺ : هذا أهون ، أو : هذا أيسر .

وقد اختلف أهل العلم في المراد بقوله ﷺ (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة) على قولين :

١ . لا يسأل الله بوجهه إلا الجنة وما يقرب إليها .

كأن يقول : اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تدخلني الجنة ، أو الفردوس الأعلى من الجنة .

وأما أمور الدنيا فلا يجوز أن يسألها الله بوجهه ، لأن وجهه الله أعظم من أن يسأل به شيء من أمور الدنيا ، فلا يجوز أن يقال : اللهم إني أسألك بوجهك العظيم أن ترزقني زوجة صالحة .

٢ . لا يسأل أحد من المخلوقين بوجه الله ، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة ، والمخلوق لا يملكها .

فلا يجوز أن يقال : يا فلان أسألك بوجه الله أن تفعل كذا ، أو تعطيني كذا ، ونحو ذلك .

قال في تيسير العزيز الحميد : والظاهر أن كلا المعنيين صحيح .

وقال شيخنا : ولو قيل : إنه يشمل المعنيين جميعاً لكان له وجه .

٥٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِيهِ (لَوْ)

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا } الآية .

وَقَوْلُهُ : { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } الآية .

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا ؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)) .

٥٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِيهِ (لَوْ) ^(١)

الباب السادس والخمسون

وخلاصته : تحريم الاعتراض على القدر ، وبيان بعض الصور التي يحرم فيها استخدام كلمة (لو) ^(٢) .
المؤمن المحقق للتوحيد يعلم أن كل شيء إنما يقع بتقدير الله عز وجل ، وأنه مهما عمل من الأسباب ، أو ترك من الأسباب فكل ذلك لا يغير ما قدره الله له أو عليه ، وعندها يطمئن قلبه إلى ما قدره الله ، ولا يتحسر أو يعترض على قدر الله .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

استعمال كلمة (لو) و (لولا) ^(٣) له ثلاثة أحكام ، وهي :

١ . الجواز : وذلك إذا قيلت على وجه الخبر المحض .

مثل قوله ﷺ : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معي الهدي لأحلت . رواه البخاري .

وقوله ﷺ : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة . متفق عليه ، واللفظ للبخاري .

وقوله ﷺ لعائشة : لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيه من الحجر . رواه مسلم .

٢ . الاستحباب : وذلك إذا قيلت على وجه تمني الخير .

كما صح عنه ﷺ أنه ذكر رجلين أحدهما يقول : لو كان لي مال فلان لفعلت كذا وكذا ، وفي رواية : لأنفقته في سبيل الله .

فقال ﷺ : هما في الأجر سواء . رواه أحمد ، والترمذي .

٣ . التحريم : وذلك إذا قيلت على وجه الاعتراض والتسخط على القدر ، أو الاعتراض على الشرع ، أو على وجه التحسر

والندم ، أو على جهة الاحتجاج على المعصية أو التقصير في الواجبات الشرعية ، أو على جهة تمني الشر .

ومنه قوله تعالى عن المنافقين (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) وقوله عنهم (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو

أطاعونا ما قتلوا) وقوله عنهم (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا) وقوله تعالى عن المشركين (لو شاء الله ما أشركنا) .

ومنه قول : لو لم أسلك هذا الطريق لما حصل لي حادث .

(١) تنبيه : (لو) حرف ، و (أل) التعريف لا تدخل إلا على الأسماء .

والجواب كما قال شيخنا : لأن المقصود بهذا (اللفظ) أي : باب ما جاء في هذا اللفظ أ.هـ .

وقد روي عن النبي ﷺ : وإياك واللو ، فإن اللو تفتح عمل الشيطان . رواه أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .

وقد بوب البخاري في صحيحه : باب ما يجوز من (اللو) وقوله تعالى (لو أن لي بكم قوة) ثم ذكر عدة أحاديث تدل على جواز استعمال هذه اللفظة على الوجه الذي لا يكون فيه اعتراض .

وبوب ابن حبان في صحيحه : ذكر الزجر عن أن يستعمل المرء في أسبابه (اللو) دون الانقياد بحكم الله جل وعلا فيها .

وانظر ما نقله الحافظ ابن حجر في الفتح حول كلام العلماء عن هذا اللفظ .

(٢) وجميع النصوص المذكورة في الباب هي من الاستعمال المحرم لكلمة (لو) .

(٣) ويدخل في ذلك كل ما كان في معناها ، مثل : ليتني فعلت كذا ، أو كان بالإمكان أن أفعل كذا ، ونحو ذلك من العبارات .

والأقرب أن يقال : النصوص التي جاء فيها النهي عن استعمال (لو) أو (لولا) ليس النهي موجهاً فيها على اللفظ المجرد , وإنما على الاعتقاد المصاحب لهذا اللفظ , فهذه النصوص تنهى عن الاعتراض على القدر ونحوه بأي لفظ كان , ولكن لأن الغالب استعمال هذا اللفظ نصت عليه , والله أعلم .

فنقول : الأصل أنه لا محذور في استعمال كلمة (لو) و (لولا) لأنها استعملت في النصوص بكثرة على أوجه متنوعة , وإنما ينهى عنها إذا قارن لها اعتقاد فاسد , كالاعتراض على القدر , أو الاحتجاج بالقدر على المعصية .

قال القرطبي في المفهم : محل النهي عن إطلاقها إنما هو فيما إذا أطلقت معارضة للقدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور , لا ما إذا أخبر بالمانع على جهة أن يتعلق به فائدة في المستقبل , فإن مثل هذا لا يختلف في جواز إطلاقه , وليس فيه فتح لعمل الشيطان ولا ما يفضي إلى تحريم .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : { يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا } الآية .

في هذه الآية بيان لقول المنافقين في غزوة أحد : لو كان لنا من الأمر شيء ما خرجنا ، وما قُتل من قُتل ، وأُصيب من أُصيب من المسلمين . حيث كان رأيهم البقاء في المدينة .
فرد الله عليهم بقوله (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي : لخرج من كتب عليه القتل إلى مصرعه ، فلا ينجي حذر من قدر .

وَقَوْلُهُ : { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } الآية .

في هذه الآية بيان لقول المنافقين في غزوة أحد للمنافقين ، وقيل : للمؤمنين ، وإنما قال (لإخوانهم) من باب الأخوة الظاهرة ، وقيل : إخوانهم في النسب .
قالوا : لو أخذوا بقولنا ولم يطيعوا رسول الله ﷺ فبقوا في المدينة ، أو رجعوا معنا لما حصل لهم ما حصل من الهزيمة في أحد .
فرد الله عليهم بقوله (قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) .
وقيل : إن القائل هو عبدالله بن أبي ، رأس النفاق والمنافقين ، وهذا ما عليه عامة المفسرين .

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((اِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا ؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)) .

تخریجه : رواه مسلم .

وهذا الحديث اختصره المصنف ولفظه أن النبي ﷺ قال : المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك...

والشاهد : أن النبي ﷺ نهي عن قول (لو) على وجه التسخط والاعتراض على القدر ، وبين ﷺ أن هذا القول يفتح عمل الشيطان .

قوله (احرص على ما ينفعك) قال ابن القيم : سعادة الإنسان : في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده .
وقال : فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ، ولا تتم إلا بمعاونته ، فأمره بأن يعبد ، وأن يستعين به ، ثم قال (ولا تعجز) فإن العجز يناهز حرصه على ما ينفعه ، وينافي استعانته بالله ، فالحرص على ما ينفعه ، المستعين بالله ، ضد العاجز ، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله ، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمه الأمور بيده ، ومصدرها منه ، ومردّها إليه ، فإن فاتته ما لم يقدر له ، فله حالتان : حالة عجز ، وهي مفتاح عمل الشيطان ، فيلقيه العجز إلى (لو) ولا فائدة

في (لو) ههنا , بل هي مفتاح اللوم , والجزع , والسخط , والأسف , والحزن , وذلك كله من عمل الشيطان , فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح , وأمره بالحالة الثانية , وهي : النظر إلى القدر , وملاحظته , وأنه لو قدر له لم يفته , ولم يغلبه عليه أحد , فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشية الرب النافذة التي توجب وجود المقدور , وإذا انتفت امتنع وجوده , فلهذا قال : فإن غلبك أمر فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا , ولكن قل : قدر الله , وما شاء فعل . فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين : حالة حصول مطلوبه , وحالة فواته , فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً , بل هو أشد شيء إليه ضرورة , وهو يتضمن إثبات القدر , والكسب , والاختيار , والقيام , والعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه , وبالله التوفيق .

وقوله (واستعن بالله ولا تعجزن) قال ابن تيمية : قال بعض العقلاء : الأمور أمران : أمر فيه حيلة , وأمر لا حيلة فيه , فما فيه حيلة لا يعجز عنه , وما لا حيلة فيه لا يجزع منه .

وقوله (قدر الله وما شاء فعل) الأفصح أنها بالتخفيف , لأنها جملة خبرية مبتدأها محذوف تقديره : هذا قدر الله .

قال ابن باز : وبعضهم ضبطها بالتشديد , والأول أظهر . بتصرف

وقال الشيخ عبد الله بن جبرين : المشهور عندهم : قدر الله بدون تشديد , وهكذا يضبطها مشايخنا .

٥٧ - بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ ، فَقُولُوا : اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا ، وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَشَرِّ مَا فِيهَا ، وَشَرِّ مَا أُمِرْتُ بِهِ)) .
صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ .

٥٧ - بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرَّيِّمِ

الباب السابع والخمسون

وخلاصته : النهي عن سب الريح ، لأن حقيقة السب راجع الى مدبرها ومسخرها ، وهو الله عز وجل ، وفي هذا إيذاء له سبحانه ، كما في حديث (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر) كما أن في سب الريح اعتراض على قدر الله تعالى . والسب يشمل كل كلام قبيح ، فيدخل فيه : اللعن ، والشتيم ، والذم . وهذا الباب شبيه بباب النهي عن سب الدهر ، لكن سب الدهر عام في سب جميع حوادث الدهر ، وهذا خاص بالريح ، كما قال السعدي رحمه الله . وليت المصنف جاء به بعده .

المسائل المتعلقة بالباب :

سب الريح محرم ، لأنه سب من لا يستحق السب ، لأن الريح مقدرة ومصرفة وأمورة ، والله عز وجل هو آمرها ومصرفها ، ولذلك فحقيقة السب تعود على مدبرها ومصرفها ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولو قصد من سب الريح ذلك لكفر . قال السعدي : فالسب لها يقع سبه على من صرفها ، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالباً لكان الأمر أفظع من ذلك ، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم أ.هـ . وعليه يقال : الأصل أن سب الريح ونحوها محرم إذا كان قصد الساب التأفف منها ، وهذا هو الغالب فيمن يسب الريح ونحوها ، وأما إن اعتقد أنها فاعلة بذاتها ، فهذا شرك أكبر في الربوبية وإن لم يسبها ، وأما إن قصد سب من صرفها ودبرها ، وهو الله سبحانه ، فهذا كفر أكبر ، ولا يكاد يقع من مسلم . تنبيه : يدخل في حكم سب الريح سب كل مخلوق مسيئراً بأمر الله ، كالطر ، والغبار ، والشمس ، والمرض ، ونحو ذلك .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ ، فَقُولُوا : اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا ، وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ ، وَشَرِّ مَا فِيهَا ، وَشَرِّ مَا أُمِرْتُ بِهِ)) .
صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ .

تخرجه : رواه أحمد ، والنسائي ، والترمذي وصححه ، وصححه الألباني .

والشاهد : أن النبي ﷺ نهي عن سب الرياح ، والأصل في النهي التحريم ، وبين ﷺ ما يقال عند رؤية الإنسان ما يكرهه منها .
وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ إذا عصفت الرياح قال : اللهم إني أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به . قالت : وإذا تخيلت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سري عنه ، فعرفت ذلك في وجهه ، قالت عائشة : فسألته ، فقال : لعله يا عائشة كما قال قوم عاد (فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) .

قوله (من خير هذه الرياح) لأن الرياح قد تحمل خيراً ، وقد تحمل شراً ، وقد تكون رحمة ، وقد تكون عذاباً .

قوله (وخير ما فيها) من تلقيح الأشجار ، وإثارة السحاب ، ودفع السفن ، وإزالة الروائح المنتنة ، وتطهير الأرض ، وغير ذلك .

قوله (وخير ما أُمِرْتُ بِهِ) الأمر والمرسل هو الله ، ولذا ففعله كله خير ، ولكن بالنسبة للمرسل عليهم قد تكون خيراً ، وقد

تكون شراً ، وقد قال ﷺ : نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وأهلكت عاد بالدبور . متفق عليه .

والصبا : هي الرياح التي تهب من جهة المشرق ، وقد نُصِرَ بها يوم الخندق .

والدبور : هي الرياح التي تهب من جهة المغرب .

وقوله (من شر هذه الرياح ، وشر ما فيها ، وشر ما أُمِرْتُ بِهِ) يُفْهَمُ من سابقه .

قال الشافعي : لا ينبغي شتم الرياح فإنها خلق مطيع لله ، وجند من جنوده ، يجعلها الله رحمة إذا شاء ، ونقمة إذا شاء .

وقال مطرف : لو حبست الرياح عن الناس لأنتن ما بين السماء والأرض .

وفي هذا الحديث بيان لعظمة الله عز وجل ، إذ الكون كله تحت تصرفه وقهره سبحانه ، وفيه بيان ضعف العباد وأنهم مهما أتوا

من قوة لا يستطيعون إيقاف هذه الرياح ولو اجتمعوا .

تنبيه : ليس من سب الرياح وصفها بالحرارة ، أو البرودة ، أو القوة ، قال تعالى (ريح صرر عاتية) أي : شديدة البرودة ، وقال

تعالى (ريح عقيم) وقال تعالى (ريح عاصف) وقال تعالى (تدمر كل شيء بأمر ربها) .

فائدة : استدل بعضهم بقوله (اللهم إنا نسألك من خير هذه الرياح ... ونعوذ بك من شر هذه الرياح) على أن الرياح يكون فيها

خير وشر ، وأنه لا وجه للتفريق بين الرياح والرياح ، وأما حديث : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً . فضعيف لا يصح ، قال

الألباني : وهذا إسناد ضعيف جداً .

٥٨ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ { الآية.

وَقَوْلِهِ : {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى : فَسَّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَصْمَحُ ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ . فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ ، وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ . وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُتَنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ . وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوْءِ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرٍ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ . فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقَرَّةً يَصْمَحُ مَعَهَا الْحَقُّ ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدْرُهُ لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ ؛ فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ . وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بغيرِهِمْ ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ . فَلْيَعْتَنِ اللَّيْبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنُّ السَّوْءِ . وَلَوْ فَتَشَّتْ مَنْ فَتَشَتْ لَرَأَيْتُ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدْرِ ، وَمَلَامَةً لَهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْتَرٍ ، وَفَتَشَ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ ؟

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا .

٥٨ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ { الآية.

الباب الثامن والخمسون

وخلاصته : وجوب إحسان الظن بالله تعالى ، وبيان أن هذا الأمر من تمام المعرفة بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وسُنَّته الكونية ، وتحريم سوء الظن بالله تعالى ، وبيان أن هذا من قلة المعرفة بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وسُنَّته الكونية . قال ابن القيم : ولا يسلم من ذلك - يعني سوء الظن بالله - إلا من عرف الله ، وعرف أسمائه وصفاته ، وعرف موجب حمده وحكمته ، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء . وقال في تيسير العزيز الحميد : أراد المصنف بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله ، لأن ذلك من واجبات التوحيد أ.هـ وفي الباب أن الله لا يقدر شيئاً إلا لحكمة بالغة تقصر أفهام العباد عن إدراكها .

المسائل المتعلقة بالباب :

يجب على المسلم أن يحسن الظن بالله عز وجل الرحيم بعباده ، الحكيم في أفعاله ، سواءً كان ذلك في الأمور العامة من القدر العام بالخلق ، أو القدر الخاص بالعبد نفسه . عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تبارك وتعالى : أنا عند حسن ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء . رواه أحمد ، وصححه الألباني . قال في تيسير العزيز الحميد : فمن قام بقلبه حقائق معاني أسماء الله وصفاته قام به من حسن الظن ما يناسب كل اسم وصفة ، لأن كل صفة لها عبودية خاصة ، وحسن ظن خاص ، وقد جاء الحديث القدسي : قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . رواه البخاري ومسلم ، وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل . رواه مسلم وأبو داود ، وفي حديث عند أبي داود وابن حبان : حسن الظن من حسن العبادة . رواه الترمذي والحاكم ، ولفظهما : حسن الظن بالله من حسن العبادة أ.هـ . وأما قوله تعالى في وصف خواص عباده (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله) فالظاهر والله أعلم أن الوجل والخوف من جهة عملهم هم ، من أن يكون فيه نقص ، أو دخله رياء ، أو إرادة دنيا ، وأما من جهة قبول العمل فيحسنون الظن بربهم ، وأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقفات مع أدلة الباب

{يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ } الآية.

في هذه الآية يذم الله سبحانه من ظن به ظن السوء ، ووصف من يحصل منه ذلك بأنه من أهل الجهل .
وهذه الآية نزلت في ذكر غزوة أحد ، بعد أن أصاب المسلمين ما أصابهم في تلك الغزوة ، تكلم المنافقون بكلام فيه اعتراض على القدر ، وظنوا أن النبي ﷺ وأصحابه لو سمعوا كلامهم - ولم يخرجوا للقاء المشركين - ما حصل لهم ما حصل ، من القتل ، والهزيمة ، وهذا هو ظن الجهل بالله ، إذ أن هذا الأمر سبق به قدر الله ، فلا يدفعه حرص حريص ، ولا كراهية كاره ، ولذا قال الله تعالى (قل إن الأمر كله لله) وقال تعالى (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي : لخرج من كتب عليه القتل إلى مصرعه ، وقال تعالى (والله يحيي ويميت) وإنما حصل ما حصل ابتلاء من الله وتمحيصاً ، كما قال تعالى (وليبتيلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) .

وَقَوْلِهِ : {الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ}.

في هذه الآية يبين الله تعالى أن من يحصل منه ظن السوء بالله فإنما يرجع ذلك عليه ، من : الإثم على هذا الظن ، ومن الغم والكدر بسبب ذلك .

وهذه الآية نزلت في صلح الحديبية وما فيها من الشروط التي ظاهرها المشقة على المسلمين ، ولكن المؤمنين أحسنوا الظن برهم ، وأنه لا يخذل رسوله ، فسلموا وأذعنوا ، فأثابهم الله أن زادهم إيماناً وثباتاً ، وأنزل على قلوبهم الطمأنينة والسكينة ، وأما الكافرين والمنافقين الذين اعترضوا على حكم الله ، فأخبر الله أن لهم العذاب ، واللعنة ، والغضب .

قال ابن كثير في قوله تعالى (الظالمين بالله ظن السوء) : أي : يهتمون الله في حكمه ، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ، ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال (عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم) أي : أبعدهم من رحمته (وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) .

وقال في قوله تعالى (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) : وهم الصحابة يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى : فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ , وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ , وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ . فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ , وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ , وَإِنْكَارِ أَنْ يُنَمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ ﷺ ...

قال في تيسير العزيز الحميد : ذكر المؤلف تفسير ابن القيم لهذه الآية , وهذا أحسن ما قيل فيها أ.هـ.

وظن السوء بالله له عدة صور , يجمعها : الظن الذي لا يليق بالله .

وقد قال المصنف في مسائل الباب : الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر .

ومن هذه الصور ما ذكره ابن القيم بقوله : فمن قنط من رحمته , وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء .

ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم , ويسوي بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه يترك خلقه سدى معطين عن الأمر والنهي , ولا يرسل إليهم رسله , ولا ينزل إليهم كتبه فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي فيها المحسن بإحسانه , والمسيء بإساءته , ويبين لخلقهم حقيقة

ما اختلفوا فيه , ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله , وأن أعداءه كانوا هم الصادقين فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره , ويطله عليه بلا سبب من العبد , أو أنه

يعاقبه على فعله سبحانه به , أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله , وأنه

يحسن منه كل شيء , حتى يعذب من أفنى عمره في طاعته , أي كمحمد ﷺ فيخلده في الجحيم , أو في أسفل سافلين , ومن

استنفذ عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه , كأبي جهل , فيرفعه إلى أعلى عليين , وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده , ولا

يعرف امتناع أحدهما , ووقوع الآخر إلا بخبر صادق , وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل , وترك الحق لم يخبر به , وإنما رمز إليهم رموزاً بعيدة ,

وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل , وأراد من خلقه أن يتبعوا أذهانهم , وقواهم , وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه ,

وتأويله على غير تأويله , وإعانتهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم , لا على كتابه مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق

الذي ينبغي التصريح به , ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أن يكون له في ملكه مالا يشاء , ولا يقدر على إيجاد , وتكوينه فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه لا سمع له , ولا بصر , ولا علم , ولا إرادة , ولا كلام يقوم به , وأنه لم يكلم أحداً من الخلق , ولا يتكلم أبداً فقد

ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه ليس فوق سماواته على عرشه , بائناً من خلقه , وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين , وأنه

أسفل كما أنه أعلى , وأن من قال (سبحان ربي الأسفل) كمن قال (سبحان ربي الأعلى) فقد ظن به أقبح الظن .

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان والفساد , ولا يحب الإيمان والبر والطاعة والصالح فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه لا يحب , ولا يرضى , ولا يغضب , ولا يوالي , ولا يعادي , ولا يقرب من أحد من خلقه , ولا يقرب عنده أحد ,

وأن ذوات الشياطين في القرب منه , كذوات الملائكة المقربين فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه يسوي بين المتضادين , أو يفرق بين المتساويين في كل وجه , أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة

واحدة تكون بعدها , فيخلده في الجحيم لتلك الكبيرة , كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين , واستنفذ عمره في مساخطه ,

ومعاداة رسله ودينه فقد ظن به ظن السوء .

وبالجمله فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه , أو وصفه به رسوله , أو عطل حقائق ما وصف به نفسه , ووصفه به رسله فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أن له ولداً , أو شريكاً , أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه , أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه , أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه , ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم فيدعونهم , ويخافونهم , ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوئه .

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته , كما ينال بطاعته والتقرب إليه فهو من ظن السوء .

ومن ظن أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعوضه خيراً منه , أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه يغضب على عبده , ويعاقبه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه إذا صدق في الرغبة , والرغبة , وتضرع إليه , وسأل , واستعان به , وتوكل عليه أنه يخيبه فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه , كما يثيبه إذا أطاعه , وسأله ذلك في دعائه فقد ظن به خلاف ما هو أهله , وما لا يفعله .

ومن ظن أنه إذا أغضبه وأسخطه , ووقع في معاصيه , ثم اتخذ من دونه أولياء , ودعا من دونه ملكاً , أو بشراً , حياً أو ميتاً , يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه , ويخلصه من عذابه فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطاً مستقراً , دائماً في حياته ومماته , وابتلاه بهم لا يفارقونه , فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيه , وأهل بيته , وسلبوهم حقهم , وأذلّوهم من غير جرم , ولا ذنب لأوليائه , وأهل الحق , وهو يرى ذلك , ويقدر على نصره أوليائه وحزبه , ولا ينصرهم , ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته , تسلم أمتة عليه وعليهم كل وقت , كما تظنه الرافضة فقد ظن به أقبح الظن . انتهى مختصراً .

وكثير من هذه الأقوال التي ذكرها ابن القيم هنا هي مذاهب واعتقادات لفرق منحرفة .

قوله (ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر , وملامة له , وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا) .

قال في تيسير العزيز الحميد : قلت : بل يبوحدون بذلك , ويصرحون به جهاراً في أشعارهم وكلامهم .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : وهذه حالة قد شملت خلقاً كثيراً من العلماء , والجهال , أولهم إبليس , فإنه نظر بعقله فقال : كيف يفضل الطين على جوهر النار , وفي ضمن اعتراضه : إن حكمتك قاصرة , وأنا أجود .

واتبع إبليس في تفضيله واعتراضه خلق كثير , مثل الراوندي , والمعري , ومن قوله :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحقاً

ولا ذنب يا رب السماء على امرئ رأى منك ما لا ينتهي فترندقا

وأمثال ذلك كثير في أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله , وسنة رسوله , وانطلقوا إلى أهوائهم , واعتمدوا على عقولهم القاصرة التي جعلتهم يعترضون على الله جل وعلا .

وكان أبو طالب المكي يقول : ليس على المخلوق أضر من الخالق .

قال ابن الجوزي : ودخلت على صدقة بن الحسين الحداد , وكان فقيهاً , غير أنه كان كثير الاعتراض , وكان عليه جرب , فقال : هذا ينبغي أن يكون على حمد لا على .

وكان يتفقد بعض الأكابر أكل , فيقول : بعث لي هذا على الكبر , وقت لا أقدر على أكله .

وكان رجل يصحبي قد قارب ثمانين سنة , كثير الصلاة والصوم , فمرض واشتد به المرض , فقال : إن كان يريد أن أموت فيميتني , وأما هذا التعذيب فماله معني , والله لو أعطاني الفردوس كان مكفوراً .

ورأيت آخر تزيا بالعلم , إذا ضاق عليه رزقه يقول : أيش هذا التدبير .

وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا , وربما قالوا : ما يريد يصلي , وإذا رأوا رجلاً صالحاً مؤذياً قالوا : ما يستحق . قدحاً في القدر .

وكان قد جرى في زماننا تسلط من الظلمة , وقال بعض من تزيا بالدين : هذا حكم بارد , وما فهم ذلك الأحمق , فإن الله على الظالم أن يسלט عليه أظلم منه .

وفي الحمقى من يقول : أي فائدة في خلق الحيات , والعقارب . وما علم أن ذلك أنموذج لعقوبة المخالف .

وهذا أمر قد شاع , ولهذا مددت النَّفْسَ فيه .

واعلم أن المعترض قد ارتفع أن يكون شريكاً , وعلا على الخالق بالتحكم عليه , وهؤلاء كلهم كفر , لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرة , وإذا كان توقف القلب عن الرضى بحكم الرسول ﷺ يخرج عن الإيمان , قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فكيف يصح الإيمان مع الاعتراض على الله . هـ

٥٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدَرِ

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا ، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، ثُمَّ اسْتَدَلَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : ((الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ؓ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . فَقَالَ : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)) ، يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي)) .

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ : ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) .

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ - خَيْرِهِ وَشَرُّهُ - أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ)) .

وَفِي الْمُسْنَدِ ، وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ ، قَالَ : أَتَيْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ ، فَقُلْتُ : فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ ، فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي . فَقَالَ : لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . قَالَ

: فَاتَّيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ، وَخُذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ .

٥٩ - بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدَرِ

الباب التاسع والخمسون

وخلاصته : وجوب الإيمان بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان ، وهو الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن من لم يؤمن به فقد انتقض إيمانه وتوحيده .

وهذا الباب له تعلق بالباب السابق إذ أن الإيمان والتسليم من العبد بكل ما يقدره الله له أو عليه دليل على حسن ظنه بالله عز وجل .

المسائل المتعلقة بالباب :

ذكر أهل العلم أن للقدر درجتان :

الدرجة الأولى : قبل وقوع المقدور ، وتشمل (العلم ، والكتابة) .

١. العلم : الله عز وجل قد أحاط بكل شيء علماً ، أولاً وأبداً ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ، وعلم كل ما سيفعله العباد ، وكل ما يحصل في الكون من دقيق وجليل ، فعلمه بالكلية والجزئيات سابق ، فكل ما يوجد من أعيان ، وأوصاف ، وأفعال ، وأحداث ، مطابق لعلم الله السابق .

وأدلة ذلك في الكتاب والسنة مستفيضة ، قال تعالى (إن الله بكل شيء عليم) وقال تعالى (وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) وقال تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وقال تعالى (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) وقال تعالى (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور) والآيات في عموم علم الله كثيرة .

٢. الكتابة : ما عِلِمَ الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق ، وأصناف الموجودات ، وما يتبع ذلك من الأحوال ، والأوصاف ، والأفعال ، ودقيق الأمور وجليلها ، قد أمر الله القلم بكتابته في اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقال تعالى (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) وقال ﷺ : وكتب في الذكر كل شيء . رواه البخاري ، وقال ﷺ : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . رواه مسلم ، وروى أحمد ، وأبو داود ، والترمذي أنه ﷺ قال : إن أول ما خلق الله القلم ، قال له : أكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

قال ابن القيم : وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب . ودليل المرتبتين جميعاً قوله تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) ، وقوله تعالى (والله خلقكم من تراب ثم نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) .

تنبيه هام : مرتبة العلم أوسع من مرتبة الكتابة ، لأن علم الله أزلي أبدي ، فهو من صفات الذات ، أما الكتابة فهي حادثة بعد خلق القلم واللوح ، ولها نهاية ، كما في الحديث : أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

الدرجة الثانية المقارنة للمقدور , وتشمل (المشيئة , والخلق) .

٣. المشيئة : الإيمان بعموم مشيئة الله , وأن ما شاء الله كان , وما لم يشأ لم يكن , وأنه لا يقع في ملكه ما لا يريد كونه , وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لا يخرج عنها كائن , كما لا يخرج عن علمه شيء , سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا , فالإيمان والكفر , والخير والشر , والطاعة والمعصية كل ذلك واقع بإرادة الله تعالى .
وأدلة ذلك كثيرة , منها قوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) وقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) وقوله تعالى (ولو شاء الله ما اقتتلوا) .

٤. الخلق : الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدر الله تعالى , وأنها مخلوقة له , كما قال تعالى (الله خالق كل شيء) وقال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فالله خالق , وما سواه - من الذوات والصفات والأفعال - مخلوق .
ومن ذلك : أفعال العباد , فهي مخلوقة لله , كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وهي مع ذلك تقع باختيارهم , لا يجبرون عليها , بل هي أفعالهم على الحقيقة لا على المجاز .
وسنرجي الكلام عن أحكام القضاء والقدر عند شرح الواسطية إن شاء الله تعالى .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : ((الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : أن ابن عمر لما بلغه أن أناساً بالبصرة ينكرون القدر ، وبالأخص مرتبة العلم ، أنكر ذلك ، وأخبر أن الإيمان لا يتحقق إلا باجتماع أركانه الستة ، ومنها الإيمان بالقدر .

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ؓ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . فَقَالَ : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)) ، يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي)) .

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ : ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ . فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِبٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وصححه الألباني .

والشاهد : بيان أن الإيمان لا يتحقق إلا بالإيمان بالقدر .

وبيان أن كمال الإيمان وطعمه لا يتحقق إلا إذا استشعر العبد معاني القضاء والقدر .

مسألة : اختلف أهل العلم في أيهما خلق أولاً العرش أو القلم ، على قولين :

١ . القلم : لقوله ﷺ : أول ما خلق الله القلم .

وما جاء في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال : إن أول شيء خلقه الله القلم . والحديث فيه مقال .

وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم منهم ابن جرير ، وابن الجوزي ، والألباني .

٢ . العرش : لقوله ﷺ : كتب الله مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء .

فالعرش قبل خلق السماوات والأرض ، والقلم بعد ذلك .

وفي حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، ثم كتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات .

وهذا قول جمهور أهل العلم , واختاره ابن تيمية , وابن القيم .
وأجابوا عن الحديث الأول بأن ضبطه الصحيح : إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب .
والمعنى : أول ما خلق الله القلم أمره بالكتابة . أو : حين خلق الله القلم أمره بالكتابة .
وبعضهم جعل الأولوية نسبية , وقالوا : أول شيء خلقه الله بعد خلق العرش والماء , قال البيهقي : وإنما أراد - والله أعلم - أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش .
وقال ابن حجر : فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولوية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش , أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة , أي أنه قيل له اكتب أول ما خلق .
وقال ابن القيم : ولا يخلو قوله (إن أول ما خلق الله القلم ... إلى آخره) إما أن يكون جملة , أو جملتين , فإن كان جملة - وهو الصحيح - كان معناه أنه عند أول خلقه للقلم قال له : اكتب . كما في لفظ (أول ما خلق الله القلم , قال له اكتب) بنصب (أول) و (القلم) وإن كانا جملتين وهو مروي برفع (أول) و (القلم) فيتعين حملة على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان , إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير , والتقدير مقارن لخلق القلم , وفي اللفظ الآخر : لما خلق الله القلم قال له اكتب .
وقال في النونية :

والناس مختلفون في القلم الذي	كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده	قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه	قبل الكتابة كان ذا أركان

وفي أثر عبادة دليل على أنه ينبغي الاعتناء بتعليم الأبناء أمور الدين , خاصة ما يتعلق بأمور العقيدة .

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ - خَيْرِهِ وَشَرِّهِ - أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ)) .

حديث ابن وهب حديث مستقل , وليس تابعاً لحديث عبادة .
والشاهد : أن من لم يؤمن بالقدر استحق دخول النار .

وَفِي الْمُسْنَدِ ، وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ ، قَالَ : أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ، فَقُلْتُ : فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ ، فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي . فَقَالَ : لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . قَالَ : فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ .

تخرجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وصححه الألباني .
وقول المصنف (حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه) فيه نظر ، لأن الحاكم لم يروه بهذا اللفظ .
وينبه أيضاً إلى أن الذي رفع هذا الحديث زيد بن ثابت دون بقية من ذكر من الصحابة ، كما جاء عند أحمد وأبي داود بلفظ : ثم أتيت عبدالله بن مسعود فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك .
والشاهد : أن الإيمان لا يتحقق إلا إذا تحقق الإيمان بالقدر .
ومن فوائد هذا الأثر :

- ١ . أن الإنسان إذا وقع في نفسه شيء من أمور الدين أن يرجع إلى العلماء ليجلوا له الحق .
- ٢ . أن الإنسان له أن يسأل أكثر من عالم إذا لم يكن ذلك لغرض الأخذ بالرخصة أو اختبار العلماء .

٦٠ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً)) . أَخْرَجَاهُ .

وَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِنُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ)) .

وَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوْرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ)) .

وَهُمَا عَنْهُ - مَرْفُوعًا - : ((مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا ، كُفِّلَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ)) .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ قَالَ : قَالَ لِي عَلِيٌّ رضي الله عنه : أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَلَا تَدَعِ صُورَةَ إِلَّا طَمَسْتَهَا ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ)) .

٦٠ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

الباب الستون

وخلاصته : بيان تحريم التصوير ، وذكر وعيد المصورين .

ووجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد من جهتين :

الأولى : أن الله هو المصور ، كما قال تعالى (هو الله الخالق البارئ المصور) والتصوير من أفعال الله ، كما قال تعالى (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) فمن قصد مشاركة الله في شيء من أفعاله فقد وقع في الشرك الأكبر .

الثانية : أن التصوير من أسباب وقوع الشرك ، فأول شرك وقع في الأرض كان بسبب تصوير صور الصالحين من قوم نوح ، وقوم إبراهيم عليه السلام نحتوا التماثيل وعبدوها ، وقوم موسى عليه السلام عبدوا العجل المنحوت ، وقوم عيسى عليه السلام صوروا الصالحين في مساجدهم .

قال ابن القيم : وغالب شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور .

المسائل المتعلقة بالباب :

التصوير محرم لأن فيه مضاهاة لخلق الله ، كما ثبت ذلك في الأحاديث ، والمضاهاة هي المشابهة ، وقد جاء عند مسلم : إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله .

وعليه يقال : المصور إن قصد بتصويره مشابهة خلق الله ، وأنه قادرٌ على إبداع الصورة بحيث تكون مشابهة تماماً لما خلقه الله أو أحسن فقد وقع في الشرك الأكبر ، لأنه قصد مشاركة الله في شيء من أفعاله ، وسواء كان هذا التصوير لذوات الأرواح أو لغيرها ، وأما التصوير بدون وجود نية المضاهاة فهو كبيرة من كبائر الذنوب .

فإن قيل : ما هو ضابط نية المضاهاة ؟

لأن غالب من يصور يقصد بتصويره مشابهة خلق الله في هذه الصورة ، وبراعة المصور تكون في قربه من الصورة الحقيقية التي خلقها الله .

يقال : نية المضاهاة هي في اعتقاده أنه قادر على مشابهة الله في تصويره ، أو أنه أقدر على إحسان الصورة وحبكها ، وهذا لا يكاد يكون من مسلم .

مسألة : للتصوير صور مختلفة بعضها مجمع على تحريمه , وبعضها مختلف فيه , وبعضها جائز , ومن ذلك :

١ . التماثيل المجسمة لذوات الأرواح , وهذه نُقل الإجماع على تحريمها^(١) .

٢ . الرسم باليد لذوات الأرواح , وهذه محرمة على الصحيح الذي عليه جماهير أهل العلم .

عن عائشة رضي الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير , فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخل فعرفت في وجهه الكراهية فقالت : يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله , فماذا أذنبت ؟ فقال رسول الله ﷺ : ما بال هذه النمرقة ؟ فقالت : اشتريتها لك تقعد عليها , وتوسدها . فقال رسول الله ﷺ : إن أصحاب هذه الصور يعذبون , ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم . ثم قال : إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة^(٢) . متفق عليه . **والنمرقة :** هي المخدة , أو الوسادة .

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ دخل مرة بيته فوجد عائشة قد سترت لها سهوة بقرام فيه تصاوير , فهتكه النبي ﷺ وقال : يا عائشة إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله .

قال النووي : قال العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم , وهو من الكبائر , لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد , وسواء صنعه لما يمتنهم أم لا^(٣) , فصنعه حرام بكل حال , وسواء كان في ثوب , أو بساط , أو درهم , أو دينار , أو فلس , أو إناء , أو حائط , أو غيرها , فإما تصوير ما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام .

٣ . رسم أو تصوير غير ذوات الأرواح , وهذه جائزة على الصحيح , خلافاً لما ذهب إليه مجاهد رحمه الله في المشهور عنه .

يدل عليه توجيه ابن عباس للرجل الذي سأله عن التصوير بقوله : ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر , كل شيء ليس فيه روح . رواه البخاري , وكذا الأحاديث التي فيها إشارة إلى أن النهي إنما هو لما فيه روح ونفس .

٤ . تصوير ذوات الأرواح بالكاميرا , ونحوها , وهذا من الصور الحادثة التي لم تكن معروفة قبلاً , وقد اختلف العلماء المعاصرون في حكمها اختلافاً كبيراً , وليس المقام هنا مقام تفصيل في ذلك .

مسألة : التصوير محرم تحريم وسائل , والقاعدة أن ما حرم تحريم وسائل فإن الحاجة تبيحه , كما اختاره ابن تيمية , وابن القيم , والقاعدة أيضاً أن الحاجة تقدر بقدرها , وعليه فيجوز التصوير في الوثائق التي تحتاج إلى صورة , وكذا يجوز التصوير في الوسائل التعليمية إذا كانت هناك حاجة , ونحو ذلك من المصالح , والله أعلم .

(١) باستثناء لعب الأطفال ففيها خلاف , ونقل ابن حجر عن الجمهور جواز لعب البنات , وذهب شيخنا ابن عثيمين إلى جواز لعب الأطفال عموماً ولو كانت للذكور , يدل عليه لعب عائشة بما هو على هيئة فرس , والذين أجازوا لعب الأطفال اختلفوا هل الرخصة مقصورة على ما كان معروفاً حين نزول الوحي من اللعب البسيطة المصنوعة من القطن ونحوه , أم أن الرخصة مطلقة فيدخل فيها لعب الأطفال اليوم التي فيها دقة في التصوير والتشكيل والمضاهاة الواضحة لخلق الله .

(٢) وفي هذا الحديث بيان لعقوبة المصور , وعقوبة المستعمل للصورة , وفيه عموم التحريم حتى في شأن الممتنهم من الصور , لقولها (تقعد عليها , وتوسدها) .

(٣) فتصوير ما فيه روح محرم , ولو قصد استعماله فيما يمتنهم , وأما استعماله فيما يمتنهم فجائز , فيفرق بين الرسم , والاستعمال .

قال ابن باز : ويستثنى من ذلك ما كان ممتنناً , فهذا لا يجوز تصويره , ولو كان ممتنناً , ولكن إذا استعمل ممتنناً في الفراش , فلا يمنع دخول الملائكة , كما أن الكلب الذي للحرث , والزرع , والماشية لا يمنع دخول الملائكة , لأنه مأذون فيه , ومرخص فيه .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً)) . أَخْرَجَاهُ .

تخریجه : متفق عليه .

ومناسبة هذا الحديث : ما جاء في الصحيحين عن أبي زرعة قال : دخلت مع أبي هريرة داراً بالمدينة ، فرأى أعلاها مصوراً يصور ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ومن أظلم ممن ذهب.... وهذا لفظ البخاري ، وعند مسلم عن أبي زرعة قال : دخلت مع أبي هريرة في دار مروان^(١) فرأى فيها تصاویر ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب ... **والشاهد** : تحريم التصوير ، لأن فيه مضاهاة لخلق الله .

ومعنى الحديث : من هذا الذي ينازعي في شيء من خصائصي ، فيذهب يخلق كخلقي ، إذاً ليخلق حبة ، أو ذرة ، أو أقل من ذلك .

وهنا يتحدى الله الخلق بأمر كوني كما تحداهم بأمر شرعي ، قال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وتحداهم أن يأتوا بعشر سور ، وبسورة ، وبآية من مثله ، فلم ولن يستطيعوا . **قوله (ذرة)** مثال لما فيه روح ، وهي النملة المعروفة .

قوله (حبة) مثال لما لا روح فيه ، والمراد حبة القمح ، والشعير ، والأرز ، ونحوها . وهؤلاء حتى لو صنعوا أمثال تلك الحبوب ، لكنهم لا يستطيعون أبداً أن يخلقوا فيها الحياة النباتية ، فلو بذرت في الأرض لم تنبت أبداً (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وقد ذهب مجاهد في المشهور عنه إلى أن التصوير محرم مطلقاً حتى لغير ذوات الأرواح لقوله (فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة) والذي عليه جماهير العلماء الجواز ، وحملوا الحديث على التحدي والتعجيز ، كما قال تعالى (قل كونوا حجارة أو حديداً) . **قوله (ومن أظلم)** نفي بصيغة الاستفهام ، والنفي إذا جاء بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المجرد ، لأنه يكون مشرباً معنى التحدي والتعجيز .

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي ، أبو عبد الملك .

مسألة : كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) وقوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) ونحوها ؟

أجاب العلماء على ذلك بعدة أجوبة منها :

١. أن هذه الأفعال والأقوال مشتركة في الأظلمية , والمعنى أنها كلها في قمة الظلم .
 ٢. أن الأظلمية نسبية , والمعنى أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل , لا في كل شيء .
- فالذين يفترون الكذب أظلمهم من يفترى الكذب على الله , والذين يمنعون الناس حقوقهم أظلمهم من يمنع مساجد الله أن يذكر به اسمه , وهكذا .

وَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَتُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ)) .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : بيان عقوبة المصورين , وأنهم من أشد الناس عذاباً يوم القيامة .

وأول الحديث أن النبي ﷺ دخل مرة بيته فوجد عائشة قد سترت لها سهوة بقرام فيه تصاوير , فهتكه النبي ﷺ وقال : يا عائشة إن أشد الناس الحديث .

ومعنى : سهوة : فتحة داخل الجدار كالرف . **والقرام :** الستار , ومعنى **هتكه :** نزع .

مسألة : اختلف العلماء في توجيه قوله ﷺ (أشد الناس عذاباً) وذلك لأن الشرك أشد الذنوب :

ف قيل : يوجد في الحديث محذوف تقديره (من) والمعنى : من أشد الناس عذاباً .

ويؤيد هذا القول رواية (من أشد الناس عذاباً) في الصحيحين .

وقيل : إن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشاركونهم , بل يشاركونهم غيرهم في ذلك , كما قال تعالى (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

وقيل : إن هذا الوعيد إنما يطلق لتنفير النفوس .

وقيل : إن الأشدية نسبية , والمعنى : إن الذين يصنعون الأشياء ويدعونها أشدهم عذاباً الذين يضاهئون بخلق الله . أفاده شيخنا , ويرى أن القول الأخير هو الأقرب^(١) .

(١) قال ابن حجر : وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً مع قوله تعالى (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فإنه يقتضي أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون , وأجاب الطبري بأن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك , قاصداً له فإنه يكفر بذلك , فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون , وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط , وأجاب غيره بأن الرواية بإثبات (من) ثابتة , وبجذفها محمولة عليها , وإذا كان من يفعل التصوير من أشد الناس عذاباً كان مشتركاً مع غيره , وليس في الآية ما يقتضي اختصاص آل فرعون بأشد العذاب , بل هم في العذاب الأشد , فكذلك غيرهم يجوز أن يكون في العذاب الأشد , وقوى الطحاوي ذلك بما أخرجه من وجه آخر عن ابن مسعود رفعه : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً , أو قتله نبي , وإمام ضلالة , وممثل من الممثلين . وكذا أخرجه أحمد , وقد وقع بعض هذه الزيادة في رواية ابن أبي عمر التي أشرت إليها , فاقصر على المصور , وعلى من قتله نبي , وأخرج الطحاوي أيضاً من حديث عائشة مرفوعاً : أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل هجا رجلاً فهجا القبيلة بأسرها . قال الطحاوي : فكل واحد من هؤلاء يشترك مع الآخر في شدة العذاب , وقال أبو الوليد بن رشد في مختصر مشكل الطحاوي ما حاصله إن الوعيد بهذه الصيغة إن ورد في حق كافر فلا إشكال فيه , لأنه يكون مشتركاً في ذلك مع آل فرعون , ويكون فيه دلالة على عظم كفر المذكور , وإن ورد في حق عاص فيكون أشد عذاباً من غيره من العصاة , ويكون ذلك دالاً على عظم المعصية المذكورة , وأجاب القرطبي في المفهم بأن الناس الذين أضيف إليهم (أشد) لا يراد بهم كل الناس بل بعضهم , وهم من يشارك في المعنى المتوعد عليه بالعذاب , ففرعون أشد الناس الذين ادعوا الإلهية عذاباً , ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشد عذاباً ممن يقتدي به في ضلالة فسقه , ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لا للعبادة أ.هـ.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوْرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ)) .

تخریجه : هذا لفظ مسلم ، ولفظ البخاري : عن سعيد بن أبي الحسن قال : كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما إذ أتاه رجل فقال : يا ابن عباس إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي ، وإني أصنع هذه التصاویر ، فقال ابن عباس : لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول ، سمعته يقول : من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح ، وليس بنافع فيها أبداً . فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه ، فقال : ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر ، كل شيء ليس فيه روح . وعند مسلم عن سعيد بن أبي الحسن قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني رجل أصور هذه الصور فأفتني فيها ، فقال له : أدن مني ، فدنا منه ، ثم قال : أدن مني ، فدنا حتى وضع يده على رأسه ، قال : أنبتك بما سمعت من رسول الله ﷺ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم . وقال : إن كنت لا بد فاعلاً ، فاصنع الشجر ، وما لا نفس له .

والشاهد : بيان أن التصوير من كبائر الذنوب ، وبيان عقوبة المصور في الآخرة .

قوله (يجعل له بكل صورة نفساً فتعذبه في جهنم) أي : يجعل في الصورة روحاً ، فتعذبه هذه الصورة التي صورها . وقيل : بل تجعل له أنفس بعدد هذه الصور يعذب بعددها ، وظاهر الحديث يدل على القول الأول . قوله (نفساً فتعذبه في جهنم) دليل على أن المراد تصوير ماله نفس ، لأن الجزء من جنس العمل .

وَلَهُمَا عَنْهُ - مَرْفُوعًا - : ((مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا ، كُفِّلَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِعٍ)) .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : بيان عقوبة المصور في الآخرة .

وفي هذا الحديث دليل أيضاً على أن المقصود تصوير ذوات الأرواح ، لقوله (أن ينفخ فيها الروح) .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ قَالَ : قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَلَا تَدَعُ صُورَةَ إِلَّا طَمَسْتَهَا ، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ)) .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : وجوب إزالة الصور أو طمسها ، وهذا دليل على تحريمها .

وأبو الهياج من التابعين ، وهو كاتب لعلي بن أبي طالب عليه السلام .

قوله (إلا طمسها) المراد : طمس معالمها بأي شكل من الأشكال ، فإن كان تمثالاً فبقطع رأسه ، كما جاء عند أحمد ، وأبو داود ، والترمذي أن النبي ﷺ أمر بقطع رأس التمثال . وإن كان حفراً فيحفر على وجهه حتى تزول معالم الوجه ، وإن كان رسماً فيطمس على الوجه أو الجسد كله .

قوله (ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) والمعنى : إلا سويته بالأرض ، وقيل : إلا سويته بما حوله من القبور ، ولا تعارض بينهما ، لأن السنة في جميع القبور أن تكون مرتفعة بقدر شبر .

وفي قرن النبي ﷺ الأمر بطمس الصور بالأمر بتسوية القبور دلالة على أن الكل من وسائل الفتنة والشرك ، والله أعلم . وقد تعدد وعيد المصورين وتنوع في هذه النصوص التي ذكرها المصنف ، فمنها :

١ . أنه في النار .

٢ . أنه من أشد أهل النار عذاباً .

٣ . أنه يعذب في النار بعدد ما صور من صور .

٤ . أنه يكلف بنفخ الروح في هذه الصور فلا يستطيع .

وأما المستخدم لهذه الصور ، أو الراضي بها ، فيُحرم من دخول الملائكة للمكان الذي فيه تلك الصور ، كما عند البخاري من حديث ابن عمر أن جبريل تأخر على النبي ﷺ فقال له جبريل : إنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ، ولا كلب .

واختلف العلماء في الملائكة الذين لا يدخلون المكان الذي فيه الصور ، فقيل : المراد ملائكة الرحمة ، دون الحفظة والكتابة ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بالصواب .

٦١ - بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلْفِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ } .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((الْحَلْفُ مَنْقَعَةٌ لِلْسَّلْعَةِ ، مَحَقَّةٌ لِلْكَسْبِ)) . أَخْرَجَاهُ .

وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ : أَشِيمُطُ زَانٍ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ)) . رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلَوِّهُمُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلَوِّهُمُ - (قَالَ عِمْرَانُ : فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ؟) - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يُؤْفَوْنَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمْنُ)) .

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلَوِّهُمُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلَوِّهُمُ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ)) .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ : كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ .

٦١ - بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلْفِ

الباب الحادي والستون

وخلاصته : النهي عن كثرة الحلف ، سواء كان الإنسان صادقاً أم كاذباً ، وهذا دليل على تعظيم الله تعالى ، كما أن بذل اليمين لأي سبب أو بلا سبب دال على قلة تعظيم الله تعالى .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

الحلف هو تأكيد الكلام بذكر معظم ، وله أحكام :

١. إن كان بالله وكان صادقاً فهو جائز ، ولا ينبغي الإكثار منه ، وإنما يكون عند الحاجة الداعية إليه .
 ٢. إن كان بالله وكان كاذباً فهو محرم .
 ٣. إن كان بغير الله وقصد تعظيمه كتعظيم الله ، أو اعتقد جواز الحلف به ، فهو شرك أكبر .
 ٤. إن كان بغير الله ولم يقصد التعظيم ، فهو شرك أصغر ، كما هو الحال من جريان الحلف بغير الله على ألسنة بعض الناس ، كحلفهم بالنبي ، أو الكعبة ، أو غير ذلك .
- وسبق القول في أنه لا يجوز الحلف بغير الله وصفاته ، كما قال ﷺ : من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك . رواه الترمذي ، وحسنه .
- قال ابن عبد البر : لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ } .

هذه الآية دالة على وجوب حفظ اليمين ، ومن صور حفظ اليمين :

- ١ . عدم الحلف بغير الله .
 - ٢ . عدم الحلف بالله بدون حاجة ، وهذا المعنى جاء عن ابن عباس ، وهو الشاهد من إيراد المصنف للآية .
 - ٣ . عدم الكذب في اليمين ، وهذا المعنى جاء عن سعيد بن جبير .
 - ٤ . عدم الحنث في اليمين لمن عقدها ، إلا أن يرى أن غيرها خيراً منها ، كما سبق في باب النذر .
 - ٥ . التكفير عنها إن حنث فيها .
- قال ابن الجوزي : وفي قوله (واحفظوا أيمانكم) ثلاثة أقوال :
- أحدها : أقبلوا منها ، ويشهد له قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) وأنشدوا : قليل الألأيا حافظ ليمينه ...
- والثاني : احفظوا أنفسكم من الحنث فيها .
- والثالث : راعوها لكي تؤدوا الكفارة عند الحنث فيها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((اَحْلِفْ مَنْفَقَةً لِلْسِّلَعَةِ , مَحَقَّةً لِلْكَسْبِ)) . أَخْرَجَاهُ .

تخریجه : متفق عليه وليس في الصحيحين لفظ (للكسب) وهي عند أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وغيرهم .

ولفظ البخاري : الحلف منفقة للسلعة ، محقة للبركة .

ولفظ مسلم : الحلف منفقة للسلعة ، محقة للربح .

والشاهد : ذم الحلف من غير حاجة ، كترويج السلعة ، وبيان أن هذا الفعل سبب لمحق بركة الكسب .

وقيده بعضهم بالحلف الكاذب ، لما جاء عند أحمد في مسنده : اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ، محقة للكسب .

وفي حديث أبي ذر : ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، قلت : من هم يا رسول الله ، قد خابوا وخسروا ، فأعادها ثلاثاً ، قلت : من هم يا رسول الله ، خابوا وخسروا ، فقال : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب - أو الفاجر - . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وصححه الألباني .

ويحتمل العموم للحديث الذي يليه ، والله أعلم .

وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ : أَشِيمُطُ زَانٍ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ)) . رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

تخرجه : رواه الطبراني ، وصححه الألباني .

والشاهد : بيان عقوبة من أكثر من الحلف في بيعه وشرائه ، وهو أن الله لا يكلمه يوم القيامة ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم .
 قوله (ثلاثة) هذا من باب التقريب ، وتسهيل العلم ، وإلا من ثبت له هذا الوعيد أكثر من ذلك .
 قوله (لا يكلمهم الله) فيه إشكال حيث أنه جاء في بعض الأحاديث (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه) والجمع أن الكلام المنفي هنا هو كلام الرضا ، والمثبت هو كلام التوبيخ ، أو المحاسبة .
 قوله (أشيمط زانٍ) هو من خطه الشيب . والشمط : الشيب . قال في فتح المجيد : صغره تحقيراً له .
 وإنما كان هذا الوعيد ، لأن فعله دليل على عدم تعظيمه لله ، ودليل على دناءة نفسه ، وخبث طويته ، حيث فعل هذا الذنب العظيم مع قلة الداعي إليه من مثله .
 قوله (عائل مستكبر) هو الفقير المتكبر ، وإنما استحق هذه العقوبة ، لأن الغالب أن الكبر إنما يقارن أهل الغنى والثراء ، فحصول الكبر من مثله دليل على خبث نفسه .
 قوله (جعل الله بضاعته) جعل الحلف بالله مروجاً لبضاعته .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ)) - (قَالَ عِمْرَانُ : فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ؟) - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السِّمْنُ)) .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : أن النبي ﷺ ذكر أنه سيظهر بعد القرون الفاضلة أناس يستخفون بالشهادة ، حتى إنهم يبادرون بها قبل أن تطلب منهم ، وإنما ذكرهم ﷺ على جهة الذم .

قوله (يشهدون ولا يستشهدون) لاستخفافهم بأمر الشهادة ، وعدم تحريمهم الصدق ، لقلّة ديانتهم .

قوله (يخونون ، ولا يؤتمنون) فيها ضبطان :

١ . يُخَوِّنُونَ بالتشديد ، والمعنى : أن الناس يخونونهم ولا يأتمنونهم .

٢ . يَخُونُونَ بالتخفيف ، والمعنى : أنهم أصحاب خيانة ، ولذا الناس لا يأتمنونهم .

قوله (ويظهر فيهم السمن) السمن من الأمور القدرية التي قد تكون بغير اختيار الإنسان ، لكن المعنى ، والله أعلم ، إما يحمل على الخبر المحض الذي لا يتعلق به مدح ولا ذم ، وإما أن يكون في الخبر إشارة إلى انشغالهم بالدنيا ، واختاره في فتح المجيد .
وقول عمران (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة) قال في فتح المجيد : هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين رضي الله عنه ، والمشهور في الروايات أن القرون المفضلة ثلاثة .
وفي هذا الحديث بيان فضل القرون الثلاثة ، وأهم أقرب الناس إلى الصواب ، فلزم على العاقل الاقتداء بهم ، والعناية بأقوالهم ، وأحوالهم .

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ)) .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : ذم من يشهد ويحلف مع شهادته .

والمعنى أن هؤلاء القوم لا يبالون بالشهادة ولا باليمين ، حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنما يتسابقان ، كلاً منهما يسبق مرة ، وهذا الوصف خرج مخرج الذم .

قال النووي : هذا ذم لمن يشهد ويحلف مع شهادته .

قال في قرة العيون : في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ : كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ .

تخریجه : رواه البخاري بعد حديث ابن مسعود السابق .

وعند مسلم بلفظ : كانوا يnehونا ونحن غلمان عن العهد والشهادات .

قوله (إبراهيم) يعني النخعي .

قوله (على الشهادة) قال شيخنا : أي : يضربونا عليها إن شهدنا زوراً ، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها ، ويحتمل أن المراد

بذلك ضربهم على المبادرة بالشهادة والعهد ، وبه فسر ابن عبد البر .

وقوله (والعهد) إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد أ.هـ

وقال ابن حجر : قوله (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد) قيل : هو أن يحلف بعهد الله ، أو يشهد بالله ، ويؤيده قوله في

الرواية الأخرى (نحن أن نلحف بالشهادة والعهد) .

وقال أبو عمر بن عبد البر : معناه عندهم : النهي عن مبادرة الرجل بقوله (أشهد بالله) و (علي عهد الله لقد كان كذا) ونحو

ذلك ، وإنما كانوا يضربونهم على ذلك حتى لا يصير لهم به عادة ، فيحلفوا في كل ما يصلح وما لا يصلح .

والذي يظهر أنهم يnehونهم عن ابتداء الشهادة والعهد ، كما في رواية مسلم (كانوا يnehونا ونحن غلمان عن العهد والشهادات)

ويضربونهم إن خالفوا ذلك فشهدوا أو عاهدوا بالله ، أو لم يؤدوا ذلك ، والله أعلم .

وفي هذا الأثر بيان حرص السلف على تربية أبنائهم ، وتعليمهم أمور الدين ، خاصة ما يتعلق بالتوحيد ، وتعظيم الله تعالى .

وفيه أيضاً جواز الضرب للتأديب ، وأدلته في الوحيين كثيرة ، خلافاً لمن يرى أن الضرب ليس وسيلة تربوية ، إتباعاً منهم لنظريات

الغرب .

٦٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} الآية.

عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا . فَقَالَ : ((أُغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، أُغْزُوا وَلَا تَغْلُوا ، وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تُمْتَلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلَالٍ) ، فَأَيُّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ^(١) ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسَأَلْهُمْ الْجَزِيَّةَ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا ، فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ . وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخَفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخَفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(١) قال النووي : هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم (ثم ادعهم) بزيادة (ثم) ثم نقل عن القاضي عياض أن الصواب إسقاطها .

٦٢ - بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

الباب الثاني والستون

وخلاصته : وجوب تعظيم ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وبيان أنه لا ينبغي أن يجعل في العهد ذمة الله تعالى ، أو ذمة رسوله ﷺ لأنه ربما لو جعل ذلك لم يمكنه الوفاء - ولو لعذر - فيكون قد أخفر ذمة الله ، أو ذمة النبي ﷺ ، وإن كان ذلك بغير عذر دل على نقص توحيده وتعظيمه لله عز وجل .

وفيه التحذير من نقض العهد ، خاصة إذا كان معقوداً بذمة الله ، أو ذمة النبي ﷺ .

فمن جهة الابتداء بالعهد بذمة الله لا ينبغي ، ومن جهة الإيفاء فيما لو حصل العهد بهذه الذمة يجب الوفاء . والذمة هي العهد والميثاق ، كأن يقول (علي ذمة الله ، أو علي عهد الله ، أو عهد الله علي ، ونحو ذلك) . قال تعالى (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) . وهذا الباب قريب من الباب السابق .

وقفات مع أدلة الباب

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} الآية.

في هذه الآية وجوب الإيفاء بالعهد ، وتحريم نقضه ، خاصة إذا أكد باليمين .

وسواء كان هذا العهد بين العبد وربّه ، أو بين أفراد الناس ، أو بين الراعي والرعية ، أو بين المسلمين والكفار .

وقد تضافرت الأدلة الشرعية على تعظيم شأن العهد ، ووجوب الإيفاء به ، قال تعالى (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً)
تُسالون عن الوفاء به من عدمه .

والوفاء بالعهد من خصال الإيمان ، ومن صفات المؤمنين ، قال تعالى في تعداد أمور البر (ولكن البر من آمن بالله.....والموفون
بعهدهم إذا عاهدوا) .

كما أن نقض العهد من خصال النفاق ، وصفات المنافقين ، كما قال تعالى عن المنافقين (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من
فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم
يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) .

وقال ﷺ : آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان . متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من
النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر . متفق عليه .

**عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا . فَقَالَ : ((اُغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، اُغْزُوا وَلَا تَغْلُوا...الحديث .**
تخرجه : رواه مسلم .

والشاهد : بيان مكانة العهد في الإسلام ، وبيان أنه لا ينبغي لمن عاهد أن يجعل في عهده ذمة الله تعالى ، أو ذمة نبيه ﷺ .

قوله (على جيش أو سرية) الواو هنا ليست للشك ، وإنما هي للتنويع .

وفرق بعضهم بين الجيش والسرية ، بأن السرية ما كانت أربعمئة فارس أو أقل ، والجيش ما كان فوق ذلك .

وقيل : سميت سرية ، لأنها تسري في الليل ويخفى ذهابها .

قوله (أوصاه في خاصته بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً) أي أوصاه وصية لنفسه ، ووصية لمن معه ، فأوصاه بتقوى

الله ، التي هي سبب لكل فلاح في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النصر على العدو ، وكذلك أوصاه بالمسلمين الذين معه خيراً ، بأن

يرفق بهم ، ويقوم بمصالحهم ، وكل هذا من حرص النبي ﷺ على أمته ، ونصحه لهم ، وصدق الله العليم حين وصفه بقوله (

حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

قوله (اغزوا باسم الله) أي : مستعينين بالله عز وجل ومتوكلين عليه وحده .

قوله (اغزوا , ولا تغلوا , ولا تغدروا , ولا تمثلوا , ولا تقتلوا وليداً) في هذه النصائح والأوامر بيان لعظمة هذا الدين , وعدله , ورفقه , حتى في هذه المواقف , وبيان أن هذا الدين هو الذي حفظ حقوق الإنسان , لا قوانين الغرب والشرق الكاذبة الآثمة , وصدق الله العظيم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

قوله (ولا تغلوا) الغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها , وهذا الفعل من كبائر الذنوب , قال تعالى (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) وعقوبته في الدنيا : تحريق رحله الذي يركبه , والأثاث الذي يحمله معه , ولا يصلي عليه الإمام , كما هو وارد في السنة الصحيحة .

قوله (ولا تغدروا) الغدر هو الخيانة في موضع الائتمان , كمن يعطي عهداً ثم لا يفي به .

قوله (ولا تمثلوا) والتمثيل معناه : التشويه بالموتى , كأن تُقطع أذنه , أو أنفه , أو أطرافه , أو تبقر بطنه , ونحو ذلك . والذي عليه جماهير الفقهاء كراهة التمثيل لهذا الحديث .

وأما إن كان على سبيل المقابلة فأجازه البعض , لعموم قوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ولأنه قد تكون مصلحة في ذلك من إرهاب الأعداء , ونحو ذلك , ويميل شيخنا إلى هذا القول .

قوله (ولا تقتلوا وليداً) الوليد هو الصغير الذي لا يقاتل , وكذلك جاء النهي عن قتل الشيخ الكبير , وعن قتل النساء , وعن قتل الرهبان في الصوامع , وذلك لأن أولئك لا دخل لهم في القتال , وعليه لو شارك هؤلاء في القتال بأي صورة , حتى في التخطيط والمشورة جاز قتلهم , كما قتل المسلمون دُرَيْد بن الصِّمَّة في غزوة حنين , وكان شيخاً كبيراً , لكنه كان له خبرة في القتال , فكان القوم يرجعون إليه , ويصدرون عن رأيه , فقتله المسلمون لما حصل منه من الضرر عليهم . وفي هذا الحكم أيضاً بيان لعظمة هذا الدين , ومراعاته لحقوق الإنسان .

قوله (فادعهم إلى ثلاث خصال , أو خلال) هذا شك من الراوي , لأن الخلال هي الخصال , وهذا من ورع ودقة نقلة الحديث .

قوله (فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم , وكف عنهم) يوصي النبي ﷺ أمراء الجيوش أن لا يباغتوا العدو بالقتال , وإنما يدعوتهم إلى ثلاث خيارات , وهي : الإسلام , أو الجزية , أو القتال .

قوله (ثم ادعهم إلى الإسلام) قال النووي : قوله (ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم (ثم ادعهم) قال القاضي عياض رضي الله عنه : صواب الرواية (ادعهم) بإسقاط (ثم) وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد , وفي سنن أبي داود , وغيرها , لأنه تفسير للخصال الثلاث , وليست غيرها , وقال المازري : ليست (ثم) هنا زائدة , بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ أ.هـ.

قوله (فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفىء شيء ، إلا أن يجهدوا مع المسلمين) .

هؤلاء إن قبلوا الخيار الأول الذي هو الإسلام ، فيخبرون بين أمرين :

١ . التحول إلى دار المهاجرين ، وهي المدينة ، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين ، من الغنيمة ونحوها ، وعليهم ما على المهاجرين مما يطلب منهم من الجهاد وغيره .

٢ . البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد ، وحينئذ ليس لهم في الغنيمة والفىء شيء ، كأعراب المسلمين في البوادي ، لأنهم لم يشاركوا في القتال .

ولا شك أن الأفضل لهم التحول إلى المدينة لتلقي العلم ، وتقوية المسلمين ، وغير ذلك من المصالح ، ولكنهم لا يجبرون على ذلك .

قال النووي في شرح صحيح مسلم : أنهم إذا أسلموا استحب لهم أن يهاجروا إلى المدينة ، فإن فعلوا ذلك كانوا كالمهاجرين قبلهم في استحقاق الفىء ، والغنيمة ، وغير ذلك ، وإلا فهم أعراب كسائر أعراب المسلمين الساكنين في البادية من غير هجرة ، ولا غزو ، فتجري عليهم أحكام الإسلام ، ولا حق لهم في الغنيمة ، والفىء ، وإنما يكون لهم نصيب من الزكاة إن كانوا بصفة استحقاقها .

قوله (فإن هم أبوا فأسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم) هذا هو الخيار الثاني في حال رفضهم الإسلام ، فيدفعون للمسلمين جزية ، وهو قدر محدد من المال يعود لبيت مال المسلمين ، ويصرف في مصالح المسلمين .

قوله (فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) هذا هو الخيار الثالث والأخير ، فإن رفضوا الدخول في الإسلام ، ورفضوا دفع الجزية ، لم يبق إلا القتال .

قوله (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله ، وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ، وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك ، وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذمكم ، وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله ، وذمة نبيه) احتراماً لذمة الله ، وذمة نبيه ﷺ من أن تنقض .

قوله (فلا تجعل لهم ذمة الله ، وذمة نبيه) وذلك لأمرين :

١ . لأنه ربما تخفر هذه الذمة من البعض ، فيقع في المحذور والإثم .

٢ . لأنه قد يُدخل على أهل الإسلام ، أو على دين الإسلام من جهة فعلهم ، فيرجع إخفارهم إلى اتهام الإسلام .

قوله (فإنكم إن تخفروا ذمكم) قال ابن باز : الإخفار : مصدر أخفر رباعي ، وهو نقض العهد ، أما الخفر فهو ثلاثي من خفر يخفر إذا حماه ونصره ، ومنها الخفير وهو الحامي ، فأخفره أي أزال حمايته وعهده .

وقال النووي : تخفروا : بضم التاء ، يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرتة أمنتته وحميته ، قالوا : وهذا نهي تنزيه أي : لا تجعل لهم ذمة الله فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها ، وينتهك حرمتها بعض الأعراب ، وسواد الجيش .

قوله (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا) .

إن طلب المحاصرون من أمير الجيش أن ينزلهم على حكم الله ، وحكم رسوله ، فلا ينبغي له أن يقبل ذلك ، لأنه ربما اجتهد فأخطأ ، فينسب ذلك إلى الإسلام .

وهذا في الأمور الاجتهادية ، وأما الأمور المنصوص عليها فلا بأس أن يقول : هذا حكم الله .

وقيل : إن ذلك خاص في زمن التشريع ، لأنه ربما يكون ذلك الحكم نسخ وهو لم يعلم به .

قال ابن باز : هذا من باب الحيلة ، ومن باب الآداب الشرعية في إعطاء العهود والمواثيق .

وقال النووي : هذا النهي أيضاً على التنزيه ، والاحتياط ، وفيه حجة لمن يقول : ليس كل مجتهد مصيباً ، بل المصيب واحد ، وهو الموافق لحكم الله تعالى في نفس الأمر ، وقد يجيب عنه القائلون بأن كل مجتهد مصيب بأن المراد أنك لا تأمن من أن ينزل علي وحي بخلاف ما حكمت ، وهذا المعنى منتف بعد النبي ﷺ .

فائدة في الفتوى : قال ابن القيم في إعلام الموقعين : ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده ولم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله : إن الله حرم كذا ، وأوجب كذا ، وأباح كذا ، وإن هذا هو حكم الله . قال ابن وضاح : ثنا يوسف بن عدي ، ثنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب قال : قال الربيع بن خيثم : إياكم أن يقول الرجل لشيء : إن الله حرم هذا ، أو نهي عنه . فيقول الله : كذبت لم أحرمه ، ولم أنه عنه ، أو يقول : إن الله أحل هذا ، أو أمر به . فيقول الله : كذبت لم أحله ، ولم أمر به . قال أبو عمر : وقد روى عن مالك أنه قال في بعض ما كان ينزل به فيسأل عنه فيجتهده فيه رأيه : إن نظن إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين أ.هـ

قال النووي معلقاً على هذا الحديث : وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها ، وهي : تحريم الغدر ، وتحريم الغلول ، وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا ، وكراهة المثلة ، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى ، والرفق بأتباعهم ، وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم ، وما يجب عليهم ، وما يحل لهم ، وما يحرم عليهم . وما يكره ، وما يستحب أ.هـ وفيه الإرشاد إلى أخف الضررين ، فنقض ذمة الله أشد من نقض ذمة العبد .

مسألة : لا يجوز القتال قبل الدعوة ، وأما ما ورد في الصحيح أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون ، فقد أجيب أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة قبل ، ودعوة من بلغتهم الدعوة من قبل سنة لا واجبة ، ويرجع فيها إلى المصلحة . قال النووي في شرحه لحديث (أغار النبي ﷺ على بني المصطلق وهو غارون) : قوله (وهم غارون) هو بالغين المعجمة ، وتشديد الراء . أي : غافلون .

وفي هذا الحديث : جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة من غير إنذار بالإغارة ، وفي هذه المسألة ثلاثة مذاهب حكاها المازري ، والقاضي :

أحدها : يجب الإنذار مطلقاً ، قاله مالك وغيره . وهذا ضعيف .

والثاني : لا يجب مطلقاً ، وهذا أضعف منه ، أو باطل .

والثالث : يجب إن لم تبلغهم الدعوة ، ولا يجب إن بلغتهم ، لكن يستحب ، وهذا هو الصحيح ، وبه قال نافع مولى ابن عمر ، والحسن البصري ، والثوري ، والليث ، والشافعي ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، والجمهور ، قال ابن المنذر : وهو قول أكثر أهل العلم

، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه ، فمنها هذا الحديث ، وحديث قتل كعب بن الأشرف ، وحديث قتل أبي الحقيق أ.هـ

مسألة : للمسلمين مع الكفار ثلاثة أحوال :

١. أن لا يكون بيننا وبينهم عهد .

فهنا يجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام ، ورفضهم له ، ورفضهم دفع الجزية ، بشرط القدرة عليهم .

٢. أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه .

فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم ، قال تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) وقال تعالى (فآتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم) .

٣. أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه .

فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ، ونخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينكم ، قال تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) .

٦٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِفْسَامِ عَلَى اللَّهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((قَالَ رَجُلٌ : وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ . فَقَالَ اللَّهُ ﻋَظِيمٌ : مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ إِيَّيَّيْ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ .

٦٣ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ

الباب الثالث والستون

وخلاصته : وجوب تعظيم الله عز وجل ، وتحريم الإقسام عليه على الوجه الممنوع ، لأن ذلك من سوء الأدب في جناب الربوبية .

المسائل المتعلقة بالبَاب :

الإقسام على الله هو أن يحلف الإنسان أن الله يفعل كذا ، أو أن لا يفعل كذا ، أو يحلف على شيء مستقبل ويقطع به ، وهذا له أحكام :

١. أن يقسم على الله لقوة رجائه ، وحسن ظنه بالله عز وجل ، وهذا جائز ، كما في حديث الربيع ، حيث أقسم أنس بن النضر على الله ألا تكسر ثنية الربيع . رواه البخاري .

قال البخاري : حدثني محمد بن سلام ، أخبرنا الفزاري ، عن حميد ، عن أنس رضي الله عنه قال : كسرت الربيع - وهي عمه أنس بن مالك - ثنية جارية من الأنصار ، فطلب القوم القصاص ، فأتوا النبي ﷺ فأمر النبي ﷺ بالقصاص . فقال أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - : لا والله لا تكسر سننها يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : يا أنس كتاب الله القصاص . فرضي القوم ، وقبلوا الأرش ، فقال رسول الله ﷺ : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره .

وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزاعي قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار : كل غثل جواظ مستكبر .

وعند مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره .

وعند الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك . صححه الألباني .

٢. أن يكون ذلك على جهة التكبر ، أو تحجير رحمة الله ، والتقدم بين يدي الله .

وهذا محرم ، ولا يجوز ، وهو مراد المصنف هنا .

فائدة : للحلف عدة أسماء :

١. حلف : قال تعالى (يحلفون بالله ليرضوكم) .

٢. يمين : قال تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) .

٣. إقسام : قال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) .

٤. ألية : قال تعالى (للذين يؤولون من نسائهم) وفي حديث الباب (من ذا الذي يتألى علي) أي : يحلف علي .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((قَالَ رَجُلٌ : وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ . فَقَالَ اللَّهُ ﻋَﻠَﻴْكَ : مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ إِيَّيْ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : أن التألي على الله على سبيل تحجير رحمة الله والتقدم بين يديه في الحكم موجبٌ لحبوط العمل .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني .

والشاهد : أن التألي على الله على سبيل تحجير رحمة الله والتقدم بين يديه في الحكم موجبٌ لحبوط العمل .

ولفظ الحديث عند أبي داود : قال أبو هريرة رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين ، فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر . فوجده يوماً على ذنب ، فقال له : أقصر . فقال : خلني وربّي ، أبعثت علي رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أو لا يدخلك الله الجنة . فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالماً ؟ أو كنت على ما في يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار .

قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخِرته .

وفي هذا الحديث بيان فضل العلم وأهله ، لأن هذا الرجل كان عابداً ، ولم يكن عالماً ، فقل عندده فقه الشريعة ، فحجر رحمة الله الواسعة ، وتقدم على مشيئة الله النافذة .

ويظهر أن المصنف اعتبر الحديثين حديثاً واحداً .

٦٤ - بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هُكَّتِ الْأَنْفُسُ ، وَجَاعَ الْعِيَالُ ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((سُبْحَانَ اللَّهِ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! ...)) . فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ((وَيْحَكَ ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

٦٤ - بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

الباب الرابع والستون

وخلاصته : تحريم الاستشفاع بالله على خلقه ، وهو أن يكون الله شافعاً عند أحد من خلقه ، لما في ذلك من الإخلال بتعظيم الله تعالى ، حيث أن الشافع غالباً أقل درجة من المشفوع إليه ، وإذا كان الله سبحانه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فكيف يكون سبحانه شافعاً عند عباده ! .
ولأن الله يُسأل ولا يسأل سبحانه .
قال ابن تيمية معلقاً على حديث الباب : وأنكر عليه (نستشفع بالله عليك) لأن الشافع يسأل المشفوع إليه ، والعبد يسأل ربه ويستشفع إليه ، والرب تعالى لا يسأل العبد ولا يستشفع به .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هُكَّتِ الْأَنْفُسُ ، وَجَاعَ الْعِيَالُ ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ ، فَاسْتَسْقَى لَنَا رَبَّكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((سُبْحَانَ اللَّهِ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! ...)) . فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ((وَيْحَكَ ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .

تخرجه : رواه أبو داود ، والدارمي في الرد على الجهمية ، وابن خزيمة ، وابن أبي عاصم ، وصححه ابن تيمية ، وحسنه ابن القيم .
والشاهد : تحريم الاستشفاع بالله تعالى .

ومن صور الاستشفاع بالله : قول (جاه الله عليك ، وجه الله عليك ، حاط الله عليك ، داخلين بالله عليك ، ونحو ذلك) .
وقد سئل شيخنا عن قول (جاه الله عليك) فقال : يستشفعون بالله على الإنسان وهذا لا يجوز ، لأن الله أعظم من أن يكون شافعاً إلى خلقه .

وسئل رحمه الله عن قول الإنسان لضيفه (وجه الله إلا أن تأكل) ؟
فأجاب بقوله : لا يجوز لأحد أن يستشفع بالله عز وجل إلى أحد من الخلق ، فإن الله أعظم وأجل من أن يستشفع به إلى خلقه ، وذلك لأن مرتبة المشفوع إليه أعلى من مرتبة الشافع والمشفوع له ، فكيف يصح أن يجعل الله تعالى شافعاً عند أحد؟! أهـ
ولو قال : (الله واسطي عندك) فإن قصد الاستشفاع فمنهي عنه ، وإن قصد أنه سيدعو الله حتى يوافق هذا الشخص على طلبه ، فعليه مأخذ من جهة اللفظ ، ومن جهة الطريقة ، وعليه يمنع استعمال هذه الألفاظ مطلقاً .
قوله (هُكَّتِ الْأَنْفُسُ) أي ضعفت الأبدان .

قوله (نستشفع بالله عليك) نتوسط بالله عندك أن تدعوا لنا بالغيث ، وهذا ما أنكره النبي ﷺ عليه .
قوله (وبك على الله) كن شافعاً لنا عند الله ، وادعوا لنا بالغيث ، وهذه الجملة لا بأس بها ، ولذا لم ينكرها النبي ﷺ .
ومن فوائد الحديث : مشروعية التسبيح عند حصول أمر منكر ، وكذا التكبير عند حصول أمر مفرح ، كما جاء ذلك في عدة أحاديث .

وفيه أن المنكر ينكر وإن كان صاحبه لم يقصد المخالفة .

٦٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رضي الله عنه قَالَ : انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْنَا : أَنْتَ سَيِّدُنَا . فَقَالَ : ((أَلَسَيِّدُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) . قُلْنَا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا ، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا ، فَقَالَ : ((قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ .

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه : أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا ، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا . فَقَالَ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ ﷻ)) . رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ .

٦٥ - بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

الباب الخامس والستون

وخلاصته : بيان حرص النبي ﷺ على حماية التوحيد من كل قاذح عملي ، أو قولي ، أو اعتقادي ، وسد كل الطرق التي قد تؤدي إلى الإخلال بالتوحيد .

وهذا الباب شبيهه بالباب الحادي والعشرين (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد ، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك) .

لكن نصوص هذا الباب تتعلق بالأقوال ، لأن الأبواب قبله تتعلق بالأقوال ، ونصوص ذاك الباب تتعلق بالأفعال ، لأن الأبواب قبله تتعلق بالأفعال ، وهذا من حسن تصنيف المصنف رحمه الله .

والنبي ﷺ لم يكتف بالنهي والتحذير من الشرك ، بل نهى وأغلق كل الطرق ، وأوصد كل الأبواب الموصلة للشرك .

ومن صور حمايته ﷺ في الأقوال : نهيه عن الإطراء ، وعن قول (ما شاء الله وشئت) وقول العبد لسيده (ربي) وقول السيد لعبده (عبدي) وغير ذلك .

ومن صور حمايته ﷺ في الأفعال : نهيه عن اسراج القبور ، ورفعها ، وبناء المساجد عليها ، ونهيه عن التصوير ، وغير ذلك .

قال في قرة العيون : وقد اشتمل هذا الكتاب - يعني كتاب التوحيد - على اختصاره على أكثر ذلك ، والنهي عما ينافي التوحيد ، أو يضعفه ، يعرف ذلك من تدبره ، وعرف ما تضمنه باباً باباً .

وقفات مع أدلة الباب

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رضي الله عنه قَالَ : انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْنَا : أَنْتَ سَيِّدُنَا . فَقَالَ : ((أَلَسَيِّدُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) . قُلْنَا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا ، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا ، فَقَالَ : ((قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بَعْضُ قَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ)) . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ .

تخرجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والبخاري في الأدب المفرد ، وقال عنه ابن حجر : رجاله ثقات ، وقد صححه غير واحد أ.هـ وصححه الألباني .

والشاهد : سد النبي ﷺ منافذ الغلو والإطراء .

النبي ﷺ سيد ولد آدم كما أخبر هو عن نفسه ، ولكنه مع ذلك نهى أن يقال له (سيدنا) من باب التواضع ، ومن باب سد ذريعة الغلو والإطراء ، خاصة أن هذا الوفد حديث عهد بإسلام .

قولهم (وأعظمنا طولاً) أي قدراً وشرفاً .

قوله (ولا يستجريَنَّكم الشيطان) مأخوذ من الجريان ، والمعنى : لا يجري بكم الشيطان إلى أمر لا يجوز .

قال شيخنا : استجراه بمعنى جذبته ، وجعله يجري معه .

وقال ابن الأثير : فيتخذكم جرياً ، أي : رسولاً وكيلاً .

فتكونوا رسلاً ووكلاء للشيطان يرسلكم لغواية الناس .

وقد أخذ جمعٌ من أهل العلم من هذا الحديث إثبات اسم (السيد) لله تعالى ، وممن ذهب إلى ذلك ابن منده ، والبيهقي .

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه : أَنَّ نَاسًا قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا ، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا . فَقَالَ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَهْوِينَكُمْ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ ﷻ)) .
رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ .

تخرجه : رواه أحمد ، والنسائي في الكبرى ، وصححه ابن حبان ، والألباني .

والشاهد : سد النبي ﷺ منافذ الغلو والإطراء .

وهذا الحديث كالحديث السابق .

قوله (ولا يستهوينكم الشيطان) المعنى : يذهب بعقولكم ، أو يزين لكم أهواءكم ، أو يوقعكم في الهوى .
قال شيخنا : أي : لا يستميلنكم الشيطان ، فتهووه ، وتتبعوا طرقه ، ونظيره قوله تعالى (كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران) .

ومع كل هذا الحرص منه ﷺ إلا أنا نجد المخالفة ممن يزعم حبه ، بل بلغ الغلو ببعضهم إلى أن قال : نحن نعبد الله والرسول .
وقد سبق الكلام عن حكم إطلاق لفظ (السيد) على غير الله ، وأنه يجوز إطلاقه على أهل الفضل ، ولا يجوز إطلاقه على الفاسق والمنافق والكافر .

قال في تيسير العزيز الحميد : وحديث ابن الشخير لا ينفي إطلاق لفظ السيد على غير الله ، بل المراد أن الله هو الأحق بهذا الاسم بأنواع العبارات ، كما أن غيره لا يسمى به .

مسألة : في هذا الحديث إشكال وهو قولهم (أنت سيدنا ، وابن سيدنا) ومعلوم أن والد النبي ﷺ مات على غير الإسلام ؟
قال شيخنا عند قولهم (وابن خيرنا) : لكن إن أرادوا بالخيرية خيرية النسب فهذا صحيح ، لأن أباه ﷺ من بني هاشم ، وهم من أشرف قريش وأسيادهم ، وكذلك يقال في قوله (وابن سيدنا) أ.هـ.
وذهب بعضهم إلى أن مرادهم بقولهم (ابن سيدنا) إبراهيم الخليل عليه السلام ، لأنهم ينتسبون إليه ملة ونسباً ، ولا يظهر هذا ، والله أعلم .

٦٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ نَعَالَى :

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الآية .

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : ((جَاءَ خَبَرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ . فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْخَبَرِ ، ثُمَّ قَرَأَ : {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الآية . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ ، ثُمَّ يَهْرُثُهُنَّ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللَّهُ .

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ : يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ . أَخْرَجَاهُ .

وَلِمُسْلِمٍ : عَنْ ابْنِ عُمَرَ - مَرْفُوعًا - : ((يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟)) .

وَرُويَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدٍ أَحَدِكُمْ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي يُونُسُ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي ثُرْسٍ)) .

قَالَ : وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَخَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ)) .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ

شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ . أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ زَيْدٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ . وَرَوَاهُ بَنُحْوَه
الْمَسْعُودِيُّ ، عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ . قَالَه الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - قَالَ : وَلَهُ طُرُقٌ .

وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((هَلْ تَدْرُونَ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟)) . قُلْنَا : اللَّهُ
وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ((بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَثُفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ
خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ ،
وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ)) . أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَغَيْرُهُ .

٦٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الآية .

الباب السادس والستون

وخلاصته : ذكر الدلائل على عظمة الله عز وجل .

وهذا يوجب أن يفرد وحده بأنواع العبادات القلبية , والعملية , وأن يعظم سبحانه فلا يتصور حدود ما حد من الشرع , كما يوجب محبته وإجلاله .

وما وقع العباد فيما وقعوا فيه من المخالفة والتقصير إلا لقلة معرفتهم بالله عز وجل .

فمن عرف الله حق المعرفة لا يمكن أبداً أن يقع في الشرك .

وقفات مع أدلة الباب

وقول الله تعالى {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الآية .

في هذه الآية يخبر تعالى أن الخلق لم يقدروه حق قدره ، ولم يعظموه حق تعظيمه ، ولم يعبدوه كما ينبغي ، وكل هذا ناتج عن قلة المعرفة به وبأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى .

ثم ذكر شيئاً من دلائل عظمته سبحانه ، حيث أنه يطوي السماوات السبع بيمينه ، ويقبض الأرضين السبع يوم القيامة .

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : ((جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ . فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ : {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} الآية . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ ، ثُمَّ يَهْرُثُنَّ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللَّهُ .

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ : يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ . أَخْرَجَاهُ .

تخریجه : متفق عليه .

والشاهد : ذكر شيء من دلائل عظمة الله ، حيث أنه سبحانه يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر والجبال على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع^(١) .

وفي هذا الحديث إثبات صفة الأصابع لله عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته .

وجاء عند أحمد في مسنده أن النبي ﷺ كان يحرك يده يقبل بها ويدبر حتى رجف المنبر برسول الله ﷺ حتى قلنا : ليخرن به . وهذا ليس من باب التشبيه والتكليف ، ولكن من باب إثبات حقيقة الصفة ، كما جاء عنه ﷺ أنه قرأ (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً) فوضع إحدى إصبعيه على عينه ، والأخرى على أذنه .

وهذا الفعل يجوز إن أمنت الفتنة ، وأمن فهم التشبيه ، أما إن خشي ذلك فيمنع منه .

(١) واختلفت الروايات في جمع هذه الأمور وإفرادها ، ولا يوجد حديث بإفراد الماء على إصبع ، وإفراد الثرى على إصبع .

وَلِمُسْلِمٍ : عَنْ ابْنِ عُمَرَ - مَرْفُوعًا - : ((يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟)) .

تخریجه : رواه مسلم .

والشاهد : ذكر شيء من دلائل عظمة الله ، حيث يطوي السماوات ثم يأخذهن بيمينه ، ويطوي الأرضين ثم يأخذهن بيده الأخرى ، ويقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ إظهاراً منه سبحانه لعظمته وكبريائه وانفراده بذلك عز وجل . تنبيه : في هذا الحديث إثبات لفظ (الشمال) لله عز وجل ، وقد اختلف الرواة في إثبات هذه اللفظة ، فمنهم من أثبتها ، ومنهم من لم يثبتها ، وقد قال البيهقي في كتابه (الأسماء والصفات) : إن هذه اللفظة لا تصح ، بل هي شاذة . والأقرب أنها ثابتة ، وأن الشمال تثبت لله كما في هذا الحديث ، واختاره الدارمي .

وأما قوله ﷺ (وكلتا يدي يمين) رواه مسلم ، فالمعنى أن كلتا يديه فيها اليمن والبركة والعطاء والخير ، كما قال الرسول ﷺ : يد الله مالا لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . وفي لفظ : يمين الله . متفق عليه ، وعند الترمذي قال آدم : اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة . وصححه الألباني .

قال ابن باز : وفي هذا اثبات الصفات لله ، وأنه سبحانه له يمين وشمال ، وأن كلتا يديه يمين ، كما في الحديث الآخر ، وسمى إحداها يميناً ، والأخرى شمالاً من حيث الاسم ، ولكن من حيث المعنى والشرف كلتاها يمين - سبحانه وتعالى - وليس في شيء منهما نقص .

وقد قال المصنف في مسائل الباب : التصريح بتسميتها الشمال .

وقد جاء في نصوص أخرى تسميتها (اليسار) وتسميتها (الأخرى) .

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدٍ أَحَدِكُمْ .

تخریجه : رواه ابن جرير بلفظ (في يد الله) بدل (في كف الرحمن) وهذا الأثر له حكم الرفع لو صح .

والشاهد : ذكر شيء من دلائل العظمة ، حيث إن السماوات السبع ، والأرضين السبع في كف الرحمن كخردلة في يد أحدنا .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي يُونُسُ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي ثُرْسٍ)) .

قَالَ : وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أَلْفَيْتٍ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ)) .

تخریجه : رواه ابن جریر ، وضعفه الألباني .

والشاهد : ذكر شيء من دلائل العظمة ، حيث إن السماوات السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألفت في ثرس ، وأن الكرسي في العرش كحلقة من حديد ألفت في فلاة من الأرض . قوله (في ثرس) الترس صفحة فولاذ تحمل في الحروب لانتقاء السيوف والسهام .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ . أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ زُرٍّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ .

وَرَوَاهُ بَنَخُوهُ الْمَسْعُودِيُّ ، عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ . قَالَهُ الْحَافِظُ الدَّهْيِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - قَالَ : وَلَهُ طُرُقٌ .

تخریجه : رواه ابن خزيمة ، والطبراني ، والبيهقي ، وصححه ابن القيم ، وجود إسناده الألباني ، وقال ابن باز : حديث صحيح جيد .

والشاهد : ذكر شيء من دلائل العظمة ، حيث إن بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، ومع ذلك يقبضها الله عز وجل كلها بيمينه .

كما فيه سعة اطلاع الله عز وجل ، حيث هو فوق العرش ولا يخفى عليه شيء من أعمال العباد .

وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((هَلْ تَذَرُونَ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟)) . قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ((بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَثْفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ)) . أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَغَيْرُهُ .

تخریجه : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وصححه الحاكم ، وابن عبد البر ، وابن حزم ، وقال ابن باز : وإن كان في سننه انقطاع لكنه ينجبر .

والشاهد : ذكر شيء من دلائل العظمة ، حيث إن بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وكثف كل سماء خمسمائة عام ، والله فوق عرشه لا يخفى عليه شيء من أمور عباده ، وهو بقدرته يقبض تلك السماوات كلها يوم القيامة ، ويطويها يمينه عز وجل .

وخلاصة ما سبق ذكره من دلائل العظمة في هذه النصوص :

- ١ . أن الله سبحانه يطوي السموات السبع ويقبضها بيده اليمنى ، ويقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين السبع بيده الأخرى ، ويقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟
 - ٢ . أن الله سبحانه يجعل السموات السبع على أصبع ، والأرضين السبع على إصبع ، والشجر والجبال على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ويقول : أنا الملك .
 - ٣ . أن السموات السبع ، والأرضين السبع في كف الرحمن كخردلة في يد أحدنا .
 - ٤ . أن السموات السبع في الكرسي الذي هو موضع قدمي الرب سبحانه وتعالى كدراهم سبع القيت في ثُرس .
 - ٥ . أن الكرسي في العرش كحلقة من حديد القيت في صحراء .
 - ٦ . أن بين الأرض والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام ، وبين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وسمك كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش ، ولا يخفى عليه شيء من أمر عباده ، فتبارك الله رب العالمين .
- قال السعدي : ختم المصنف رحمه الله كتابه بهذه الترجمة ، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه ، ومجده وجلاله ، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه ، لأن هذه النعوت العظيمة ، والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده ، المحمود وحده ، الذي يجب أن يذل له غاية الذل والتعظيم ، وغاية الحب والتأله ، وأنه الحق ، وما سواه باطل ، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه ، وسر الإخلاص ، فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته ، والإنابة إليه ، إنه جواد كريم أ.هـ

نذكر هنا تصوير الكون وتقريبه باختصار ، كما هو وارد في الوحيين ، وقال به علماء المسلمين ، بعيداً عن تخرصات وخزعبلات أهل الفلك والهيئة :

١. الأرض : وهي محور الكون ، وما زال العلماء قديماً وحديثاً مختلفون في كيفيتها : هل هي كروية أو مسطحة . ومن نقل الإجماع على أحد القولين فقد أبعد النجعة . فالناظر في كتب التفاسير وغيرها يرى اختلاف الناس في هذه المسألة . ومن اعتمد على التصاوير الحديثة للأرض فقد ركن إلى جهل ، لأن عدداً من المختصين شككوا في تلك الصور . ومن جهل غيره لاعتماده أحد القولين فلجهله هو بحقيقة المسألة ، وقد كان الناس في زمن ليس بالبعيد يسخرون من اعتقاد أن الأرض كروية ، ثم صاروا إلى عكس ذلك .
- والقرآن ليس فيه القطع بأحد القولين ، وإن كان كل صاحب قولٍ يستدل بآيات تؤيد قوله . ولو كان في هذه المسألة نفع لبينها الله في كتابه ، أو بينها النبي ﷺ في سنته . وكل هذا يدل على جهل الإنسان وأنه لم يؤت من العلم إلا القليل ، فتبارك الله العليم الحكيم .
٢. الفضاء الذي بين الأرض والسماء الدنيا فضاء واسع مليء بالكواكب المستديرة الشكل ، والسابحة في هذا الفضاء بنظام ثابت ، وليست ملاصقة للسماء كما يزعم البعض ، بل تجري في مدار فلكي . قال تعالى (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) .
- قال البغوي : والفلك : مدار النجوم الذي يضمها ، والفلك في كلام العرب كل شيء مستدير ، وجمعه أفلاك ، ومنه فلك المغزل . وقال الحسن : الفلك طاحونة كهيفة فلكة المغزل ، يريد أن الذي يجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الطاحونة . وقال النسفي في تفسيره : والجمهور على أن الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم . وقال الألويسي في تفسيره (روح المعاني) : وقال أكثر المفسرين هو موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر .
٣. السماء الدنيا عبارة عن بناء متين متقن الصنع ، ليس فيها شقوق ، ولا فطور ، ولا فروج ، كما قال ربنا في كتابه ، ولها أبواب يقف عليها ملائكة ، وكذا باقي السموات .
- قال تعالى (والسماء بنيناها بأيد) أي : بقوة . وقال تعالى (أولم يروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) وقال تعالى في إثبات الأبواب للسماء (لا تفتح لهم أبواب السماء) وفي الصحيحين في حديث المعراج الطويل قال ﷺ : فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقبل من هذا ؟ قال : جبريل ... الحديث .
- وكل هذا يخالف ما عليه بعض أهل الهيئة القائلين بأن السماء عبارة عن غازات ، ونحو ذلك من الخرص .
٤. بين كل سماء والتي تليها فضاء الله أعلم بما فيه ، لكن جاء في الصحيحين في حديث المعراج أن جبريل كان يعرج بين كل سماء والتي تليها ، ويستفتح عند كل سماء .
٥. صورة كل سماء الاستدارة ، فالأرض محور الكون ، ومركزها هو أسفل سافلين ، وبه سجين ، والسماء محيطة بها من كل جانب .
- قال ابن تيمية : السموات مستديرة عند علماء المسلمين ، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام وما علمت من قال إنها غير مستديرة وجزم بذلك إلا من لا يؤبه له من الجهال .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : وقد حكى ابن حزم ، وابن المنير ، وأبو الفرج ابن الجوزي ، وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السموات كرة مستديرة .

٦. بعد السماء السابعة هناك ماء عظيم الله أعلم بكيفيته ، ثم يكون الكرسي وهو موضع قدمي الرب عز وجل ، ثم يكون العرش الذي هو سقف المخلوقات ، وصورته أنه مقبب على سائر الخلائق ، وليس محيطاً بالسموات .

قال ابن تيمية : والكرسي فوق الأفلاك كلها - ويعني بالأفلاك هنا السماوات السبع - والعرش فوق الكرسي ، ونسبة الأفلاك وما فيها بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في فلاة ، والحملة بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة ، وأما العرش فإنه مقبب لما روي في السنن لأبي داود عن جبير بن مطعم : أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال يا رسول الله : جهدت الأنفس وجاع العيال... وذكر الحديث ، إلى أن قال رسول الله ﷺ : إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سماواته وأرضه هكذا ، وقال بأصبعه مثل القبة . وقال أيضاً : ولم يثبت أنه فلك مستدير مطلقاً ، بل ثبت أنه فوق الأفلاك ، وأن له قوائم ، كما جاء في الصحيحين .

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية : والعرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك ، كما قال تعالى عن بلقيس (ولها عرش عظيم) وليس هو فلكاً ، ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن إنما أنزل بلغة العرب ، فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف المخلوقات أ.هـ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنها أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، وسقفها عرش الرحمن . فقد أخبر أن الفردوس هي الأعلى ، والأوسط ، وهذا لا يكون إلا في الصورة المستديرة ، فأما المربع ونحوه ، فليس أوسطه أعلاه ، بل هو متساو . أفاده ابن تيمية .

٧. أما الجنة فهي في السماء السابعة ، أو فوق السماء السابعة^(١) ، وهي واسعة جداً ، كما قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين) وقال ﷺ : إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض . رواه البخاري

٨. وأما النار فهي في أسفل سافلين ، في الأرض السابعة ، كما ثبتت بذلك النصوص ، قال تعالى (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) قال ابن جرير الطبري : (لفي سجين) وهي الأرض السابعة السفلى ، وهو فعيل من السجن .

(١) وقد اختلف العلماء في ذلك ، بناء على اختلاف الأحاديث والروايات في ذلك ، وفي تحديد موضع سدرة المنتهى ، وهل يلزم أن تكون في الجنة أو لا ؟ وأكثر الأحاديث على أن سدرة المنتهى في السماء السابعة ، وهناك أحاديث تدل على أنها فوق السماء السابعة ، وجاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود أنها في السماء السادسة ، وجاء عن ابن عباس أنها سدرة عظيمة عن يمين عرش الرحمن .

قال ابن حجر في الفتح : وقال القرطبي في (المفهم) : ظاهر حديث أنس أنها في السابعة ، لقوله بعد ذكر السماء السابعة (ثم ذهب بي إلى السدرة) وفي حديث ابن مسعود أنها في السادسة ، وهذا تعارض لا شك فيه ، وحديث أنس هو قول الأكثر ، وهو الذي يقتضيه وصفها بأنها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل ، وكل ملك مقرب ، على ما قال كعب ، قال وما خلفها غيب لا يعلمه الا الله أو من أعلمه ، وبهذا جزم إسماعيل بن أحمد ، وقال غيره : إليها منتهى أرواح الشهداء ، قال : ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع ، وحديث ابن مسعود موقوف ، كذا قال ولم يعرج على الجمع ، بل جزم بالتعارض ، قلت : ولا يعارض قوله إنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة ، لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة ، وأغصانها وفروعها في السابعة ، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها أ.هـ .

وقال النووي : قوله (انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة) كذا هو في جميع الأصول (السادسة) وقد تقدم في الروايات الأخر من حديث أنس أنها فوق السماء السابعة . قال القاضي : كونها في السابعة هو الأصح ، وقول الأكثرين ، وهو الذي يقتضيه المعنى ، وتسميتها بالمنتهى .

قلت : ويمكن أن يجمع بينهما فيكون أصلها في السادسة ومعظمها في السابعة .

وقال ابن رجب : وقول ابن مسعود (أن سدرة المنتهى في السماء السادسة) يعارضه حديث أنس المرفوع من طرقها كلها ، فإنه يدل على أنها في السماء السابعة ، أو فوق السماء السابعة ، والمرفوع أولى من الموقوف .

وذكر آثاراً كثيرة عن الصحابة ومن بعدهم تدل على ذلك .

وقال تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين) وقد اختلف السلف في ذلك , هل المراد الرد إلى أرذل العمر , أو الرد إلى جهنم , ذكر ابن جرير القولين , ثم ذكر آثاراً على كلا القولين , ورجح القول الأول .
وعليه نعلم أن الأرض هي مركز الكون , ثم يبدأ الكون بالاتساع كلما علا وارتفع , حتى يكون عرش الرحمن هو أكبر المخلوقات , وأعلاها , فتبارك الله أحسن الخالقين .

قال ابن كثير : والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن , وهو الضيق , فإن المخلوقات كلما تسافل منها ضاق , وكلما تعالى منها اتسع , فإن الأفلاك السبعة - يقصد السموات السبع - كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه , وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها , حتى ينتهي السفول المطلق , والمحل الأضيئ إلى المركز في وسط الأرض السابعة , ولما كان مصير الفجار إلى جهنم , وهي أسفل السافلين كما قال تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال هاهنا (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين * وما أدراك ما سجين) وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى (وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً) أ.هـ

هذا ما يتعلق بالكون والخلق , وأما العظيم سبحانه وتعالى فهو أعظم وأكبر وفوق ذلك كله , فإن جميع هذه الأفلاك السبعة بما فيها الأرض في كفه كخردلة في يدي أحدنا , فهو محيط بالخلق عالٍ عليه , وهذا مقتضى اسمه (الظاهر الباطن) كما فسره النبي ﷺ بقوله : وأنت الظاهر فليس فوقك شيء , وأنت الباطن فليس دونك شيء .
ومن تعظيم الله أن نقف عند ذلك , كما هو شأن سلفنا الصالح , وأن لا نتكلف ما لا تحيط به عقولنا , كما فعل الجهمية وأضرابهم^(١) .

(١) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩٦/٢٥) : وقد يظن بعض الناس أن ما جاءت به الآثار النبوية من أن العرش سقف الجنة , وأن الله على عرشه , مع ما دلت عليه من أن الأفلاك مستديرة , متناقص , أو مقتض أن يكون الله تحت بعض خلقه , كما احتج بعض الجهمية على إنكار أن يكون الله فوق العرش باستدارة الأفلاك , وأن ذلك مستلزم كون الرب أسفل , وهذا من غلطهم في تصور الأمر , ومن علم أن الأفلاك مستديرة , وأن المحيط الذي هو السقف هو أعلى عليين , وأن المركز الذي هو باطن ذلك وجوفه وهو قعر الأرض هو (سجين) و(أسفل سافلين) علم من مقابلة الله بين أعلى عليين , وبين سجين , مع أن المقابلة إنما تكون في الظاهر بين العلو والسفل , أو بين السعة والضيق , وذلك لأن العلو مستلزم للسعة , والضيق مستلزم للسفول , وعلم أن السماء فوق الأرض مطلقاً لا يتصور أن تكون تحتها قط , وإن كانت مستديرة محيطة , وكذلك كلما علا كان أرفع وأشمل , وعلم أن الجهة قسمان : قسم ذات , وهو العلو والسفول فقط , وقسم إضافي وهو ما ينسب إلى الحيوان بحسب حركته , فما أمامه يقال له (أمام) وما خلفه يقال له (خلف) وما عن يمينه يقال له (اليمين) وما عن يساره يقال له (اليسار) وما فوق رأسه يقال له (فوق) وما تحت قدميه يقال له (تحت) وذلك أمر إضافي .
أرأيت لو أن رجلاً علق رجله إلى السماء ورأسه إلى الأرض , أليست السماء فوقه وإن قابلها برجليه , وكذلك النملة أو غيرها لو مشى تحت السقف مقابلاً له برجليه وظهره إلى الأرض لكان العلو محاذياً لرجليه وإن كان فوقه , وأسفل سافلين ينتهي إلى جوف الأرض .

والكواكب التي في السماء وإن كان بعضها محاذياً لرؤوسنا وبعضها في النصف الآخر من الفلك فليس شيء منها تحت شيء , بل كلها فوقنا في السماء .

ولما كان الإنسان إذا تصور هذا يسبق إلى وهمه السفول الإضافي , كما احتج به الجهمي الذي أنكر علو الله على عرشه , وخيل على من لا يدري أن من قال إن الله فوق العرش فقد جعله تحت نصف المخلوقات , أو جعله فلماً آخر , تعالى الله عما يقول الجاهل .

فمن ظن أنه لازم لأهل الإسلام من الأمور التي لا تليق بالله ولا هي لازمة , بل هذا يصدق الحديث الذي رواه أحمد في مسنده من حديث الحسن عن أبي هريرة , ورواه الترمذي في حديث الأدلاء , فإن الحديث يدل على أن الله فوق العرش , ويدل على إحاطة العرش , وكونه سقف المخلوقات , ومن تأوله على قوله (هبط على علم الله) كما فعل الترمذي لم يدر كيف الأمر , ولكن لما كان من أهل السنة وعلم أن الله فوق العرش , ولم يعرف صورة المخلوقات , وخشى أن يتأوله الجهمي أنه مختلط بالخلق قال هكذا , وإلا فقول رسول الله ﷺ كله حق يصدق بعضه بعضاً , وما علم بالمعقول من العلوم الصحيحة يصدق ما جاء به الرسول ويشهد له .

وبناء على ما سبق نعلم أن قول بعضهم : إن الفضاء غير محدود , وأنه لا نهاية له , كلام خطير , مخالف للنصوص الشرعية , وهو من كلام الملاحدة الذين ينكرون وجود الله , وكذا قول من يقول : إن السماء عبارة عن غازات , ونحو تلك الأقوال التي تدرس لأبناء المسلمين وللأسف .

ونعلم عدم صحة تلك الأرقام الفلكية المتعلقة بالمجرات , فالكثير يذكر عدداً خيالياً من المجرات , فضلاً عن النجوم , فيقولون مثلاً : في مجرة درب اللبانة تجتمع مئات بلايين النجوم , ويبلغ عرض مجرة درب اللبانة ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية تقريباً .
والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة , وتساوي ٩,٦٤ ترليون كم تقريباً ! وقيل (٩,٤٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كلم) .

ويقولون : دلت دراسات العالم البعيد بالتلسكوبات البصرية والراديوية أن في العالم مجرات تعادل على الأقل عدد نجوم درب اللبانة !

وذكروا أن المجرات تصل إلى ملايين المجرات ! وأن بعض هذه المجرات تبعد عن الأرض ١٧ مليار سنة ضوئية !

ولك أن تضرب ١٧ مليار في ٩,٦٤ ترليون كم , لينتج لك بعد تلك المجرة !!

ويقولون : إن بيننا وبين بعض هذه النجوم مسافة لا يقطعها الضوء إلا في ستة بلايين سنة ضوئية , والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر !

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروباً هذا العدد في (

٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من الملايين , وفي كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم , أو أكثر , أو أقل ,

ويقدر أن أقرب مجموعة من النجوم وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزاً مداه ألف سنة ضوئية , ونحن سكان الأرض نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية , وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة .

وقال صاحب كتاب (الإعجاز الإلهي) : من المعجزات الإلهية الكثيرة الموجودة في أجواء الفضاء ما اكتشفه العلماء في الآونة

الأخيرة , لقد اكتشفوا بوسائلهم العملاقة المتطورة مجرتين هائلتين متقاربتين من بعضهما بعضاً , كل منهما صنو للآخر , أو

نسخة طبق الأصل عنه , ولا يختلفان عن بعضهما في شيء , علماً أن في كل منهما مليارات المجموعات الشمسية التي تعدّ

مجموعتنا بالمقارنة بها كذرة غبار متناهية في الصغر في كون فسيح مترامي الأطراف !

ويعتقد بعض الفلكيين بأن الكون قد بدأ منذ ما بين عشرة أو عشرين بليوناً من السنين بانفجار يعرف بالانفجار العظيم .

وكل هذا خرس وخيال (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ومثل هذه التقديرات وأعظم ليست كبيرة على قدرة الله سبحانه ,

ولكن ما جاءنا عن طريق الوحي يبطل هذه المبالغات , فقد تضافرت الأحاديث على أن بين الأرض والسماء الدنيا مسيرة

خمسائة عام , وأين هذه المسافة من ما ذكر قبل ؟!

وقد ذكر ابن جرير في تفسيره الخلاف في قوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فقال : واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله (ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فقال بعضهم : معناه أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض ، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد ، وقدر ذلك ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا ، لأن ما بين الأرض إلى السماء خمسمائة عام ، وما بين السماء إلى الأرض مثل ذلك ، فذلك ألف سنة . ثم ذكر بسنده من قال بذلك من السلف ، ومنهم : مجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

ثم ذكر باقي الأقوال ، ورجح هذا القول بقوله : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : معناه : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم ، كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم ، خمسمائة في النزول ، وخمسمائة في الصعود ، لأن ذلك أظهر معانيه ، وأشبهها بظاهر التنزيل . أهـ فلو فرضنا أن مسيرة اليوم الواحد تقدر بـ (٤٥ كم) تقريباً ، لكانت مسافة ما بين الأرض والسماء (٨١٠٠٠٠٠ كم) تقريباً ، وهو ما يعادل بحساب السنة الضوئية عند القوم (أقل من نصف دقيقة) تقريباً ^(١) !!!

ولك أن تقارن بين نصف الدقيقة ، وبين ملايين ومليارات السنوات المزعومة . ثم إن هذه التقديرات لم تأت عن علماء المسلمين المحققين - وقد كان لهم عناية فائقة بعلم الفلك في بعض العصور - وإنما هي من حثالات الكفار والملاحدة ، ومع الأسف أن يتلقاها المسلمون كالمسلمات العلمية ، ويتناقلها المتأخرون ويثبتونها في الموسوعات العلمية ، وكتب الإعجاز العلمي ، والمناهج المدرسية ، بل حتى في كتب التفسير والعقيدة . ففي كتاب العلوم للصف الرابع الابتدائي لمناهجنا الدراسية : شمسنا مثلاً عمرها حوالي ٥ بلايين عام ، ويعتقد العلماء أنها ستتوهج ٥ بلايين سنة أخرى !

وفي كتاب العلوم للصف الأول متوسط : عندما تنظر إلى نجم فإن ما تراه إنما هو في الواقع الضوء الذي انطلق من هذا النجم قبل عدة سنوات ! ومع أن الضوء يسير بسرعة كبيرة جداً ، فإن المسافات بين الأجرام في الفضاء هائلة الاتساع إلى درجة أن ضوء بعض النجوم قد يستغرق ملايين السنين حتى يصل إلى الأرض !

وفي نفس الكتاب : اعتقد القدماء لفترة طويلة أن سطح القمر أملس ، حتى اكتشف جاليليو جاليلي قبل ٤٠٠ سنة بالنظر إلى القمر من خلال تلسكوبه غير ذلك . شاهد جاليليو على القمر مناطق جبلية كبيرة ، وكثيراً من الفوهات . كما شاهد مناطق منبسطة قائمة اللون ، تدعى المناطق الجبلية على القمر (مرتفعات القمر) وعمرها ٤,٥ بليون سنة ...! ^(٢) وفيه : ويصل عمر بعضها - يعني النيازك - إلى ٤,٥ مليار سنة .

وفيه : تبدأ حياة النجوم من سحابة كبيرة من الغازات والغبار ، حيث تؤدي قوة الجاذبية إلى انكماش مادة هذه السحابة ، ويؤدي هذا الانكماش إلى رفع درجة الحرارة والضغط ، مما يسمح باندماج الذرات في النجم ، وعندها يصبح حقيقياً يشع طاقته من تفاعلات الاندماج النووي .

(١) فلو ضربنا (٤٥ كم) في (٣٦٠ يوم) في (٥٠٠ عام) لكان الناتج (٨١٠٠٠٠٠ كم) تقطع في (٥٠٠ عام) .

والثانية في حساب السنة الضوئية تقطع عندهم (٣٠٠٠٠٠ كم) فلو ضربنا (٣٠٠٠٠٠) في (٦٠ دقيقة) لكان الناتج (١٨٠٠٠٠٠٠ كم) تقطع في الدقيقة ، ولو قسمناها على (٢) لكان الناتج (٩٠٠٠٠٠٠ كم) تقطع في نصف دقيقة .

(٢) هل هناك أكبر من هذا الخرص والدجل ؟ نظر بتلسكوبه فقدر مرتفعات عمرها ٤,٥ بليون سنة ...! ، وهذا قبل تطور الأجهزة .

وفيه : وسوف تصبح الشمس عملاقاً أحمر بعد ٥ مليارات سنة ، وسوف تتضخم لتصل إلى مدارات عطارد والزهرة ، وربما الأرض ، ستبقى الشمس في هذه المرحلة ما يقارب مليار سنة ، ثم تفقد غلافها الخارجي فينكمش اللب ، ويصبح نجماً قزماً أبيض في البداية ، ثم يبرد ليصبح قزماً أسود !!! أي هراء هذا يدرس لأبنائنا !؟

وفيه : مجرة درب التبانة التي نعيش فيها ، وهي مجرة حلزونية ضخمة ، تحتوي على مئات بلايين النجوم مثل الشمس ، تدور جميعها حول مركز المجرة الذي تكمل الشمس دورة كاملة حوله كل ٢٢٥ مليون سنة .

فالمنبغي على المسلمين التحقيق في علوم الكفار ، وعدم التسليم المطلق لها ، وكم يعجب المرء من التقديرات الفلكية لعمر مخلوقات الأرض ، من الجبال ، والتربة ، وغير ذلك .

وكيف نسلم لهم بأن البترول هو بقايا مخلفات حيوانية وغيرها قبل آلاف السنين .

وقد كان الناس في زمن مضى يؤمنون بنظريات في الخلق ، والفلك ، وغير ذلك ، ويعتقدونها قطعية ، لأن من قال بما وروج لها هم أرباب الفكر ، وقادة المعرفة ، كأرسطو وغيره ، وله من الكلام في النجوم ما يضحك منه الأطفال ، وما نظرية أصل الإنسان ، وتطور خلقه بخافية .

ومن النظريات المغلوطة حول خلق الإنسان : أن الإنسان يخلق من دم الحيض ، كما كان يقول أرسطو ، وانتشر هذا القول بعده كالمسلمة العلمية .

فبين القرآن أن خلق الإنسان من نطفة أمشاج ، وهي الخلية الملقحة من ماء الرجل وماء المرأة ، قال تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) .

كما كان هناك خلاف بين طائفتين ، طائفة تقول إن الإنسان يوجد قزماً في ماء الرجل ثم يكبر ، والطائفة الأخرى تقول إنه يوجد قزماً في ماء المرأة ، فبين القرآن أن خلق الإنسان يمر بمراحل ، ولا يوجد دفعة واحدة ، لا كما كان يُعتقد ، قال تعالى (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) .

وينظر تفضلاً الكتاب المانع (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) للدكتور : محمد على البار .

ولعله إن طال الزمن تأتي أجيال تضحك من عقول انطلى عليها مثل هذا الهراء .

ولكن صدق ابن تيمية حين قال : المستكبر عن الحق يُبتلى بالانقياد للباطل .

وقد قال تعالى (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً) وهذه الآية لها تفسير لخصه ابن كثير بقوله : يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبید أمثالكم ، لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلقي للسماوات والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ، ومدبرها ، ومقدرها وحدي ، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير أ.هـ.

ولكن أشار بعض أهل العلم إلى أنه يدخل في الآية كل تخرص يذكر في الخلق ، لأن هؤلاء المتخرصون لم يشاهدوا خلق السماوات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وإنما يضلون الناس بتلك التخرصات ، ولذا قال (وما كنت متخذ المضلين) .

قال القرطبي : وقيل : الكناية في قوله (ما أشهدتهم) ترجع إلى المشركين ، وإلى الناس بالجملة ، فتضمن الآية الرد على طوائف من المنجمين ، وأهل الطبائع ، والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من يتخوض في هذه الأشياء .

وقال ابن عطية : وسمعت أبي رضي الله عنه يقول : سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدي بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقلي يقول هذا القول ، ويتأول هذا التأويل في هذه الآية ، وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين . قال ابن عطية : وأقول : إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذريته ، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة ، وعلى الكهان ، والعرب المعظمين للجن ، حين يقولون : أعوذ بعزير هذا الوادي ، إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته ، وهم أضلوا الجميع ، فهم المراد الأول بالمضلين ، وتندرج هذه الطوائف في معناهم .

قال الثعلبي : وقال بعض أهل العلم (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) رد على المنجمين أن قالوا : إن الأفلاك تحدث في الأرض ، وفي بعضها في بعض ، وقوله (والأرض) رد على أصحاب الهندسة حيث قالوا : إن الأرض كرية ، والأفلاك تجري تحتها ، والناس ملصقون عليها وتحتها ، وقوله (ولا خلق أنفسهم) رد على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هي الفاعلة في النفوس أ.هـ

وقال شيخنا ابن عثيمين : قوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) يعني أن هؤلاء الذين اتخذهم الناس أولياء من دون الله ليس لهم حق الكون والتدبير ، فالله عز وجل ما أشهدهم خلق السماوات والأرض ، لأن السماوات والأرض مخلوقتان قبل الشياطين (ولا خلق أنفسهم) يعني ما أشهدت بعضهم خلق بعض ، فكيف تتخذونهم أولياء ، وهم لا شاركوا في الخلق ، ولا خلقوا شيئاً ، بل ولا شاهده ، وفي هذه الجملة دليل على أن كل من تكلم في شيء من أمر السماوات والأرض بدون دليل شرعي أو حسي فإنه لا يُقبل قوله ، فلو قال : إن السماوات تكونت من كذا ، والأرض تكونت من كذا ، وبعضهم يقول : الأرض قطعة من الشمس ، وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا دليل على صحته .

فإننا نقول له : إن الله ما أشهدك خلق السماوات والأرض ، ولن نقبل منك أي شيء من هذا ، إلا إذا وجدنا دليلاً حسياً لا مناص لنا منه ، حينئذ نأخذ به ، لأن القرآن لا يعارض الأشياء المحسوسة أ.هـ

وفي الفتوى رقم (٢١٧١٢) من فتاوى اللجنة الدائمة :

س : أرفق لكم بطيه صورة لنجم انفجر في الفضاء ، وبيننا وبينه ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، وصورة هذا الانفجار من النجم أصبح وكأنه وردة حمراء ، ومكتوب تحت هذه الصورة الآية (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَإِذَا آتَىٰ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) ومكتوب ترجمة معانيها باللغة الإنجليزية ، ومكتوب تعليق آخر على هذه الآية باللغة الإنجليزية (انظر كيف نحن الآن في عام ٢٠٠٠ م) والقرآن قد أخبر بها قبل ١٤٠٠ سنة هجرية مضت ، والصورة مأخوذة من (ناسا هبل للفضاء والمرصد) وعبر اللافط (نيبولا) وهو النجم المتفجر ثلاثة آلاف سنة ضوئية مضت ، والأفضل أن يسموها (الوردة الحمراء الزيتية كما قال الله سبحانه في القرآن في سورة الرحمن) انتهى ترجمة كلامهم باللغة الإنجليزية .

وسؤالي هو : ما تفسير الآية ، وما المقصود منها ، لأن هذه الصورة أحضرت في محاضرة باللغة الإنجليزية لأحد الدعاة وهو يظهر هذه الصورة ويشرح عليها للمسلمين وغير المسلمين ، ويتحدث عن معجزة القرآن في ذلك ، وهذه المحاضرة كانت في جاليات الخبر بالمنطقة الشرقية ؟ وجزاكم الله خيراً .

ج : ما ذكر في هذه الورقة هو من القول على الله بغير علم ، ومن تفسير القرآن الكريم بغير تفسيره ، لأن المراد بالآية المذكورة ما يكون عند قيام الساعة من انشقاق السماء ، وليس المراد ما يحصل الآن من تغيرات في النجوم ورمي الشهب . والله أعلم . وبالله التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو ... عضو ... عضو ... الرئيس

بكر أبو زيد ... صالح الفوزان ... عبد الله بن غديان ... عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ

وبهذا يكون هذا الشرح قد تم ، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده

وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان ، والله ورسوله منه بريئان

أسأل الله أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد

وعلى آله وصحبه

أجمعين

للمراسلة ، والملاحظات بريد الابن تميم الجهني tamim7938@gmail.com